صحابة عظماء

لم تسلط عليهم الأضواء

الطبعة الأولى ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الزيني، حامد
صحابة عظماء لم تُسلَّط عليهم الأضواء
تأليف حامد الزيني، تقريظ محمد يسري إبراهيم
القاهرة، دار اليسر ٢٠٢١م.
٤٨٠ص، ١٧ × ٢٤سم.
تدمك ٩٧٨٩٧٧٧٩٤٠٨٣٢
١ – الصحابة والتابعون - تراجم
أ - إبراهيم، محمد يسري (مقرظ).
ب - العنوان
٩٢٢،٣٩٩

٢٠ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة، الحي الثامن
مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية
تليفون: ٠٢ ٢٤٧١٤٨٠١ محمول: ٠١٠٦٢٢٧٦٢٠٨
خدمة عملاء: ٠١١١٨٠٠٦٠٦٠

www.dar-alyousr.com
Email: alyousr@gmail.com
info@dar-alyousr.com








عضو اتحاد الناشرين المصريين

رقم الإيداع
٢٠٢٠/٢٠٨٥٧

ترقيم دولي
978-977-794-0583-2



9 789777 940832

صحابة عظماء

لم تسلط عليهم الأضواء

تأليف

حامد الزيني

تقريظ

فضيلة الشيخ الدكتور

محمد يسري إبراهيم




بسم الله الرحمن الرحيم

شكرٌ وإهداء

قال ربي جَلَّ في علاه: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

فأبدأ بشكر ربي وحبيبي سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فما من نعمة بي إلا منك وحْدك يا وَدود؛ فلك الحمد، ولك الشكر.

أحمَدك وأشكرك يا مَنْ ألهمتني مادة هذا الكتاب، وأعنتني على إتمامه وإخراجه، فما الهداية إلا منك، وما توفيقي إلا بك.

ومن شُكر الله جَلَّوَعَلَا: أن أتقدم بالشكر الجليل لأصحاب الفضل والجميل من العلماء والدعاة والإخوة الكرام الذين منحوني من وقتهم وجهدهم، وأعطوني- بكل حُب وصدق وإخلاص- من علمهم ونصحهم حتى خرج هذا الكتاب بالصورة التي بين أيدينا الآن، فقد قال نبينا ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ الله**»[(١)]، ووالله مهما قلت، أو فعلت فلن أوفيهم حقهم، فلا أملك إلا أن أقول لهم: جزاكم الله في الدنيا والآخرة خيرًا؛ عملًا بقول نبينا ﷺ: «**مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»[(٢)]، وبقوله ﷺ: «**مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٨٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٤١).
(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٢١).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٣٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٦٨).

ثم أهدي هذا الكتاب لأبي وأمي، وزوجتي وأبنائي، وأخي وأختي، وأقاربي وأرحامي، وصُحبتي ورفقة دربي، وشيوخي وأساتذتي، وللناس أجمعين، وأسأل الله أن ينفعني وإياكم بما فيه.

وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد

والحمد لله ربِّ العالمين

كتبه

حامد الزيني

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ

فضيلة الشيخ الدكتور

محمد يسري إبراهيم

الحمد لله ربِّ العالمين، له الحمد كله، وله الفضل كله، وإليه يرجع الأمر كله، علانيته وسره، والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على هادي البشرية وحاديها إلى الصراط المستقيم وجنة رب العالمين، نبينا محمد البشير النذير، والسراج المنير، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الغرِّ الميامين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الفرض على كل مسلم معرفة الله بتوحيده، وعبادته تعالى وتمجيده، واتباع سنة نبيه ﷺ في جميع أمره، تحكيمًا لشرعه، واستسلامًا لوحيه، وولاءً لدينه وأهله، وبراءً من عدوه وحزبه، ولا يتحقق هذا الامتثال إلا بالمثال.

والمثل الكامل والجيل الفاضل هم نقلة الوحي وحملة السنة، وهم الذين بلَّغوا الدعوة، وأقاموا في الأرض الحق، وهدى الله بهم الخلق، ووطَّد بهم أركان دولة الإسلام، إمارة وقيادة، وعلمًا وزهادة، وخلقًا وعبادة!.

فلا ينفك مسلم في مشارق الأرض ومغاربها إلا وللصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في عنقه منَّة، ولا يخلو مكان دخله الإسلام إلا وللصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لهم فيه بصمة، ولم ينقرض جيل الصحابة وزمانهم حتى أدخل الله الإسلام كل مصر، وكتب الله لدعوتهم القبول، ولدولتهم النصر!.

وقاد ذلك الجيل الفريد البشرية إلى سعادة الدنيا والآخرة، فكانوا رحمة وهداية، ونعمة وسلامًا!.

وفي ظلال الصحابة تربى التابعون، وعلى موائدهم نهلوا من العلوم والآداب، فامتدت مساحة الخير، وانتشرت رقعة الفضل، ومازال ذلك المثال قائمًا في ذهن الأجيال، حتى غلب على الأمة أعداؤها، فطمسوا قيمة القدوة تارةً، وحرفوها تارةً أخرى، وسعوا بجهدهم لقطع الأمة عن هدي أصحاب نبيها ﷺ، وتغييب الناشئة عن سير الأعلام، واستبدلوا لدى الشباب التافهين الغافلين بالقدوات الصالحين، حتى غدا من أبناء المسلمين من لا يعرف الخلفاء الراشدين، ولا يتمكن مِن عدِّ العشرة المبشرين، ولا يدري شيئًا عن أمهات المؤمنين!.

ومع طلائع التجديد الإسلامي والبعث الإيماني المعاصر قام الدعاة بجهد جهيد في إعادة الاعتبار للصالحين الأخيار، وتذكير الأبناء والبنات والأسر والعائلات بالقدوات التي رضي الله سيرتها، وأثنى النبي ﷺ على مسيرتها، وتفيأ العالم ظلال دعوتها وانتفع بثمار رسالتها!.

وتعددتِ الجهود التي ذكَّرت الناشئة في هذا الزمان بصور من حياة الصحابة والتابعين، وبرجال ونساء حول الرسول الكريم ﷺ، وبتقريب لسير أعلام النبلاء، وتعريف بفضائل خير القرون من المهاجرين والأنصار، واستعاد المجتمع المسلم شيئًا من ذاكرته المفقودة، وأصبح يتلمس طريقه إلى عزته وحضارته، ويستلهم من ذلك الجيل قدوته وأسوته.

ولما كان طريق الحياة ابتلاءً واختبارًا فقد ابتُليت الأمة أمس واليوم بمن يطعن ويشوه، ويكذب ويفتري، بل ويفسق ويكفر أصحاب نبينا ﷺ! وهوالمنكر الشديد والانحراف البعيد، فكان لزامًا على كل مسلم أن يذبَّ عن أعراضهم، ويدفع عن أقدارهم، ويكفَّ لسانه عما شجر بينهم.

وأقرب طريق للاقتداء والاهتداء، وللمنافحة ورد الاعتداء أن يتدارس المسلمون سيرهم، وأن يتعرفوا أحوالهم، مبتدئين بالكبار المشهورين من المهاجرين والأنصار، والرجال والنساء، ثم يعرِّجون على غيرهم من الذين كُتبت سيرتهم بأحرف من الضياء والسناء، ولكن لقلة العلم واتساع دائرة التجهيل لم تنتشر قصصهم، ولم تُعرَف أخبارهم!.

لذلك كله فإن هذا العمل الذي نطالعه جهد مما يتميز في هذا الباب، يقلب الصفحات، ويبحث عن القدوات، ويعرِّف بغير المشهورين من الصحابة الأكرمين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وهو يشد أبناء الزمان إلى ذلك الرعيل، ويؤكد بعبارة رشيدة وبمنطلقات سديدة خيرية القرن الأول بالمشهورين والمغمورين، ومما تميز به هذا العمل: الحرص على التوثيق، والبحث عن المواقف المؤثرة وخدمتها بالشرح والتعليق، وقد أتى الشيخ حامد الزيني بما يحمد عليه من ذكر سيرة سبعة وثلاثين صحابيًّا، زيَّن بهم كتابه، فجاء- بحمد الله- تحفةً للمحبين لأصحاب النبي الأمين، وقذًى في أعين المخالفين والمنحرفين.

فاللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تجمعنا بأصحاب نبينا في عليين، وأن تجبر ما نقص من أعمالنا بما زاد من حبنا لهم أجمعين، وأن تجعلنا من التابعين لهم بإحسان، فرضيت عنهم وأرضيتهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠].

كتبه

أبو عبد الله

محمد يسري إبراهيم

الدوحة ١٣ / ٨ / ١٤٤١هـ

مُقدِّمةُ المُصنِّفِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا الأمين، وعلى آل بيته الطاهرين، وصحابته الأكرمين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فمنذ أنْ حَبَّبَ اللهُ ﷻ إليَّ القراءة شغفْتُ بسِيَرِ الأنبياء والمرسلين، فأبحرتُ في حياتهم، وتأثرت جدًّا بطريقة القرآن الكريم في عرض قصصهم التي تحوي في طياتها عِبَرًا لأولي الألباب، حتى رَسَا بي قاربي على شاطئ حياة نبيِّنا وحبيبنا محمد ﷺ، فنزلتُ لأطوف في بُستانها، فشممت فيه عبيرًا أخَّاذًا، فتعايشتُ بوجداني مع ليلها ونهارها، وتأثرتُ بأحداثها، وذُقْتُ فيها طَعمًا لا يَعرِفُ لذَّته إلا من ذاقه.

وهناك- وأنا أطوف في بستان سيرته ﷺ- تعرَّفت على أصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الذين كانوا في هذا البستان كزهور باهرة الجمال، ناطقة بأروع معاني الكمال، وما رأيتُ لنبيٍّ من الأنبياء صُحبةً كهؤلاء في حُبهم وإخلاصهم لنبيِّهم ﷺ، وتعظيمهم لأمره ونهيه، والتضحية من أجله، ونُصرة دينه... إلى غير ذلك من روائع الخِلال، فتعلقت بهم بشدةٍ، وأحببتُهم حُبًّا يعجز التعبير عن وصفه، ورسمتُ لهم في خيالي صُورًا وأشكالًا.

ثم أخذ ذلك يَحْدُو بي نحو التعمُّق في سِيَرهم فردًا فردًا، فتعايشت مع حياة الكثيرين منهم، من حين مولدهم، أو منذ ظهورهم في ساحة الرسول ﷺ إلى أن يقف القطار بي في محطته الأخيرة عند وفاتهم، فرأيت في هذه الرحلات سماحةً تكسوها عظمة، ولِينًا يتولَّدُ من شدَّة، ورِقَّةً تتمخَّضُ من قوة، ورحمةً ممزوجةً بحِكمة، وزُهدًا غير مُصْطنع ولا مُتَكَلَّف، وأخْتَصِرُ فأقول: رأيت مِثاليَّةً في واقعيَّة.

ووجدتُ في هذا القصص الحقِّ مواقفَ لهؤلاء العظماء تُذْهلُ العقول، هي في جمالها وروعتها أشبه بما يقرؤه الناس في الأساطير، إلا أنها لم تكنْ حديثًا يُفترى، أو حكايات تُخْتلق من نَسْج الخيَال، بل لو أراد الخيال نَسْجَ بعضها ما استطاع؛ فإن الواقع الذي صنعوه كان مَدَاه أوسع من الخيال.

إنَّهم جيلٌ من العمالقة العظماء، اصطفاهم اللهُ لنصرة دينه، فصَنَعَهُم على عينه في مدرسة النبوة، وكَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ، وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنهُ، فكانوا خير عَون لنبيهم ﷺ حتى لحِق بربِّه ﷻ، ثم حَمَلوا الرسالة من بعده، وطافوا بها يَخُدُّونَ الأرضَ خَدًّا في الأقطار والأمصار حتى بَلَغَ الدِّينُ ما بَلَغَ الليلُ والنهار.

والمؤسف بعد كلِّ هذا أنَّ مُسْلم هذا العصر- إلا مَنْ رحِم اللهُ- ترك كل هذا وذهب يَنبهر بشخصياتٍ لم يُقدِّموا للدنيا إلا التفاهات، ولم يَعرف عن هؤلاء الأكابر الذين حثَّ الشرعُ على اقتفاء آثارهم إلَّا معلوماتٍ سطحيةً عن بعض المشهورين منهم، ولا شك أنها حالة من الانهزامية يعيشها المسلمُ المعاصر، أو هو تَغْييبٌ مقصودٌ وراءه أيادٍ ليست خفيَّة تصرفه عن معرفة أبطال أمته الحقيقيِّين.

فالقومُ يَخْشَوْنَ انتفاضةَ دِينِنا ... بَعْدَ الجُمُودِ وبَعدَ نَوْمِ قُرُونِ
يَخشونَ يَعْرُبَ أنْ تَجُودَ بخالدٍ ... وبكُلِّ سَعْدٍ فاتِحٍ مَيْمُونِ
يخشون إفريقيا تجُود بطارقٍ ... يخشون كُرْدِيًّا كَنُورِ الدِّينِ
يخشون دينَ اللهِ يَرجِعُ مَصدرًا ... للفكر والتوجيه والتَّقْنينِ[١]

من أجل ذلك عزمتُ مستعينًا بالله جَلَّوَعَلَا أن أُسَلِّطَ الأضواء على بعض أبطال جيل الصحابة العظماء الذين لم يُشتهروا في الأنحاء.

---

(١) الأبيات من قصيدة: (الملحمة النونية)، من ديوان: نفحات ولفحات، د. القرضاوي (ص١١٦).

وقد سعيتُ قَدْرَ استطاعتي أن أجمع روايات هذه القصص والتراجم من كتب الحديث لتوثيق الوقائع والأحداث، ولم يكنِ اعتمادي الأول على ما جاء في كتب التاريخ والسيَر والتراجم، ومتى لم أجد ما أريده في كتب الحديث ذهبت إلى كتب التراجم المعتمدة، أو كتب السيرة المُحَققة، أو كتب التاريخ التي نقل فيها علماء أهل السُّنة الرواية بالسند، قبل غيرها من المصادر، ثم عَزَوْتُ كل المواقف والأحداث إلى مصادرها.

وفي كثير من الأحيان أجد في الموقف الواحد العديد من الروايات التي تختلف ألفاظها ويُكَمِّلُ بعضُها بعضًا، فأقوم بجمع هذه الروايات، ثم دَمْجِها وجَعْلِهَا في سياق واحد ليزداد الموقفُ بيانًا ووضوحًا، وتكتملَ صورةُ الحَدَثِ في عين القارئ، ثم أذهب إلى الهامش فأعْزو روايات الموقف بالجملة إلى مصادرها، فمثلًا: إن كان مُؤلفًا من روايتين في الصحيحين قلت: ينظر: البخاري رقم كذا، ومسلم رقم كذا.

ولقد قدَّمْتُ قبل ذكر تراجم الصحابة بعض فضائلهم التي شهد بها القرآن الكريم ودوَّنتها كتب السُّنة الشريفة، ثم ذكرتُ بعض السِّمات العامة لجيل الصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

وما وجدتم في هذا الكتاب من سدادٍ فمن الله العظيم وحده، وما وجدتم فيه من خطأ، أو زَلَلٍ، أو نسيان فمني ومن الشيطان، فلقد أبَى الله جل جلاله أن يجعل كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إلا كتابه العزيز الحكيم.

وإني لأرجو الله ربِّي أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يتقبله، ويضعَ له القبول، وأن ينفع به الناس أجمعين.

وَمَا توفيقي إِلَّا بِالله عَلَيهِ توكلت وَإِلَيهِ أنيب

كتبه

حامد الزيني

في صباح الثلاثاء ٧ شعبان ١٤٤١هـ

٣١ مارس ٢٠٢٠م

مِن فضائلِ الصَّحابةِ

يكفي الصحابةَ فخرًا وشرفًا: أن فضائلهم قد شَهِدَ اللهُ ربُّ العالمين بها في كتابه العزيز، وهي شَهَادةٌ لا تساميها شهادةٌ أبدًا، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، فكفى بالله شهيدًا.

ولنبدأ بالشهادة الإلهية الكبرى لهم بالإيمان، وذلك في قوله تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]، وقد سمَّاهم اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالمؤمنين في غير ما آية من قرآنه العظيم، مثلما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وكذلك من جُملة فضائلهم التي شهد الله بها: شهادتُه جَلَّ وَعَلَا بأنهم أهل التقوى، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

وكذلك شهادته سبحانه باصطفائهم لنصرة دينه وتأييد رسوله ﷺ، كما في قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

وما أجمل ثناءه جَلَّ وَعَلَا عليهم في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً

مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ٨- ١٠].

وما أروع شهادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم بحُسْن نيتهم، وصدق سَريرتهم، وإخلاص عبادتهم ابتغاءَ رضوان الله وحده، كما في قوله الكريم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]؛ لذلك أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برضاه عنهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وتاب عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

ولقد شَهِدَ الله ﷻ لهم بالجنة في عدد من آيات قرآنه العظيم، كما في قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٨- ٨٩]، وكذلك في قوله الكريم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وفي قوله تعالى لهم: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

ولم يَنْحَصِرْ مَدْحُ الله تعالى لهم في القرآن فحَسْب، بل ضرب الله بهم المثل للأمم السابقة في كتبهم، وعدد لهم فضائلهم وشمائلهم، وقد ذكر القرآن وصفهم في التوراة والإنجيل في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا

﴿سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

ولقد وضع القرآن على صدورهم وصدور من سار على نهجهم وسام شرف يُفْتَخَرُ به بين الأمم، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن أعظم مناقبهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا أوْصَى نبيَّه ﷺ أنْ يَصْبرَ نفسه معهم، وألَّا يُفارق صُحْبتهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فكان النبيُّ ﷺ بعدها يقول لهم: «**الْحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ**»[١].

ولعظيم قَدْرِهِم عند الله كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدافع عنهم، ويغضب لغضبهم، ويسخر ممن سخر منهم، وإليك بعض ما يُبيِّنُ ذلك.

فقد روى مسلمٌ وغيره عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ المشركين أَتَوا النبيَّ ﷺ وقد أرادوا أن يخلوا به، فوجدوه ﷺ جالسًا في جماعة من أصحابه، فقالوا: يا مُحَمَّد، اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا، فأنزل الله جَلَّ وَعَلَا من السماء على رسوله ﷺ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنعام: ٥٢][٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٦)، والطبراني في الأوسط (٨٨٦٦)، وقال الهيثمي - في المجمع (١٠٩٩٨)-: رجاله رجال الصحيح.

(٢) ينظر: صحيح مسلم (٢٤١٣).

ولما نقضت قريشٌ صلحَ الحديبية مع النبيِّ ﷺ، جاء أبو سفيان بنُ حرب إلى المدينة ليعتذر ويجدد الصلح مع رسول الله ﷺ، فأبى النبيُّ ﷺ ذلك؛ لأن قريشًا قد تعدت وطغت، فمَرَّ أبو سفيان بعد خروجه من عند رسول الله ﷺ على جماعة من الصحابة فأسمعوه ما يكره، وذلك حين قالوا: وَاللهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَأْخَذَهَا، فلما رأى أبو بكر أبا سفيان مُنْكسرًا أراد أن يتألف قلبه رجاء أن يُسلم، فقال لأصحاب رسول الله ﷺ: «أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟!»، ثم أتى أبو بكر النبيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بما كان منه، فَقَالَ ﷺ له: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ**، فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهْ، أَغْضَبْتُكُمْ؟ فَقَالُوا رَضِيَ اللهُ عَنْهُم: لَا يَا أَبَا بَكْرٍ، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ»[١].

وقبل غزوة تبوك- في السنة التاسعة على وجه التحديد- حَثَّ النبيُّ ﷺ أصحابه على الصدقة، فضرب أغنياء الصحابة مثالًا رائعًا في البذل والعطاء، وقَدَّمَ فقراؤهم صورةً مُشَرِّفَةً في التضحية والفداء، ومع ذلك لم يَسْلموا جميعًا من ألسنة المنافقين، فكانوا إذا جاء الغنيُّ بِالصَّدَقَةِ الْعَظِيمَةِ سَخِرَ المنافقون، وقالوا: مُرَاءٍ، وإذا جاء الفقيرُ بما في وسْعِه سَخِروا منه، وقالوا: إِنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنْ صدقة هَذَا!، فأنزل الله قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة يدافع فيه عن أوليائه الصالحين، ويَسْخَرُ من المنافقين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: ٧٩][٢].

فهم جيل صنعه الله على عينه، وحَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِهِم، وأَلْهَمَهُم رشدهم، فاسْمَع معي إلى قوله تعالى لهم: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ

(١) ينظر: صحيح مسلم (٢٥٠٤)، ومسند أحمد (٢٠٦٤٠)، والمعجم الكبير، للطبراني (٢٨).
(٢) ينظر: صحيح البخاري (١٣٩٤).

ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧-٨].

وهذا الذي ذكرته لم يكن إلا قبسات جمعتها بين يدَي القارئ الكريم من فضائلهم العديدة التي سجلها القرآن، وتبقى في كتاب الله آيات كثيرة تُصرِّحُ بفضيلتهم وتُشير إلى كرامتهم في الدنيا والآخرة، وما ذكرتُها خشية الإطالة.



تَزْكِيةُ النبيِّ ﷺ للصَّحابةِ رضي الله عنهم

وأما الأحاديث النبوية التي تشهد بفضائلهم وتَزْكية النبيِّ ﷺ لهم فهي كثيرة جدًّا، والمتأمل فيها سيرى بوضوح عظيمَ قَدْرِهم، ومَدَى حُبِّ النبيِّ ﷺ لهم.

وأول شهادة نبوية في حقهم نبدأ بها هي قوله ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**»[1]، فهم خير الناس عند الله بعد الأنبياء والمرسلين.

وقد سُئِلَ النبيُّ ﷺ: «يَا رَسُولَ الله، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: **أَنَا وَمَنْ مَعِي**، فَقِيلَ لَهُ: ثم مَنْ يَا رَسُولَ الله؟، قَالَ: **ثم الَّذِينَ عَلَى الْأَثَرِ**»[2].

بل وأخبر النبيُّ ﷺ: أن من جاء بعدهم مهما عملوا من الصالحات لن يبلغوا منزلتهم، وذلك في قوله ﷺ: «**دَعُوا لِي أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنْفَقْتُمْ مِثْلَ أُحُدٍ**- أو: **مِثْلَ الْجِبَالِ- ذَهَبًا مَا بَلَغْتُمْ أَعْمَالَهُمْ**»[3]، وفي لفظ: «**فَوَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ**»[4].

وأخبر ﷺ: أنَّ الله تعالى اختارهم واصطفاهم لصحبة نبيِّه ﷺ ونُصرة دينه، وذلك في قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعالَى اخْتَارَنِي وَاخْتارَ لِي أَصْحَابًا، وَجَعَلَ لِي مِنْهُمْ وُزَرَاءَ وَأَنْصَارًا وَأَصْهَارًا**»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٨٤٨٢)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٨٣٩).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٨٣٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٩٢٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٧٠).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٤٩)، والحاكم في المستدرك (٦٦٥٦)، وقال: حديث صحيح، ووافقه الذهبي.

وأخبر ﷺ: أن بقاءهم في الأمة بعده بمثابة صمام أمان لها من كل ما يفسد على الناس دينهم ودنياهم، وذلك في قوله ﷺ: «**النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ**»[(١)].

وأخبر ﷺ: أن الأمة من بعده ستُنْصَرُ بهم، ومَنْ بعدَهم سيُنْصرون ببركة صُحبتهم لهم، وذلك في قوله ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيَقُولُونَ: فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ رَسُولَ الله ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثم يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ**»[(٢)].

لذلك كان ﷺ يقول: «**لَا تَزَالُونَ بِخَيْرٍ مَا دَامَ فِيكُمْ مَنْ رَآنِي وَصَاحَبَنِي، وَاللهِ لَا تَزَالُونَ بِخَيْرٍ مَا دَامَ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ رَآنِي، وَصَاحَبَ مَنْ صَاحَبَنِي**»[(٣)].

ويكفي الصحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فخرًا قولُ النبيِّ ﷺ لهم: «**أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ**»[(٤)].



---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٤٩)، ومسلم (٢٥٣٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٢٤١٧)، وحسَّنه ابن حجر في الفتح (٧/٥)، والألباني في الصحيحة (٣٢٨٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٧٦)، ومسلم (٩٤٩).

وصِيَّةُ النبيِّ ﷺ بأصحابهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

وقد أوْصَى النبيُّ ﷺ الأمة بأصحابه خيرًا، فقال ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِأَصْحَابِي خَيْرًا**»[(١)]، وفي لفظ: «**أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي**»[(٢)].

وقال ﷺ: «**احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي**»[(٣)]، أَيْ: رَاعُونِي فِيهم، ولَا تُؤْذُوهُمْ لِأَجْلِ حَقِّي وَصُحْبَتِي[(٤)] وقال ﷺ- للأمة بأكملها-: «**اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى الله، وَمَنْ آذَى الله فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ**»[(٥)].

وهذه الوصايا النبوية بحق لا يعمل بها إلا المؤمنون الصادقون، فقد جعل النبيُّ ﷺ حُبَّهم وتوقيرهم وحِفْظ مكانتهم من علامات الإيمان.



(١) أخرجه أحمد (١١٤)، وصحَّحه الألباني في التعليقات الحسان (٧٢١٠).
(٢) أخرجه الترمذي (٢١٦٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٦).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٣٦٣)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١١١٦).
(٤) ينظر: حاشية السندي على ابن ماجه (٥/ ٦٣).
(٥) أخرجه أحمد (٢٠٥٧٨)، والترمذي (٣٨٦٢)، وصحح القرطبي متنه في المفهم (٦/ ٤٩٣).

نهيُ النبيِّ ﷺ عن سبِّهم

قال النبيُّ ﷺ: «**إِذَا ذُكِرَ أَصْحابِي فَأَمْسِكُوا**»[1]، أي: فأمسكوا ألسنتكم عن الخوض فيهم، أو انتقاصهم، أو الوقوع في أعراضهم، وتتبُّع زلَّاتهم[2].

وقد قالها النبيُّ ﷺ صريحة: «**لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدَكُم أنْفَقَ مثلَ أُحُدٍ ذهبًا، ما بَلَغَ مُدَّ أحدِهِم ولا نَصِيْفَهُ**»[3].

وقال ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي**»[4]، وقال ﷺ: «**مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا**»[5] أي: لا يُقبل منه عملٌ يَصْرِفُ عنه العذاب يوم القيامة[6].

وكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد موت النبيّ ﷺ يَقُولُ للناس: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَمُقَامُ أَحَدِهِمْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُمْ عُمْرَهُ**»[7].

وقد دخل عُروة بنُ الزبير على خالته عائشةَ أمِّ المؤمنين، فقال لها: «إِنِّي أَسْمَعُ نَاسًا يَتَنَاوَلُونَ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا مَعَ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٤٢٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٥).

(٢) ينظر: التنوير شرح الجامع الصغير، للأمير الصنعاني (٢/ ٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٤٩).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٥٨٨)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٥١١١).

(٥) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٨)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢٣٤٠).

(٦) ينظر: التنوير شرح الجامع الصغير (٢/ ٢٢٥).

(٧) أخرجه أحمد في الفضائل (١٥)، وابن ماجه (١٦٢)، وحسَّنه الألباني، وصحَّحه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٢٤).

رَسُولِ الله ﷺ، وَكَانَ اللهُ ﷻ يُجْرِي لَهُمْ أُجُورَهُمْ، فَلَمَّا قَبَضَهُمُ اللهُ ﷻ أَحَبَّ أَنْ يُجْرِيَ ذَلِكَ الْأَجْرَ لَهُمْ»[1]، وفي رواية قَالَتْ له: «يَا ابْنَ أُخْتِي، أُمِرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَبُّوهُمْ»[2].

وقَرَأَ رَجُلٌ عَلَى عَبْدِ الله بن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ سُورَةَ الْفَتْحِ، فَلَمَّا بَلَغَ قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، قَالَ ابنُ مسعودٍ: «لِيَغِيظَ الله بِالنَّبِيِّ ﷺ وَبِأَصْحَابِهِ الْكُفَّارَ»[3].

وقال الإمام مالكٌ رَحِمَهُٱللَّهُ- عن نفس الآية-: «مَنْ أَصْبَحَ في قلبِهِ غَيْظٌ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رسولِ الله ﷺ فقد أَصَابَتْهُ الآيَةُ»[4].

وقال الإمام أحمدُ بنُ حَنبل رَحِمَهُٱللَّهُ: ومِنَ السُّنة الواضحة البَيِّنَةِ الثابتة المعروفة: ذِكْرُ مَحَاسِنِ أَصْحَابِ رسول الله ﷺ كلِّهِم أجمعين، والكفُّ عن ذِكْرِ مساوئهم والذي شجر بينهم، فمَنْ سَبَّ أصحابَ رسول الله ﷺ، أو أحدًا منهم، أو طعن عليهم، أو عَرَّضَ بعيبهم، أو عاب أحدًا منهم بقليل، أو كثير، أو دق، أو جل مما يتطرق إلى الوقيعة في أحد منهم، فهو مبتدع رافضي خبيث مخالف، لا قَبِلَ الله صرفه ولا عدله، بل حُبُّهم سُنَّة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة[5].

وقال الإمام أبو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: إذا رأيتَ الرجلَ يَنْتَقِصُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رسول الله ﷺ فاعْلَمْ أنه زِنْدِيقٌ؛ وذلك أنَّ الرسولَ ﷺ عندنا حَقٌّ، والقرآنَ حَقٌّ، وإنَّمَا

---

(١) أخرجه الآجري في الشريعة (١٩٩٩).
(٢) أخرجه مسلم (٣٠٢٢).
(٣) أخرجه الحاكم (٣٧١٨)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.
(٤) الموطأ (٩).
(٥) نقلًا من الجامع لعلوم الإمام أحمد (٣/ ١٦)، وينظر: السنة، للإمام أحمد (ص٨٨).

أدَّى إلينا هذا القرآنَ والسُّنةَ أصحابُ رسول الله ﷺ، وإنَّما يريد هؤلاء أنْ يَجْرَحُوا شُهُودَنَا؛ ليبطلوا الكتاب والسنة، والجَرْحُ بهم أوْلَى، وهم زَنَادقة[(١)].

وقال الحافظ الذهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّما يَعرفُ فضائل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من تَدَبَّرَ أحوالَهم وَسِيَرَهُم وآثارهم في حياة رسول الله ﷺ وبعد موته من السابقة إلى الإيمان، والمجاهدة للكفار، ونَشر الدين، وإظهار شعائر الإسلام، وتعليم فرائضه وسُنَنه، وإعلاء كلمة الله ورسوله، ولولاهم ما وصل إلينا مِنَ الدين أصلٌ ولا فرعٌ، ولا علمنا من الفرائض والسُنَن سُنةً ولا فرضًا، ولا علمنا مِن الأحاديث والأخبار شيئًا.

فمَنْ طَعَنَ فيهم، أو سَبَّهم فقد خرج من الدين وَمَرَقَ مِنْ مِلَّةِ المُسلمين؛ لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم، وإضمار الحقد فيهم، وإنكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من ثنائه عليهم، وما لرسول الله ﷺ من ثنائه عليهم، وبيان فضائلهم ومناقبهم وحُبِّهم[(٢)].



(١) ينظر: الكفاية، للخطيب البغدادي (٤٩)، وتاريخ دمشق، لابن عساكر (٣٨/ ٣٢).
(٢) الكبائر، للذهبي (ص٢٣٧).

السِّماتُ العامَّةُ لجيل الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

كان لمجتمع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ملامح تخصه، وسِمَاتٌ تميزه، سجَّلها القرآن الكريم، ودونَتْها كتب السُّنة المُطهرة، نذكر بعضها لنزداد بهذا الجيل معرفة.

أولًا: الانقيادُ التَّامُّ للهِ ورسولِه:

ومثال ذلك يذكره أبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ، ثم بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ الله، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَد أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟! بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**، فقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قَالَ: نَعَمْ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، قَالَ: نَعَمْ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾، قالَ:

نَعمْ، ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: نَعَمْ»[١].

ثانيًا: الاستجابةُ للهِ ورسولهِ ولو في أصعبِ الظُّروفِ:

كان يومُ معركة أُحُدٍ شديدًا على المسلمين، قُتِلَ فيه العشراتُ من خيارهم، وجُرح فيه الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم جراحاتٍ مُنْكَرةً، لدرجة أن قالت أمُّ المؤمنين عائشة: «يا رسول الله، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ عليك مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟»[٢]؛ وذلك لما رأته من حاله ﷺ وحال أصحابه رضي الله عنهم.

وغربت شمسُ يوم المعركة، وبات الصحابة يَطْوُون أحزانهم، ويتقلبون ويتألمون في جروحهم وقروحهم حتى جاء الصبح، فجمعهم النبيُّ ﷺ وأخبرهم: أن قريشًا تجمع نفسها لتعيد الكَرَّةَ عليهم، ونَدَبَهم ﷺ أن يخرجوا معه لقتالهم، فاستجابوا على الفور وخرجوا مع رسول الله ﷺ، ونسوا ما هم فيه من معاناة، وهم يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل، فسَجَّل القرآن هذا الموقف العظيم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤][٣].

ثالثًا: أَشدَّاءُ على الكُفَّارِ:

وهذا وصف القرآن لهم في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهذه الصفة التي مدحها الله فيهم نابعة من استجابتهم لنداءاتٍ

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣١).
(٣) ينظر: البخاري (٤٠٧٧)، والنسائي (١١٠١٧).

قرآنيةٍ عديدة، منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

رابعًا: رُحماءُ بينهُم:

وهذه سِمَةٌ أخرى ظهرت في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فكما كانت شدتهم على الكفار لله كانوا رحماء بينهم لله -أيضًا- وهذا استمساك بأوثق عُرَى الإيمان، وهو جَوٌّ إيمانيٌّ صنعه الله تعالى لتثبيت أركان دولة الإسلام، فاسمع إلى قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢- ٦٣].

خامسًا: كمَالُ عُبُودِيَّتِهِم:

وتظهر هذه السمة في آيات عديدة، منها: قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وهو تعبير قرآني بديع يصور لك حالتهم العامة بين يدي الله جَلَّ وَعَلَا ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، فهم عُبَّادُ هذه الأمة، ولو سلطت الضوء على مجتمعهم لوقعت عينُك على راكعٍ منهم، أو ساجد، أو هو وصف لطول ركوعهم وسجودهم في صلاتهم.

أما عن طول قيامهم فتُحدِّثنا عنه أمُّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين قال لها سعدُ بنُ هشام فقال: «حَدِّثِينِي عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، فقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ: يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ؟ قَالَ: بَلَى، فقَالَتْ: فَإِنَّ أَوَّلَ هَذِهِ السُّورَةِ نَزَلَتْ، فَقَامَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ، وَحُبِسَ خَاتِمَتُهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا، ثم نَزَلَ آخِرُهَا، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ»(١).

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦)، وأبو داود (١٣٤٢)، واللفظ له.

وهذا عليُّ بنُ أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصف قيامهم قائلًا: «وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَا أَرَى الْيَوْمَ شيئًا يُشْبِهُهُمْ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ صُفْرًا شُعْثًا غُبْرًا، بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ كَأَمْثَالِ رُكَبِ الْمَعْزِ، قَدْ بَاتُوا للهِ سُجَّدًا وَقِيَامًا، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ويُرَاوِحُون بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَأَقْدَامِهِمْ، فَإِذَا أَصْبَحُوا وَذَكَرُوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَادُوا كَمَا تَمِيدُ الشَّجَرُ فِي يَوْمِ الرِّيحِ، وَهَمِلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تُبَلَّ ثِيَابُهُمْ، وَاللهِ لَكَأَنَّ الْقَوْمَ بَاتوا غَافِلِينَ»(١).

ثم تكتمل الصورة البديعة التي ترسم حال عبوديتهم بوصف أثرَ العبادة على وجوههم في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، فهذه الأوصاف القرآنية لهم تجعلك ترى بعد هذه القرون حال خشوعهم وخضوعهم وانكسارهم وهدوئهم واطمئنانهم بين يدي ربهم، فتتَجَلَّى أمام عينك العبودية في أكمل صورها ظاهرةً على صفحات وجوههم، تكسوها شفافيةً ووَضاءةً، وتزيدها صفاءً وإشراقًا، وهنا يَحْضُرُني جوابُ أحد الصاحين على سائل يقول: ما بالُ أهل الليل أنْضَرُ الناس وجوهًا؟ فقال: خَلَوا بربهم فألبَسَهُم نورًا من نوره.

سادسًا: إخلاصُهم وصِدقُ نيتِهم:

ولقد أشار القرآنُ لهذا في مواضعَ، منها: حال هجرتهم في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وفي حال صلاتهم وعبادتهم قال تعالى عنهم: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وهنا أطْلَعَكَ القرآنُ على بواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم، فحين لا تستطيع رؤية ذلك أبدًا بالعين المُجَرَّدَة يُطْلِعُكَ القرآنُ على ما يَشغل قلوبهم، فهم في كل أحوالهم لا يبتغون بأقوالهم وأفعالهم إلا فضلًا من الله ورضوانًا، فلله دَرُّهُم.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٧٦).

سابعًا: طهارةُ قلوبِهم:

وهي سِمَةٌ يُحدثنا عنها رجلٌ عايشهم، وعَايَنَ أحْوَالهم، وهو عبد الله بنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قال عنهم: «إِنَّ اللهَ تعالى نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثم نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ»[(١)].

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَأَسِّيًا فَلْيَتَأَسَّ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبَرَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا، وَأَحْسَنَهَا حَالًا، قَوْمًا اخْتَارَهُمُ اللهُ تَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ»[(٢)].

ثامنًا: كمالُ حُبِّهم وتعظيمِهم للنبيِّ ﷺ:

وهذه سِمَةٌ ينقل لنا منها عروة بنُ مَسعودٍ الثقفيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صورةً شاهدها بنفسه وعاينها، وذلك في قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا ﷺ، وَاللهِ إِنْ يَتَنَخَّمُ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٠٠)، وصحَّحه أحمد شاكر.
(٢) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٨١٠).
(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣١).

تاسعًا: كمالُ اتِّباعِهِم لهَدي النبيِّ ﷺ:

وإليك موقفًا تظهر هذه السِّمَةُ من خلاله، يحدثنا به أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول: «إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ صَلَّى فَخَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَخَلَعَ النَّاسُ نِعَالَهُمْ، فَلَمَّا انْصرَفَ قَالَ: **لِمَ خَلَعْتُمْ نِعَالَكُمْ؟!** قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، رَأَيْنَاكَ خَلَعْتَ فَخَلَعْنَا، فقَالَ ﷺ: **إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ بِهِمَا خَبَثًا، فَإِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَقْلِبْ نَعْلَيْهِ فَلْيَنْظُرْ فِيهِمَا، فَإِنْ وَجَدَ فِيهِمَا خَبَثًا فَلْيَمْسَحْهُمَا بِالْأَرْضِ، ثم لِيُصَلِّ فِيهِمَا**»[(١)].

عاشرًا: تعظيمُهم لأداء صَلاة الجَمَاعَة في المَسجِدِ:

يخبر ابنُ مسعودٍ عن حاله وحال أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع صلاة الجماعة في المسجد فيقول: «وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ الْمَرِيضُ يُؤْتَى بِهِ يَمْشِي بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»[(٢)].

وقال الْأَوْزَاعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَ يُقَالُ: خَمْسٌ كَانَ عَلَيْهَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالتَّابِعُونَ لَهمْ بِإِحْسانٍ: لُزُومُ الْجَمَاعَةِ، وَاتِّبَاعُ السُّنَّةِ، وَعِمَارَةُ الْمَسْجِدِ، وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[(٣)].

حادي عَشَر: زُهدُهم في الدُّنيا:

قال ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – لتلامذته من التابعين-: «أَنْتُمْ أَكْثَرُ صَلَاةً وَأَكْثَرُ صِيَامًا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُمْ كَانُوا خَيْرًا مِنْكُمْ، قَالُوا: وَبِمَ؟، قَالَ: كَانُوا أَزْهَدَ مِنْكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَأَرْغَبَ مِنْكُمْ فِي الْآخِرَةِ»[(٤)].

وقال عنهم خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ مَضَوْا وَلَمْ تَنْقُصْهُمُ

---

(١) أخرجه أحمد (١١١٥٣)، والحاكم (٩٩٥)، وصحَّحه الأرناؤوط.
(٢) ينظر: صحيح مسلم (٢٥٦– ٢٥٧).
(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٦٧١).
(٤) أخرجه الحاكم (٧٨٨٠)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

الدُّنْيَا بِشَيْءٍ، وَإِنَّا أَصَبْنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا لَا نَجِدُ لَهُ مَوْضِعًا إِلَّا التُّرَابَ»[(١)].

وهذا الحَسَنُ البَصْرِيُّ أحَدُ تلامذتهم يقول عنهم: «إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا أَكْيَاسًا، عَمِلُوا صَالِحًا، وَأَكَلُوا طَيِّبًا، وَقَدَّمُوا فَضْلًا، لَمْ يُنَاقِشُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يَجْزَعُوا مِنْ ذُلِّهَا، أَخَذُوا صَفْوَهَا، وَتَرَكُوا كَدَرَهَا، وَاللهِ مَا تَعَاظَمَتْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَسَنَةٌ عَمِلُوهَا، وَلَا تَصَاغَرَتْ فِي أَنْفُسِهِمْ سَيِّئَةٌ أَمَرَهُمُ الشَّيْطَانُ بِهَا»[(٢)].

ثاني عَشَر: ورعُهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

قال أنسُ بنُ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – لتلامذته من التابعين –: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ المُوبِقَاتِ»[(٣)].

وفي رواية: «إِنِّي لَأَعْرِفُ الْيَوْمَ ذُنُوبًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، كُنا نَعدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ مِنَ الْكَبَائِرِ»[(٤)].

ثالث عشَر: صحَّةُ عقيدتِهم وسلامةُ مَنهَجِهم:

وهي سِمَةٌ دَلَّ عليها قولُ النبيِّ ﷺ: «... **وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً**، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله؟، فقَالَ ﷺ: **مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[(٥)].

رابعَ عَشر: حُسنُ الاستمَاعِ عند التَّلَقِّي:

إن حُسْنَ الاستماع عند تلقي المعلومة بَوَّابَةُ الفهم والإدراك، وكان ذلك من السِّمات العامة لجيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، غير أنَّ النبيَّ ﷺ كان أعظم في نفوسهم من أنْ يَلْغوا بين يديه، أو ينشغلوا عنه إذا تحدَّث، وإليك أمثلة تُبَيِّنُ لك ذلك:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٠).
(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠١٤٩).
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٩٢).
(٤) أخرجه أحمد (١٤٠٣٩).
(٥) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١/ ٤٠٧).

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، مَا يَتَكَلَّمُ مِنَّا مُتَكَلِّمٌ»[١]، وفي لفظ: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ عِنْدَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ»[٢].

وروى الترمذي في الشمائل: أنَّ عليَّ بنَ أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصَفَ مجلس الصحابة بين يدي رسول الله ﷺ فقال: «... وَإِذَا تَكَلَّمَ أَطرَقَ جُلَسَاؤُهُ كأنما على رؤوسهم الطَّيْرُ، فَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، ولَا يَتَنَازَعُونَ عِنْدَهُ الْحدِيثَ، وَمَنْ تَكَلَّمَ عِنْدَهُ أَنْصَتُوا لَهُ حَتَّى يَفْرُغَ»[٣].

وكان الهدف الرئيس من الإصغاء الشديد، والإنصات العميق، والتركيز التام عند التلقي هو فهم المُراد ليعملوا بإحسان فَوْرَ السماع، لا لجمع المعلومات وتذوق المعاني فحسب.

خَامس عَشر: الأَدَب:

كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على طِرَازٍ عالٍ من الأدب، وخاصة مع رسول الله ﷺ، ومن الأمثلة التي تُبْرِزُ ذلك ما أخبر به سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ على جماعة من أصحابه وقد أقاموا فيما بينهم مسابقة للرماية، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «**ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ؛ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ**، قَالَ سلمة: فَأَمْسَكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ؟!** قَالُوا: كَيْفَ نَرْمِي، وَأَنْتَ مَعَهُمْ يا رسول الله؟! فقَالَ ﷺ: **ارْمُوا، فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ**»[٤].

ومن صُوَر أدبهم التي سجَّلها القرآن، ونقلها شهود العيان: خَفْضُ الصوت عند

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٧١)، وابن حبان (٤٨٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٣٢).
(٢) أخرجه أحمد (١٨٤٥٤).
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤١٤)، وضعَّفه الألباني في مختصر الشمائل (٦).
(٤) ينظر: صحيح البخاري (٢٨٩٩).

التحدث مع رسول الله ﷺ، فقد قال عنهم عروةُ بنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا ﷺ...إِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ»[1].

وفي ذلك قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

سادسَ عَشَر: مَا كَانُوا يَسأَلُونَ إِلَّا عمَّا يَنفعُهم:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ قَوْمًا كَانُوا خَيْرًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ مَا سَأَلُوهُ إِلَّا عَنْ ثَلَاثَ عَشرَةَ مَسْأَلَةً حَتَّى قُبِضَ، كُلُّهُنَّ فِي الْقُرْآنِ، مِنْهُنَّ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وَ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وَ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، مَا كَانُوا يَسْأَلُونَ إِلَّا عَمَّا يَنْفَعُهُمْ»[2].

سابع عشر: لَمْ يكُونوا مُتحَزِّقين:

وعن هذه السِّمَةِ قالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوفٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمْ يَكُنْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُتَحَزِّقِينَ»[3]، وقال الزَّبيدي: والحَزْقُ: التَّضْيِيقُ، والشَّد البَلِيغ[4] فلم يكونوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُضيِّقون على أنفسهم ما وَسَّعَهُ الشرْعُ عليهم.

---

(١) صحيح البخاري (٢٧٣١).

(٢) أخرجه الدارمي (١٢٧)، والطبراني في الكبير (١٢٢٨٨)، وقال الهيثمي- في المجمع (٧٢٣)-: وَفِيهِ عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ، وَهُوَ ثِقَةٌ، وَلَكِنَّهُ اخْتَلَطَ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ.

(٣) صحيح الأدب المفرد (٤٢٢).

(٤) تاج العروس (٢٥/ ١٦٥).

ثَامن عشَرَ: لَمْ يكُونوا مُتماوِتين:

وهي سِمَةٌ مشهودة نقلها أبُو سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوفٍ- أيضًا- بقوله: «لَمْ يَكُنْ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ مُتَحَزِّقِينَ، وَلَا مُتَمَاوِتِينَ»(١).

والتَّمَاوُتُ هو: تَصَنُّعُ التخافت والتضاعف في الهيئة والملامح والمشية والكلام(٢)، وهي صفة مذمومة مخالفة لهدي النبيِّ ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقد كان النبيُّ ﷺ يقول: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»(٣)، وروى ابنُ المبارك بسنده عن مَكحُول: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لَا تَكُونُوا عَيَّابِينَ، وَلَا مَدَّاحِينَ، وَلَا طَعَّانِينَ، وَلَا مُتَمَاوِتِينَ**»(٤).

وروى ابنُ سعد بسنده عن الشِّفَاءِ بِنْتِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أنها رَأَتْ فِتْيَانًا يَقْصِدُونَ فِي الْمَشْيِ وَيَتَكَلَّمُونَ رُوَيْدًا، فَقَالَتْ: مَا هَذَا؟! فَقَالُوا: نُسَّاكٌ، فَقَالَتْ: كَانَ- وَاللهِ- عُمَرُ بنُ الخطاب إِذَا تَكَلَّمَ أَسْمَعَ، وَإِذَا مَشَى أَسْرَعَ، وَإِذَا ضَرَبَ أَوْجَعَ، وَهُوَ النَّاسِكُ حَقًّا»(٥).

ومشهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في عمرة القضاء أبلغ في البيان من كل الأقوال، وذلك حين دخلوا مكة مع النبيِّ ﷺ، فكشفوا عن المناكب، ورَمَلُوا الأشواط الثلاثة الأُوَل في الطواف حول الكعبة، وكانت أعينُ المشركين ترمقهم، فتحركت شفاهم بقولهم عنهم: «كَأَنَّهُمُ الْغِزْلَانُ- ثم قال بعضهم لبعض-: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ: أَنَّ الْحُمَّى قَدْ وَهَنَتْهُمْ؟! هَؤُلَاءِ أَجْلَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا»(٦).

---

(١) صحيح الأدب المفرد (٤٢٢).
(٢) ينظر: لسان العرب (٢/ ٩٤).
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).
(٤) الزهد، لابن المبارك (١/ ١٣٢).
(٥) الطبقات الكبرى (٣/ ٢٣٠)، تاريخ الطبري (٤/ ٢١٢).
(٦) ينظر: صحيح مسلم (١٢٦٦)، وسنن أبي داود (١٨٨٩).

تاسعَ عَشر: كانوا يُفرِّقون بين وقتِ جِدِّهم ووقتِ مِزاحِهِم:

فقد كانت حياة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تسودها روحُ الأُلْفة والأخوة الصادقة التي تتخللها أوقات الترويح والمرح والمزاح اللطيف، وكان النبيُّ ﷺ يُشاركهم الكثير من هذه الأوقات الجميلة، حتى قالوا له: «يَا رَسُولَ الله، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا، فقَالَ ﷺ: **إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا**»[١]، وكانوا يجلسون في المسجد يتحدثون، ويتمازحون، ويتناشدون الشعر، ويتذاكرون بعض مواقف الجاهلية فيضحكون ويتبسم النبيُّ ﷺ[٢]، ومع ذلك كانوا إذا جاء وقتُ الجِدِّ، أو أقبلتِ الشدائد وجدتَّهم رجالًا صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

فعَنْ بكر بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَبَادَحُونَ[٣] بالبَّطِيخ، فإِذَا كَانَتْ الحَقَائِقُ كَانُوا هُمُ الرِّجَالَ»[٤].

وعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوفٍ قَالَ: «لَمْ يَكُنْ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ مُتَحَزِّقِينَ، وَلَا مُتَمَاوِتِينَ، وَكَانُوا يَتَنَاشَدُونَ الشِّعْرَ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَيَذْكُرُونَ أَمْرَ جَاهِلِيَّتِهِمْ، فَإِذَا أُرِيدَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الله دَارَتْ حَمَالِيقُ عَيْنَيْهِ كَأَنَّهُ مَجْنُونٌ»[٥].

وقد سُئِلَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَلْ كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَضْحَكُونَ؟، قَالَ: نَعَمْ، وَالْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ أَعْظَمُ مِنَ الْجِبَالِ»[٦].

عِشرون: حِفظُ الجَميلِ وَشُكرُ أهلِه:

كان النبيُّ ﷺ يقول: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ الله** عَزَّ وَجَلَّ»[٧]، وقال –أيضًا–: «**مَنْ صَنَعَ**

(١) صحيح الأدب المفرد (١٩٩).

(٢) ينظر: صحيح مسلم (٢٣٢٢)، والترمذي (٢٨٥٠)، والنسائي (١٣٥٨)، والمعجم الكبير (١٣٠٦٦).

(٣) قال – في تاج العروس (٦/ ٣٠٣)–: أي: يَترامَوْن بِهِ.

(٤) صحيح الأدب المفرد (٢٠١).

(٥) صحيح الأدب المفرد (٤٢٢).

(٦) أخرجه عبد الرازق في مصنفه (٢٠٩٧٦).

(٧) أخرجه أحمد (٧٥٠٤)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٧١٦).

إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»(١)، فكان لهذه المعاني أثرٌ في تكوين ملامح جيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وسِمَاتِه، وسأترك أنسَ بنَ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحكي لنا طَرَفًا من حال المهاجرين مع الأنصار في هذا الباب.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ مَكَّةَ الْمَدِينَةَ قَدِمُوا وَلَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ، وَكَانَ الْأَنْصَارُ أَهْلَ الْأَرْضِ وَالْعَقَارِ، فَقَاسَمَهُمُ الْأَنْصَارُ عَلَى أَنْ أَعْطَوْهُمْ أَنْصَافَ ثِمَارِ أَمْوَالِهِمْ كُلَّ عَامٍ، وَيَكْفُونَهُمُ الْعَمَلَ وَالْمَئُونَةَ»(٢)، فتأثر المهاجرون بحُسْن صَنيع إخوانهم الأنصار معهم، فذهبوا إلى النبيِّ ﷺ لمَّا قدم المدينة، وقالوا له: «يَا رَسُولَ الله، مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ، وَلَا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَأِ، حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لَا مَا دَعَوْتُمُ اللهَ لَهُمْ، وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ**»(٣)، فأتاهم الأنصار في مجلسهم، فقالوا للنبيِّ ﷺ: «اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ، فقال المهاجرون: تَكْفُونَا المَئُونَةَ، وَنَشرَكْكُمْ فِي الثَّمَرَةِ؟!، فقال النبيُّ ﷺ للأنصار: **لَا**، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»(٤).

وحَفِظَ المهاجرون للأنصار الجميلَ، وظل شُكرُهُم لهم متمثلًا في الثناءِ عليهم والدعاءِ لهم، حتى مَرَّت السنون وفتح الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خيبر مع رسول الله ﷺ، وَوَسَّع الله عليهم بالغنائم التي أُحِلَّت لهم، ولم ينسَ المهاجرون بين هذه الأحداث المتراكمة فضل إخوانهم الأنصار، ويحدثنا أنس بنُ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ذلك فيقول: «لَمَّا فَرَغَ رسولُ الله ﷺ مِنْ قِتَالِ أَهْلِ خَيْبَرَ، وَانْصرَفَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَدَّ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى

---

(١) صحيح سنن أبي داود (١٤٦٩).
(٢) أخرجه مسلم (١٧٧١).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٨٧)، وقال: حسن صحيح.
(٤) أخرجه مسلم (١٧٧١).

الْأَنْصَارِ مَنَائِحَهُمُ الَّتِي كَانُوا مَنَحُوهُمْ مِنْ ثِمَارِهِمْ»[(١)].

واحدٌ وعِشرون: سلامةُ صُدورِهِم:

وهي سِمَةٌ يشهد عليها قول الله تعالى عنهم: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر: ٩]، وقد نزلت على إثْرِ ما أفاءه الله تعالى على رسوله ﷺ من أموال يهود بني النضير، وقد جعل الله من هذا الفيء نصيبًا لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، ولم يكنُ للأنصار فيه نصيبٌ، مع أن جيش المسلمين كان مُؤلَّفًا من المهاجرين والأنصار، وهم من قبل ذلك الذين فتحوا مدينتهم وديارهم لإخوانهم المهاجرين، وأشركوهم في المال، وكفوهم المئونة، ومع ذلك اطَّلَعَ اللهُ على صدورهم وأعماق بواطنهم فوجدهم لم يَجدوا حِقدًا ولا غِلًّا ولا حسدًا ولا غيظًا ولا تَعَكُّرًا ولا أيَّ حاجةٍ بسبب ما آتاه اللهُ إخوانَهم، كما لم يجدوا من قبل ندمًا على مال أنفقوه، أو خيرٍ قَدَّمُوه، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾[الحشر: ٩].

فكانت هذه سِمَة عامة لأفراد هذه الجماعة التي لم تتبوَّء مدينة الإيمان فَحَسْب، بل تبوأت الإيمانَ نفسَه، فغُمِسُوا فيه غمسًا طَهَّرَ ظواهرهم وبواطنهم، حتى أصبح الإيمان بما يحوي من معانٍ وطَنًا تعيش فيه قلوبهم، وتسكن إليه أرواحهم، ويُحبُّون لإخوانهم ما يُحبُّون لأنفسهم، حتى طغت هذه السِمَةُ على الجيل كله، والأمثلة والنماذج في ذلك كثيرة.

اثنانٌ وعِشرون: الإيثارُ:

وهي سِمَةٌ أصيلة شهد لهم بها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

(١) أخرجه البخاري (٢٣٢٥).

﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩]، والإيثار هو: التفضيل[1].

فلو نظرتَ إلى مجتمع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثم سلطت الضوء على الأشياء التي تتسابق إليها وتتسارع نحوها النفوس البشرية لرأيتَ ما يدهشك، حين تجد الواحد منهم يُفَضِّلُ إخوانه على نفسه بكل أريحية، ويُقَدِّمُ ما يحتاجونه على حاجاته بكل سماحة وطِيب نفس، وهذا أمرٌ يَسْهُل أن تراه في أفراد بعينهم بين الأمم على مَرِّ العصور، ولكن أن يَسُود هذا الجَوُّ جيلًا بأكمله حتى يصبح من أهم سمات أهله: أنهم يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، أي: ولو كانوا في أشدِّ الحاجة إلى ما يؤثرون به غيرَهم على أنفسهم، فهذا يصعب جدًّا أن تراه في غير جيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وهذا دليلٌ قرآنيٌّ يشهد ببراءة نفوسهم من الشُّحِّ؛ لذلك خُتِمتِ الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

ثلاثٌ وعِشرون: عَدَمُ المُداهنة:

والمُدَاهَنَةُ صفة ذميمة، من معانيها: تَرْكُ إنْكار المُنْكَر إجْلالًا لصَاحِبِه وتقرُّبًا منه[2]، ومن أمْيَز سِمَات الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أنها لم تكن فيهم، بل كانوا يَعُدُّونها نفاقًا.

فقد رَوَى البخاريُّ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنَ عُمَرَ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قال: «قَالَ أُنَاسٌ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّا نَدْخُلُ عَلَى سُلْطَانِنَا، فَنَقُولُ لَهُمْ خِلاَفَ مَا نَتَكَلَّمُ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ، فقَالَ ابنُ عُمَرَ: كُنَّا نَعُدُّهَا نِفَاقًا»[3].

وفي رواية عنه: «أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ لَقِيَ نَاسًا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِ مَرْوَانَ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ جَاءَ هَؤُلَاءِ؟، قَالُوا: خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ الْأَمِيرِ مَرْوَانَ، قَالَ: وَكُلُّ حَقٍّ رَأَيْتُمُوهُ تَكَلَّمْتُمْ

(١) لسان العرب (٤/ ٧).
(٢) ينظر: معجم لغة الفقهاء (١/ ٤١٨).
(٣) أخرجه البخاري (٧١٧٨).

بِهِ، وَأَعَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَكُلُّ مُنْكَرٍ رَأَيْتُمُوهُ أَنْكَرْتُمُوهُ وَرَدَدْتُمُوهُ عَلَيْهِ؟، قَالُوا: لَا وَاللهِ، بَلْ يَقُولُ: مَا يُنْكَرُ، فَنَقُولُ: قَدْ أَصَبْتَ، أَصْلَحَكَ اللهُ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ قُلْنَا: قَاتَلَهُ اللهُ، مَا أَظْلَمَهُ وَأَفْجَرَهُ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: كُنَّا بِعَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا»(١).

أربَعٌ وعِشرون: حُسنُ التَّوبة:

مع كل هذه المكارم والفضائل التي شهد بها الله ورسوله للصحابة، ومع كثرة السمات الحميدة والشمائل المجيدة التي كوَّنَت ملامح هذا الجيل، إلَّا أنهم كانوا بَشَرًا كبقية البشر، يُخطئون ويُصيبون، يُحسنون ويُسيئون، يُذنبون ويتوبون، فلم يكونوا معصومين، بل قال لهم النبيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»(٢)، ولكنهم كانت معاصيهم قليلة، والصغيرة في أعينهم كبيرة.

وما رآه مَنْ جاء بعدهم أدقَّ من الشعرة كانوا هم يرونه من الموبقات، ولا نُنْكِرُ ما وقع فيه القليلُ من عظام الزَّلَّات، ولكنهم في كل أحوالهم كانوا يتوبون من قريب توبةً تحمل كل شروط التوبة النصوح، تتقطع معها القلوب ندمًا، وتسيل فيها الدموع حزنًا، ولو قَلَّبْتَ صفحات حياتهم لرأيت في هذا الباب الأعاجيبَ من أحوالهم، فسترى منهم مثلًا مَنْ جانَبَ الصَّواب، أو فعل، أو قال خِلاف الأَوْلَى فيريد من أجل ذلك أن يتصدق بكل ماله توبةً لله، أو ينظرُ إلى ما كان منه على أنه شَبَحٌ مخيفٌ يظهر أمامه من الحين إلى الآخر، فيقول: والله لا يُكَفِّرُ ما فعلتُ إلا الشهادة.

وسترى منهم مَنْ أتى النبيَّ ﷺ بعد الخطيئة يريد أن يُرْجَمَ حَدًّا لِيُغْفَرَ ذنبُه، وما

(١) أخرجه أحمد (٥٣٧٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

حَمَله- واللهِ- على أن يجود بنفسه إلا حُسْنُ التوبة وصِدْقُ الإنابة.

وفي بَشريَّتِهم تَكْمُنُ خيريَّتُهم، حيث كانوا كغيرهم من البَشر يحملون بين جوانبهم نفوسًا ألهمها اللهُ فجورها وتقواها، إلا أنَّ التقوى غلبت على طبائعهم، وفاحَ عبيرُها في مجتمعهم، حتى شهد اللهُ تعالى بأنهم كانوا أحقَّ بها وأهلها.

ولله درُّ مَنْ أبدع في وصف ومدح الرسول ﷺ وأصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال[(١)]:

هـو الرسـولُ فكُـنْ في الشِّـعْرِ حَسَّـانَا ... وَصُـغْ مِـنْ القلـب في ذكـراه ألحانَـا
ذِكرَى النبيِّ الذي أحيا الهُدَى وَكَسَا ... بـالعلم والنـور شَـعبًا كـان عُرْيانَـا
أطَـلَّ فجْـرُ هُـداهُ والـدُّجَى عَمَـمٌ ... بـات الأنـامُ وظلُّـوا فيـه عُميانَـا
هــذا يُصــوِّرُ تمثــالًا ويَعْبُــدهُ ... وذاك يعبــدُ أحبــارًا وكُهَّانَــا
الكــونُ بحــرٌ عميــقٌ لا مَنَــارَ بــه ... رَبَّــاهُ أرْسِــلْ لنــا فُلْكًــا وَرُبَّانَــا
هُنــاك لاحَ سَــنَا المُختــارِ مؤتَلِقًــا ... يَهْــدي إلــى الله أعْجامًــا وعُرْبانَــا
يَقــودُ دعوتَــه في الــيَمِّ بَــاخرةً ... تَقِــلُّ مَــنْ أَمَّهــا شِــيبًا وشُــبَّانَا
يَـا سَـيِّدَ الخَلْـقِ طِـبْ نفسًـا بطائفَـةٍ ... بَــاعُوا إلــى الله أرواحًــا وأبــدانَا
أخْرَجْتَ جيلًا مِن الأصحاب سيرتهم ... تَفُـوحُ بَـيْنَ الـوَرَى رَوْحًـا وَرَيْحَانَـا
قومًـا أقـاموا علـى إخـلاص نيَّـتِهِم ... وصِــدْقِها ألــفَ بُرْهــانٍ وبُرهانَــا
عاشُـوا علـى الحُـبِّ أفْوَاهًـا وَأفئـدةً ... بَـاتُوا علـى البُـؤسِ والنَعْمَـاء إخوانَـا

---

(١) الأبيات مأخوذة من قصيدة بعنوان: (في ذكرى المولد النبوي) مع تصرف في بعض الألفاظ، من ديوان: نفحات ولفحات، د. القرضاوي (ص٥٨).

أفْنَـوا حيـاتَهُمْ صَـبْرًا علـى مِحَـنٍ — صَـاغَت بـلالًا وعَمَّـارًا وسَـلمانَا
لَـمْ يَعْرِفُـوا الـدِّينَ أَوْرَادًا وَمِسْـبَحَةً — بـل أُشْـرِبُوا الـدِّينَ مِحْرَابًـا وَمَيْـدَانَا
اللهُ يَعــرِفُهُم أنصــارَ دعوتِــه — والنــاسُ تعــرفهم للخيــر أعوانَـا
والليــلُ يعــرفهم عُبَّــاد هَجْعَتِــهِ — والحَـرْبُ تعـرفهم في الجِـدِّ فرسـانَا

***

يَـا خَيْـرَ مَـنْ رَبَّـتِ الأَبْطَـالَ بِعْثَتُـهُ — ومَــنْ بَنَــى بِهِــمُ للحَــقِّ أَرْكانَـا
خلَّفْــتَ بَعْــدَك أصــحابًا بأيــديهم — مصـباحُ خَيْـرٍ يُضـيءُ الأرضَ أزمانَـا
قَادُوا السَفِينَ فما ضَلَّتْ وَلا اضطَرَبَتْ — وكيــف لا وقــد اختــاروك رُبَّانَـا؟!
وكيــف لا تَصِــلُ الشُّـطْئَانَ بـاخرَةٌ — رُبَّانُهــا خَيــرُ خَلْــقِ الله إنســانَا؟!
وهــل تَضِــلُّ سَــفِينٌ بَيْــتُ إبْرَتِهَـا — وَحْـيٌ مِـنَ اللهِ يَهـدي كـلَّ حَيْرَانَـا؟!
كانــت فُتُــوحُهُمُ بِــرًّا وَمَرْحَمَــةً — كانـت سِياسَـتُهُم عَـدلًا وإحسـانَا
السِّــلْمُ رايَــتُهم واللهُ غــايَتُهُم — لَـمْ يَبْغـوا إلَّا هُـدًى منـه ورضـوانَا
أعْطَـوا ضَـريبَتَهُم للـدِّين مـن دَمِهِـم — ونحـنُ نَـزعمُ نَصـرَ الـدِّين مَجَّانَـا



أسعدُ بنُ زُرارةَ

سيِّدُ نُقباءِ الأَنصارِ

لِيَعْلَم كلُّ من سيقرأ هذه الصفحات أنَّ صاحب هذه الترجمة هو أول الشخصياتِ التي عَزَمْتُ على تصنيف هذا الكتاب من أجلها.

وكانت البداية عندما شغفتُ بقراءة تفاصيل حياة سَيْدي وحَبيبي رسولِ الله ﷺ، تلكم السيرة العطرة التي أَسَرَتْ قلبي وجوارحي، فطفتُ في بُستانها، وتعايشتُ مع ليلها ونهارها، وتأثرتُ بأحداثها، وهناك تعرفتُ على أسعد بن زرارة، ذلكم الشاب الأنصاري صاحب المواقف القليلة التي شَكَّلَتْ نَقْلةً مِحْوَريةً في مسار دعوة الإسلام وإقامة دولته، فوجدتُني أرتبط به ارتباطًا فريدًا من نوعه في حياتي، فكلما ذكرتُه، أو وقعَ نَظَري على اسمه، أو بعض مواقفه يَنْتَابُني شعورٌ غريبٌ في نفسي، ويكاد الدمعُ أنْ يَنْزَرِفَ من عيني، ويسيطر عليَّ شوقٌ عجيبٌ لرؤيته، فجمعتُ شتات مواقفه وفرشتها بين يديَّ وكأني أنظر إليه، فكان هذا الفعل المنبثق من هذا الشعور هو النواة الأولى لتصنيف هذا الكتاب.

والآن- بإذن الله- سأُقَدّم لك- أيها القارئُ الكريم- سيرة هذا الصحابي الأنصاري الجليل.

اسمُه ونسبُه وكُنيتُه

هو أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ بْنِ عُدَسِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ غَنْمِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ، الخَزْرَجِيُّ، الأنصاريُّ، وبَنُو النَّجَّار هؤلاء هم أَخْوَالُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَدِّ النبيِّ ﷺ[١]، وهم مَنْ قال فيهم رسولُ الله ﷺ: «**خَيْرُ دُورِ الْأَنْصَارِ بَنُو النَّجَّارِ**»[٢].

وكُنْيَتُه: أبو أُمَامَة، وَأُمُّهُ: سُعَادُ، وَيُقَالُ: الْفُرَيْعَةُ بِنْتُ رَافِعِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الخَزْرَجِيَّة، وَهُوَ ابْنُ خَالَةِ الصحابي الجليل سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ.

وقد تزوج أسعدُ في سِنٍ مُبَكِّرَة من عُمَيْرَةَ بِنْتِ سَهْلِ بْنِ ثَعْلَبَةَ النَّجاريَّة، الأنصَاريَّة، فولدتْ له حَبِيبَةَ، وَكَبْشَةَ، وَالْفُرَيْعَةَ، وكُلُّهُن أسلَمْنَ وبايعن رسول الله ﷺ[٣].

حَيَاتُه قَبلَ الإسلام

كانت الخزرج حُلفاءُ يهود يثرب، فنشأ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وهو يسمع منهم عن التوحيد وقصص الرُّسُل، وكانوا يُكثرون الحديث عن نبيٍّ قد أَظَلَّ زمانُه واقترب ظهوره، حتى أنهم كانوا إذا وقع بينهم وبين العرب مُنَاوَشات هدَّدوهم بهذا النبيِّ قائلين: إنه قد تقارب زمانُ نبيٍّ يُبْعث الآن نقتلكم معه قَتْلَ عادٍ وإِرَم[٤].

فتأَثَّرَتْ شخصيةُ أسعدَ بنِ زُرارة بحكايات اليهود التي جاءت تتماشى مع ما يرضاه العقل البشري بشكل كبير، فكَرِهَ آلهةَ قومه المزعومة، وكان يُنكر عليهم عبادة الأصنام وَيُؤَفِّفُ بِهَا بالتلميح تارةً، وبالتصريح أخرى، ومضى يبحث عن التوحيد وحقيقته، وأَبَتْ

(١) ينظر: صحيح مسلم (٧٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣٧٨٩).
(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٦٠٨)، والاستيعاب (١/ ٨٠)، ومعرفة الصحابة (١/ ٢٨٠)، والسير (١/ ٢٩٩).
(٤) ينظر: دلائل النبوة، للبيهقي (٦٩٨)، والدلائل، لأبي نعيم (٢١٨)، وصحيح السيرة، للألباني (٥٧).

فطرته أنْ تُسْلِمَه إلى يهوديةِ زمانه؛ لكثرة ما اعتراها من تحريف وانحراف[(١)].

وازداد صدرُه ضِيقًا حين اشتَعلت بين الأوس والخزرج نيرانُ حربٍ ضَروسٍ تُسمَّى بحرب بُعَاثٍ أهلكت الكثير من أشرافهم وكبرائهم، فأمسى ذلكم الشاب الذي لم يبلغ العشرين من عمره مَهْمُومًا يَحْلُمُ بالنبيِّ الهادي الذي سَيُضيءُ الأرض بعد ظلماتها، ويُحْيي القلوب بعد موتها، ويجمعُها بعد شتاتها[(٢)].

موعدٌ مع السَّعادةِ

كان حَجُّ بيتِ الله الحرام عند العرب قبل الإسلام من بقايا دين إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ فيهم، ولكنه قد اعترته عوامل الشرك والجاهلية.

وكان النبيُّ ﷺ في موسم الحج يستغل اجتماع القبائل في مكة ليعرض عليهم الإسلام، ولكنَّ قريشًا كانت تقابله بحملة تشويه إعلامية تشُنُّها عليه في الموسم من كل عام لتُنَفر الناسَ منه، وها هو جابر بن عبد الله يصف تلك الأحوال بقوله: «مَكَثَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَكَّةَ عَشرَ سِنِينَ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ: **مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي؟ وَلَهُ الْجَنَّةُ**، فلَا يَجِدُ أَحَدًا يَنْصُرُهُ وَيُؤْوِيهِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنْ الْيَمَنِ، أو مِنْ مُضَرَ فَيَأتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ، وَيَمشِي ﷺ بَيْنَ رِحَالِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الله وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ»[(٣)].

ففي السنة الحادية عشرة من بعثته ﷺ، في شهر ذي الحجة على وجه التحديد كان

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٤٤٨)، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٩٠).
(٢) ينظر: صحيح البخاري (٣٧٧٧)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٦٩٨).
(٣) أخرجه أحمد (١٤٦٥٣)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦٣).

أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ في ركب حُجاج الخزرج الذين حَطَّتْ رواحلهم أرضَ الحَرَمِ، ولم يكن ذلكم الشاب يعلم أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا قَدَّرَ له في هذه الرحلة موعدًا مع السعادة سيصنع منه نجْمًا في سماء التاريخ.

ولما كانت أوسط ليالي أيام التشريق خرج النبيُّ ﷺ يطوف على حُجاج هذا العام يدعوهم إلى الإسلام فلم يُجِبْه منهم أحدٌ، فمضى ﷺ مهمومًا ولسان حاله قائلًا: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ؟، حتى أخذته قدماه الشريفتان إلى العقبة عند موضع رمي الجمرات الآن، فوجد أَسْعَد بْن زُرَارَة ونَفَرًا من أصحابه يتسامرون، فقال ﷺ لهم: **مِمَّنْ أَنْتُمْ**؟، قَالُوا: نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: **أَمِنْ مَوَالِي يَهُودَ**؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: **أَفَلَا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمْكُمْ**؟ قَالُوا: بَلَى، فَجَلَسُوا مَعَهُ، فَدَعَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ.

وَفَوْرَ ما انتهى النبيُّ ﷺ من حديثه قام أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ الذي وجد في هذه الكلماتِ ضالته التي عاش يبحث عنها، فصاح في أصحابه قائلًا: يَا قَوْمِ، اعْلَمُوا- وَاللهِ- أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الَّذِي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ يَهُودُ؛ فَلَا تَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ، ثم انْكَبَّ أَسْعَدُ على النبيِّ ﷺ يقبِّله وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتبعه أصحابُه في مشهدٍ تقشعر له الأبدان، ويذوب معه الوجدان، ولسان حالهم قائلًا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣].

ولما هدأت تلك المشاعر العارمة قال أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ: يا رسول الله، إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا وَلَا قَوْم بَيْنَهُم مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُم، وَعَسَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَجْمَعَهُمُ بِكَ، وَسَنَقْدمُ عَلَيْهِمْ فَنَدْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ،

فَإِنْ يَجْمَعْهُمُ اللهُ عَلَيْكَ فَلَا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ، وَمَوْعِدُنا الْمَوْسِمُ الْعَامَ الْمُقْبِلَ [(١)].

ورجع النَّفَرُ المؤمنون إلى بلدتهم لتشهد يثربُ مولدَ عِمْلاقٍ صغير السِّنِ اسمه أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ، يحمل بين جنبيه نهرًا يتدفق مِن نبْع الإيمان، وبركانًا يتفجر في وجه الطغيان.

ولم تغفل عينُ أسعدَ بعد رجوعه إلى يثرب طرفةَ عَيْنٍ عن مهمته التي نَذَرَ نفسَه لها، وقد بدأت رحلته في الدعوة إلى الله وحده لا شريك له بمعاونة أصحابه، يتسللون سرًّا بين أقرانهم من شباب قومهم حتى آمن معهم عددٌ يُحْصى على أصابع اليدين.

بيعةُ العقَبةِ الأولَى

ومَرَّ عامٌ وجاء موسمُ الحجِّ الذي كان ينتظره داعيةُ يثربَ الدَّؤوب على أَحَرِّ مِن الجَمْرِ شَغَفًا لرؤية رسولِ الله ﷺ في الموعد الذي اتفقا عليه، فخرج أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وبعضُ مَنْ كان معه في اللقاء الأول يصطحبون بعضَ من أسلم على أيديهم بين حجيج قومهم وقلوبُهم تُحَلِّق فوق رؤوس الرَّكْب شَوقًا للقاء الهادي البشير ﷺ.

وما أنْ وصل الرَّكْبُ مكة حتى انْسَلَّ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ من وسطهم يبحث عن رسول الله ﷺ ليرتب معه اللقاء السري الثاني، ولِيُرِي النبيَّ ﷺ ثمرة جهدهم طيلة هذه السَنَة، وهو جهد- واللهِ- عظيم إذ لم يكن معهم من الإسلام شيئًا إلا ما سمعوه من رسول الله ﷺ في اللقاء الأول.

وبالفعل الْتَقَاهُم النبيُّ ﷺ في جوف ليل العقبة، في نفس ليلة اللقاء الأول، وكانوا اثني عشر رجلًا، فتعرف على المسلمين الجُدُدِ، وقرأ عليهم بعض ما أنزل من كلام رب العالمين، فغَمَرَتْهم السَّكِينةُ، وكأنهم صورةٌ متكررةٌ لمن قال الله عنهم: ﴿إِنَّهُمْ

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ١٧٠)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٦٨٩)، والصحيح من أحاديث السيرة (١/ ١٠٦).

﴿فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

فلما رأى النبيُّ ﷺ منهم العزم والجِدَّ والرجولة قال لهم: «**تعالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشرِكُوا بالله شَيْئًا، وَلَا تَسرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شيئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شيئًا فَسَتَرَهُ اللهُ فَأَمْرُهُ إِلَى الله، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ**»[١].

وقد تبدو بنود هذه البيعةِ يسيرةً في أعين البعض إلا إنها في الحقيقة ثورةٌ في وجه الشيطان، فَبِهَا أصبح في يثرب ثُلة مؤمنة تقول للأصنام: لا، وبها أُعْلِنت الحربُ على سلوكيات المجتمع الجاهلي هناك، فلا موءودة بعد الآن، ولا سرقة ولا زنا ولا بهتان، وبها أضحى في يثرب جماعةٌ طاعتهم وولاؤهم فقط لله الواحد الرحمن.

ومن هنا سطع نجمُ أسْعدَ بنِ زُرارةَ في حياة رسول الله ﷺ، حيث استطاع- بمعاونة أصحابه- أن يضع بين يدي النبيِّ ﷺ صَفْوَةً يصنع منها ﷺ اللبِنَةَ الأولى في بناء دولة الإسلام، ومِعْوَلَ هدْمٍ في جدار الصدِّ عن سبيل الله الذي أنشأته قريش، وعَلِمَ الرسولُ ﷺ- عندئذٍ- أنه أصبح لديه في يثرب من يُعتمد عليه.

أما هذه الدقائق التي اجتمع فيها أسْعدُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالرسول ﷺ فقد كانت شُحْنَةً إيمانيةً زادته في طريق الدعوة إلى الله انْطلاقًا.

في بيتِ أسعدَ بنِ زُرارة

ولما رجع أسعَدُ إلى يثرب اجتمع بأصحابه المؤمنين الذين لم يبلغوا بعد عشرين رجلًا، فتشاوروا في كيفية دعوة قومهم إلى عبادة الله وحده، فوجدوا أن أكبر

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٣).

عقبة تُعيق طريقهم هي قلة العلم، فبعثوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ: «أَنِ ابْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلًا مِنْ قِبَلِكَ فَيَدْعُو النَّاسَ بِكِتَابِ الله؛ فَإِنَّهُ أَدْنَى أَنْ يُتَّبَعَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ»[1].

وها هو ذا مُصْعبُ بنُ عميرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد قليلٍ سيصل يثرب بصفته مُمَثِّلَ رسولِ الله ﷺ الرَسْمِي، وسفيرَ الإسلام الدَعَوي، فيا تُرى: من ذا الذي سيُغامِر بحياته ويستضيفه في بيته؟، ومن الذي سيُعَرِّض نفسه لمخاطر الحركة به بين أصنام يثرب لدعوة الناس إلى الإسلام؟، فلا شك أنَّ إيواء مُصعب في هذه الظروف، وفي مثل هذا التوقيت خطوة جريئة لا يصلح لها إلا رجلٌ باع نفسه لله الواحد القهار.

وهنا يظهر على ساحة البطولة والتضحية أصغرُ مُؤمني يثربَ سِنًّا في ذاك التوقيت، وهو الفدائيُّ الشاب: أسعدُ بنُ زُرارةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال عُرْوةُ بنُ الزبير بنِ العوام: «فَنَزَلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ فِي بَنِي غَنْمٍ عَلَى أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَجَعَلَ يَدْعُو النَّاسَ سِرًّا فَيَفْشُو الْإِسْلَامُ، وَيَكْثُرُ أَهْلُهُ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ مُسْتَخْفُونَ بِدُعَائِهِمْ»[2].

فكما كانت دار الأرقم هي مقر الدعوة في مكة كان بيت أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ هو مقرها في يثرب، فيه يجتمع الدعاة، ومنه ينطلقون.

ولم تتوقف خطوات أَسْعَدَ بنِ زُرَارَةَ الجريئة عند استضافة مصعبٍ وتمهيدِ الطريق له، بل خطا خطوةً مباركةً قطعت بالدعوة مسافة بعيدة تجاوزت حدودَ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٤٩) عن عروة بن الزبير، وحسَّنه صاحب السيرة، كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (١/ ١٧٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٤٩) عن عروة بن الزبير، وحسَّنه صاحب السيرة، كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (١/ ١٧٦).

الحربِ الأهليةِ المُندلعةِ في يثرب، حين تسلل بمصعبٍ إلى بعض شباب الأوس في عقر دارهم، فأسلموا على أيديهما، فكانت تلك الخطوة أولَ ذَنُوبِ ماءٍ صُبَّ بحقٍّ على نيران الصراعِ القَبَلي الدموي المشتعلِ منذ زمن بين الأوس والخزرج، وعندئذٍ بدأ الجُرحُ يلتئم.

وكان من أعظم ما أعان به أسعدُ مُصْعبًا في مهمته: أنه كان يُقَدم له نبذةً عن شخصية كل فردٍ تقريبًا يريدون دعوته ليَسْهل على مصعبٍ أن يجد له مَدخلًا.

الدَّعوةُ في طَورِها الجديدِ

ولما تزايدت أعداد المسلمين سِرًّا تسربت أخبارهم إلى كُبراء يثرب من المشركين، أما أسعدُ بنُ زُرَارةَ فلم تتوقف خطواته الجريئة المباركة التي كانت دائمًا تُغير مجرى الأمور، فقد رأى أن الوقت قد حان للدعوة أن ترتحل من السرِّية إلى طَور جديد، فكان يجمعُ البعضَ ويجلس بهم في حَوائط[1] يثرب ليحدثهم مصعبٌ عن الإسلام، ويتلو عليهم القرآن، حتى اجتمعوا يومًا في أحَد حوائط بَني عبد الأشْهل، فجاء الخبر إلى سيدهم سعد بن معاذ، وهو ابن خالة أسعدَ بنِ زرارة، فعلاه الغضبُ وقال لأُسَيْد بن حُضير: ائْتِ أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ فَازْدَجِرْهُ عَنَّا، فَلْيَكُفَّ عَنَّا مَا نَكْرَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ قَدْ جَاءَ بِهَذَا الرَّجُلِ الْغَرِيبِ مَعَهُ يَتَسَفَّهُ بِهِ سُفَهَاؤنَا وَضُعَفَاؤُنَا، فَإِنَّهُ لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ الْقَرَابَةِ كَفَيْتُكَ ذَلِكَ، فهُوَ ابْنُ خَالَتِي، وَلَا أَجِدُ عَلَيْهِ مُقَدَّمًا، فَأَخَذَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ الْحَرْبَةَ، ثم خَرَجَ حَتَّى أَتَاهُمَا، فَلَمَّا رَآهُ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ قَالَ لِمُصْعَبٍ: هَذَا- وَاللهِ- سَيِّدُ قَوْمِهِ قَدْ جَاءَكَ فَاصْدُقِ اللهَ فِيهِ، فَوَقَفَ أَسَيْدٌ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا، فَقَالَ: يَا أَسْعَدُ مَا لَنَا وَلَكَ، تَأْتِينَا بِهَذَا الرَّجُلِ الْغَرِيبِ يَسْفَهُ بِهِ سُفَهَاؤُنَا وَضُعَفَاؤُنَا؟ فاعْتَزِلَانَا إِنْ كَانَتْ

(١) جمع حَائِطُ: وهو الْبُسْتَانُ مِنْ النَّخْلِ إِذَا كَانَ عَلَيْهِ حَائِطٌ، وَهُوَ الْجِدَارُ. ينظر: تاج العروس (١٩/ ٢٢١).

لَكُمَا بِأَنْفُسِكُمَا حَاجَةٌ، فَقَالَ أسْعدُ: أو تَجْلِسُ فَتَسْمَعُ؟ فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ كُفَّ عَنْكَ مَا تَكْرَهُ، فَقَالَ: قَدْ أَنْصَفْتُمْ، ثم رَكَزَ الْحَرْبَةَ وَجَلَسَ، فَكَلَّمَهُ مُصْعَبٌ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَعُرِفَ الْإِسْلَامُ فِي وَجْهِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، ثم قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا وَأَجْمَلَهُ، فأسْلَمَ وشَهِدَ شهادةَ الحَقِّ[(١)].

حِيلةٌ تَهدِي الناسَ للإسلامِ أفواجًا

فلما سَكَنَ الإيمانُ قلب أُسَيدٍ قال لهما: إنَّ وَرَائِي رَجُلًا إنْ اتَّبَعَكُمَا لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَسَأُرْسِلُهُ إِلَيْكُمَا الْآنَ، ثم أَخَذَ حَرْبَتَهُ وَانْصرَفَ إِلَى سَعْدٍ وَقَوْمِهِ وَهُمْ جُلُوسٌ فِي نَادِيهِمْ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُقْبِلًا قَالَ: أَحْلِفُ باللهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أُسَيْدٌ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى النَّادِي قَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: كلَّمتُ الرَّجلَيْنِ، فوالله مَا رَأَيْتُ بِهِمَا بَأْسًا، وَقَدْ نَهَيْتُهُمَا، فَقَالَا: نَفْعَلُ مَا أَحْبَبْتَ، وَقَدْ حُدِّثْتُ أَنَّ بَنِي حَارِثَةَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ لِيَقْتُلُوهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ ابْنُ خَالَتِكَ؛ لِيُخْفِرُوكَ فيه، فَقَامَ سَعْدٌ مُغْضَبًا مُبَادِرًا، تَخَوُّفًا لِلَّذِي ذُكِرَ لَهُ مِنْ بَنِي حارِثَةَ، فَأَخَذَ الْحَرْبَةَ، ثم خَرَجَ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا رَآهُمَا سَعْدٌ مُطْمَئِنَّيْنِ عَرَفَ أَنَّ أُسَيْدًا إِنَّمَا أَرَادَ مِنْهُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُمَا، فلما رآه أَسْعَدُ بْن زُرَارَةَ قال لِمُصْعَبٍ: قد جَاءَكَ- وَاللهِ- سَيِّدُ مَنْ وَرَاءَهُ مِنْ قَوْمِهِ، إنْ يَتَّبِعْكَ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْكَ مِنْهُمْ اثْنَانِ، فَاصْدُقِ الله فِيهِ، فَوَقَفَ سَعْدٌ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا، ثم قَالَ لِأَسْعَدَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ، أَمَا- وَاللهِ- لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ الْقَرَابَةِ مَا رُمْتَ هَذَا مِنِّي، أَتَغْشَانَا فِي دَارِنَا بِمَا نَكْرَهُ، فَقَالَ لَهُ: أو تَجْلِسَ فَتَسْمَعَ، فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ أُعْفِيتَ مِمَّا تَكْرَهُ، قَالَ: أَنْصَفْتُمَانِي، ثم رَكَزَ الْحَرْبَةَ وَجلَسَ، فَكَلَّمَهُ مُصْعَبٌ وَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِ

(١) ينظر: السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٤٣٦)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ٤٣٨)، وصحيح السيرة النبوية، للعلي (١٠٧).

الْقُرْآنَ، فعُرِفَ في وجهه الْإِسْلَامُ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، ثم قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامَ وَأَجْمَلَهُ، فأسْلَمَ وشهد شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثم انصرف إلى قَوْمِهِ وَمَعَهُ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، فقال لهم: يَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، كَيْفَ تَعْلَمُونَ أَمْرِي فِيكُمْ؟ قَالُوا: سَيِّدُنَا، وَأَفْضَلُنَا رَأْيًا، وَأَيْمَنُنَا نَقِيبَةً، قَالَ: فَإِنَّ كَلَامَ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تُؤْمِنُوا بالله وبرسوله، فوالله مَا أَمْسَى فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا وَمُسْلِمَةً، وَرَجَعَ أَسْعَدُ وَمُصْعَبٌ إِلَى مَنْزِلِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ، حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ يثرب إِلَّا وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ يُظْهِرُونَ الْإِسْلامَ، ثم رجع مصعبٌ إلى النبيِّ ﷺ ليُبَشره بذلك[(١)].

وهكذا يثربُ لم يَعرفْ أهلُها الإسلامَ بالسيف والسِّنان، بل غَزَا الإيمانُ قلوبَهم بالدعوة وحُسْنِ البيان.

وكما نلمح من هذه الأحداث روعة سفير الإسلام مصعب نلمح- أيضًا- روعة أسعدَ بنِ زُرارةَ المُخْلِصِ الدؤوب، فهو فاتح المدينة الحقيقي، ولكنْ من وراء ستار.

ثم لم تتوقف خطوات أسعدَ بنِ زُرارةَ الجريئةِ المباركةِ عند هذا الحدِّ، بل جاوزت كل التوقعات، فعندما أظهر هو وأصحابه إسلامهم قام ومعه عُمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ وَعَوْفُ بْنُ عَفْرَاءَ يَكْسِرُونَ أَصْنَامَ بَنِي النَّجَّارِ[(٢)].

دَورهُ في تَغييرِ مَجرى التَّاريخ

واجتمع أسْعدُ يومًا بعامة من أسلم من قومه ليتشاوروا في حال رسول الله ﷺ مع قريش فقالوا: «حَتَّى مَتى نَتْرُكُ رَسُولَ الله ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ؟»[(٣)]،

(١) ينظر: السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٤٧٦)، والمسند (١٤٦٥٣)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ٤٣٨)، وصحيح السيرة النبوية، للعلي (١٠٧).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٤٥٧)، وتاريخ دمشق (٤٣/ ٣٠٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٨٣٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦٣).

وطالت جلسة المشاورة السِرِّية حتى تواطأت كلمتهم على قرارٍ حاسمٍ سيغَير مَجْرَى دعوة الإسلام، بل سيغَير مَجْرَى التاريخ بأكمله، ألا وهو إيواء النبيِّ ﷺ في بلدتهم ونصرته؛ ليقيمَ دولة الإسلام على أرضهم، وتنطلقَ الدعوة من بينهم في الأقطار والأمصار، حتى يَبْلُغَ دينُ اللهِ ما بلَغ الليل والنهار، كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.

بيعةُ العقبةِ الكُبرَى[1]

كتم أنصارُ الله ما اتفقوا عليه في صدورهم حتى جاء موسم الحجِّ في السنة الثالثة عشر من بعثة النبيِّ ﷺ فخرجوا في حجيج قومهم، تحمل قلوبهم إيمانًا أشد رسوخًا من الشُّمِّ الرَّواسي، ولما وصل الرَّكْبُ مكة أرسلوا إلى النبيِّ ﷺ سِرًّا يواعدونه شعب العقبة أوسط ليالي أيام التشريق.

ولما جاءت الليلة الموعودة نام المؤمنون مع قومهم أول الليل في رحالهم حفاظًا على سرية الأمر حتى مضى ثلثُ الليل، ثم قاموا يتسللون في خفة الطير واحدًا تلو الآخر، يسيرون في طرق متفرقة حتى اجتمعوا في الشِّعْبِ وهم ثلاثةٌ وسبعون رجلًا وامرأتان.

ثم جاء النبيُّ ﷺ ومعه عمه العباسُ وهو يومئذٍ على دين قومه إلا أنه أحبَّ أنْ يستوثق لابن أخيه، فقد كان العباس تاجرًا معروفًا وله علاقة بكبراء يثرب، فلما نظر العباس في وجوه الأنصار خَشِيَ على النبيِّ ﷺ وقال له: يا ابن أخي، هؤلاء قوم لا أعرفهم، وإنهم أحداث السِّن، ولكنَّ العباس أحسَّ أنَّه ﷺ يريد أنْ يسمع منهم، فالتفت إليهم قائلًا: إنَّ مُحَمّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إِلَّا الِانْحِيَازَ إِلَيْكُمْ وَاللُّحُوقَ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ

---

(١) ينظر: المسند (١٥٨٣٦، ١٤٦٥٣، ١٤٦٩٦)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣٧١٠٣)، والطبقات الكبرى (٤/ ٦)، والسلسلة الصحيحة (٦٣).

فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ فَمِنْ الْآنَ فَدَعُوهُ فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ.

فلما انتهى العباسُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من كلامه قال لهم: لِيَتَكَلَّمْ مُتَكَلِّمُكُمْ وَلا يُطِلِ الْخُطْبَةَ فَإِنَّ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَيْنًا، وَإِنْ يَعْلَمُوا بِكُمْ يَفْضَحُوكُمْ، فقدَّمَ الأنصارُ أسعدَ بنَ زُرارةَ- وهو أصغرهم سِنًّا- ليتكلم، فقال: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ يا عبَّاس، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللهِ فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ، فقَالَ ﷺ: **تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لَا تَأْخُذْكُمْ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصرُونِيَ إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ، وَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ عَنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ.**

فلما قام الحاضرون ليبايعوا أمسك أسعدُ بنُ زرارة بيَدِ النبيِّ ﷺ، وأشار بيده الأخرى إلى أصحابه قائلًا: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، هَلْ تَدْرُونَ عَلَى مَا تُبَايِعُونَ؟ فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعَضَّكُمْ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ، فَقَالُوا: يَا أَسْعَدُ بْنَ زُرَارَةَ أَمِطْ عَنَّا يَدَكَ، فَوَاللهِ لَا نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا وَلَا نَسْتَقِيلُهَا.

أولُ مَن بايَع في العقبةِ

فلما استوثق أسعدُ من أصحابه واطمأن قلبه التفت إلى النبيِّ ﷺ فكان أول من شَرُفَتْ يَدُهُ ببيعة رسول الله ﷺ، وفي مشهدٍ مهيب قام أنصار الله يبايعون الله ورسوله على نُصرة هذا الدين، ولقد كانت تلك اللحظات هي نقطة تحول في تاريخ دعوة الإسلام، فبها أُقيمت له دولة، وأصبح له أنصارٌ ذوو شوكة، فحُق لأبطال هذه البيعة أن يفخروا بها، ولله درُّ قائلهم: «لَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى

الْإِسْلَامِ وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَأَشْهَرَ»[(١)]، وكان رَافِعٌ الزُّرَقِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «مَا يَسرُّنِي أَنِّي شَهِدْتُ بَدْرًا بِالعَقَبَةِ»[(٢)]، ومثل هذه الأقوال لا تقلل من شأن بدر، ولكنها تبرهن على عِظَمِ بيعة العقبة في نفوس الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولقد كان من عِظَمِ قدرِها في نفوس الناس: أن تساءلوا يومًا عن أول يَدٍ شرَّفها اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ببيعة رسوله ﷺ تلك الليلة، فاختلفت الأوس والخزرج، فقال الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا أَحَدٌ أَعْلَمَ بِهَذَا مِنِّي، أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ تِلْكِ اللَّيْلَةِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ، ثم الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، ثم أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ»[(٣)].

سيدُ نُقباءِ الأنصار

ولما انتهى النبيُّ ﷺ من بَيعتهم قال: «**أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ**»[(٤)]، فانتخب الأنصار نقباءهم، فكان أسعدُ بنُ زرارة نقيبَ بني النجار، وقيل: بل اصطفاهم الله جَلَّ وَعَلَا كما اصطفى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ نقباء بني إسرائيل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢]، فقد روى ابنُ أبي عاصمٍ عنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَحَدِ أبطالِ البيعة - أنه قال: «فَأَوْحَى الله تَعَالَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ: أَنِ اخْتَرْ مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لَا يَغْضَبَنَّ رَجُلٌ أَخَذْتُ غَيْرَهُ، فَإِنَّمَا يُشِيرُ إِلَيْهِمْ جِبْرِيلُ رَجُلًا رَجُلًا**»[(٥)].

وكان من وظيفة النقباء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أنْ يأخذوا البيعة لرسول الله ﷺ من أقوامهم، وأنْ يُمَثل كلٌّ منهم قومه عند الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٩)، وأحمد (١٥٧٨٩)، واللفظ له، عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٩٣).
(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (٤/ ٦)، وأسد الغابة (١/ ٢٠٥)، والإصابة (١/ ٢٠٨).
(٤) أخرجه أحمد (١٥٨٣٦)، وصحَّحه الألباني في تحقيق فقه السيرة (ص١٣٦).
(٥) الآحاد والمثاني (١٨٢٢).

ثم اصطفى النبيُّ ﷺ أسعدَ بنَ زرارةَ رئيسًا على نُقباء الأنصار جميعًا، فعن أمِّ المؤمنين عائشةَ قالت: «إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَقَّبَ أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ عَلَى النُّقَبَاءِ»[(١)]، وعن عَبْدِ الله بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ: «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ- لِأَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ- **أَنْتَ عَلَى قَوْمِكَ بِمَا فِيهِمْ**»[(٢)].

وكأنَّ ذلك من رسول الله ﷺ إبرازًا لمكانة أسعدَ بنِ زُرارة أمام الجميع، وعرفانًا بفضله وسَبْقه.

أولُ من خطبَ الجُمعةَ بالمدينةِ

ولما فُرِضَتْ صلاةُ الجمعة أمر النبيُّ ﷺ بإقامتها في المدينة، فجمع أسعدُ بنُ زُرارة بعضَ الأنصار فخطب فيهم، وصلى بهم أولَ جُمُعَةٍ في المدينة[(٣)]، فعن كعب بن مالك قال: «كَانَ أَسْعَدُ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى بِنَا صَلَاةَ الْجُمُعَةِ فِي الْمَدِينَةِ قَبْلَ مَقْدِمِ رَسُولِ الله ﷺ فِي هَزْمٍ مِنْ حَرَّةِ بَنِي بَيَاضَةَ فِي نَقِيعِ الْخَضَمَاتِ»[(٤)].

فيا لها من منقبة عظيمة لك يا أبا أمامة، اصطفاك الله لها حين ارتضاك رسوله ﷺ لتَحلَّ مَحِلَّهُ في الناس قبل أنْ يهاجر إليهم.

ثم لما انتهوا من صلاتهم اصطحبهم أسعدُ بنُ زُرارة إلى بيته فذبح لهم وأطعمهم في مشهد تُنْعِشُهُ نسماتُ المحبة، ولم يتذوق الأنصارُ في بيت أسعدَ طعم الإيمان فحسب، ولم يتذوقوا فيه لذيذ الطعام فقط، بل تذوقوا فيه- أيضًا- حلاوةَ الأُخُوَّةِ في الله[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٤٥٢).

(٢) دلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ٤٥٣).

(٣) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٣/ ١٥٩)، وفتح الباري، لابن رجب الحنبلي (٨/ ٦٥).

(٤) ينظر: سنن ابن ماجه (١٠٨٢)، والمعجم الكبير، للطبراني (١٧٦)، وصحيح سنن أبي داود (٩٨٠).

(٥) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٣/ ١٥٩)، والروض الأنف (٤/ ١٠١).

ولتلمح معي- أيها القارئ الكريم- صفةَ الكرم وخُلُقَ البذل لله في شخصية أسعدَ بنِ زرارة، كلما تجددت مواقفه التي تُبرهن على حُبه للدعوة إلى الله، وسعيه في التئام الصفِّ المسلم، واجتهاده في صناعة مناخٍ صافٍ تسوده روح الحبِّ والودِّ، وكأنها بذورألقاها في قلوب أهل المدينة ليجنيَ النبيُّ ﷺ ثمارها عند قدومه.

أسعدُ يَبنِي أول مسجدٍ في المدينةِ

ولم تزل نفحات التوفيق الإلهية تتوالى في حياة أسعدَ بنِ زُرارة لتسوقه نحو السَبْقِ بالخيرات، ومن ذلك: بناؤه لمسجدٍ صغيرٍ بدائيِّ الملامحِ وسطَ ديار بني النجار يجمعهم فيه لأداء الصلوات الخمس في جماعة قبل مَقْدم النبيِّ ﷺ[١].

فقد روى ابنُ سَعدٍ بسنده عن النُّوَارِ أُمِّ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قالت: «أَنَّهَا رَأَتْ أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ قَبْلَ أَنْ يَقْدمَ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَيُجَمِّعُ بِهِمْ فِي مَسْجِدٍ بَنَاهُ فِي مِرْبَدِ[٢] سَهْلِ وَسُهَيْلٍ ابْنَيْ رَافِعٍ، وقَالَتْ: فَأَنْظُرُ إلى رسول الله ﷺ لَمَّا قَدِمَ صَلَّى فِي ذَلِكَ الْمَسْجِدِ وَبَنَاهُ فَهُوَ مَسْجِدُهُ ﷺ الْيَوْمَ»[٣].

وقد يشهد لهذه الرواية: ما جاء في صحيح البخاري عن عروة بن الزبير: «أَنَّ ناقة النبيِّ ﷺ بَرَكَتْ عند مِرْبَدٍ لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ- غُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ- وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فاشتراه النبيُّ ﷺ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا»[٤].

---

(١) تنبيه: لا تصح الروايات التي تقول: إن مُصعبًا أول من جمَّع بالمدينة، والحديث الذي أخرجه الدارقطني عن ابن عباس في ذلك قال عنه ابن رجب الحنبلي- في فتح الباري (٨/ ٦٤)-: إسناده موضوع.

(٢) وهو موضع لتجفيف التمر. ينظر: معجم لغة الفقهاء (١/ ١٦٣).

(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ٤٥٧).

(٤) ينظر: صحيح البخاري (٣٩٠٦).

فلعله بذلك يفوز بأمرين: أحدهما: أن يكون هو أول من بَنَى لله مسجدًا في المدينة، والثاني: قول النبيِّ ﷺ: «**مَنْ بَنَى لله مَسْجِدًا وَلَوْ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ**[١]، **أو أَصْغَرَ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الجنة**»[٢].

أسعدُ في جوارِ الحبيب ﷺ

ولما هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة دخل من ناحية قُباء فتلقَّاه أهلها بالترحاب، فتصفح ﷺ وجوه الناس فلم يَرَ حبيبه أسعدَ الذي كان حلقة الوصل بينه ﷺ وبين هؤلاء الأنصار، فسأل عنه النبيُّ ﷺ قائلًا: «**أَيْنَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ؟**»[٣]، فأخبروه ﷺ أنه أُخْبِرَ.

وفي هذا السؤال النبوي إشارة إلى أهمية أسعدَ بنِ زرارة في حياته ﷺ، فهو سيد نقباء الأنصار، وصاحب هذه الترتيبات الكبرى التي غيرت مَجرى الأمور، والعجيب: أنه مع كل هذا كان في هذا التوقيت قد تجاوز سِنُّه العشرين بسَنَةٍ، أو سنتين فقط.

ثم جاء أسعدُ بنُ زرارة يقود مَلَأً بنِي النجار، فاصطحبوا النبيَّ ﷺ إلى المدينة، هو ﷺ على راحلته وهم حوله مُتَقَلدي سيوفهم[٤]، فتنازع الأنصارُ أيهم ينزل عليه رسولُ الله ﷺ، فقال ﷺ: «**أَنْزِلُ عَلَى بَنِي النَّجَّارِ أَخْوَالِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أُكْرِمُهُمْ بِذَلِكَ**»[٥]، فكأني بأسعدَ يطير قلبه فرحًا بهذا الخبر؛ لمجاورة الحبيب ﷺ.

---

(١) هي الحفرة التي تحفرها الطائر لتبيض فيها وترقد. ينظر: لسان العرب (٧/ ٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٧)، وابن حبان (١٦١٠)، وابن ماجه (٧٣٨)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦١٢٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٦٩١).

(٤) ينظر: البخاري (٣٩٣٢)، ومسلم (٥٢٤).

(٥) أخرجه مسلم (٧٥).

بناءُ المسجدِ النبويِّ

كان ﷺ كلما أراد الناس أن يأخذوا بِخِطَامِ رَاحِلَتِهِ يقول: «**خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**»[١]، أي: أنَّ الناقة مأمورة من الله أن تقف في مكان معين.

فأخذتِ الناقة تمشي في الطرقات بين البيوت حتى بَرَكَتْ بأمر الله سبحانه عند مِرْبَدٍ لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ- غُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ-[٢]، وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: **هَذَا- إن شاء الله- الْمَنْزِلُ**، ثم قَالَ ﷺ: **يَا بَنِي النَّجَّارِ، ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا**، فَقَالُوا: لَا والله، مَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا مِنَ الله، ثم دَعَا رَسُولُ الله ﷺ الغُلاَمَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالَا: لَا، بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ الله، فَأَبَى ﷺ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا، ثم بَنَاهُ مَسْجِدًا، وهو المسجد النبوي المعروف[٣].

وهنا تظهر أمامنا كرامةٌ جديدةٌ لأسعدَ بنِ زُرارة، حيث أمر الله سبحانه الناقةَ أنْ تقف في مشهدٍ يرقبه الجميع عند المكان الذي اتخذه أسعدُ مِن قبل مسجدًا؛ لِيُبْنَى فيه بأمر الله ثاني الحرمين الشريفين، فلعلها محبةٌ إلهية، أو مكافأة ربانية على جهوده في خدمة هذا الدين.

ونلمح- أيضًا- في ثنايا القصة أخلاقًا جديدةً نتعرف عليها في شخصية أسعدَ بنِ زُرارةَ، كالمروءة والشهامة والرحمة، وذلك في كفالته لليتيمين، ورعايته لهما، وحسن إدارته لشئون مالهما حال يُتْمهما.

مَرضُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وبعدما أدَّى أسعدُ بنُ زُرارة مهمته على أكمل وجه، واستقرت أمور النبيِّ ﷺ

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ١٨٣)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ٥٠٤).

(٢) أي: هو المسئول عن تربيتهم ورعايتهم حال يتمهم. وينظر: مشارق الأنوار على صحيح الآثار (١/ ١٨١).

(٣) ينظر: صحيح البخاري (٤٢٨، ٣٩٠٦).

والمهاجرين في المدينة إلى حَدٍّ كبير شَعَرَ ذلكم الشاب الأنصاري بوجعٍ شديدٍ في جسده ألزَمَه الفراش حتى افتقده النبيُّ ﷺ، فجاءه خبرُ مرضه وهو يَبْنِي المسجدَ مع المهاجرين والأنصار، فترك ﷺ ما في يده وانطلق إلى بيت حبيبه أسعدَ بنِ زُرارة يعوده، فوجده طريحَ الفراش لا يتحرك، وقد عَلَتْ وجهَه وجسدَه حُمْرَةٌ، وقد أصيب بمَرضٍ يقال له: الذُّبْحَةُ، فجلس النبيُّ ﷺ إلى جنبه وملامحه الشريفة تعلوها آثارُ الحُزن، فلما تبين ﷺ من سُوء حالته وخطورة ما أصابه على حياته جَهَرَ ﷺ أمام الحاضرين قائلًا: «**لَأُبْلِغَنَّ فِي أَبِي أُمَامَةَ عُذْرًا**»، وفي رواية: «**لَا أَدَعُ فِي نَفْسِي حَرَجًا مِنْ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ**»[(١)]، فعزم ﷺ على مداواته بنفسه، وكواه في مواضع من جسده، ولكنَّ الله أبَى إلا أنْ يقبض إليه أسعدَ بنَ زُرارة، بعدما قضى نحبه، ووفَّى الذي عليه[(٢)].

وحانَ وقتُ الرَّحيلِ

وبعدما سلك النبيُّ ﷺ ما يستطيع من طُرق في علاجه أحَسَّ أسعدُ أنه يلتقط أنفاسه الأخيرة من الدنيا فأوصَى حبيبَه ونبيَّه ﷺ ببناته، ثم خرجت روحُه إلى بارئها، وخيَّم الحزن على أرجاء المدينة أسفًا على سيد نقبائها.

فأمر النبيُّ ﷺ أن يُسرعوا بجهازه، ثم أشرف على غُسله بنفسه، وَكَفَّنَهُ فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ، ثم صفَّ الناسَ وصلَّى بهم على جثمانه، ثم حَمَله المهاجرون والأنصار وخرج النبيُّ ﷺ يمشي أمام جنازته حتى دُفِنَ بالبقيع، وتزاحم المُشَيِّعون له في مشهد وداعٍ على أمل اللقاء به في جنات النعيم.

---

(١) المراد: لأسلكن كل الطرق حتى أبلغ نهايتها في علاجه، حتى لا تشعر نفسي بالتقصير في حقه. ينظر: إنجاح الحاجة (١/ ٢٤٩).

(٢) ينظر: المسند (١٦٦١٨)، وابن ماجه (٣٤٩٢)، والترمذي (٢٠٥٠)، والمعجم الكبير (٨٩٤)، وصحيح موارد الظمآن (١١٧٩).

وكان موته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شوَّال من السنة الأولى، على رأس تسعة أشهر من الهجرة النبوية.

وزعم البعضُ: أنه أول من دفن بالبقيع من الأنصار، ولكن الصحيح: أن البراء بن معرور دُفن قبله في صَفَر قبل مقدم رسول الله ﷺ[1].

ماتَ نقيبُنا

وبعدما فُرِغَ مِنْ دفن أسعدَ بنِ زُرارة وانفضت جموع الناس من البقيع جاء بنو النَّجَّار إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله، قَدْ مَاتَ نَقِيبُنَا فَنَقِّبْ عَلَيْنَا.

وظن الحاضرون أن النبيَّ ﷺ سيختار أحد الأنصار مكانه، ولكن مَنْ ذا الذي يستطيع أنْ يملأ مكان أبي أمامة من بعده؟!، ففوجئ الجميع بقول النبيّ ﷺ لهم: «**أَنَا نَقِيبُكُمْ يَا بَنِي النَّجَّارِ**»[2].

فيا لها من منقبة فريدة لك يا أسعدَ بنَ زُرارة، تتزيَّنُ بها قائمة مناقبك بعد موتك.

أسعدُ في ذاكرةِ المُسلِمينَ

أما النبيُّ ﷺ فلم يَنْسَ وصيةَ صاحبِهِ أسعدَ ببناته، وكيف وهو القائل ﷺ: «**خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ**»[3]، فقد كان ﷺ يتعهدهم بزيارته، ويتفقد أحوالهم، ويقضي حاجاتهم، ويغدق عليهم بالهدايا، وها هي زَيْنَبُ بِنْتُ نُبَيْطٍ حفيدة أسعدَ بنِ زُرَارةَ تحكي لنا طرفًا من هذا الوفاء النبوي فتقول: «إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَلَّى أُمَّهَا وَخَالَتَهَا، وَكَانَ أَبُوهُمَا أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ أَوْصَى بِهِمَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَحَلَّاهُمَا رِعَاثًا مِنْ تِبْرٍ ذَهَبٍ فِيهِ لُؤْلُؤٌ، وقَالَتْ زَيْنَبُ: وَقَدْ أَدْرَكْتُ الْحُلِيَّ، أو بَعْضَهُ»[4].

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٤٥٩)، والمعجم الكبير (٤٥٤)، وأسد الغابة (١/ ٢٠٥)، والإصابة (١/ ٢٠٨).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٤٥٩)، والمستدرك (٤٨٥٧)، وأسد الغابة (١/ ٢٠٥)، والإصابة (١/ ٢٠٨).

(٣) أخرجه أحمد (٦٥٦٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٠٣).

(٤) أخرجه الحاكم (٤٨٦٠)، والبيهقي في الكبرى (٧٥٦٠)، والطبراني في الكبير (٤٥٤).

وأما الصحابة فقد ترك أسعدُ في ذاكرتهم بَصَمَاتٍ، وفي مدينتهم آثارًا وعلاماتٍ، جعلته خالدًا في قلوبهم، ومن أمثلة ذلك: ما حَدَّثَ به عبدُ الرحمَنِ بنُ كَعبِ بنِ مَالكٍ حين قال: كُنْتُ قَائِدَ أَبِي حِينَ ذَهَبَ بَصَرُهُ، وَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ بِهِ إِلَى الْجُمُعَةِ فَسَمِعَ الْأَذَانَ تَرَحَّمَ عَلَى أَبِي أُمَامَةَ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَتِ، مَا لَكَ إِذَا سَمِعْتَ الْأَذَانَ بِالْجُمُعَةِ تَرَحَّمْتَ لِأَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ؟، قَالَ: لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ صَلَّى بِنَا صَلَاةَ الْجُمُعَةِ بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ الله ﷺ فِي هَزْمِ النَّبِيتِ مِنْ حرَّةِ بَنِي بَيَاضَةَ فِي نَقِيعٍ يُقالُ لَهُ الْخَضَمَاتُ، قُلتُ: كمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟، قَالَ: أَرْبَعِينَ رَجُلًا[1].

فما أجمل هذا الجيل، كان الوفاء شيمتهم، والاعتراف بأصحاب الفضل طبيعتهم.

ورَحَمَ اللهُ أسعدَ بنَ زُرَارَةَ الذي ضرب لنا مثالًا للتفاني في خدمة هذا الدين، ورَسَمَ لنا صورةً من المروءة والبذل والتضحية والعطاء والدعوة إلى الله ستظل أَبَدَ الدَّهر شَاخِذَةً لِهِمَمِ المُتأملين.

رضي الله عن أبي أمَامَة،

وعن الصحابة أجمين



(١) ينظر: ابن ماجه (١٠٨٢)، والحاكم (١٠٣٦)، وابن خزيمة (١٧٢٤)، والكبرى، للبيهقي (٥٦٠٦)، وصحيح أبي داود (٩٨٠).

مَرثدُ بنُ أبي مَرثدٍ الغنَويُّ

رَجلُ المُهمَّاتِ الصعبةِ

إِنَّهُ شَابٌّ من المهاجرين، كان يقود فرقة العمليات الخاصة لجيش الإسلام في عصر النبوة، فقد كان من مهامه أن ينزل بفرقته، أو وَحْده- أحيانًا- خلف خطوط العدو، أو بين معسكراتهم، أو في عُقْر دَارِهم؛ لتنفيذ عمليات في غاية الخطورة، من أعظمها: أنه كان يتسلل نحو المسلمين الأسرى المحتجزين في سجون ومعتقلات المشركين فيحررهم من الأسر، ويعود بهم إلى رسول الله ﷺ.

ولقد رَسَمتُ صورةً لشكله في خاطري من خلال معايشتي لسيرته وتفاصيل حياته، فكأني أنظر إليه شَابٌّ فتيٌّ جَسِيمٌ، مَفْتُولُ العضلات، وسيم الوجه.

وكأني به مع ذلك طاهر القلب، ثابت الْجَأْشِ، خفيف الحركة، مِقْدَامٌ في غير تهور، متعدد المهارات، حاد الذكاء، سريع البديهة.

والآن فافتح لنا أيها التاريخ أبوابك؛ لندخل إلى بستان الصالحين من أصحاب الرسول الأمين ﷺ، فنقتطف منه بعض مواقف مَرْثَدِ الْغَنَوِيِّ ومناقبه، فنستنشق عبيرها، ونتعرف عليه من خلالها.

اسمُه ونسبُه

هو: مَرْثَدُ بْنُ كَنَّازٍ بْن حُصَيْنِ بْنِ يَرْبُوعِ، الْغَنَوِيِّ، البَدْرِيُّ.

كان أبوه صحابيًّا جليلًا، وكان يُكْنَى به، فقد كان يُقَالُ لَهُ: مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ

الْغَنَوِيُّ، وكان من حُلَفَاءَ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنهم جميعًا[(١)].

وأخوه الأصغر هو أَنَسُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد أبطال المهمات كأخيه، وهو الفارس الذي قال له النبيُّ ﷺ- لِمَا أبلاه في غزوة حُنَيْنٍ-: «**قَدْ أَوْجَبْتَ؛ فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْمَلَ بَعْدَهَا**»[(٢)]، أَيْ: عَمِلْتَ عَمَلًا يُوجِبُ لَكَ الْجَنَّةَ[(٣)].

هجرتُه للهِ ورسولِه

لمَّا أمر الله المؤمنين بالهجرة إلى المدينة خرج مَرْثَدٌ مع أبيه وأخيه وأسرتهم ممتثلين لأمر الله ورسوله، وقد خَلَّفُوا وراء ظهورهم في مكة بيوتهم، وأموالهم، وملاعب الصبا، حتى أَتَوا المدينة، فاستقبلهم أنصارُها أحسن استقبال، واستضافهم في بيته أولَ مقدمهم كُلْثُومُ بْنُ الْهِدْمِ، وقيل: سعدُ بنُ خيثمة رضي الله عنهم جميعًا.

ولما هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة آخَى بين مَرْثَدٍ الغنويِّ وبين أوس بن الصامت في مشهد الإخاء العظيم بين المهاجرين والأنصار عليهم رضوان الله[(٤)].

وفي يومِ بدرٍ

خرج النبيُّ ﷺ بمن كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وخرج معه مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيُّ عَلَى فَرَسٍ يُقَالُ لَهُ: السَّبَلُ، واستخلف ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكَانُوا يَوْمَ بَدْرٍ بَيْنَ كُلِّ ثَلاثَةٍ بَعِيرٌ، وَكَانَ زَمِيلَيْ رَسُول الله ﷺ علي بن أبي طالب وَأَبُو لُبَابَةَ، فَإِذَا حَانَتْ عُقْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ قَالا: ارْكَبْ وَنَحْنُ نَمْشِي، فَيَقُول ﷺ: «**مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الأَجْرِ مِنْكُمَا**»، حتى إذا كانوا بالرَّوْحَاءِ ردَّ النبيُّ ﷺ أَبَا لُبَابَةَ

---

(١) ينظر: الإصابة (٦/ ٥٥)، وأسد الغابة (٥/ ١٣٢)، والاستيعاب (٣/ ١٣٨٣)، ومعرفة الصحابة (٥/ ٢٣٨٧).

(٢) ينظر: سنن أبي داود (٢٥٠١)، والنسائي (٨٨٧٠)، والسلسلة الصحيحة (٣٧٨).

(٣) ينظر: عون المعبود (٥/ ٣٩٤).

(٤) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٤٧)، والاستيعاب (٣/ ١٣٨٣)، وأسد الغابة (٤/ ٣٦١).

واستخلفه على المدينة، فَقَرَّبَ النبيُّ ﷺ مَرْثَدًا الْغَنَوِيَّ فجعله زَمِيلَه مكان أبي لُبَابَةَ، فكان مَرْثَدٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا حَانَتْ عُقْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ قال له: ارْكَبْ وَنَحْنُ نَمْشِي عنك يا رسول الله، فَيَقُول ﷺ: «**مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الأَجْرِ مِنْكُمَا**»[(١)].

وفي هذا المشهد الجميل رَسَم لنا مَرْثَدٌ وأصحابُه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ صورةً بديعةً نرى من خلالها أدب الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مع رسول الله ﷺ وتعظيمهم لمقامه، إلى جَنْبِ صور البطولة والجهاد.

وقد أبلى مَرْثَدٌ الْغَنَوِيُّ يوم بدرٍ بَلاءً حَسَنًا، فكان ممن فاز بقول النبيِّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[(٢)].

وفي لفظ: «**فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ**»[(٣)].

ثم شَهِدَ مَرثدٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أُحُدًا وحَمْرَاءَ الأَسَدِ في السنة الثالثة مع رسول الله ﷺ[(٤)].

رحلةُ الجِهادِ والعِفَّةِ والمُغامرةِ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيُّ، وَكَانَ رَجُلًا شَدِيدًا، وَكَانَ رَجُلًا يَحْمِلُ الْأَسْرَى مِنْ مَكَّةَ، حَتَّى يَأْتِيَ بِهِمُ الْمَدِينَةَ، وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهَا: عَنَاقٌ، وَكَانَتْ صَدِيقَةً لَهُ- في الجاهلية- وَإِنَّهُ كَانَ وَعَدَ رَجُلًا مِنْ أُسَارَى مَكَّةَ يَحْمِلُهُ، قَالَ مَرْثَدُ: فَجِئْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى ظِلِّ حَائِطٍ مِنْ حَوَائِطِ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، فَجَاءَتْ عَنَاقٌ فَأَبْصرَتْ سَوَادَ ظِلِّي بِجَنْبِ الْحَائِطِ، فَلَمَّا انْتَهَتْ إِلَيَّ عَرَفَتْنِي، فَقَالَتْ: مَرْثَدٌ؟، فَقُلْتُ: مَرْثَدٌ، فَقَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، هَلُمَّ فَبِتْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ فِي

---

(١) ينظر: المسند (٣٩٦٥)، والطبقات الكبرى (٣/ ٤٨)، والبداية والنهاية (٣/ ٢٦٠)، وابن هشام (٥١٦)، والسير (١/ ٣٢٦).

(٢) أخرجه البخاري عن علي بن أبي طالب (٣٠٨١)، وأخرجه أحمد عن أبي هريرة (٧٩٢٧)، واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٩٣).

(٤) ينظر: الاستيعاب (٣/ ١٣٨٣).

الرَّحْلِ، فَقُلْتُ: يَا عَنَاقُ، قد حَرَّمَ اللهُ الزِّنَا، فَقَالَتْ: يَا أَهْلَ الْخِيَامِ، هَذَا الرَّجُلُ يَحْمِلُ أَسْرَاكُمْ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ: فَتَبِعَنِي ثَمَانِيَةٌ، فَسَلَكْتُ الْخَنْدَمَةَ[1] فَانْتَهَيْتُ إِلَى كَهْفٍ، أو غَارٍ فَدَخَلْتُ، فَجَاءُوا حَتَّى قَامُوا عَلَى رَأْسِي، فَبَالُوا فَطَارَ بَوْلُهُمْ عَلَى رَأْسِي، وَأَعْمَاهُمْ اللهُ عَنِّي فَرَجَعُوا، وَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي فَحَمَلْتُهُ- وَكَانَ رَجُلًا ثَقِيلًا- حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْإِذْخِرِ، فَفَكَكْتُ عَنْهُ كَبْلَهُ، فَجَعَلْتُ أَحْمِلُهُ وَيُعْيِينِي حَتَّى قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَنْكِحُ عَنَاقًا؟، فَأَمْسَكَ رَسُولُ الله ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ شيئًا حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **يَا مَرْثَدُ، الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً، أو مُشرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ، أو مُشْرِكٌ، فلَا تَنْكِحْهَا**[2].

لله دَرُّكَ أيها الشاب الْعَفِيفُ، واللهِ لقد قمتَ بمعنى الجهاد حقًّا، فلربما نجد إنسانًا يَسهُلُ عَلَيْهِ أن يُجاهد الأعداء بالسيف، لكنه لا يستطيع أن يجاهد نفسه أمام شهواتها؛ لذلك قال النبيُّ ﷺ: «**أَفْضَلُ الْجِهَادِ: مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ فِي ذَاتِ الله، وَأَفْضَلُ الْمُهَاجِرِينَ: مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**»[3]، وها هو مَرْثَدُ الشاب القوي الْأَعْزَبُ يُعرَضُ عليهِ الزنا من امرأة بَغِيٍّ مُتَزَيِّنَة تقول له: هَيْتَ لَكَ، فيقول قلبُه الطاهر: مَعَاذَ الله، إِنِّي أَخَافُ الله رَبَّ الْعَالَمِينَ، وتتحرك شفتاه لها بقول حاسمٍ: يَا عَنَاقُ، قد حَرَّمَ اللهُ الزِّنَا، وذلك مع حُبِّهِ القديم لها في الجاهلية، ومع شهوة الشاب الثائرة بين جنبيه، إلا أن الإيمان إذا تَشَعَّبَتْ جذوره في النفس، وخالطت بَشاشَتُهُ القلبَ تحطمت كل الشهوات أمام أمر الله ونهيه، فهَنِيئًا لَكَ يا مَرْثَدُ بما قاله النبيُّ ﷺ في أَشْبَاهِك: «**إِنَّ رَبَّكَ**

(١) جَبَلٌ مَعْرُوفٌ عِنْدَ مَكَّةَ. ينظر: تحفة الأحوذي (٨/ ١٢).

(٢) ينظر: الترمذي (٣١٧٧)، والنسائي (٣٢٢٨)، وصحيح أبي داود (١٧٩٠)، والكبرى، للبيهقي (١٣٨٦١).

(٣) ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني (١٤٩١)

لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَا صَبْوَةَ لَهُ»[1]، أي: إنَّ الله ليحُبُّ مثل هذا الشاب ويرضى عنه؛ إذ لا ميل له إلى الهوى[2]؛ وذلك لأن الله حَبَّبَ إِلَيْه الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلبِه، وَكَرَّهَ إِلَيْه الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، فأصبح هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا يُحِبُّه الله ويرضاه، فينال من الله مكافأة الشاب الذي نَشَأَ فِي عِبَادَةِ الله بأن يجعله يوم تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الرُّؤُوسِ آمِنًا فِي ظِلِّ عَرْشِ الله.

وقد نلمح عِنَايَةَ الله وحَفِظَه لأوليائه حين وصل المشركون إلى باب الغار الذي اختبأ فيه مَرْثَدٌ، ولو نظر أحدهم أسفل قدميه لرآه، ولكن الله ﷻ صرفهم عنه.

وما أجمل إِصْرَارَ مَرْثَدٍ على العودة إلى عُقْر دَارِ المشركين بعد أن هَدَأَ الْبَحْثُ عنه لينقذ أخاهُ في الله من فتنة الأسر، ولِيُتِمَّ المهمة التي أمره بها رسول الله ﷺ.

وقد نرى في تحريم الإسلام زواجَ المسلم والمسلمة من أهل الزنا صيانةً للمجتمع المسلم من تواجد أمثال هؤلاء فيه، فهم كالداء الخبيث يَسْرِي في الجسد ليفتك به، إلا أَنْ يَتُوبوا إلى الله تَوْبةً نَصُوحًا، فلا حَرَجَ عِنْدَئِذٍ؛ فإن الله تَوَّابٌ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ.

ثباتٌ حتَّى المماتِ

وفي السنة الرابعة من الهجرة جاء أُناسٌ مِنْ قبيلتي: عَضَل، وَالْقَارَةِ إلى النبيِّ ﷺ فقالوا له: إِنَّ بِأَرْضِنَا إِسْلَامًا، فَابْعَثْ مَعَنَا نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِكَ يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ وَيُفَقِّهُونَنَا فِي الْإِسْلَامِ، فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ مَعَهُمْ نَفَرًا من أصحابه، مِنْهُمْ: مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ، وَخَالِدُ بْنُ الْبُكَيْرِ اللَّيْثِيُّ، وَعَبْدُ الله بْنُ طَارِقٍ الظَّفَرِيُّ، وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ، وَخُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ، وَعَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ، فَخَرَجُوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَمِيرُهُمْ مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْهَدَةِ

(١) أخرجه أحمد (٧٧٤٠٩)، وأبو يعلى (١٧٤٩)، والسلسلة الصحيحة (٢٨٤٣).
(٢) ينظر: التنوير شرح الجامع الصغير (٣/ ٣٤٥).

بَيْنَ عَسْفَانَ وَمَكَّةَ ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لِحْيَانَ، فَنَفَرُوا لَهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ رَامٍ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَأْكَلَهُمُ التَّمْرَ فِي مَنْزِلٍ نَزَلُوهُ، فَقَالُوا: تَمْرُ يَثْرِبَ، فَاتَّبَعُوا آثَارَهُمْ[(١)]، وقد كانت قبيلة هُذَيْلٍ تريد أن تثأر لسيدها خالد بن سفيان الهُذلي الذي قتله المسلمون وهو يجمع الجيوش لقتال النبيِّ ﷺ في المدينة[(٢)].

وانطلق الدعاة إلى الله حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالرَّجِيعِ أَتَتْهُمُ هُذَيْلُ، فَلَمْ يَرُعِ الْقَوْمَ فِي رِحَالِهِمْ إِلَّا الرِّجَالُ فِي أَيْدِيهِمُ السُّيُوفُ قَدْ غَشُوهُمْ بِهَا، فَأَخَذَ الْقَوْمُ أَسْيَافَهُمْ لِيُقَاتِلُوا فَأَحَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ، فَقَالُوا لَهُمْ: انْزِلُوا فَأَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ، اللَّهُمَّ مَا نُرِيدُ قَتْلَكُمْ، وَلَكِنَّا نُرِيدُ أَنْ نُصِيبَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، ولَكُمْ عَهْدُ الله وَمِيثَاقُهُ أَنْ لاَ نَقْتُلَ مِنْكُمْ أَحَدًا، فَأَمَّا عَاصِمٌ وَمَرْثَدٌ وَخَالِدٌ فَقَالُوا: وَاللهِ مَا نَقْبَلُ مِنْ مُشْرِكٍ عَهْدًا وَلَا عَقْدًا أَبَدًا، فَقَاتَلُوا حَتَّى قُتِلُوا، ثم قُتِلَ الباقون بعدما وقعوا في الأسر رضي الله عنهم أجمعين[(٣)].

ولما علم رسولُ الله ﷺ بما فعل بَنو لِحْيَانَ بأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حَزِنَ حُزْنًا شديدًا، وظل زمنًا يدعو عليهم في الصلوات، فكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «**اللَّهُمَّ الْعَنْ بَنِي لِحْيَانَ...**»[(٤)].

وقد ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ: أن حَسَّان بن ثابت قال في أَصْحَاب الرَّجِيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[(٥)]:

صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى الَّذِينَ تَتَابَعُوا ... يَوْمَ الرَّجِيعِ فَأُكْرِمُوا وَأُثِيبُوا

رَأْسُ السَّرِيَّةِ مَرْثَدٌ وَأَمِيرُهُمْ ... وَابْنُ الْبُكَيْرِ إِمَامُهُمْ وَخُبَيْبُ

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣٩٨٩)، ومستدرك الحاكم (٤٩٧٩).
(٢) ينظر: مغازي الواقدي (١/ ٣٥٤)، والسيرة، للصلابي (٥٣٢).
(٣) ينظر: صحيح البخاري (٣٩٨٩)، ومستدرك الحاكم (٤٩٧٩).
(٤) ينظر: صحيح مسلم (٦٧٩)، ومسند أحمد (١٦٥٧١).
(٥) ينظر: السيرة، لابن هشام (٢/ ١٨٣)، والسيرة النبوية، لابن كثير (٣/ ١٣٤)، والروض الأنف (٦/ ١٤٤).

وَابْــنٌ لِطَــارِقَ وَابْــنُ دَثْنَــةَ مِــنْهُمْ وَافَــاهُ ثَــمَّ حِمَامُــهُ الْمَكْتُــوبُ

وَالْعَاصِــمُ الْمَقْتُــولُ عِنْــدَ رَجِــيعِهِمْ كَسَــبَ الْمَعَــالِيَ إِنَّــهُ لَكَسُــوبُ

مَنَــعَ الْمَقَــادَةَ أَنْ يَنَــالُوا ظَهْــرَهُ حَتَّــى يُجَالِــدَ إِنَّــهُ لَنَجِيــبُ

وهكذا خَرَّ الداعيةُ المجاهدُ مَرْثَدٌ الْغَنَوِيُّ على أرض الرَّجِيعِ شَهِيدًا، يَخْضِبُ تُرْبَتَهَا بدمائه الذكية، وهو في طريق دعوته إلى الله ربِّ العالمين، وتخرج روحه لتسرح مع الشهداء في جنات النعيم.

وقد كان استشهاده رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في شهر صفر سنة أربعٍ من الهجرة[١].

رضي الله عن مَرثدٍ الغَنَويِّ،

وعن الصحابةِ أجمعين



(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٤٢)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٢٢).

أَبُو حُذيفةَ بنُ عُتبةَ بنِ ربيعةَ

حَبيبُ اللَّهِ

قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ: الْمُوَالَاةُ فِي الله، وَالْمُعَادَاةُ فِي الله، وَالْحُبُّ فِي الله، وَالْبُغْضُ فِي الله»[١]، وقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لله وَأَبْغَضَ لله، وَأَعْطَى لله وَمَنَعَ لله فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»[٢]، وإن هذه المعاني ستتجسد أمام أعيننا من خلال سيرة هذا الصحابي الجليل، إنه رجل ممن كَتَبَ الله فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ، وقال لهم- على لسان رسوله ﷺ-: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[٣].

إنه الصحابيُّ المُهاجر: أَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اسمُه ونسبُه ونشأتُه

هو أَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، القرشي، المهاجري، اخْتُلِف في اسمه، فقيل: هُشَيْمٌ، وقيل غيره، لكنه معروف بكنيته: (أَبِي حُذَيْفَةَ)، قال عنه الحاكم في المستدرك: «حَبِيبُ اللهِ، وَابْنُ عَدُوِّ الله»، وقال عنه الذهبي في سِير أعلام النبلاء: «السَّيِّدُ الكَبِيْرُ الشَّهِيْدُ، أَبُو حُذَيْفَةَ ابْنُ شَيْخِ الجَاهِلِيَّةِ»[٤].

نشا أَبُو حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مكة، في بيت عريق النسب والشرف، فأبوه هو عتبة بن ربيعة، سيد بني عبد شمس، وأحد سادات العرب، وأخته هند بنت عتبة زوجة أبي

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٥٣٧)، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٠٧).

(٤) ينظر: المستدرك (٣/ ٤٧٣)، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٦٤).

سفيان بن حرب أحد أشراف قريش.

كان أبو حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ شابًّا طويلًا، حسنَ الوجه، فصيحَ اللسان، راجحَ العقل، قد ملأ نوادي مكة حيوية وانطلاقًا، وقد تزوج من سَهْلَة بنت سُهَيْلِ بن عمرو سيد بني عامر، فأحاطت به الوجاهة والسيادة من كل مكان[١].

وكان قلب أبي حذيفة يُنْكِر ويرفض الكثير مما اعتادته العرب في الجاهلية، وعلى رأس ذلك: عبادتهم لِوَثَنٍ لا يضر ولا ينفع، وكأنه يبحث عن فجر يُضيء نوره ظلمات الجاهلية، وبقي كذلك حتى أشرقت شمسُ الإسلام في مكة.

إسلامُه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

لما حمل النبيُّ ﷺ رسالة التوحيد على عاتقه وتحرك بها سِرًّا في أول الأمر كان أبو حذيفة بن عتبة ممن سارع بالدخول في الإسلام مُسْتَخْفِيًا، وهو في الثامنة والعشرين من عمره تقريبًا، وأسلمت معه زوجته سهلة، وذلك في أوائل أيام الدعوة، وقبل أن يتخذ النبيُّ ﷺ دار الأرقم مقرًّا يجتمع فيه بأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ[٢].

ادعُوهم لآبائِهم هو أقسطُ عِند اللهِ

وكان أبو حذيفة قد تَبَنَّى ولدًا اسمه: سالم، وأشهد الناس عند البيت الحرام على ذلك، وأصبح الناس ينادونه: (سالم ابن أبي حذيفة)، وقد أسلم سالمٌ بإسلام أبي حذيفة، وكان أبو حذيفة يحبه حبًّا شديدًا تعجب منه أهل مكة، وكان سالم يبادله نفس الشعور، وكان به بارًّا، وله مطيعًا، حتى زَوَّجَه أبو حذيفة من ابنة أخيه هند بنت الوليد بن عتبة، وبقي سالم يُنادَى بسالم ابن أبي حذيفة حتى نزل القرآن يبطل التبني

---

(١) ينظر: المستدرك (٤٩٨٦)، والاستيعاب (٤/ ١٦٣١)، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٦٥).

(٢) ينظر: المستدرك (٣/ ٣٤٧)، والاستيعاب (٤/ ١٦٣١)، والسير (١/ ١٦٥).

ويحرمه، ولكنه بقي يحث المسلمين على كفالة الأيتام والمساكين، وها هي أم المؤمنين عائشة تحدثنا بقصة سالم وأبي حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فتقول: «إِنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ بْنَ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ تَبَنَّى سَالِمًا وَهُوَ مَوْلًى لِامْرَأَةٍ مِنْ الْأَنْصَارِ، كَمَا تَبَنَّى رَسُولُ الله ﷺ زَيْدًا، وَكَانَ مَنْ تَبَنَّى رَجُلًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ دَعَاهُ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَوَرِثَ مِنْ مِيرَاثِهِ، فمَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ، وَأَنْكَحَ أَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ عُتْبَةَ سَالِمًا ابْنَةَ أَخِيهِ هِنْدَ ابْنَةَ الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَكَانَتْ هِنْدُ بِنْتُ الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ مِنْ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلِ، وَهِيَ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَفْضَلِ أَيَامَى قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٥] رُدَّ كُلُّ أَحَدٍ يَنْتَمِي مِنْ أُولَئِكَ إِلَى أَبِيهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يُعْلَمُ أَبُوهُ، رُدَّ إِلَى مَوَالِيهِ، وَكَانَ مَوْلًى وَأَخًا فِي الدِّينِ»(١).

وأصبح سالمٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من بعدها يقال له: سالم مولى أبي حذيفة، وعاش أبو حذيفة وأخوه في الله سالمٌ.

في صحبةِ رسولِ الله ﷺ

فقد كان أبو حذيفة يَصْطَحب سالمًا معه إلى مجالس رسول الله ﷺ في دار الأرقم، وفيها تعلم سالمٌ القرآن من فَمِ رسول الله ﷺ وهو في سِنِّهِ الصغيرة، فكأنَّ القرآن نُقش على صفحة قلبه نقشًا، فأصبح من أكثر الناس قرآنًا، ومن أحسنهم صوتًا، وقد سمع النبيُّ ﷺ قراءته للقرآن ذات ليلة فأعجب بتلاوته فقال ﷺ: «**هَذَا سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، الْحَمْدُ لِله الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مِثْلَ هَذَا**»(٢).

---

(١) ينظر: البخاري (٤٨٠٠)، ومسلم (٢٤٢٥)، وأحمد (٢٥٦٩١)، والنسائي (٣٢٢٣)، وابن ماجه (٤١٩٣)، وسنن أبي داود (٢٠٦١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٨)، والحاكم (٥٠٠١)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٣٤٢).

وظلَّ أبو حذيفة يَحُثُّ سالمًا على تعلم القرآن وحفظه، ويُفَرِّغ وقته لذلك، حتى بلغ مكانةً فيه، وأجازه النبيُّ ﷺ وحثَّ المسلمين على تعلم القرآن منه، وذلك حين قال ﷺ: «**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ**»[(١)]، ولا شك أن كل حرف من القرآن قرأه سالمٌ، أو عَلَّمَهُ يكون- إن شاء الله- تعالى- في صحيفة حسنات أبي حذيفة.

بدايةُ المِحنةِ في حياةِ أبي حُذيفةَ

وبَقِيَ أبو حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُسِرُّ إسلامَه حتى جَهَرَ النَّبِيُّ ﷺ بالدعوة وشاع خبره، وعلم عتبة بنُ ربيعة بإسلام ولده فاشتعلت نيران الغضب فيه، ومن هنا بدأت المِحْنَةُ في حياة أبي حذيفة، وذاق طعمَ المُعَاناةِ بعدما كان يعيش حياة الرَّغَدِ والسيادة والرفاهية، وضَاقَتْ عليه مَكَّةُ، وَأُوذِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفُتِنُوا فِي دِينِهِمْ، ومنهم من تمزقت أشلاؤه تحت سياط الكفر والعناد، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**»[(٢)].

هجرتُه إلى الحبشةِ

خرج أبو حذيفة بآل بيته رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ متسللًا مُسْتَخْفِيًا خلف سُتُور الليل المُرْخَاة، فركب البحر مع أصحابه المهاجرين، حتى رَسَتْ بهم سفينتهم على سواحل الحبشة، فنزلوا بها ومكثوا فيها آمنين مطمئنين.

وفي فترة مُكثهم هناك أسلم حمزة، ثم عمر بن الخطاب، فأعز الله الإسلام بهما،

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٨)، ومسلم (٢٤٦٤).
(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٧٧٣٤)، والألباني في الصحيحة (٣١٩٠).

فخرج النبيُّ ﷺ بأصحابه يومًا عند الكعبة فصلى بهم وقرأ بآيات من سورة النجم، فاجتمع الناسُ حول الكعبة ينظرون إلى مشهد الصلاة المهيب، ويستمعون إلى القرآن بصوت عَذْبٍ يَأْسِرُ القلوب في لحظاتٍ خَيَّمَت فيها سحائب الخشوع فوق رؤوس الحاضرين جميعًا، فلما بلغ النَّبِيُّ ﷺ قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٥٩ - ٦٢].

سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَسَجَدَ مَعَهُ المُسْلِمُونَ وَالمُشْرِكُونَ، فأشيع بين الناس أن قريشًا قد أسلمت، وطار الخبر الكاذب إلى الحبشة فرجع أبو حذيفة ومعه أصحابه المهاجرون فرحين بالخبر، فلما وصلوا مكة وجدوها مفروشةً لهم بألوان العذاب، ولكن أبا حذيفة وآل بيته دخلوا في جوار أبيه عتبة بن ربيعة فلم يَمْسَسْهُمْ سُوء[(١)].

وقد تعجب عُتْبَةُ بن ربيعة من حال ولده أبي حذيفة، فقد رأى وَلَدَهُ المترف قد ترك كل شيء له في مكة وفرَّ من أجل دينه بآل بيته إلى أرض بعيدة، يعيش فيها غريبًا فقيرًا بعد الغنى والسيادة والشرف، وبدأ الصراع في نفسه يبلغ ذروته، صراعٌ بين إعجابه بولده المُنَعَّم الذي هجر اللذائذ، وتحمل ما لا يطاق من أجل دين اقتنع به فاتبعه وتمسك به حتى مُلِئَ إِيمَانًا إِلَى مُشَاشِهِ، وبين غضبه من محمدٍ ﷺ الذي سَوَّلَ له الشيطانُ أنه فَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ولده، حتى دفعه صراعُ نفسه إلى أَنْ قَالَ يَوْمًا- وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ الله ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ-: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا فَنُعْطِيهِ أَيَّهَا شَاءَ وَيَكُفُّ عَنَّا؟ فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمْهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا ابن أَخِي، إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنْ السِّطَةِ فِي الْعَشِيرَةِ،

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٤٨٢٦).

وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلَامَهُمْ، وَعِبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفَّرْتَ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: **قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ**، قَالَ: يا ابن أَخِي، إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا، حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رِئْيًا تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ طَلَبْنَا لَكَ الطِّبَّ، وَبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَ التَّابِعُ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوَى مِنْهُ، أو كَمَا قَالَ لَهُ. حَتَّى إِذَا فَرَغَ عُتْبَةُ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ، قَالَ: **أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟** قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: **فَاسْمَعْ مِنِّي**، قَالَ: أَفْعَلُ، فَقَالَ:

بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٥]، ثم مَضَى رَسُولُ الله ﷺ فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ، ثم انْتَهَى رَسُولُ الله ﷺ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ، ثم قَالَ: قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ، فَقَامَ عُتْبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَحْلِفُ بالله لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ، فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: وَرَائِي أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا - وَالله - مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَالله مَا هُوَ بِالشِّعْرِ، وَلَا بِالسِّحْرِ، وَلَا بِالْكِهَانَةِ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي، وَخَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فاعتزلوه، فوالله لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ

يَظْهَرْ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ، قَالُوا: سَحَرَكَ- وَاللهِ- يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ، قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ»[(١)].

وكأني بأبي حذيفة ﷺ يعتريه الحزن لما علم أن أباه كاد أن يسلم، ثم حاد عن الإسلام.

هجرتُه من مكَّةَ إلى المدينةِ

وازداد الأمر في مكة صعوبة على المسلمين، فلا تكاد تمشي في طريق إلا وتسمع أصوات السياط تنهش في أجساد المسلمين المستضعفين، حتى أمر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين بالهجرة إلى المدينة.

فخرج أبو حذيفة مرة أخرى بآل بيته رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مُسْتَخْفِيًا مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وقد ترك خلفه داره الفسيحة، وأموال أبيه الطائلة، فقد هان عليه كل هذا، ولم يُخِفْهُ المستقبل المجهول وهو يعلم أنه سيذهب إلى بلد ليس له فيها دار، ولا عمل، ولا مصدر رزق، فهو لم يهاجر إلى المدينة بعينها إنه خرج مُهَاجِرًا إلى الله الذي لا يُضَيِّعُ أَهْلَهُ، فهو نِعْمَ المَولَى ونِعْمَ الوَكيل!.

ونزل أبو حذيفة وآلُ بيته مع المهاجرين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في قُباء قبل مقدم رسول الله ﷺ، وكان مما شرح صدر أبي حذيفة: أن المسلمين هناك كانوا يقدمون مولاه سالمًا ليؤمَّهم في الصلاة؛ لأنه كان أحفظَهم للقرآن، ولا غرابة في فرح أبي حذيفة لذلك فما عرف سالمٌ الإسلام إلا عن طريق أبي حذيفة، فكل عمل صالح له في الإسلام يكتب في صحيفة حسنات أبي حذيفة- إن شاء الله-، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ الْعُصْبَةَ[(٢)] قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ يَؤُمُّهُمْ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي

---

(١) ينظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (١/ ٨٣)، والآيات التي قرأها النبيُّ ﷺ في هذه الرواية من أول سورة فصلت إلى الآية: (٣٨).

(٢) العُصْبة: مَوْضِعٌ بِقُبَاءٍ.

حُذَيْفَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وَكانَ أَكْثَرَهُمْ قُرْآنًا، وفِيهِمْ عُمرُ، وَأَبُو سَلَمَةَ، وَزَيْدٌ، وَعَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ»[(١)] رضي الله عنهم جميعًا.

ثم لحقهم النبيُّ مُهَاجِرًا فأقام دولة الإسلام على أرض المدينة، ثم آخَى النبيُّ ﷺ بين أبي حذيفة وعَبَّادِ بْنِ بِشرٍ الأَنْصَارِيِّ حين آخى بين المهاجرين والأنصار[(٢)].

أُولئك يرجُون رحمةَ اللهِ

بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ إِلَى مكان اسمُه: نَخْلَةَ، وقَالَ لَهُ: «**كُنْ بِهَا حَتَّى تَأْتِيَنَا بِخَبَرٍ مِنْ أَخْبَارِ قُرَيْشٍ**»، وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِقِتَالٍ، وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يُعْلِمَهُ أَيْنَ يَسِيرُ، فَقَالَ له فيه: «**اخْرُجْ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ حَتَّى إِذَا سِرْتَ يَوْمَيْنِ فَافْتَحْ كِتَابَكَ وَانْظُرْ فِيهِ، فَمَا أَمَرْتُكَ فِيهِ فَامْضِ لَهُ، وَلَا تَسْتَكْرِهَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِكَ عَلَى الذَّهَابِ مَعَكَ**»، وَكَانَ أصحابُ عَبْدِ الله بْنِ جَحْشٍ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ: أَبُو حُذَيفة بْنُ عُتْبة بْنِ رَبِيعَةَ، وعُكَّاشة بْنُ مِحْصن، وعُتبة بْنُ غَزْوان، وسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وعامر بن ربيعة، وَوَاقِدُ بْنُ عَبْدِ الله، وَخَالِدُ بْنُ الْبُكَير، وسُهَيْل بن بيضاء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فَلَمَّا سَارَ يَوْمَيْنِ فَتَحَ الْكِتَابَ، فَإِذَا فِيهِ: أَنِ امْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ فَتَأْتِينَا مِنْ أَخْبَارِ قُرَيْشٍ بِمَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ، فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ اسْتَرْجَعَ، ثم قَالَ: سَمْعًا وَطَاعَةً لله وَرَسُولِهِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ حِينَ قَرَأَ الْكِتَابَ: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَهُ رَغْبَةٌ فِي الشَّهَادَةِ فَلْيَنْطَلِقْ مَعِي فَإِنِّي مَاضٍ لِأَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ، وَمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَرْجِعْ؛ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ نَهَانِي أَنْ أَسْتكْرِهَ مِنْكُمْ أَحَدًا، فَمَضَى مَعَهُ الْقَوْمُ حَتَّى إِذَا كَانَ بِبُحْرَانَ أَضَلَّ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ بَعِيرًا لَهُمَا كَانَا يَعْتَقِبَانِهِ، فَتَخَلَّفَا عَلَيْهِ يَطْلُبَانِهِ، وَمَضَى الْقَوْمُ حَتَّى نَزَلُوا نَخْلَةَ، فَمَرَّ بِهِمْ عَمْرُو بْنُ

(١) ينظر: صحيح البخاري (٦٦٠، ٦٧٥٤)، وسنن أبي داود (٥٨٨).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٦١).

الْحَضْرَمِيِّ وَالْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ وَعُثْمَانُ وَالْمُغِيرَةُ ابْنَا عَبْدِ الله، مَعَهُمْ تِجَارَةٌ لقريش قَدِمُوا بِهَا مِنَ الطَّائِفِ، فَلَمَّا رَآهُمُ الْقَوْمُ أَشْرَفَ لَهُمْ وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ الله فَرَمَى عَمْرَو بْنَ الْحَضْرَمِيِّ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، وَلَمْ يَدْرِ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ رَجَبٍ، أو مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ، وَاسْتَأْسَرَ عُثْمَانَ بْنَ عَبْدِ الله، وَالْحَكَمَ بْنَ كَيْسَانَ، وَهَرَبَ الْمُغِيرَةُ وَأَعْجَزَهُمْ، وَاسْتَاقُوا الْعِيرَ فَقَدِمُوا بِهَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَحَدَّثُوهُ الْحَدِيثَ، فغضب وقَالَ لَهُمْ: «**وَالله مَا أَمَرْتُكُمْ بِالْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ**»، فَأَوْقَفَ رَسُولُ الله ﷺ الْأَسِيرَيْنِ وَالْعِيرَ، فَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا شَيْئًا، فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ مَا قَالَ أُسْقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَظَنُّوا أَنْ قَدْ هَلَكُوا، وَعَنَّفَهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ حِينَ بَلَغَهُمْ أَمْرُ هَؤُلَاءِ: قَدْ سَفَكَ مُحَمَّدٌ الدَّمَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَأَخَذَ فِيهِ الْمَالَ، وَأَسَرَ فِيهِ الرِّجَالَ، وَاسْتَحَلَّ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى فِي ذَلِكَ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فَلَمَّا نَزَلَت أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ الْعِيرَ، وَفَدَى الْأَسِيرَيْنِ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ عن أصحاب هذه السَرِيَّة: إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَصَابُوا فِي شَهْرِهِمْ هَذَا وِزْرًا، فَلَيْسَ لَهُمْ فِيهِ أَجْرٌ، فذهب أبو حُذيفةَ بنُ عتبةَ وعَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ وأفراد السَرِيَّة إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أَتطْمَعُ لَنَا أَنْ تَكُونَ غَزْوَةً نُعْطَى فِيهَا أَجْرَ الْمُجَاهِدِينَ؟، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨][(١)].

(١) أحداث القصة مأخوذة من سنن النسائي الكبرى (٨٧٥٢)، والسنن الكبرى، للبيهقي (١٧٩٨٩)، ومسند أبي يعلى (١٥٣٤)، والمعجم الكبير، للطبراني (١٦٧٠)، والسيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (٢/ ٢٣)، وتاريخ المدينة، لابن شبة (٢/ ٤٧٣).

فإن هؤلاء الذين هاجروا من ديارهم، وضحوا بأموالهم من أجل الله، ثم خرجوا جِهَادًا فِي سَبِيلِهِ، إنهم لم يتعمدوا انتهاك حرمة الشهر الحرام، وإنما كان ما وقع خطأ منهم، وقَدْ بَيَّن الله حُسْن نيتهم، وصدْقَ وِجْهَتهم، بقوله تعالى عنهم: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾، وقد أشارت الآية إلى رحمة الله بهم، ومغفرته لهم، حين خُتِمَت بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فكأن نزول هذه الآية في ذاك التوقيت كان بمثابة وسام شرف على صدر أبي حذيفة وأصحابه المجاهدين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

يومُ الفُرقانِ

وجاء يوم معركة بدر الكبرى، ذلك اليوم الذي سماه الله في قرآنه: يوم الفرقان؛ لأنه يومٌ فَرَّقَ اللهُ فيه بَيْنَ الحق والباطل، ومن عجيب ذلك اليوم: أنه ذابت فيه عصبياتُ الجاهلية والقبلية، وانقطعت فيه أواصِرُ الدم والنسب والعرقية، وبقيت رابطة واحدة، وهي رابطة العقيدة وأُخُوَّةِ الدِّين، وقد جَسَّدَ المؤمنون صورتها على أرض بدر، فقد اختلفت ألوانهم وأوطانهم وعشائرهم وطبقاتهم وأعمارهم، ولكن رابطة الإيمان جعلتهم جَمِيعًا على قلب رجل واحد.

وقد اكتملتِ الصورة يومها حين وقف الأبناء أمام الآباء، والإخوة أمام الإخوة، كُلٌّ تحت رايته، فقد انقسم الناسُ يومها في ساحة المعركة إلى حزبين منفصلين: حِزْب الله ويحمل المسلمون فيه راية أوليائه، وحِزْب الشَّيْطَانِ ويحمل المشركون فيه راية أوليائه، فكانت بحق صورة حية إذا وقفت أمامها متأملًا ستفهم معنى قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أبو حُذيفةَ في ساحةِ المعركةِ

واصطف الفريقان في ساحة المعركة، وفوجئ أبو حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأبيه وأخيه وعمه يخرجون من بين جيش المشركين مُشْهرين سيوفهم، وأبوه عتبة بن ربيعة يدعو للمبارزة، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لأبي حذيفة أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ، فتقدم ليواجه أباه بسيفه[1]؛ عملًا بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]، ولكن النبيَّ ﷺ منع أبا حذيفة وقال ﷺ له: «**دَعْهُ يَقْتُلُهُ غَيْرُكَ**»[2].

إصرارُ عُتبةَ على المُبارزةِ

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «تَقَدَّمَ عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ وَتَبِعَهُ ابْنُهُ وَأَخُوهُ فَنَادَى مَنْ يُبَارِزِ؟ فَانْتُدِبَ لَهُ شَبَابٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟، فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لَنَا فِيكُمْ، إِنَّمَا أَرَدْنَا بَنِي عَمِّنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **قُمْ يَا حَمْزَةُ، قُمْ يَا عَلِيُّ، قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بْنَ الْحَارِثِ**، فَأَقْبَلَ حَمْزَةُ إِلَى عُتْبَةَ، وَأَقْبَلْتُ إِلَى شَيْبَةَ، وَاخْتُلِفَ بَيْنَ عُبَيْدَةَ وَالْوَلِيدِ ضَرْبَتَانِ، فَأَثْخَنَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، ثم مِلْنَا عَلَى الْوَلِيدِ فَقَتَلْنَاهُ، وَاحْتَمَلْنَا عُبَيْدَةَ»[3].

وها هو ذا أبو حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ينظر إلى أبيه وأخيه وعمه وهم مُجندلون في دمائهم، وقد خُتِمَ لهم بخاتمة السوء، وماتوا وهم كافرون، فمع إيمانه الراسخ، وولائه الظاهر، وموقفه الواضح، إلا أنَّ ملامح وجهه قد تغيرت، ونفسه قد تعكرت، فإنه بَشَرٌ يعتريه ما يعتري البشر من حُبِّ الخير لأهله، وحزنه عليهم إن فاتهم ذلك، ولقد أخبرنا نبينا ﷺ: أنه «**رأى آدم** عَلَيْهِ السَّلَامُ **في السماء وعلى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَلَى يَسَارِهِ**

---

(١) ينظر: مستدرك الحاكم (٣/ ٢٤٧).

(٢) ينظر: تثبيت دلائل النبوة (٢/ ٥٨٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٦٦٥)، وصحَّحه الألباني.

أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ اليَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى»[١].

فلا غرابة في تعكر نفس أبي حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند رؤيته مشهدَ قتلِ أبيه وأخيه وعمه وهم على الشرك، أَعْدَاءً لله ورسوله؛ فإن الإسلام ما جاء ليميت المشاعر، أو يُجمِّدَهَا، بل جاء ليهذبها ويجعلها تسير في مسارها الصحيح.

وقد أحاط الصمت أبا حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفجأة اخترقت مسامعه كلماتٌ لامست مشاعره المتوترة، فجعلته يخرج غَاضِبًا عن صمته، بل عن شعوره كله، فيا تُرى:

ما الَّذي أغضبَ أبا حُذيفةَ؟

إنه لما اشتعلت نيران المعركة بمقتل عتبة بن ربيعة قال النبيُّ ﷺ للمسلمين: «**مَنْ لَقِيَ مِنْكُمُ الْعَبَّاسَ بن عبد المطلب فَلْيَكْفُفْ عَنْهُ فَإِنَّهُ خَرَجَ مُسْتَكْرَهًا، فَقَالَ أَبُو حذيفة ابْنُ عُتْبَةَ: أَنَقْتُلُ آبَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَعَشَائِرَنَا وَنَدَعُ الْعَبَّاسَ؟ وَاللهِ لَأَضْرِبَنَّهُ بِالسَّيْفِ»**[٢].

ولا شك أن النبيَّ ﷺ ما أراد محاباة العباس لأنه عمه، فإنه ﷺ لم ينه عن قتل العباس وحده، بل نَهى عن قتل أيَّ أحد من بني هاشم في المعركة؛ وذلك لأسباب منها: أنهم خرجوا مستكرَهين كما أخبر النبيُّ ﷺ، ومنها: عرفان النبيِّ ﷺ بمواقفهم النبيلة معه وهو رسول الإسلام، فقد منعوه من قريش وأحاطوه وهم ليسوا على دينه، ودخلوا معه شِعْبَ أبي طالب لما حُوصر فيه المسلمون لثلاث سنوات، حتى أكلوا معه ورق الشجر من قلة الطعام وشدة الجوع، وبلغ بالمرأة من نسائهم أنها لا تجد في

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٢) صحيح مسلم (١٦٣).
(٢) أخرجه الحاكم (٤٩٨٨)، وصحَّحه.

ثديها لَبَنًا لرضيعها، وحتى مات بعضهم بعد الخروج من الحصار من شدة ما لاقى فيه مثل أبي طالب، وقد نهى ﷺ- أيضًا- عن قتل أبي البختري بن هشام وهو ليس من بني هاشم، ولكن عرفانًا بموقفه في نقض الصحيفة الظالمة التي كتبتها قريش وعلَّقتها في الكعبة تحرض فيها على مقاطعة بني هاشم حتى يسلموهم رسول الله ﷺ، بل ولم يَنْسَ النبيُّ ﷺ مواقف المطعم بن عدي النبيلة معه وهو ليس من بني هاشم، فلما وقع مشركو قريش في الأسر يوم بدر قال ﷺ: «**لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثم كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ**»[(١)]، فقد كان ﷺ لا ينسى أبدًا صاحب الفضل وإن كان كافرًا، فمن هذا المنطلق كان نهي النبيِّ ﷺ عن قتل هؤلاء.

أما أبو حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مع أنه أحد السابقين الأولين من المؤمنين إلا أنه بَشَرٌ خيمت عليه سحائبُ الحزن حين رأى خاتمة السوء التي خُتِمَت لأبيه وأخيه وعمه، فتوترت مشاعره، فقال كلمته في ثورة من الحمية، وجموح للعاطفة، وليس اعتراضًا على أمر رسول الله ﷺ؛ لذلك تفهَّم النبيُّ ﷺ الأمر، وراعى ما فيه أبو حذيفة، فغفر له.

النبيُّ ﷺ يَدعو لأبي حُذيفةَ

وبعد انتهاء المعركة بنصر المسلمين أمر النبيُّ ﷺ بجثث المشركين أن تُسْحَبَ فتطرح في القَلِيب[(٢)] ليدفنوا فيه، وجاء أبو حذيفة ينظر إلى أبيه وأخيه وعمه وهم يُطرحون مع جثث المشركين في القليب، فاختلطت في نفسه فرحة النصر بآلام الحزن، وها هي أم المؤمنين عائشة تحدثنا عن هذا المشهد، فتقول: «إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ أمر بِالْقَلِيبِ فَطُرِحُوا فِيهِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: **يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٣٩).

(٢) القليب: هِيَ الْبِئْرُ الْقَدِيمَةُ. وينظر: لسان العرب (١/ ٦٨٩).

اللهِ، تُكَلِّمُ أَقْوَامًا مَوْتَى؟ فَقَالَ: لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقٌّ، فَلَمَّا أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا عُرِفَ فِي وَجْهِ أَبِي حُذَيْفَةَ بْنِ عُتْبَةَ الْكَرَاهِيَةُ وَأَبُوهُ يُسْحَبُ إِلَى الْقَلِيبِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **يَا أَبَا حُذَيْفَةَ، وَاللهِ لَكَأَنَّهُ سَاءَكَ مَا كَانَ فِي أَبِيكَ**، فَقَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا شَكَكْتُ فِي اللهِ وَفِي رَسُولِ اللهِ، وَلَكِنْ إِنْ كَانَ حَلِيمًا سَدِيدًا ذَا رَأْيٍ، فَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ لَا يَمُوتَ حَتَّى يَهْدِيَهُ اللهُ ﷻ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنْ قَدْ فَاتَ ذَلِكَ وَوَقَعَ حَيْثُ وَقَعَ أَحْزَنَنِي ذَلِكَ، قَالَت: فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَيْرٍ»[(١)].

وعاد النبيُّ ﷺ والمسلمون تغمرهم فرحة النصر ومن بينهم أبو حذيفة، ولكن الكلمة التي قالها يوم بدر بقيت شَبَحًا مُخِيفًا يتراءى له أمام عينيه من الحين إلى الآخر، يُقْلِقُ طمأنينته، ويُلقي به في بحار الندم، فكان كلما تذكر تلك الكلمة يقول: «مَا أَنَا بِآمِنٍ مِنْ تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي قُلْتُ، وَلَا أَزَالُ خَائِفًا حَتَّى يُكَفِّرَهَا اللهُ عَنِّي بِالشَّهَادَةِ»[(٢)].

فرحتُه بإسلامِ أُختَيه هندَ وفاطمةَ

ولما فُتِحَت مكَّةُ وأسلمت هند بنت عتبة، وقد كانت من أشد الناس كُفْرًا وعِنَادًا حتى شرح الله صدرها وصدر زوجها أبي سفيان للإسلام، فذهبت إلى أخيها أبي حذيفة بن عتبة تطلب منه أن يأخذها إلى رسول الله ﷺ لتبايعه على الإسلام، فطار أبو حذيفة فرحًا بذلك، ثم اكتملت فرحته لما علم بإسلام أخته فاطمة بنت عتبة، فلما كانت بيعة النبيِّ ﷺ للنساء خرج أبو حذيفة بأختيه لتبايعاه ﷺ، فقالت هند بنت عتبة: «يَا رَسُولَ اللهِ، مَا كَانَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ مِنْ أَهْلِ خِبَاءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَذِلُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ، ثم مَا أَصْبَحَ اليَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَهْلُ خِبَاءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ يَعِزُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ، فقَالَ رسول الله ﷺ: **وَأَيْضًا وَالَّذِي نَفْسِي بيده**»[(٣)].

(١) أخرجه الحاكم (٤٩٩٥)، وابن حبان (٧٠٨٨)، وحسَّنه الألباني في التعليقات الحسان (٧٠٤٦).
(٢) أخرجه الحاكم (٤٩٨٨)، وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٢٥).

ولم تَغْلب فرحة أبي حذيفة بإسلام أختيه حُبَّه وولاءه لرسول الله ﷺ، وظهر ذلك عندما بايع النبيُّ ﷺ النساء بقوله: «**أُبَايِعُكُنَّ عَلَى أَنْ لا تُشرِكْنَ بِالله شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقْنَ، وَلَا تَزْنِينَ، وَلَا تَقْتُلْنَ أَوْلَادَكُنَّ، وَلَا تَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُنَّ وَأَرْجُلِكُنَّ، وَلَا تَعْصِينَ فِي مَعْرُوفٍ**»[(١)]، فقَالَتْ هِنْدُ: أَوَتَعْلَمُ فِي نِسَاءِ قَوْمِكَ مِنْ هَذِهِ الْهِنَاتِ وَالْعَاهَاتِ شَيْئًا؟، فَقَالَ أَبُو حُذَيْفَةَ: إِيه، بايِعِيهِ، فَهَكَذَا يَشْتَرِطُ[(٢)].

موعدٌ مع الشهادةِ

عاش أبو حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حياته كلها في سبيل الله، بين هجرة ومحنة وجهاد، فقد شهد مع النبيِّ ﷺ كل مشاهده، ولم تفته غزوة معه في سبيل الله، حتى مات النبيُّ ﷺ وهو عنه راضٍ.

وبعد موت رسول الله ﷺ ظن الكافرون أن الإسلام أصبح لقمة سائغة يمكن ابتلاعها، فارتدت بعض قبائل العرب، وَاشْرَأَبَّ النِّفَاقُ، وجاءت التهديدات إلى دولة الإسلام من كل مكان، فوقف الخليفة أبو بكر الصديق والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من خلفة في وجه هذه الْمِحْنَةِ في صلابة الجبال الراسيات، والقمم الشامخات في مهب الريح.

ثم دَارَتْ رَحَى حروب الردة، ومن أشد معاركها كانت معركة اليمامة التي قاد فيها خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جيش المسلمين لقتال جيش مسيلمة الكذاب، الذي قد جمع لقتال المسلمين جيشًا عظيمًا.

وفيها جعل خالد على المقدمة شرحبيل بن حسنة، وعلى الميمنة أبا حذيفة بن عتبة، وعلى الميسرة شجاع بن وهب، وعلى الخيالة أسامة بن زيد، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) أخرجه أحمد ٢٧٠٦٢.

(٢) ينظر: المعجم الكبير، للطبراني (٩٠٤)، ومعرفة الصحابة، لأبي نعيم (٥/ ٢٨٦٠).

ودَارَتْ المعركة، ووقعت مقتلة في الجيشين لَمْ يُعْهَدْ مِثْلُها، وَجَعَلَتِ الصَّحَابَةُ يَتَوَاصَوْنَ بَيْنَهُمْ وَيَقُولُونَ: يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، بَطَلَ السِّحْرُ الْيَوْمَ، وحفر ثابت ابن قَيْسٍ لِقَدَمَيْهِ فِي الْأَرْضِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، وهو حامل لواء الأنصار بعد ما تَحَنَّطَ وَتَكَفَّنَ، فَلَمْ يَزَلْ ثَابِتًا حَتَّى قُتِلَ هُنَاكَ، وَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ: أتخْشَى أَنْ نُؤْتَى مِنْ قِبَلِكَ يا سالم؟ فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِئْسَ حَامِلُ الْقُرْآنِ أَنَا إِذًا، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ الْخَطَّابِ: أَيُّهَا النَّاسُ عَضُّوا عَلَى أَضْرَاسِكُمْ، وَاضْرِبُوا فِي عَدُوِّكُمْ، وَامْضُوا قُدُمًا، وَقَالَ: وَاللهِ لَا أَتَكَلَّمُ حَتَّى يَهْزِمَهُمُ اللهُ، أو أَلْقَى اللهَ فَأُكَلِّمَهُ بِحُجَّتِي، فَقُتِلَ شَهِيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقام أَبُو حُذَيْفَةَ خطيبًا في الناس، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِالْفِعَالِ، ثم حَمَلَ بمن معه على جيش المشركين حَتَّى أَبْعَدَهُمْ، وَأُصِيبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند ذلك بجراح شديدة أثبتته، ثم سقط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ودماؤه الطاهرة تسيل على أرض اليمامة من أجل إعلاء كلمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله[(١)].

فرأه مولاه وحبيبه سالمٌ وهو يسقط على الأرض شهيدًا فانطلق نحوه وهو يصيح بأعلى صوته: (أبو حذيفة... أبو حذيفة)، فلما وصل إليه وجده قد خرجت روحه ليلحق بركب الشهداء في الجنة، فوقف سالمٌ عند جسد أبي حذيفة وهو يحمل الراية، وقاتل يومها أشدَّ القتال حتى أحيط به، وكان يحمل اللِّوَاءَ بِيَمِينِهِ فَقُطِعَتْ، ثم تَنَاوَلَهَا بِشِمَالِهِ فَقُطِعَتْ، ثم اعْتَنَقَ اللِّوَاءَ وَجَعَلَ يَقْرَأُ قول الله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، إِلَى أَنْ قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوقع على الأرض شهيدًا إلى جنب رفيق حياته أبي حذيفة، فوجدوهما بعد انتهاء المعركة

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٦/ ٣٢٩)، والكامل في التاريخ (٢/ ٢١٧)، وتاريخ الطبري (٣/ ٢٩١)، والخليفة أبو بكر الصديق، للصلابي (ص٢٣٤).

ورأس أحدهما عند رجلي الآخر، فقد جمع بينهما الموت، كما كانت تجمع بينهما الحياة، ليلتقيا- إن شاء الله- في جنات النعيم إخوةً على سرر متقابلين[(١)].

وكان استشهاد أبي حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في معركة الْيَمَامَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ، أو أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً[(٢)].

رَضي الله عن أبي حُذيفةَ بنِ عُتبةَ،

وعَن الصحابةِ أجمعينَ



(١) ينظر: صفة الصفوة (١/ ١٥٨)، والمستدرك (٣/ ٢٢٥)، وسير السلف الصالحين (١/ ٤٣٦).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٦١)، والمستدرك (٣/ ٣٤٧)، وأسد الغابة (٦/ ٦٨).

عثمانُ بنُ طلحةَ

صاحبُ مِفتاحِ الكعبةِ

سنعيش معًا- إن شاء الله- من خلال تلك السطور- لحظاتٍ ممتعةً مع سيرة رجل من أصحاب الرسول ﷺ كان من خير الناس في الجاهلية، وأصبح من خير الناس في الإسلام، وأنزل الله من أجله قرآنًا، واختصه الله بشرف عظيم.

إنه الصحابي الجليل، والفارس النبيل: عثمان بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهيا بنا نطوف في بستان حياة هذا الرجل، نستنشق عبير أخلاقه النبيلة، ونقطف من ثمار مواقفه الجميلة.

اسمُه ونَسَبُه

عثمانُ بنُ طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب، القرشيُّ، وأمه هي: سُلامَة بنتُ سعد العَوْفِية، من أهل قباء[(١)].

نشأته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لقد نشأ عثمان بن طلحة بمكة في بطن من أعرق بطون قريش نسبًا وهم: بنو عبد الدار، فقد شُرِّفوا من بين قريش بالحِجَابة واللواء والندوة، فمفتاح الكعبة بأيديهم فلا يَفْتح أبوابَها غيرهم، ولا يُعقد في قريش لواءٌ للحرب إلا وهم حاملوه، ولا تجتمع قريش لأمر عظيم إلا في دار ندوتهم.

وكان المسؤول عن مفتاح الكعبة في بني عبد الدار هو طلحة بن أبي طلحة والدُ

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٥/ ٤٤٨)، ومعرفة الصحابة (٤/ ١٩٦١)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ١٩٠).

عثمان، الذي قُتِلَ وهو يحمل لواء المشركين يوم أحد، وقُتل معه بعضُ أبنائه، فتحول مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة، الذي أصبح سيد بني عبد الدار بعد أبيه، والذي أصبح- أيضًا- يحمل على عاتقه الثأر الذي أشعل في قلبه نار العداء بينه وبين المسلمين، حتى كان بنفسه يحمل لواء جيش الأحزاب الذي غزا المدينة وحاصرها سنة خمس من الهجرة[١].

كلماتٌ تدُقُّ أَجراسَ اليقظةِ في قلبِه

قال عثمانُ بنُ طلحة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لقِيَني رسُولُ الله ﷺ بمكة قبل الهجرة فدعاني إلى الإسلام، فقلتُ: يا مُحَمَّد، العَجَبُ لك حيث تطمع أنْ أتبعك وقد خالفتَ دينَ قومك، وجئتَ بدين مُحْدَثٍ ففرقتَ جماعتهم وإلفتهم وأذهبتَ بهاءَهم، فانصَرَفَ ﷺ، وكنا نفتح الكعبة في الجاهلية يومَي: الاثنين، والخميس، فأقبل ﷺ يومًا يُريد أنْ يَدخل الكعبة مع الناس فغلظتُ عليه ونِلْتُ منه وحَلُمَ عني، ثم قال ﷺ: **يا عثمان، لعلك سترى هذا المِفتاح يومًا بيدي أضعه حيث شئتُ**، فقلتُ: لقد هلكتْ قريشٌ يومئذٍ وذلت، فقال رسولُ الله ﷺ: **بل عمرت وعزت يومئذٍ**، ودخل ﷺ الكعبة، فوقعت كلمتُه مني موقعًا ظننتُ يومئذٍ أنَّ الأمر سيصير إلى ما قال، فأردتُ الإسلام ومقاربة محمد ﷺ فإذا قومي يزبرونني[٢] زَبْرًا شديدًا ويَزْرُون برأيي، فأمسكتُ عن ذكره»[٣].

مُروءتُه في الجاهليةِ

كانت العرب بفطرتهم أصحاب مروءةٍ وشهامة ونجدة، وكانت هذه الأخلاق

(١) ينظر: السيرة، لابن هشام (١/ ١٣٠)، والاستيعاب (٣/ ١٠٣٤)، وأسد الغابة (٣/ ٥٧٣).
(٢) ينهرونني ويمنعونني. ينظر: لسان العرب (٤/ ٣١٥).
(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٨/ ٣٨٣)، وعزاه السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ٤٤٣)، لابن سعد في الطبقات.

عندهم بمثابة دين يعتنقونه، بل ويستهينون في سبيله قتل أنفسهم لو احتاج الأمر إلى ذلك، فقد كانوا يُطبِّقون هذه الصفات على أرض الواقع بسجيتهم، ويمارسونها بفطرتهم، بطريقة تُفْضي بالإنسان إلى العجب والدهشة، وذلك لا شك مع ما كان فيهم من أمور جاهلية ينكرها العقل الواعي، وتأباها الفطرة السليمة.

وكانت مواقف المروءة يُتَفَاخر بها في المجالس، وتتناقلها الركبان، وتستعذبها الآذان، وهكذا صاحب المعدن النفيس يُطْربه ذكرُ هذه الخلال، كما قال الشاعر(١):

إنِّـــي لتُطْرِبُنـــي الخِـــلالُ كريمـــةً ... طَـرَبَ الغريـــب بأوبـــة وتلاقـــي

وتَهُـزُّني ذكـرى المـروءةِ والنَّـدى ... بـــين الشـــمَائلِ هـــزةَ المشـــتاقِ

وها هو ذا بطل قصتنا (عثمان بن طلحة) أحد هؤلاء الذين كانت المروءة.

تجري كالدماء في عروقهم يُجَسد لنا صورة حية في موقف يعجز القلم عن وصفه، واللسان عن مدحه، ولنترك أمَّ سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تقصه علينا فتقول: «لمَّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ الْخُرُوجَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَحَلَ لِي بَعِيرَهُ، ثم حَمَلَنِي عَلَيْهِ، وَحَمَلَ مَعِي ابْنِي سَلَمَةَ فِي حِجْرِي، ثم خَرَجَ بِي يَقُودُ بِي بَعِيرَهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ رِجَالُ بَنِي الْمُغِيرَةِ قَامُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا: هَذِهِ نَفْسُكَ غَلَبْتَنَا عَلَيْهَا، أَرَأَيْتَ صَاحِبَتَكَ هَذِهِ؟ عَلَامَ نَتْرُكُكَ تَسِيرُ بِهَا فِي الْبِلَادِ؟، قَالَتْ: فَنَزَعُوا خِطَامَ الْبَعِيرِ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذُونِي مِنْهُ، وَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ رَهْطُ أَبِي سَلَمَةَ، فَقَالُوا: لَا وَالله، لَا نَتْرُكُ ابْنَنَا عِنْدَهَا إِذْ نَزَعْتُمُوهَا مِنْ صَاحِبِنَا، قَالَتْ: فَتَجَاذَبُوا بَنِي سَلِمَةَ بَيْنَهُمْ حَتَّى خَلَعُوا يَدَهُ، وَانْطَلَقَ بِهِ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ، وَحَبَسَنِي بَنُو الْمُغِيرَةِ عِنْدَهُمْ، وَانطَلَقَ زَوْجِي أَبُو سَلَمَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَتْ: فَفُرِّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجِي وَبَيْنَ ابْنِي، قَالَتْ: فَكُنْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ فَأَجْلِسُ بِالْأَبْطُحِ، فَمَا أَزَالُ أَبْكِي

(١) من شعر حافظ إبراهيم، وينظر: موسوعة نضرة النعيم (٨/ ٣٣٨٥).

حَتَّى أَمْسَى سَنَةً، أو قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّى مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّي أَحَدُ بَنِي الْمُغِيرَةِ فَرَأَى مَا بِي فَرَحِمَنِي، فَقَالَ لِبَنِي الْمُغِيرَةِ: أَلَا تُخْرِجُونَ هَذِهِ الْمِسْكِينَةَ، فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا!، قَالَتْ: فَقَالُوا لِي: الْحَقِي بِزَوْجِكَ إنْ شِئْتِ، قَالَتْ: وَرَدَّ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ إلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِي، فَارْتَحَلْتُ بَعِيرِي، ثم أَخَذْتُ ابْنِي فَوَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي، ثم خَرَجْتُ أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ، وَمَا مَعِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ الله، فَقُلْتُ: أَتَبَلَّغُ بِمَنْ لَقِيتُ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى زَوْجِي، حَتَّى إذَا كُنْتُ بِالتَّنْعِيمِ لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، فَقَالَ لِي: إلَى أَيْنَ يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ؟، فَقُلْتُ: أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ، قَالَ: أَوَمَا مَعَكَ أَحَدٌ؟، فَقُلْتُ: لَا وَالله، إلَّا اللهُ وَبُنَيَّ هَذَا، قَالَ: وَاَللهِ مَا لَكَ مِنْ مَتْرَكٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ الْبَعِيرِ، فَانْطَلَقَ مَعِي يهوي بي، فو الله مَا صَحِبْتُ رَجُلًا مِنْ الْعَرَبِ قَطُّ أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ، كَانَ إذَا بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَنَاخَ بِي، ثم اسْتَأْخَرَ عَنِّي، حَتَّى إذَا نَزَلْتُ اسْتَأْخَرَ بِبَعِيرِي فَحَطَّ عَنْهُ، ثم قَيَّدَهُ فِي الشَّجَرَةِ، ثم تَنَحَّى عَنِّي إلَى شَجَرَةٍ فَاضْطَجَعَ تَحْتَهَا، فَإِذَا دَنَا الرَّوَاحُ قَامَ إلَى بَعِيرِي فَقَدَّمَهُ فَرَحَلَهُ، ثم اسْتَأْخَرَ عَنِّي، وَقَالَ: ارْكَبِي، فَإِذَا رَكِبْتُ وَاسْتَوَيْتُ عَلَى بَعِيرِي أَتَى فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ فَقَادَهُ حَتَّى يَنْزِلَ بِي، فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِي حَتَّى أَقْدَمَنِي الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إلَى قَرْيَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ قَالَ: زَوْجُكَ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ؛ فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ الله، ثم انْصَرَفَ رَاجِعًا إلَى مَكَّةَ، قالت: وَاَللهِ مَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْإِسْلَامِ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ آلَ أَبِي سَلَمَةَ، وَمَا رَأَيْتُ صَاحِبًا قَطُّ كَانَ أَكْرَمَ مِنْ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ»[(١)].

ما أجمل صنيعَ عثمانَ بنِ طلحة، تأبى مروءته أن يترك امرأة ورضيعها وحدهما في سفر طويل كهذا، ولم يتحرَّش بها، ولم ينظر إليها نظرة خائنة.

(١) أخرجه ابن إسحاق بسنده عن أم سلمة، وصحَّحه العلي في صحيح السيرة النبوية (١١٧)، وكذلك صاحب السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (١/ ١٨٦).

فلا أدري واللهِ لو بُعِثَ عثمانُ بنُ طلحة في زماننا ورأى المروءة قد وُئِدَت في نفوس كثير من الناس ماذا سيصنع؟! أو ماذا سيقول لو رأى بعينه شابًّا يجلس في إحدى وسائل المواصلات وبعينه الأخرى رأى امرأة لا تجد لها مقعدًا؟، أو لو رأى بعينه رجلًا في يومٍ صائفٍ يمشي على قدميه في قارعة الطريق تحت الشمس المحرقة، وبعينه الأخرى يري السيارات تجري من حوله ولا يتوقف أحدهم ليحمله معه؟، أظنه كان سيتمثل قولَ مَنْ قال:

مـررتُ علـى المـروءة وهـي تبكـي فقلــت: عــلامَ تنتحــبُ الفتــاةُ؟

فقالــت: كيــف لا أبكــي وأهلــي جميعًــا دون خلــق الله مــاتوا؟

شمسُ الإسلامِ تُشرِقُ في قلبِه

ولما أراد النبيُّ ﷺ العمرة في أواخر السنة السادسة من الهجرة منعته قريشٌ، وكادت أن تَنْشُبَ نيرانُ الحرب ولكن كَفَّ اللهُ أيدي الفريقين وتصالحا صلح الحديبية الذي كان من بنوده: أن يرجع المسلمون، ثم يأتوا العام القابل للعمرة.

وبالفعل دخل النبيُّ ﷺ والمسلمون مكة مُحْرِمين في السنة السابعة للهجرة في مشهدٍ مهيب، تَعُجُّ أصواتُهم بالتلبية كأنها تشق عنان السماء، يرملون في الطواف، ويُهرولون في السعي، وكانت قريش قد أشاعت بين الناس قائلة: «يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ قَوْمٌ قَدْ وَهَنَتْهُمْ الْحُمَّى، وَلَقُوا مِنْهَا شَرًّا»[(١)]، وكان أهل مكة يرقبون المشهد ويتخافتون بينهم في دهشة قائلين: «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الْحُمَّى قَدْ وَهَنَتْهُمْ؟، هَؤُلَاءِ أَجْلَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا»[(٢)]، ومع هذا رَأَوا وجوهًا أضاءها الإيمان، وقلوبًا أَلَّفَ بينها الإسلام، وما رَأَوا

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٦٦) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٦٦) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الله عُبِدَ في الحرم حَقَّ عبادته قبل ذلك، فكلما حانت الصلاة رأوا قومًا يتوضؤون فيحسنون، ويصلون فيخشعون، أذانهم تدوي أصداؤه في أركان مكة، يرتلون القرآن ترتيلًا تلين معه جبال الحرم، وتلين معه- أيضًا- القلوب التي أراد اللهُ بها خيرًا، فأحدثت هذه المشاهد في قريش أثرًا عظيمًا جعل أحدَ صناديدِها وهو خالد بن الوليد يعلنها قائلًا: «لقد اسْتَبَانَ لكل ذي عَقلٍ أنَّ مُحَمَّدًا ليس بَساحر، ولا شاعر، وأنَّ كلامَه مِنْ كلام ربِّ العالمين، فحُقَّ لكل ذي لُبٍّ أنْ يتبعه»[(١)].

وها هو ذا عثمان بن طلحة حاجب الكعبة وصاحب مفتاحها يتأثر بما رأى كما تأثر غيره، ويشرح اللهُ صدره لِمَا شَرَحَ له صدر خالد، فتشرق شمسُ الإسلام في قلبه، وها هو ذا يحدثنا عن ذلك فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فلمَّا دخل رسُولُ الله ﷺ مكة عامَ القضية غَيَّرَ الله قلبي عمَّا كان عليه ودخلني الإسلامُ، وجعلتُ أفكر فيما نحن عليه وما نعبد من حجر لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، وأنظر إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وظَلَفِ[(٢)] أنفسهم عن الدنيا فيقع ذلك منِّي، فأقول: ما عمل القومُ إلا على الثواب لِمَا يكون بعد الموت، وجعلتُ أُحِبُّ النظر إلى رسول الله ﷺ إلى أنْ رأيته خارجًا من باب بني شيبة يريد منزله بالأبطح، فأردتُ أن آتيه وآخذ بيده وأسَلِّمَ عليه فلم يُعْزَمْ لي على ذلك، وانصرفَ رسولُ الله ﷺ راجعًا إلى المدينة»[(٣)].

فوالله ما مِثْل عثمان بن طلحة يجهل الإسلام، رجل كهـذا يحمل هـذه الأخلاق في طيات نفسه وهو كافر، ويَكْمُنُ في أعماقه هذا المعدن النفيس، فلا شك أن الإسلام

---

(١) الرسول القائد (٢٠٩) نقلًا من السيرة، للصلابي (٧٢٧).

(٢) ظلف نفسه، أي: صرفها عن النعيم، وهو كناية عن زهدهم الواضح في الدنيا. وينظر: غريب الحديث، للخطابي (٢/ ٢٩٣).

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٨٣/ ٣٨٣).

إذا نزل به سيصنع منه بطلًا عظيمًا في تاريخ هذه الأمة، ونجمًا مضيئًا ساطعًا في سمائها، ومِصْداق ذلك: قولُ النبيِّ ﷺ: «**النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا**»[1].

فكل ما هنالك أنَّ الإسلام سيأتي على الخير الكثير المدفون في أعماق نفسه فينفض عنه غبار الجاهلية الذي يعلوه، وينبثق شعاع الإيمان في قلبه فيحيي بريقه المطموس، ويزيل عنه سحائب الشرك التي خيمت عليه فأظلمته، فيعود القلب إلى فطرته السَّوية يعرف المعروف، وينكر المنكر، ويميز الخبيث من الطيب، ولا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض.

هجرتُه للهِ ورسولِه

إنَّ العبد إذا أراد الهداية بصدق هداه الله وسخر له من يعينه، فبينما عثمان بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفكر في الفرار من مكة مهاجرًا إلى الله ورسوله إذ ساق الله إليه خالد بن الوليد الذي قد عزم على نفس الأمر ليشدَّ الله عضده بأخيه، فيا ترى ما الذي حدث؟

قال خالدُ بنُ الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَمَّا أَرَادَ اللهُ ﷻ مَا أَرَادَ بِي مِنَ الْخَيْرِ قَذَفَ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامَ وَحَضَرَنِي رُشْدِي، وَقُلْتُ: قَدْ شَهِدْتُ هَذِهِ الْمَوَاطِنَ كُلَّهَا عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَيْسَ مَوْطِنٌ أَشْهَدُهُ إِلَّا أَنْصَرِفُ وَأَنَا أَرَى فِي نَفْسِي أَنِّي مُوضِعٌ فِي غَيْرِ شَيْءٍ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَيَظْهَر، فَلَمَّا أَجْمَعْتُ الْخُرُوجَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ خَرَجْتُ إِلَى مَنْزِلِي فَأَمَرْتُ بِرَاحِلَتِي تُخْرَجُ، فلقيت عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا لِي صَدِيقٌ، فَلَوْ ذَكَرْتُ لَهُ مَا أَرْجُو، ثم ذَكَرْتُ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِ فَكَرِهْتُ أَنْ أَذْكُرَهُ، فَقُلْتُ: وَمَا عَلَيَّ وَأَنَا رَاحِلٌ مِنْ سَاعَتِي، فَذَكَرْتُ لَهُ مَا صَارَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: إِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ ثَعْلَبٍ فِي

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٣)، ومسلم (٢٦٣٨)، واللفظ له.

جُحْرٍ لَوْ صُبَّ فِيهِ ذَنُوبٌ مِنْ مَاءٍ خَرَجَ، قال خالد: فَأَسْرَعَ الْإِجَابَةَ وقال: إِنِّي غَدَوْتُ الْيَوْمَ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْدُوَ، وَهَذِهِ رَاحِلَتِي بِفَخٍّ مُنَاخَةٌ، قَالَ خالد: فَاتَّعَدْتُ أَنَا وَهُوَ بِيَأْجِجَ، إِنْ سَبَقَنِي أَقَامَ، وَإِنْ سَبَقْتُهُ أَقَمْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: فَأَدْلَجْنَا سَحَرًا فَلَمْ يَطْلُعِ الْفَجْرُ حَتَّى الْتَقَيْنَا بِيَأْجِجَ، فَغَدَوْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الْهَدْأَةِ فَوجَدْنا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ بِهَا، فقَالَ: مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ، فَقُلْنَا: وَبِكَ، قَالَ: أَيْنَ مَسِيرُكُمْ؟، قُلْنَا: مَا أَخْرَجَكَ؟، فَقَالَ: مَا أَخْرَجَكُمْ؟، قُلْنَا: الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ وَاتِّبَاعُ مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَ: وَذَاكَ الَّذِي أَقْدَمَنِي، فَاصْطَحَبْنَا جَمِيعًا حَتَّى دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ فَأَنَخْنَا بِظَهْرِ الْحَرَّةِ رِكَابَنَا، فَأُخْبِرَ بِنَا رَسُولُ الله ﷺ فَسرَّ بِنَا، وكان قدومنا في صفر سنة ثمانٍ»[(١)] فلما دخلوا على النبيِّ ﷺ استبشر وقال: «**أَلْقَتْ لَكُمْ مَكَّةُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا**»[(٢)].

قال عثمانُ بنُ طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فبايعته على الإسلام، وأقمتُ معه حتى خرجتُ معه في غزوة الفتح، ودخل مكة[(٣)].

وبذلك لحق عثمان بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بركب إخوانه من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، الذين قال الله لهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾[الأنفال: ٧٤- ٧٥].

أينَ مِفتاحُ الكَعبةِ؟

وخرج النبيُّ ﷺ لفتح مكة في رمضان سنة ثمان، وخرج معه عثمانُ بنُ طلحة

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٣٧٧)، ومعرفة الصحابة (٤/ ١٩٦١).
(٢) ينظر: معرفة الصحابة، لأبي نعيم (٤/ ١٩٦١)، وأسد الغابة (٣/ ٥٧٣)، وتاريخ دمشق (٣٨/ ٣٨٣).
(٣) ينظر: تاريخ دمشق (٣٨/ ٣٨٣).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كظله لا يفارقه، ودخل المسلمون يوم الفتح من أعلى مكة، والنبيُّ ﷺ على راحلته مُردفًا أسامة بن زيد، ومعه بلالٌ وعثمانُ بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حتى أناخ ﷺ بفناء الكعبة، فدعا عثمانَ بنَ طلحة، فقال له: «**ائْتِنَا بِمِفْتَاحِ الْبَيْتِ**»[(١)].

وعندها كاد قلبُ عثمان أنْ يطير فرحًا، فقد حانتِ الفرصة ليُكَفِّرَ عن فعله القديم يومَ طلب النبيُّ ﷺ منه المفتاح فأبَى، مع أنَّ الرجل هو الرجل، ولكنَّ القلب غير القلب، فقلبه الآن قد أُشْرِبَ الإيمان إشرابًا.

وانطلق عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما ينطلق السهم من قوسه نحو بيت أمه العجوز التي انتقل المفتاح إليها بعد إسلامه وهجرته إلى الله ورسوله، فطلب منها المفتاح برفق فَأَبَتْ أَنْ تُعْطِيَهُ إياه، فَقَالَ: وَاللهِ لَتُعْطِينِهِ، أو لَيَخْرُجَنَّ هَذَا السَّيْفُ مِنْ صُلْبِي، فقالت: إِنَّهُ إِنْ أَخَذَهُ مِنْكُمْ لَمْ يعطِكُمُوهُ أَبَدًا، فقال لها: يا أمتاه، إنه قد جاء أمرٌ غير الذي كان، وإنه إن لم تعطني المفتاح قُتِلتِ، فأخرجته فدفعته إليه[(٢)].

فخرج عثمانُ به يشتد نحو رسول الله ﷺ، يخترق الجموع الغفيرة، ولو استطاع أن يطير من فوق رؤوسهم لفعل ليُسَلِّمَ المفتاح لرسول الله ﷺ يدًا بيَدٍ.

فلما دَنَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ عَثَرَ من شدة اندفاعه فوقع المفتاح من يده، فقام النَّبِيُّ ﷺ فحنا عليه بثوبه فأخذه ففتح الباب، ودخل رسولُ الله ﷺ الكعبة ومعه أسامة وبلال وعثمان بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولم يدخل معهم أحد، ثم أغلقوا عليهم الباب، فمكثوا فيه نَهَارًا طَوِيلًا، ثم فُتِحَ البابُ فخرجوا[(٣)].

ورأى النبيُّ ﷺ في الكعبة صورًا وأصنامًا حين دخلها فأمر ﷺ عثمانَ بنَ طلحة

---

(١) ينظر: البخاري (٤٦٨- ٢٨٢٦- ٢٩٨٨)، ومسلم (١٣٢٩).
(٢) ينظر: صحيح مسلم (١٣٢٩)، ومسند البزار (٨٠٣٤)، ومصنف عبد الرزاق (٩٠٧٣).
(٣) ينظر: البخاري (٢٩٨٨)، ومسلم (١٣٢٩)، والبزار (٨٠٤٣).

بإزالتها، فانطلق ليزيل آثار الشرك والجاهلية من بيت الله الحرام، ثم أرسل إليه النبيُّ ﷺ فقال له: «**إِنِّي كُنْتُ رَأَيْتُ قَرْنَيْ الْكَبْشِ**[١] **حِينَ دَخَلْتُ الْبَيْتَ، فَنَسِيتُ أَنْ آمُرَكَ أَنْ تُخَمِّرَهُمَا**[٢] **فَخَمِّرْهُمَا؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ شَيْءٌ يَشْغَلُ الْمُصَلِّيَ**»[٣]، ففعل عثمانُ ما أُمِرَ به.

يومُ برٍّ ووفاءٍ

وبعد أن فرغ النبيُّ ﷺ من صلاته وقف أمام الناس ومِفتاح الكعبة في يده، والكل ينظر ويتساءل: من ذا الذي سيشرِّفه النبيُّ ﷺ بحجابة الكعبة وحفظ مفتاح بيت الله في الأرض؟

ولا شك أنها كانت من أصعب اللحظات في حياة عثمان بن طلحة، فكأني به وشريط الذكريات يمر أمام عينيه فيرى فيه هذا المفتاح في يد آبائه وأجداده، ثم في يده من بعدهم، وتضيق نفسه وهو يتذكر حين طلبه النبيُّ ﷺ منه فأبى، فقال ﷺ له: **يا عثمان، لعلك ترى هذا المفتاحَ يومًا في يدي أضعه حيثُ شئتُ.**

وكأني به- أيضًا- يتساءل في نفسه: لقد أَوْكَلَ النبيُّ ﷺ لبني هاشم سقاية الحاج، فهل سيجمع لهم السقاية والحجابة ليعظم شرفهم؟

وبالفعل سعى بنو هاشم للقيام بهذا العمل الكريم لما يترتب عليه من ثواب عظيم، فتقدم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبيِّ ﷺ فقال: «يَا رَسُولَ الله، لَئِنْ كُنَّا أُوتِينَا النُّبُوَّةَ، وَأُعْطِينَا السِّقَايَةَ، وَأُعْطِينَا الْحِجَابَةَ، مَا قَوْمٌ بِأَعْظَمَ نَصِيبًا مِنَّا»[٤]، وأتاه العباسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «يَا نَبِيَّ الله، اجْمَعْ لِي الْحِجَابَةَ مَعَ السِّقَايَةِ»[٥]، ولكن الوحي نزل من

---

(١) هما: قرنا الكبش الذي فدى الله تعالى به إسماعيل ﷺ، علقت بعد ذبحه في الكعبة.
(٢) أن تغطيهما.
(٣) أخرجه أحمد (٢٣٢٦٩)، وأبو داود (٢٠٣٠)، وصحَّحه الألباني في صفة الصلاة (ص٨٩).
(٤) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٩٠٧٣- ٩٠٧٦).
(٥) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٩٠٧٣- ٩٠٧٦).

السماء ليفصل في الأمر بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء (٥٨)]، فتلاها النبيُّ ﷺ على الناس، وقال: «**الْيَوْمَ يَوْمُ بِرٍّ وَوَفَاءٍ**، ثم قال: **أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ؟** وكأن هذا النداء رَدَّ الروح في قلب عثمان، وبَثَّ فيه الحياة من جديد، فانطلق نحو النبيِّ ﷺ وهو يرفع صوته: لبيك يا رسول الله، فقال ﷺ له: **هَاكَ مِفْتَاحَكَ يَا عُثْمَانُ، الْيَوْمَ يَوْمُ بِرٍّ وَوَفَاءٍ، إنَّ اللهَ قد اسْتأمنكم على بيته، خذوها يا بَني أبي طلحة بأمانةِ اللهِ خالدةً تالدةً لا ينزعها منكم إلا ظالمٌ؛ فإنَّ الله قد رضي لكم بها في الجاهلية والإسلام**»[1].

وفي مَشهدٍ مَهيبٍ يتسلم عثمان بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مفتاح بيت الله الحرام، ويحمل معه أمانة الله، فلما أراد أن ينصرف قال له النبيُّ ﷺ: «**يا عثمان، ألم يكنْ الذي قلتُ لك بمكة؟! فقال: بلى، أشهدُ أنك رَسُولُ الله**»[2].

وحانَ وَقتُ الرَّحيلِ

وبقي عثمانُ بنُ طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد موت رسول الله ﷺ بين أهله وعشيرته يورثهم أخلاقه الكريمة التي زادها الإسلام شرفًا وتقويمًا، فهذا شَيْبَةُ بنُ أخيه يقول: حَدَّثَنِي عَمِّي عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ: أَنَّهُ سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «**ثَلَاثٌ يُصَفِّينَ لَكَ وُدَّ أَخِيكَ: تُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيتَهُ، وَتُوَسِّعُ لَهُ فِي الْمَجَالِسِ، وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ**»[3].

وبعد حياة طويلة عاشها عثمان بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خادمًا لبيت الله في الأرض يقف به قطار الحياة الدنيا عند آخر محطاته، فقد حان وقت الرحيل، لينام على فراش الموت، وتخرج روحه إلى بارئها، ويُصلي عليه المسلمون في المسجد الحرام الذي

---

(١) ينظر: المعجم الكبير (١١٢٣٤)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣٦٩٤٠)، والإصابة (٣/ ٣٩٩)، وتاريخ دمشق (٣٨/ ٣٨٩)، والطبقات الكبرى (٢/ ١٣٧)، والسيرة النبوية، لابن هشام (٩٧٣).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٢/ ١٣٧)، وتاريخ دمشق (٣٨/ ٣٨٩).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٨٥١٥)، والطبراني في الأوسط (٨٣٦٩)، والبيهقي في الشعب (٨٣٩٧).

أفنى حياته في خدمته، وذلك سنة اثنتين وأربعين في خلافة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١].

وانتقل مفتاح الكعبة بعد موته إلى ابن عمه شَيْبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو صحابي جليل، فرعاه حق رعايته، وإلى زماننا هذا وبنو شَيبة هم حَجَبَة بيت الله الحرام.

رضي اللّهُ عن عثمانَ بنِ طلحةَ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) ينظر: الاستيعاب (٣/ ١٠٤٣) والوافي بالوفيات (٢٠/ ٢٣) وتاريخ دمشق (٣٨/ ٣٩٠).

حَاطِبُ بنُ أبي بَلتعةَ

أولُ مسلمٍ دعا إلى اللهِ ورسولِه في مصرَ

إنَّ هذه الصفحات تسلط الضوء على حياة صحابي جليل من المهاجرين أفنى حياته في سبيل الله عابدًا وداعيًا ومجاهدًا، شهد الله جَلَّوَعَلَا له بالإيمان ورضي عنه، وشهد له رسوله ﷺ بالجنة.

وسنرى من خلال سيرة هذا الرجل العظيم رائعةً من روائع الإسلام الذي يحفظ الجميل لأصحابه، ولم يمح تاريخهم المشرق الحافل بالتضحيات من أجل زلة يقع فيها أحدهم لبشريته، فالإنسان مهما علا قدره وارتفع شأنه فهو في النهاية لن يصل إلى حد الكمال أبدًا، فلا بد له من لحظة يضعف فيها، أو موقف تعثر فيه قدمه، حتى تتحقق فيه سنة الله في خلقه، وكفى بالمرء نُبْلًا أن تُعد معايبُه، والله أرحمُ وأبَرُّ من أن يؤاخذ أولياءه بسَوَرَات الضعف، أو لحظات العثرة التي تعتريهم أحيانًا، وصلوات الله وسلامه على رسوله الذي قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»[(١)].

فيا تُرى من هو؟ وما قصته؟

بطاقةُ تعريفٍ[(٢)]

هو حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ، كنيته: أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد، واسم أبي بلتعة:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٨٤)، والاستيعاب (١/ ٣١٣)، ومعرفة الصحابة (٢/ ٦٩٥)، وأسد الغابة (١/ ٦٥٩)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢)، والإصابة (٢/ ٤).

عمرو بن عمير بن سلمة اللّخميُّ، القحطانيُّ.

أصول حاطبٍ قحطانيةٌ يمانية، لكنه عاش في مكة حليفًا لبني أسد بن عبد العزى ابن قُصي.

وكان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رجلًا حَسَنَ الجسم، ليس بالطويل ولا بالقصير، خفيف اللحية.

وكان من ذوي الوجاهة بين الناس، ومن شعراء مكة في الجاهلية، وكان ممن يجيدون القراءة والكتابة في وقت كانت العرب فيه غارقة في الأمية، وكان صاحب مال وتجارة، وله خدم وعبيد يقومون معه على شئون تجارته.

وكان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من فرسان مكة المعروفين، ورُماتها المشهورين.

إسلامُه وهجرتُه

أسلم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ شابًّا في مكة مع رسول الله ﷺ، وعانى مما عاناه المسلمون فيها، حتى أمرهم الله تعالى بالهجرة إلى المدينة، فهاجر وهو في الخامسة والثلاثين من عمره تقريبًا[1]، وترك أهله وماله وداره فيها، حتى قال الله تعالى عنه وعن أصحابه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وفي مشهد الإخاء العظيم الذي رسمه النبيُّ ﷺ بين المهاجرين والأنصار آخى ﷺ بين حاطبٍ وعُوَيْمِ بْنِ سَاعِدَةَ الأَنْصَارِيُّ[2].

جهادُه مع رسولِ الله ﷺ

جاهد حاطب مع رسول الله ﷺ المشركين في مشاهده كلها، ووضع الوحي على

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٨٤)، ومعرفة الصحابة (٢/ ٦٩٥)، وأسد الغابة (١/ ٦٩٥).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٣٤٩)، ومعرفة الصحابة (٤/ ٢١١٦)، والسير (٣/ ٣٠٨).

صدره العديد من الأوسمة إكرامًا لجهاده في سبيل الله، ومن أعظمها: أوسمة الشرف التي وُضِعت على صدر من شهد بدرًا وبايع في الحديبية، ومنها:

أولًا: رضوان الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

ثانيًا: مغفرة ذنوبهم؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**إِنَّ الله تَعَالَى اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»(١).

ثالثًا: وعد بدخولهم الجنة وعدم دخولهم النار؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»(٢).

ولقوله ﷺ: «**لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ رَجُلٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ**»(٣).

رابعًا: أنهم خير الناس، فقد سأل جبريلُ النبيَّ ﷺ فقال: «**مَا تَعُدُّونَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فِيكُمْ؟ قَال: خِيَارَنَا**»(٤)، وفي لفظ: «**هُمْ عِنْدَنَا أَفَاضِلُ النَّاسِ**»(٥).

وقال ﷺ لمن شهد الحديبية: «**أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ**»(٦).

مَوقفهُ البُطوليُّ يومَ أُحدٍ

وفي يوم أحد كان لحاطب موقف بطوليٌّ سجله التاريخ، يشهد على شجاعته وتضحيته في سبيل الله، ويُظهر مدى حُبه لرسوله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري عن علي (٣٠٠٧)، وأحمد عن أبي هريرة (٧٩٤٠)، واللفظ له.
(٢) أخرجه أحمد (١٤٨٢٠)، والترمذي (٣٨٦٠)، وصحَّحه الألباني والأرناؤوط.
(٣) أخرجه أحمد (١٥٢٦٢)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢١٦٠).
(٤) أخرجه البخاري (٣٩٩٢)، وأحمد (١٥٨٢٠)، واللفظ له.
(٥) أخرجه ابن حبان (٧٢٢٤)، وصحَّحه الألباني في التعليقات الحسان (٧١٨٠).
(٦) أخرجه البخاري (٤١٥٤).

فإنه لما اشتعلت نيران المعركة ودارت الدائرة على المسلمين، وجُرح النبيُّ ﷺ جراحات شديدة، وأُشيع بين الناس أن محمدًا ﷺ قد قُتل حين صاح الشيطان بذلك، انهارت معنويات كثير من المسلمين، وأحاطت النبيَّ ﷺ ثلة مؤمنة يدافعون عنه بأرواحهم، وهنا برز دور الفارس المغوار حاطب بن أبي بلتعة، فقد انطلق انطلاقة السهم من القوس في ميدان المعركة يمينًا وشمالًا يبحث عن رسول الله ﷺ الذي هو أحب إليه من نفسه، فوجده وقد آلمته الجراح، والدماء تسيل على جسده الشريف، «وَفِي يَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التُّرْسُ فِيهِ مَاءٌ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَغْسِلُ وَجْهَهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، فَقَالَ لَهُ حَاطِبٌ: مَنْ فَعَلَ بِكَ هَذَا؟ قَالَ: **عُتْبَةُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، هَشَّمَ وَجْهِي، وَدَقَّ رَبَاعِيَتِي بِحَجَرٍ رَمَانِي**، فقال حاطب: إِنِّي سَمِعْتُ صَائِحًا يَصِيحُ عَلَى الْجَبَلِ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، فَأَتَيْتُ وَكَانَ قَدْ ذَهَبَ رُوحِي، فقال يا رسول الله: أَيْنَ تَوَجَّهَ عُتْبَةُ؟ فَأَشَارَ إِلَى حَيْثُ تَوَجَّهَ، قال: فَمَضَيْتُ حَتَّى ظَفِرْتُ بِهِ فَضرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ فَطَرَحْتُ رَأْسَهُ فَهَبَطَتْ، فَأَخَذْتُ رَأْسَهُ وَسَلَبَهُ وَفَرَسَهُ وَجِئْتُ بِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَلَّمَ ذَلِكَ إِلَيَّ وَدَعَا لِي، فَقَالَ: **رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، رَضِيَ اللهُ عَنْكَ**»(١).

توجُّهُ الإسلامِ نحو العالميةِ

وبعد صُلح الحديبية بدأت رسالة الإسلام التي كانت محصورةً في جزيرة العرب تتجه نحو العالمية، فإن الله سُبحانه ما أرسل رسوله ﷺ للعرب فَحَسْب، بل قال سُبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فمن أجل تحقيق ذلك عزم النبيُّ ﷺ أن يرسل رُسُلًا إلى ملوك الدول العظمى في

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٣٠٧)، ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى (١٢٧٧٠)، والإسناد ضعيف.

ذاك الزمان يدعوهم فيها إلى الإسلام.

وبالفعل بدأ الرسولُ ﷺ بدقةٍ وعنايةٍ في اختيار مجموعة من صفوة أصحابه يَصْلُحُ كلٌّ منهم أن يكون سفيرًا للإسلام.

وعن هذا يقول أنسُ بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسرَى، وَإِلَى قَيْصَرَ، وَإِلَى النَّجَاشِيِّ، وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَيْسَ بِالنَّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ»[(١)].

فقد أَرسلَ عبدَ الله بن حذافة السَّهمي إلى كسرى ملك فارس، ودحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل قيصر الروم، وعمرو بن أمية الضَّمري إلى نجاشي الحبشة، والعلاء بن الحضرمي إلى ملك البحرين، وغيرهم من السُفراء إلى الملوك والأمراء[(٢)].

حاطبُ سفيرُ الإسلامِ في مصرَ[(٣)]

لما أراد النبيُّ ﷺ أن يبعث رسالته إلى المقوقس حاكم مصر اختار لهذه المهمة حاطب بن أبي بلتعة، الذي كان يمتلك من المقومات ما يُؤهله ليصبح سفير الإسلام أمام أهل مصر وحاكمها، فهو الشاعر ذو اللسان الفصيح، والتاجر المتميز الذي يرتب عباراته ويُحسن عرض ما بين يديه على مَنْ أمامه، وهو الفارس الذي ينطلق بشجاعة، والرامي الذي يتصرف بدقة تكاد لا تخطئ الهدف، وهو مع ذلك حَسنُ الوجه، حَسنُ الجسم، حَسنُ السَّمْت[(٤)]، وسنرى بعد قليل كيف سيوظف حاطبٌ ما منحه الله تعالى من مقومات ومهارات عند لقائه بالمقوقس عظيم القبط.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٤).

(٢) ينظر: معرفة الصحابة (٢/ ٦٩٥)، والاستيعاب (١/ ٣٥١)، وزاد المعاد (٣/ ٦٠٤)، والسير (٢/ ٩٩).

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ١٩٩)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٤/ ٢٨٨)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٠).

(٤) راجع تلك الصفات في: بطاقة التعريف أول الترجمة.

وكتب النبيُّ ﷺ الرسالة فانطلق بها حاطبٌ على فرسه يشق الصحارَى والوِديان وكأنه سهمٌ انطلق من قوسه حتى وصل الإسكندرية فوقف بعِزةٍ وشُمُوخٍ أمامَ حاكم مصر ودفع إليه كتاب رسول الله ﷺ بأدبٍ يُبْرِزُ أخلاق الإسلام، فدعا المقوقس ترجمانه ليقرأ عليه الكتاب، فإذا مكتوبٌ فيه: «**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ الله وَرَسُولِهِ إِلَى المقوقس عَظِيمِ الْقِبْطِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْقِبْطِ**، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٦٤]»[(١)] .

فلما قُرِأَ الكتابُ على المقوقس قال: إِنَّ لَنَا دِينًا لَنْ نَدَعَهُ إِلَّا لِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، فَقَالَ حاطبٌ: نَدْعُوكَ إِلَى دِينِ الله، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، وإِنَّ هَذَا النَّبِيَّ دَعَا النَّاسَ، فَكَانَ أَشَدَّهُمْ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ، وَأَعْدَاهُمْ لَهُ الْيَهُودُ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ النَّصَارَى، وَلَعَمْرِي مَا بِشَارَةُ مُوسَى بِعِيسَى إِلَّا كَبِشَارَةِ عِيسَى بِمُحَمَّدٍ، وَمَا دُعَاؤُنَا إِيَّاكَ إِلَى الْقُرْآنِ إِلَّا كَدُعَائِكَ أَهْلَ التَّوْرَاةِ إِلَى الْإِنْجِيلِ، وَكُلُّ نَبِيٍّ أَدْرَكَ قَوْمًا فَهُمْ مِنْ أُمَّتِهِ، فَالْحَقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَأَنْتَ مِمَّنْ أَدْرَكَهُ هَذَا النَّبِيُّ، وَلَسْنَا نَنْهَاكَ عَنْ دِينِ الْمَسِيحِ، وَلَكِنَّا نَأْمُرُكَ بِهِ.

ثم قال له حاطبٌ عبارةً يُخوفه فيها بالله، سترى من خلالها عُمقَ تعايشِه مع القرآن، ومدى معرفته بتاريخ هذا البلد التي جاء يدعو أهلها للإسلام، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيها الملك، إِنَّهُ كَانَ قَبْلَكَ رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ الرَّبُّ الْأَعْلَى[(٢)] فَأَخَذَهُ الله نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، فَانْتَقَمَ بِهِ، ثم انْتَقَمَ مِنْهُ، فاعْتَبِرْ بغَيْرِكَ، وَلَا يَعْتَبِرْ غَيْرُكَ بِكَ.

---

(١) نقلًا من زاد المعاد (٣/ ٦٠٣).

(٢) يقصد: فرعون.

فأمر المقوقسُ بإنزال حاطبٍ في قصره وإكرامه حتى يرى رأيه في الأمر.

حاطبُ يرُدُّ على شُبهةِ المُقَوقِسِ

قال حاطبٌ: فَأَنْزَلَنِي فِي مَنْزِله، وكَانَ لِي مُكْرِمًا فِي الضِّيَافَةِ، فأَقَمْتُ عِنْدَهُ خَمْسَةَ أَيَّامٍ، ثم بَعَثَ إِلَيَّ وَقَدْ جَمَعَ بَطَارِقَتَهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَأُكَلِّمُكَ بِكَلَامٍ فَأُحِبُّ أَنْ تفْهَمَهُ مِنِّي، فَقُلْتُ: هَلُمَّ، فقَالَ: أَخبِرْنِي عَنْ صَاحِبِكَ، أَلَيْسَ هُوَ نَبِيًّا؟، فَقُلْتُ بَلَى، وَهُوَ رَسُولُ الله ﷺ، قَالَ: فَمَا لَهُ حَيْثُ كَانَ هَكَذَا لَمْ يَدْعُ عَلَى قَوْمِهِ حِينَ أَخْرَجُوهُ مِنْ بَلَدِهِ؟، فَقُلْتُ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ حَيْثُ أَخَذَهُ قَوْمُهُ فَأَرَادُوا أَنْ يَصْلِبُوهُ، فَمَا لَهُ لَمْ يَدْعُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يُهْلِكَهُمُ اللهُ حَتَّى رَفَعَهُ الله إِلَيْهِ فِي السَّمَاءِ؟، فقَالَ: أَحْسَنْتَ، أَنْتَ حَكِيمٌ جَاءَ مِنْ عِنْدِ حَكِيمٍ.

ثم قال: إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ هَذَا النَّبِيِّ فَوَجَدْتُهُ لَا يَأْمُرُ بِمَزْهُودٍ فِيهِ، وَلَا يَنْهَى عَنْ مَرْغُوبٍ فِيهِ، وَلَمْ أَجِدْهُ بِالسَّاحِرِ الضَّالِّ، وَلَا الْكَاهِنِ الْكَاذِبِ، وَوُجِدَتْ مَعَهُ آيَةُ النُّبُوَّةِ بِإِخْرَاجِ الْخَبْءِ، وَالْإِخْبَارِ بِالنَّجْوَى، وَسَأَنْظُرُ فِي الأمر.

قال حاطب: وَأَخَذَ كِتَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَهُ فِي حُقٍّ مِنْ عَاجٍ وَخَتَمَ عَلَيْهِ وَدَفَعَهُ إِلَى جَارِيَةٍ لَهُ، ثم دَعَا كَاتِبًا لَهُ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ فَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ: بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله مِنَ المقوقس عَظِيمِ الْقِبْطِ سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ وَفَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ فِيهِ وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ نَبِيًّا بَقِيَ، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِالشَّامِ، وَقَدْ أَكْرَمْتُ رَسُولَكَ، وَبَعَثْتُ إِلَيْكَ بِجَارِيَتَيْنِ لَهُمَا مَكَانٌ فِي الْقِبْطِ عَظِيمٌ، وَبِكِسْوَةٍ، وَأَهْدَيْتُ إِلَيْكَ بَغْلَةً لِتَرْكَبَهَا، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ[1].

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ٢٠٠)، ومعرفة الصحابة (٢/ ٦٩٦)، والاستيعاب (١/ ٣٥١)، وزاد المعاد (٣/ ٦٠٤)، والسير (٢/ ٩٩).

وبهذا يكون حاطب بن أبي بلتعة أول من دعا إلى الله ورسوله في مصر، فيا له من شرف، ويا لها من مَنْقَبَة.

داعيةٌ على الطريقِ

وخرج حاطبٌ من عند المقوقس يَصحبُ هداياه والجاريتين إلى رسول الله ﷺ، ومع أن المقوقس أكرم حاطبًا، وعظَّمَ كتابَ رسولِ الله ﷺ إلا أنه لم يُسلم، ومع ذلك لم ييأس ذلكم الفارسُ الداعية السفير الذي تربَّى في مدرسة الإسلام منذ نشأتها على يد معلمِها رسولِ الله ﷺ، فظل في طريق عودته يُحَدث الجاريتين عن الإسلام وعن قصة الرسالة حتى أسلمتا على يديه قبل وصولهما المدينة.

والجاريتان هما: مارية بنت شمعون القبطية، وأختها سيرين.

ولم تكن مارية تعلم أن القَدَرَ قد فتح لها أبواب السعادة، وأنَّ النبيَّ ﷺ سيصطفيها ويجعلها من آل بيت النبوة، وأنها ستكون أم ولده إبراهيم عليهم صلوات الله وسلامه[(١)].

مكانتُه عند رسولِ الله ﷺ

ولما أراد النبيُّ ﷺ أن يتزوج أمَّ سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا اختار ﷺ حاطبَ بنَ أبي بلتعة ليكون الرسولَ بينه ﷺ وبينها، ولا شك أن ذلك دليل على أن حاطبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان موضع ثقة وأمانة مما جعل له مكانةً عند رسول الله ﷺ.

فقد روى مسلم عن أم سلمة أنها قالت: «أَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي لَهُ، فَقُلْتُ: إِنَّ لِي بِنْتًا، وَأَنَا غَيُورٌ، فَقَالَﷺ: **أَمَّا ابْنَتُهَا فَنَدْعُو اللهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا، وَأَدْعُو اللهَ أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ**»[(٢)].

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٨/ ١٧١)، والاستيعاب (٤/ ١٩١٢)، وأسد الغابة (٥/ ٣).

(٢) صحيح مسلم (٩١٨).

كتابُ حاطبٍ لأهلِ مكةَ

ولما صالحَ النبيُّ ﷺ قريشًا في الحديبية على وقف القتال بينهما لعشر سنين دَخلتْ بنو خُزاعة في عقد النبيِّ ﷺ وعهده، وكان كثير منهم على الإسلام، ودَخلتْ بنو بكر في عهد قريش، وكان كثير منهم على الكفر، ثم نَقضتْ قريشٌ هذا الصلحَ وأعانوا بني بكر على قتل خَزاعة حُلفاء النبيِّ ﷺ وقالوا: مَا يَعْلَمُ بِنَا مُحَمَّدٌ، وَهَذَا اللَّيْلُ وَمَا يَرَانَا أَحَدٌ، فَأَعَانُوهُمْ عَلَيْهِمْ بِالْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ، فَقَاتَلُوهَا مَعَهُمْ لِلضِّغْنِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ[(١)].

فلما جاء الخبر لرسول الله ﷺ عزم أن يخرج بجيشه لنصرة المستضعفين، وفتح مكة الفتح المبين.

وبالفعل اجتمع في المدينة جيشٌ عظيمٌ بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل، وأخفى النبيُّ ﷺ على الناس أنه يريد مكة، بل وأوهم ببعض التصرفات أنه يريد مكانًا آخر؛ وذلك لضمان عدم وصول أيِّ خبر إلى قريش، ثم أخبر بعض أصحابه بحقيقة وجهته، وفي ذلك يقول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ أَرْسَلَ إِلَى أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ أَنَّهُ يُرِيدُ مَكَّةَ فِيهِمْ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ، وَفَشَا فِي النَّاسِ أَنَّهُ يُرِيدُ حُنَيْنًا»[(٢)].

وعندئذٍ بَدأتْ الهمومُ تغرز حِرابَها في رأس حاطب، وبدأ يتسلل إلى صدره الخوفُ على آل بيته الضعفاء، تلكم الأسرة اليمانية الأصل التي تعيش في مكة وسط قريش وفي حمايتها، وبدأ الشيطان ينصب له فَخًّا، وأخذ يلقي عليه الخواطر والتساؤلات التي تُذهب النوم من عينيه فَرَقًا على أهله، وكأنَّ صوتًا بداخله يتساءل: ماذا ستفعل قريش

(١) ينظر: صحيح البخاري (٤١٧٨)، والسنن الكبرى، للبيهقي (١٨٨٥٩).
(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣٩٧).

بالمسلمين المستضعفين في مكة إذا علموا بقدوم جيش كهذا؟ هل سيقتلونهم؟، أم سيأخذونهم كرهائن يفاوضون النبيَّ ﷺ عليهم في حال هزيمتهم؟، وظلت الخواطر تتردد بداخله حتى أفقدته صوابه، وأنساه الشيطانُ أن الله خير الحافظين.

ولما أُغْرِقَ حاطبٌ في بحر مخاوفه المظلم ارتكب جُرْمًا عظيمًا لا تُصْلِحه سلامة النية، ظنًّا منه أن ذلك سينقذ أهله من بطش قريش الغاشم.

فكتب حاطبٌ إلى قريشٍ كتابًا يقول لهم فيه: «إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ إِلَيْكُمْ بِجَيْشٍ كَاللَّيْلِ، يَسِيرُ كَالسَّيْلِ، وَأَقْسَمَ بِاللهُ لَوَ صَارَ إِلَيْكُمْ وَحْدَهُ لَنَصرَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّهُ مُنْجِزٌ لَهُ مَا وَعَدَهُ»[(١)]، ثم بعثه مع امرأةٍ مسافرة إلى مكة.

والمتأمل في نَص هذا الكتاب سيرى فيه كلماتٍ كتَبَتها يَدٌ مؤمنة أخطأ صاحبُها الطريق، فإن حاطبًا بما فعله قد أفشى سِرًّا عسكريًّا من أسرار دولة الإسلام حتى وإن كان عن غير قصد.

الوحيُ يخبرُ بكتابِ حاطبٍ

وأنزل العليمُ الخبيرُ وَحْيَهُ على رسوله ﷺ يخبره بأمر الكتاب، فأرسل ﷺ عددًا من أصحابه ليأتوه به، وها هو علي بن أبي طالب يحدثنا عن ذلك فيقول: «بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ، فَقَالَ: انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ[(٢)] فَإِنَّ فِيهَا امْرَأَةً مِنْ الْمُشْرِكِينَ مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا، فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى[(٣)] بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ فَإِذَا نَحْنُ بِالْمَرْأَةِ تَسِيرُ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا، فَقُلْنَا لَهَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ، قال: فَأَنَخْنَا بِهَا، فَابْتَغَيْنَا فِي رَحْلِهَا فَمَا وَجَدْنَا شَيْئًا، فَقَالَ

(١) الروض الأنف (٧/ ٨٦)، والسيرة النبوية، لابن كثير (٣/ ٥٣٧).
(٢) اسم موضع بين المدينة ومكة.
(٣) أَيْ: تَتَسَابَقُ وَتَتَسَارَعُ مِنْ الْعَدْوِ. ينظر: المعجم الوسيط (٣/ ٥٨٩).

صاحباي: مَا نَرَى كِتَابًا، فَقُلْتُ: لَقَدْ عَلِمْتُ مَا كَذَبَ رَسُولُ الله ﷺ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ، لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ، أو لَأُجَرِّدَنَّكِ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَتْ الْجِدَّ مِنِّي أَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا[(١)] فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ الله، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَرَادَ غَزْوَهُمْ»[(٢)].

التحقيقُ في قضيةِ حاطبٍ

فأرسل النبيُّ ﷺ إلى حاطب، فلما وقف بين يديه بَدأَ ﷺ التحقيق في الأمر.

فقال النبيُّ ﷺ: **ما هذا يا حاطب؟ أتعرفُ هذا الكتاب؟**

فقال حاطب: لا تَعْجَلْ عَليَّ يا رسول الله

فقال ﷺ: **أنت كَتبتَ هذا الكتاب؟**

فقال: نَعم، يا رسول الله، وما فعلتُ ذلك غِشًّا لرسول الله ﷺ، ولا نِفاقًا، ولا ارتِدادًا، ولا رِضًا بالكفر بعد الإيمان، وإنِّي- واللهِ- لناصحٌ لله ولرسوله.

فقال ﷺ: **فما الذي حَمَلكَ على ما صنَعْتَ؟**

قال: يا رسول الله، إنّي كنتُ امرَءًا أعرابيًّا غريبًا في أهل مكة، مُلْصَقًا في قريشٍ ولم أكن من أنفُسِها، وكان أهْلي بين ظَهْرانَيهم، فخشيتُ عليهم، وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قراباتٌ بمكة يَحْمُونَ بها أهليهم وأموالَهم، فأحببتُ إنْ فاتني ذلك من النسب فيهم أنْ أتخذَ عندهم يَدًا يَدْفَعُ اللهُ بها عن أهلي، فكتبتُ كتابًا لأهل مكة لا يَضُرُّ اللهَ ورسولَه شيئًا، فلقد علمتُ أنَّ اللهَ مُظْهِرٌ رسولَه، ومُتِمٌّ له أمْرَه[(٣)].

وهكذا وقف حاطبٌ في هذه المَحكمة النبوية أَمامَ أعدل قاضٍ على وجه الأرض

---

(١) ضفائرها. ينظر: لسان العرب (٧/ ٥٦).

(٢) ينظر: البخاري (٢٨٤٥، ٣٠٠٧، ٣٧٦٢، ٤٠٢٥، ٤٦٠٨، ٥٩٠٤، ٦٥٤٠)، والمسند (١٤٨١٦).

(٣) ينظر: البخاري (٢٨٤٥-٤٦٠٨)، وأحمد (١٤٨١٦)، والحاكم ٥٣٠٩- ٦٩٦٦)، وابن حبان (٧١١٩).

ليعترف بجريمته، وأنه صاحب الكتاب، ثم أفصح عن دافِعِهِ لفعل هذا بكل صِدْقٍ وشَفافِيَةٍ ووضُوح.

إصدارُ الحُكمِ على حاطبٍ

وبعدما انتهى حاطبٌ من دفاعه عن نفسه وبيان موقفه، بَقِيَ الكلُّ ينتظر إصدارَ النبيِّ ﷺ حُكمَه على حاطب، وأثناء صَمْتٍ يحيط بالجميع نَطَقَ النبيُّ ﷺ بلسانه الذي لا ينطق عن الهوى، فقال: «**لَقَد صَدَقَكُم حاطبٌ؛ فلا تقولوا له إلا خَيرًا**»[(١)]، ولكنَّ عُمَرَ المُتَحَمس دَفَعته غَيْرتُه على الله ورسوله لأنْ يقول:

«يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي حَتَّى أَضْرِبَ عُنُقَهُ»[(٢)].

فالتفت النبيُّ ﷺ إلى عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: «**أَتَقْتُلُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ؟، مَا يُدْرِيكَ، لَعَلَّ اللهَ** ﷻ **قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**- وفي لفظ-: **فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ**»[(٣)].

فنزلت هذه الكلماتُ على قلب عمرَ الغيور فأَطفأت نيرانَ غضبه، وأعادته إلى صوابه، وهَيَّجَت الدموعَ في عينيه، وها هو عَليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَصِفُ المشهدَ فيقول: «فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ، وَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»[(٤)].

وأما حاطبٌ فكأنه وُلِدَ من جديد عند سماع حُكمَ النبيِّ ﷺ فيه ودفاعَه عنه، وإذا كان عمرُ قد أسالت هذه الكلماتُ دموعَه، فلا شك أنها فَجَّرت الدموعَ في عَينَي حاطب فَأَخْضَلت لحيته وثيابه، إنها دموعُ النَّدمِ والتوبة والفرح.

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٢٨٤٥- ٣٧٦٢).
(٢) ينظر: صحيح البخاري (٤٢٧٤- ٦٢٥٩).
(٣) ينظر: صحيح البخاري (٤٢٧٤- ٦٢٥٩).
(٤) ينظر: صحيح البخاري (٤٢٧٤- ٦٢٥٩).

إنَّ حاطبًا قد وَجد في هذا المشهد شَمسًا مُشرقةً تمحو من قلبه ظلماتِ ذلك الذنب الذي اقترفه، وتفتحُ عينيه على قول حبيبه ﷺ: «**التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ**»[(١)] ليُكْمِلَ مسيرةَ العطاء من جديد.

لقد وجد يَدَ الإسلامِ الحانية ممدودةً تَذْكُرُ له الجميل، وتحتفظ له برصيده الذي أودعه على مَرِّ السنين في سبيل الله من هجرة ودعوة وجهاد، وعلى رأس ذلك: إعلاؤه لكلمة الله يوم بدر، فقد أذاب هذا الرصيد الزاخر هذه السقطةَ البشرية التي كانت.

أما نحن فلا بد أن نتعلم الدرس الرائع الذي وجهَه النبيُّ ﷺ للأمة في هذا الحدث، وهو أنَّ أصحاب الفضل لا يُمْحَى تاريخُهم، ولا تُنْسى صفحاتُ عطائهم بخطأٍ أحدثوه، أو ذنبٍ اقترفوه.

وياليت الكثير من أبناء جيلنا يفقهون هذه الرسالة النبوية جيدًا، فمنهم من أسقط العديد من العلماء والدعاة والأفاضل لصوابٍ جانَبوه، وخطأٍ لم يتعمدوه، فمَحَوا تاريخهم، وجحدوا فضلهم وما مضى من أيام بذلهم وعطائهم، ونَسُوا وصيةَ نبيهم ﷺ حين قال: «**أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ**»[(٢)]، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وظلَّ النبيُّ ﷺ يحفظ لحاطبٍ قَدْرَه ومكانته بين الناس، حتى يمحوَ من ذاكرتهم زلته التي تاب منها، فلا يَتجرأ عليه أحد.

ومن أمثلة ذلك: أن خلافًا وقع بين حاطب وأحد رقيقه، فذهب الرجلُ إلى النبيِّ ﷺ وقال له أمام الناس: «وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبٌ النَّارَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **كَذَبْتَ، لَا يَدْخُلُهَا أَبَدًا؛ فَإِنَّه قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَالْحُدَيْبِيَةَ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣٥٥١٣)، وأبو داود (٤٣٧٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦٣٨).

(٣) أخرجه مسلم (٣٤٩٥)، وأحمد (١٤٤٨٤)، واللفظ له.

التعقيبُ القرآنيُّ على الحَدَثِ

وبعد ما أُغْلِقَ بابُ التحقيق في قضية حاطب نزل القرآن بآيات من صدر سورة الممتحنة يقول الله تبارك وتعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ١-٦][(١)].

وكأن هذه الآيات نزلت تُكَوِّنُ حلقةً جديدة في سلسلة الإعداد الإيماني والتربوي لهذه الأمة على إثْر الأحداث والوقائع، وتستكمل بث روح الولاء والبراء في نفوس المؤمنين عامةً والمهاجرين الذين منهم حاطبٌ خاصةً قبل تحركهم لفتح مكة التي فيها آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم وعشيرتهم، فلا يمضون في طريقهم إلا بعد أنْ صرف القرآن أبصارهم نحو تجربة أبيهم إبراهيم والذين آمنوا معه، فينظر الواحد منهم من خلال تلك الآيات فإذا له نسبٌ عريق، وماضٍ طويل، وأسوة ممتدة على آماد الزمان، وإذا هو راجع إلى أبيه إبراهيم، لا في عقيدته فحسب، بل في تجاربه التي عاناها مع

(١) ينظر: البخاري (٤٢٧٤)، ومسلم (٢٤٩٤)، والحاكم (٣٨٠٢)، والترمذي (٣٣٠٥)، والسيرة، لابن هشام (٢/ ٣٩٨)، وتفسير ابن كثير (٨/ ١١١)، والدر المنثور، للسيوطي (٨/ ١٣٩).

عاطفة القرابة والرحم كذلك، فيشعر المسلم أن له رصيدًا من التجارب أكبر من رصيده الشخصي، بل أكبر من رصيد جيله الذي يعيش فيه، فيعلم أنَّ أولياء الله على مَرّ العصور قد مَرُّوا بمثل ما يمر به، وقد انتهوا في تجاربهم إلى قرار اتخذوه، وهو البراءة من الكفر وأهله، والولاء لله وأهله، وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي تبرهن في مثل هذه المواقف على صحة الإيمان وسلامته، وفي ذلك أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

وكأنِّي أنظر الآن إلى الثلة المؤمنة التي تحيط رسولَ الله ﷺ بعد معايشتهم لأجواء تلك الآيات قد عادوا أدراجهم إلى أوائل تاريخهم المديد، وعرفوا تجاربهم المذخورةَ لهم في الأجيال المتطاولة، ورأوا القرار الذي اتخذه أبوهم إبراهيم ومَنْ سلكوا الطريق معه، فشاهدوا أمام أعينهم طريقًا ليس جديدًا ولا مُبْتدَعًا، وإنما هو طريقٌ مُعَبَّدٌ ليسوا هم أولَ سالكيه.

وكثيرًا ما يؤكِّد القرآنُ الكريم هذا التصور ويُكرِّره ليتصل ركب المؤمنين على مَرِّ الزمان، فلا يشعر بالغربة، أو الوحشة سالكٌ ولو كان وحده في جيل، ولا يجد مشقة في تكليف نهض به السالكون قبله.

وهكذا كانت قصة حاطب مع أهل مكة تمهيدًا في غاية الأهمية جاء على قَدَرٍ للمسلمين قبل انطلاقهم نحو الفتح المبين.

حاطبٌ يستكملُ مسيرةَ الجهادِ

شهد حاطبٌ المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان فارسًا مغوارًا، وراميًا يكاد سهمه لا يخطئ، حتى كان من أمره قبل فتح مكة ما كان، ولكن دفاع النبيِّ ﷺ عن حاطب في تلك القضية، وبيانه ﷺ لفضله ومناقبه، وكل المواقف التي رآها حاطبٌ من النبيِّ ﷺ تِجاهَه أعادت الثقة في نفسه، وبَثَّتِ الروحَ في عَزْمه، فأصبح الفارس

الداعية وكأنَّ بين جنبيه بُركانًا يريد أن يتفجر غضبًا في وجه أعداء الله ورسوله، فلم يترك مشهدًا خرج فيه رسولُ الله ﷺ إلا وكان معه وتحت رايته، فقد خرج مع النبيِّ ﷺ في فتح مكة، ثم إلى قتال المشركين في حُنَين، ثم حاصر معه الطائف، ثم خرج معه إلى قتال الروم في تبوك، وحج مع النبيِّ ﷺ حَجةَ الوداع، وظل ملازمًا النبيَّ ﷺ حتى مات رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ.

وفي عصرِ الخلافةِ الراشدةِ

أرسله أبو بكر الصديق إلى المقوقس بمصر فصالحهم، ولم يزالوا على ذلك حتى فتحها عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعًا[١].

وجاهد حاطبٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في عصر الخلافة الراشدة حق جهاده حتى أتاه اليقين.

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعد حياة أفناها حاطبٌ في العبادة والدعوة والجهاد في سبيل الله ينام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على فراش الموت بالمدينة النبوية في خلافة عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وتخرج روحه لتُحَلِّق في الجنة مع النبيين والصديق والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

ومات رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وعمره خمسٌ وستون سنة، وصلى عليه أمير المؤمنين عثمان، وحضر جنازته جمع غفير من الصحابة والتابعين، ودُفن بالبقيع[٢].

رضي اللهُ عن حاطبِ بنِ أبي بَلتعة،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) ينظر: الاستيعاب (١/ ٣١٥)، وتاريخ دمشق (٨/ ٣٣).

(٢) ينظر: الاستيعاب (١/ ٣١٢)، وأسد الغابة (١/ ٦٥٩)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤).

حارثةُ بنُ سُراقةَ الأنصاريُّ

إِنَّ حارثةَ في الفِردوسِ الأعلَى[1]

إلى كل شباب المسلمين، بل إلى المسلمين جميعًا، أُهدي هذه السطور التي تحوي قصة عظيمة، تتجسد من خلالها حياة شابٍّ من الأنصار، كان له حُلْمٌ، وكانت له أُمْنيةٌ، لكنهما لم يكونا كأحلام وأمنيات كثير من شباب المسلمين اليوم، فإن حُلْمَه كان الشهادة في سبيل الله، وكانت أمنيته أن يَسكن الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى مع النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، فسعى نحو ذلك صادقًا، فَصَدَقَه الله تعالى.

اسمُه ونسبُه ونشأتُه

هو حارثةُ بْنُ سُرَاقَةَ بنِ الحَارثِ بنِ عَدِيٍّ بنِ مَالكٍ، النَّجَّارِيُّ، الأَنْصَارِيُّ[2].

نشأ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بين أحضان عَائلة عريقة الشرف والنسب، فهو من بَنِي النَّجَّارِ أَخْوَالِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَدِّ النبيِّ ﷺ، والذين مَدَحَهم النبيُّ ﷺ قائلًا: «**خَيْرُ دُورِ الْأَنْصَارِ بَنُو النَّجَّارِ**»[3]، وهم الذين شرَّفهم النبيُّ ﷺ بنزوله عليهم أولَ مقدمِهِ المدينةَ.

وشَبَّ الغلامُ في بيئة صالحة، فأمُّه هي المرأة المؤمنة الرُّبَيِّع بنتُ النَّضرِ الأنصارية، وخاله هو الصحابي الجليل أَنَسُ بنُ النَّضْر شهيد أُحُدٍ، وامرأة خاله مالكِ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٩)، وأحمد (١٣٢٥٠)، واللفظ له عن النبيِّ ﷺ.
(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٣٨٧)، والاستيعاب (١/ ٣٠٧)، والإصابة (٢/ ٤٢٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٧٨٩).

ابنِ النَّضر هي أمُّ سُلَيم التي بشرها النبيُّ ﷺ بالجنة، وابْنَا خاله هما أنس والبراء ابْنَا مالك رضي الله عنهم جميعًا.

وكان حَارِثَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بارًّا بأمه مُطيعًا لها حتى بلغ من قلبها مكانةً جعلتها تقول للنبيِّ ﷺ يومًا: «يَا رَسولَ الله، قدْ عَلِمْتَ مَوْقعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلبي»[(١)].

في جِوارِ الحبيبِ ﷺ

ولمَّا هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة خرج الأنصار بنسائهم وأبنائهم على أبوابها لاستقبال رسول الله ﷺ، فكان استقبالًا حافلًا لم تشهدِ البشرية مثله، يصفه أنسٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قائلًا: «إِنِّي لَأَسْعَى فِي الْغِلْمَانِ يَقُولُونَ: جَاءَ مُحَمَّدٌ، فَأَسْعَى فَلَا أَرَى شَيْئًا، ثم يَقُولُونَ: جَاءَ مُحَمَّدٌ، فَأَسْعَى فَلَا أَرَى شَيْئًا، حَتَّى جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ، فَكَمَنَّا فِي بَعْضِ حِرَارِ الْمَدِينَةِ، ثم بَعَثَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لِيُؤْذِنَ بِهِمَا الْأَنْصَارَ، فَاسْتَقْبَلَهُمَا زُهَاءَ خَمْسِمِائَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَيْهِمَا، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: انْطَلِقَا آمِنَيْنِ مُطَاعَيْنِ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَصَاحِبُهُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَخَرَجَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ حَتَّى إِنَّ الْعَوَاتِقَ لَفَوْقَ الْبُيُوتِ يَتَرَاءَيْنَهُ، يَقُلْنَ: أَيُّهُمْ هُوَ، أَيُّهُمْ هُوَ؟، قَالَ أنسٌ: فَمَا رَأَيْنَا مَنْظَرًا شَبِيهًا بِهِ يَوْمَئِذٍ»[(٢)].

وكأني بحَارِثَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ينطلق مع فتيان الأنصار بين الجموع الغفيرة نحو رسول الله ﷺ وهم يقولون بِنَبْرَةٍ تعلوها الفَرْحَة: «اللهُ أَكْبَرُ، جَاءَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله»[(٣)]، وعيونهم البريئة يلمع بريقها وهي تبحث خلف الزحام عن خير خلق الله ﷺ لتسعد برؤيته.

ولمَا دخل النبيُّ ﷺ قال: «**أَنْزِلُ عَلَى بَنِي النَّجَّارِ أَخْوَالِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أُكْرِمُهُمْ بِذَلِكَ**»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٣٤٢)، وصحَّحه الأرناؤوط.

(٣) أخرجه الحاكم (٤٢٨٢)، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه مسلم (٧٥).

فاستقبل بنو النجار النبيَّ ﷺ استقبالًا خاصًّا وقفت فيه فتياتُهم الصغيرات يَضْرِبْنَ بِدُفوفهِنَّ ويُنْشِدْنَ:

نَحْـــنُ جَـــوَارٍ مِـــنْ بَنِـــي النَّجَّـــارِ   يَـــا حَبَّـــذَا مُحَمَّـــدٌ مِـــنْ جَـــارِ

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُنَّ: «**اللهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَأُحِبُّكُنَّ**»(١).

وهكذا أصبح حَارثةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جارًا لرسول الله ﷺ، يُلازمه كظله، يصلي خلفه، ويحضر مجالسه وخطبه حتى غُمِسَ في الإيمان غَمْسًا.

وفي مشهد الإخاء العظيم بين المهاجرين والأنصار آخى النبيُّ ﷺ بين حَارثةَ بنِ سُرَاقةَ والسائب بن عبد الله بن مظعون رضي الله عنهم جميعًا(٢).

كيفَ أصبحتَ يا حَارثةُ؟

ولمَّا بلغ حارثة طَوْرَ الشباب كان قد امتلأ إيمانًا إلى مُشَاشِهِ، فلقيه النبيُّ ﷺ يومًا في إحدى طرقات المدينة، في صباح مُشْرق جميل، فَقَالَ له النَّبِيُّ ﷺ: **كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ**؟، قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا بِاللهِ تَعَالَى حَقًّا، فقَالَ النبيُّ ﷺ: **انْظُرْ إِلَى مَا تَقُولُ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً**، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَأَسْهَرْتُ لِيَلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، فَكَأَنِّي بِعَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ له: **أَبْصَرْتَ فَالْزَمْ**، وَفِي رِوَايَةٍ: **أَصَبْتَ فَالْزَمْ، عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ تَعَالَى الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ**، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ تَعَالَى لِي بِالشَّهَادَةِ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٩٩)، وأبو يعلى (٣٤٠٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣١٥٤).

(٢) الطبقات الكبرى (٣/ ٥١٠).

(٣) ينظر: المعجم الكبير، للطبراني (٣٣٦٧)، وشعب الإيمان، للبيهقي (١٠١٠٦)، ومعاني الأخبار، للكلاباذي (١/ ١٠١)، وقد قال البعض: إن المحاور هو الحارث بن مالك، وقال غيرهم: إنه حارثة ابن النعمان، ولكن الصواب: أنه حارثة بن سراقة، كما قال ابن الملقن في التوضيح (١٧/ ٣٨٨)، =

فما أجملَ هذا الحوارِ وأروعَه، حيث نلمح فيه سماحة النبيِّ ﷺ ورحمته ورفقه ولينَ جانبه حين يقف مع شابٍّ حديثِ السِّنِّ في الطريق ليتجاذب معه أطراف الحوار، يسمع منه ويردُّ عليه، ويفرح برسوخ الإيمان في قلبه، فيزيده استمساكًا بما هو عليه، ثم يضع وِسَامًا على صدره بقوله ﷺ عنه: «**عَبْدٌ نَوَّرَ الله تَعَالَى الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ**»، فهنيئًا لك يا حارثة.

يا خَيلَ اللهِ اركبِي

ولما أراد النبيُّ ﷺ أن يخرج للقاء المشركين في غزوة بدر الكبرى قال للمسلمين: «**إِنَّ لَنَا طِلْبَةً**[(١)]**، فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا**، فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ ﷺ: **لَا، إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا**، فَانْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ»[(٢)].

وكان أول الذين سارعوا في الخروج حارثةُ بنُ سُراقة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ذلكم الشابُّ الأنصاريُّ الذي طالما حَلُمَ بما أعدَّه الرحمن للشهداء في جنات النعيم.

فقد قال ابنُ خالته أنسُ بنُ مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فَنُودِيَ يَوْمًا: يَا خَيْلَ الله ارْكَبِي، فَكَانَ- حَارِثَةُ- أَوَّلَ فَارِسٍ رَكِبَ»[(٣)].

وكأني بأمِّه الرُّبيع تُعانق ولدَها البارَّ وتُقبِّله وهي تُجهزه للخروج مع رسول الله ﷺ، ثم تنظر إليه نظرة طويلة بعد وداعه إياها حتى غاب عن بصرها، وهي لا تدري أيَعُود الولد الحنون إليها، أم لا؟، وكأني بقلبها الملتهب يُحَرِّكُ الدمع في المآقي

=

والعيني في عمدة القاري (١٤/ ١٠٧)، ويؤيد ذلك: أن الحوار الذي بين أمِّ حارثة والنبي ﷺ في أواخر رواية البيهقي هو نفس الحوار الذي بين أم حارثة بن سراقة والنبيِّ ﷺ في الصحيحين.

(١) أَيْ: شيئًا نَطْلُبهُ. ينظر: شرح النووي لمسلم (٦/ ٣٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠١).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠١٠٦).

فينهمر يَبُلُّ الثرى، فإن ثمرة فؤادها لم يذهب في رحلة، أو إلى نُزهة، بل ذهب للحرب، ولكنَّ بشاشة الإيمان تنزل على نيران قلبها تجعلها بردًا وسلامًا.

موعدٌ مع الشهادةِ

وخرج حارثةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع رسول الله ﷺ يَشتد نحو بدر، ونَفْسُه تَتوق لحُسن الخاتمة، وقد أَوْكَلَ النبيُّ ﷺ له مُهِمَةً يقوم بها، وهي أن يكون نَظَّارًا لجيش المسلمين، يُراقب لهم تحركات المشركين ويرصد أحوالهم.

وعلى الفور تحرك حارثة في خِفَةِ الطير ليقوم بدَوْرِه العظيم، وأثناء رَصْدِه لجيش المشركين رآه أحدُهم، فأخرج سهمًا فوضعه في كبد قوسه ورماه به؛ ليذهب السهمُ بحارثةَ إلى أعالي الجِنان.

فقد قال أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: انْطَلَقَ ابْنُ عَمَّتِي حَارِثَةُ بْنُ سُرَاقَةَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ غُلَامًا نَظَّارًا، فَأَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ[(١)] فَوَقَعَ فِي ثُغْرَةِ نَحْرِهِ فَقَتَلَهُ، فَكَانَ أَوَّلَ فَارِسٍ رَكِبَ، وَأَوَّلَ فَارِسٍ اسْتُشْهِدَ[(٢)].

وها هو ذا حارثة الشابُّ المؤمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُجندلٌ في دمائه، وقد كُشِفَ عنه الغطاء؛ لينظر بعينيه إلى مقعده في الجنة، ويسمع البُشرى من ملائكة الرحمة، فقد قال النبيُّ ﷺ: «**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ**»[(٣)].

---

(١) هو السهم الطائشُ الذي لا يُعْرَفُ رامِيه، وقيل: قتله حبان بن العرقة، كما في الطبقات الكبرى (٢/ ١٢).
(٢) ينظر: صحيح البخاري (٦١٨٤)، ومسند أحمد (١٤٠٣٤)، وشعب الإيمان، للبيهقي (١٠١٠٦).
(٣) أخرجه الترمذي (١٦٦٣)، وابن ماجه (٢٧٩٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٢١٣).

إِنَّ حارثةَ في الفِردوسِ الأعلَى

ويطير الخبرُ بموت حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى المدينة، فينزل على قلب أمِّه كالصاعقة المُدَوِّيَةِ، فتنطلق وأقدامها تسابق الريح، وكأني أسمع وهي تجري ضرباتِ قلبها، وأنظر إلى دمعها كالنهر يجري على خدِّها، وكأني أرْمُقُها وهي تشقُّ صفوف الرجال شقًّا، حتى غاصت أقدامُها في دماء حارثةَ البريئةِ الطاهرةِ، فتجثو على ركبتيها، وتضمه إليها، فتختلط دماؤه بدموعها، ثم تلتفت وهو في حضنِها إلى النبيِّ ﷺ فتقول له: «يَا رَسُولَ الله، أَلَا تُحَدِّثُني عن حَارِثَةَ؟، فقدْ عَلِمْتَ مَوْقعَ حَارِثةَ مِنْ قَلبي، فإنْ كَانَ في الجنَّةِ صَبَرْتُ وَاحْتَسَبْتُ، ولَمْ أبْكِ عَليْهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اَجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ الْبُكَاءَ.

فأجابها النبيُّ ﷺ بصوتٍ اختلطت فيه نَبَرَاتُ الحُزْن والفرح، فقال: **يَا أُمَّ حَارِثَةَ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّ ابْنَكِ حَارِثَةَ قَدْ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى**»[(١)].

قَالَ أنسُ بنُ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَانْصَرفَتْ وَهِيَ تَضحَكُ وَتَقُولُ: بَخٍ بَخٍ لَكَ يَا حَارِثَةُ»[(٢)].

وإني لأقول: طُوبى لك يا حارثة، صدقتَ اللهَ فصدَقَكَ، وهنيئًا لك ما أعدَّه الله، وإني مهما أطلقتُ العنان لخيالي ليتصور الفردوس الأعلى وما فيه ما استطاع، ولكن حسبي ما أخبر به النبيُّ ﷺ حين قال: «**إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَنْفَجِرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ**»[(٣)].

حارثةُ يطيرُ مع الشُّهداءِ في الجنَّةِ

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٢٦٥٤، ٢٨٠٦، ٦٥٦٧)، ومسند أحمد (١٢٢٥٢، ١٣٢٥٢).
(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠١٠٦).
(٣) أخرجه البخاري (٧٤٢٣).

﴿عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩- ١٧٠].

فالشهداء في عالم البرزخ أحياءٌ يُرزقون، قد أخبر النبيُّ ﷺ أن الله جعل «**أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ، مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ**»(١).

أما حارثة وبقية شهداء بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقد قال عنهم ابنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي الْجَنَّةِ فِي طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: يَا عِبَادِي، مَاذَا تَشْتَهُونَ؟ قَالُوا: يَا رَبَّنَا، مَا فَوْقَ هَذَا شَيْءٌ، فَيَقُولُ: عِبَادِي، مَاذَا تَشْتَهُونَ؟ فَيَقُولُونَ فِي الرَّابِعَةِ: تَرُدُّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا فَنُقْتَلُ كَمَا قُتِلْنَا**»(٢).

وتظل الأرواح المؤمنة تنعم في برزخها حتى تعود إلى أجسادها يوم القيامة، فيدخلون الجنة، ويسكن حارثة الفردوس الأعلى.

رضي اللهُ عن حارثةَ بنِ سُراقةَ الأنصاريِّ، وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٨)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٥).
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٤٦٦)، وابن أبي عاصم في الجهاد (١٩٨)، وصحَّحه صاحب السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (٢/ ٩٣).

أبُو مسعُودٍ البَدريُّ

شهدَ بدرًا وسكَنهَا

ها نحن نستضيء بقَبَساتٍ من حياة نَجمٍ في سماء هذه الأمة، إنه شابٌ من السبعين العظماء الذين كانوا نقطة تحول في مسار دعوة الإسلام.

إنه الصحابي الجليل أبو مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذه- إليك أيها القارئ الكريم- بطاقة تعريف به، قبل أن نطوف معًا في بستان حياته.

بطاقةُ تعريفٍ

هُوَ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرِو بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ أُسَيْرَةَ، الْخَزْرَجِيُّ، الأنصاريُّ، الْبَدْرِيُّ، كان يُكْنَى بأبي مَسْعُودٍ، وهو مشهور بكنيته[(١)].

وهو حَمْو سيدِ شبابِ أهلِ الجنة الحسنِ بن علي بن أبي طالب سِبْطِ النبيِّ ﷺ ورَيْحانتِهِ، فقد تزوج الحسنُ مِن أُمِّ بَشيرٍ بنتِ أبي مَسْعُودٍ رضي الله عنهم جميعًا[(٢)].

وقد اختلف أهل العلم في سبب تسميته بالبدريِّ، فقد قال بعضُهم: إنه لم يشهدْ غزوة بَدر الكبرى؛ وإنما سُمي البدريَّ لأنه سَكَنَ بدرًا[(٣)].

وذهب البعضُ؛ كعروة بن الزبير، والزهري، والبخاري، ومسلم، وغيرهم إلى أنه سُمي البدري لشهوده غزوة بدرٍ الكبرى، وهذا هو الذي تؤيده الأدلة[(٤)].

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٥/ ٨١٣)، ومعرفة الصحابة (٤/ ٢١٤٧٩)، والاستيعاب (٣/ ١٠٧٤)، وأسد الغابة (٤/ ٥٥).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٥/ ٣١٨)، وتاريخ دمشق (١٩/ ٣٧٨)، والإصابة (٤/ ٤٣٣).

(٣) ينظر: الاستيعاب (٣/ ١٠٧٤)، وأسد الغابة (٤/ ٥٥)، وتاريخ بغداد (١/ ٤٩٩)، والسير (٤/ ١٠٥).

(٤) ينظر: الكنى والأسماء، لمسلم (٢/ ٧٧٨)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ١٠٥)، والإصابة (٤/ ٤٣٣).

وقد احتج البخاري على ذلك بأحاديث أخرجها في صحيحه، منها: ما رواه عن عروة ابن الزبير أنه قال: «أَبُو مَسْعُودٍ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرٍو الأَنْصَارِيُّ جَدُّ زَيْدِ بْنِ حَسَنٍ، شَهِدَ بَدْرًا»[١].

ومما يؤيد قولهم: ما أخبر به التابعي الجليل عامر بن سعد البجلي حين قال: «دَخَلْتُ عَلَى قُرَظَةَ بْنِ كَعْبٍ، وَأَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ فِي عُرْسٍ، وَإِذَا جَوَارٍ يُغَنِّينَ، فَقُلْتُ: أَنْتُمَا صَاحِبَا رَسُولِ الله ﷺ وَمِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، يُفْعَلُ هَذَا عِنْدَكُمْ؟، فَقَالاَ: اجْلِسْ إِنْ شِئْتَ فَاسْمَعْ مَعَنَا، وَإِنْ شِئْتَ اذْهَبْ؛ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قد رَخَّصَ لَنَا فِي اللَّهْوِ فِي الْعُرْسِ»[٢].

فلا إشكال أبدًا أن يكون رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد شهد بدرًا وسكنها.

وكَانَ أَبو مَسْعُودٍ شابًّا طويلًا جَسيمًا، تُشْبه تجاليدُه تجاليدَ عُمَرَ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا[٣].

وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أحد السبعين العظماء الذين اصطفاهم الله لغيروا مجرى حياة البشرية، وذلك حين اجتمعوا في يثرب وقالوا: حَتَّى مَتى نَتْرُك رَسُولُ الله ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ؟، ثم لم يلبثوا حتى ارتحلوا إليه ﷺ واجتمعوا به ليلًا في شِعب العقبة، وبايعوه على أن يهاجر إليهم فيمنعوه وينصروه حتى يُبلغَ رسالة ربه ولهم الجنة[٤].

فكانت بيعتهم هذه نقطةُ تحولٍ في مسار دعوة الإسلام، فهي نواةُ تأسيس دولته على أرض المدينة، وكان أبو مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أحدث الذين شهدوا العقبة سِنًّا[٥].

والآن بعد هذه البطاقة التعريفية المختصرة، هيا بنا نتعرف عليه أكثر من خلال تسليط الضوء على بعض مواقف حياته.

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٤٠٠٧).
(٢) أخرجه النسائي (٥٥٣٩)، والحاكم (٣٤٨)، وحسَّنه الألباني في آداب الزفاف (ص١١٠).
(٣) ينظر: تاريخ دمشق (٤٠/ ٥٣١)، ولسان العرب، لابن منظور (٣/ ١٢٤).
(٤) ينظر - في ذلك-: مسند أحمد (١٤٤٥٦)، والسلسلة الصحيحة (٦٣).
(٥) ينظر: الاستيعاب (٣/ ١٠٧٤)، والسير (٣/ ٤٩٤)، وتاريخ دمشق (٤٠/ ٥١٦).

ورعُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كان أبو مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شابًّا عابدًا مجاهدًا، وكان جَلْدًا قويًّا، إلا أنه كان فقيرًا فعمل في السوق حمَّالًا ليأتي بقوت يومه، ويكفَّ نفسَه عن مسألة الناس، وفجأةً عُرضت عليه وظيفةٌ رسميةٌ في الدولة سَتُريحُه من هذا العمل البدنيِّ الشاق، وسيحصل من خلالها على أجرٍ دنيوي، وثوابٍ أُخروي، وهي أن يكون أحد عمال جمع الصدقات، ولكنَّ أبا مسعود رفضها، واعتذر عنها بأدبٍ ولطف.

وإليك القصة كما رواها أبو مسعود، فقد قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَعَثَنِي رَسولُ الله ﷺ سَاعِيًا، ثم قَالَ: **انْطَلِقْ أَبَا مَسْعُودٍ، وَلَا أُلْفِيَنَّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَجِيءُ وَعَلَى ظَهْرِكَ بَعِيرٌ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ لَهُ رُغَاءٌ قَدْ غَلَلْتَهُ**، فَقُلْتُ: إِذًا لَا أَنْطَلِقُ، مَا أَنَا بِسَائِرٍ فِي وَجْهِي هَذَا، اصْرِفْهَا عَنِّي يَا رَسُولَ الله، فقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **إِذًا لَا أُكْرِهُكَ**[١].

لا شك أيها القارئ أنك تتساءل الآن متعجبًا: ما سبب رفضه؟!.

سيذهب ما في نفسك أخي الحبيب حين تعلم أنه شيء وَقَرَ في النفس، تعلموه من رسول الله ﷺ، أَوْرَثَ هذه النفوسَ خشيةً من الله تحملهم دائمًا على تَجَنُّب الشبهات خشيةَ الوقوع في المحرمات، واتقاءِ كلِّ ما يضرُّ بآخرة العبد، فكان الواحد منهم حريصًا على أن يجعل بينه وبين الحرام مسافةً لا يخرقها؛ عملًا بقول رسول الله ﷺ: «**اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْحَرَامِ سُتْرَةً مِنَ الْحَلَالِ، مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِينِهِ، وَمَنْ أَرْتَعَ فِيهِ كَانَ كَالْمُرْتِعِ إِلَى جَنْبِ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، وَإِنَّ حِمَى الله فِي الْأَرْضِ مَحَارِمُهُ**»[٢]؛ فلا تتعجب إن رأيتَ بعضَهم يستغني عن بعض المُباحات تَجَنُّبَ الوقوع في المحظورات، وقد جاء عن النبيِّ ﷺ في هذا قوله: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَا يَكُونُ مِنَ**

(١) ينظر: سنن أبي داود (٢٩٤٧)، والمعجم الكبير، للطبراني (٦٨٨)، والسلسلة الصحيحة (١٥٧٦).
(٢) أخرجه ابن حبان (٥٥٦٩)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٨٦٩).

الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ؛ حَذَرًا لِمَا بِهِ بَأْسٌ»[١]، وهذا أبلغ دليل على حُسن عبوديتهم لله جَلَّ وَعَلَا؛ مصداقًا لقول النبيِّ ﷺ: «**اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ**»[٢].

ولقد كانت هذه التربية النبوية لها أثرها البالغ في تكوين شخصية هذا الشاب الأنصاري المُكْنَّى بأبي مسعود، فقد جَعلت منه- مع فَقْرِهِ وقلة ذات يدِه- يؤثرُ العمل في السوق حمَّالًا، على وظيفةٍ رسميةٍ في الدولة؛ خشيةَ أن يترتبَ على عمله فيها فتنةٌ تَعْصِفُ به فتضرُّ بآخرته، فجميلٌ أن أيعرف العبدُ من أين يؤتى ليحترز؛ ولذلك تَفَهَّمَ النبيُّ ﷺ رَدَّ فعل أبي مسعود بأريحية، وقال له: «**إِذًا لَا أُكْرِهُكَ**».

إِنَّ اللهَ يُدافعُ عن الَّذين آمنُوا

كانت غزوة تبوك لها ظروف صعبة تختلف عن أي غزوة مضت في حياة رسول الله ﷺ، فقد كان عدد المسلمين فيها كبيرًا، ولم يجدِ النبيُّ ﷺ ما يحملهم عليه، حيث كان الظَهْرُ قليلًا، والمسافة بعيدة، والْحَرُّ شديدًا، ولم تكن هناك ميزانية لتسليح الجيش، فحث النبيُّ ﷺ المجتمع الإسلامي على الصدقة لتجهيز الجيش المتوجه للقاء الروم في تبوك الذي سماه النبيُّ ﷺ بجيش العُسْرَةِ، ورغَّبهم في ذلك قائلًا: «**مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ**»[٣].

فقام المسلمون يتصدقون ويساهمون في تجهيز هذا الجيش كُلٌّ بحسب طاقته وإمكاناته، حتى أن جماعةً من الصحابة- منهم: أبو مسعود البدري- لقلة مالهم كان الواحد منهم يذهب إلى السوق فيعمل حمَّالًا ليجمع المال فيضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ومع ذلك لم يَسْلَموا من ألسنة المنافقين، فأنزل اللهُ قرآنًا يردُّ فيه على

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥١)، وحسنه، وأخرجه الحاكم واللفظ له (٧٨٩٩)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.
(٢) أخرجه أحمد (٨٠٩٥)، والترمذي (٢٣٠٥)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٩٣٠).
(٣) ينظر: البخاري (٤٤١٨، ٤٤٥١).

المنافقين، ويدافع به عن المؤمنين.

فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ عَلَى ظُهُورِنَا، فَيَجِيءُ الرَّجُلُ بِالصَّدَقَةِ الْعَظِيمَةِ، فَيُقَالُ مُرَاءٍ، فَجَاءَ رَجُلٌ بِنِصْفِ صَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الْآخَرُ إِلَّا رِيَاءً، فَأنزل الله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]»[(١)].

تعظيمُه للهِ ورسُولِه

كان لأبي مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غلامٌ مملوكٌ يخدُمُه، وذات يومٍ أغضب هذا الغلامُ أبا مسعود غضبًا شديدًا جعل أبا مسعود يضربه بسَوْطٍ كان في يده، وفجأةً حدث أمرٌ عجيبٌ يظهر من خلاله مدى تعظيمِه لله ورسوله.

فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ: «كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا مَمْلُوكًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي يَقُولُ: **اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ**، فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، فَالتَفَتُّ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ الله ﷺ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: **اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ**، فَسَقَطَ السَّوْطُ مِنْ يَدِي مِنْ هَيْبَتِهِ، فَقَالَ ﷺ: **اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ**، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ الله، فَقَالَ ﷺ: **أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ**، فَحَلَفْتُ أَنْ لَا أَضْرِبَ مَمْلُوكًا أَبَدًا»[(٢)].

وهكذا في وسط موجة الغضب العارمة التي اعترت أبا مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يظهر قَدْرُ النبيِّ ﷺ في قلبه؛ فقد سقط السوط من يده عند رؤيته للنبيِّ ﷺ هيبةً له وتعظيمًا.

---

(١) ينظر: البخاري (٤٦٦٨)، ومسلم (١٠١٨)، والنسائي (٢٥٣٠)، وابن حبان (٣٣٣٨)، وابن خزيمة (٢٤٥٣).

(٢) ينظر: صحيح مسلم (١٦٥٩)، ومسند أحمد (١٧١٢٨)، وسنن الترمذي (١٩٤٨).

وكذلك نلمح مدى خوفه من الله وتعظيمِه له سبحانه وذلك حين ذكَّرَه النبيُّ ﷺ بقدرة الله وعذابه، فكفَّ يده، وأعتق الغلام، وأقسم أن لا يضرب مملوكًا أبدًا.

فيا لروعة الإيمان الذي بكلمةٍ واحدةٍ يُخْرِجُ صاحبَه كطوق النجاة من وسط أمواج الغضب المُهلكة.

جهادُه في سبيلِ الله

لقد شهد أبو مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع رسول الله ﷺ المشاهد، وخرج في العديد من السرايا، حتى مات النبيُّ ﷺ وهو عنه راضٍ.

ثم جاهد في عصر الخلافة الراشدة حق جهاده، فقد خرج مجاهدًا في ركب الفاتحين للشام، ومصر، والعراق، وفارس.

وإليك صفحةً مُدْهِشَةً من صفحات بطولاته في ميادين الجهاد وذلك في:

فتحُ البَهنسا

لما دخل المسلمون مصر استعصت عليهم إحدى مُدُنِها وتُسمَى: البَهْنَسَا، وكان أمير جيش المسلمين الموكل بفتحها عياض بن غانم الأشعري، ومعه في الجيش عدد من الصحابة العظماء، منهم: أبو مسعود البدري رضي الله عنهم جميعًا.

ولما حاصرها المسلمون أرسل إليهم مَلكُها رجلًا من قساوسته يطلب من قائدهم أن يرسل إليه وفدًا من وجهاء أصحابه ليسألهم عن أمرهم، وسبب مجيئهم، فأرسل إليه وفدًا من وجهاء الصحابة، منهم: المغيرة بن شعبة، وأبو مسعود البدري، وزيد بن ثابت، وأبو أيوب الأنصاري، وزيد بن أرقم، ومعاوية بن الحكم الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فدخلوا على الملك تكسوهم عزةُ الإسلام، وتعلوهم هيبةُ الإيمان، فسألهم عن سبب عدم سجودهم أمامه تعظيمًا له، كما تفعل الروم، فأخبروه- بثباتٍ-: أن دينهم ينهاهم أن يسجدوا لغير الله الملك الواحد القهار، ثم دار بينهم حوار طويل

سألهم فيه عن النبيِّ وعن الإسلام فأجابوه بأجوبة شافية وافية، ثم دعوه إلى الإسلام فأبى، فعرضوا عليه الجزية فأبى، فأنذروه بالقتال، وانصرفوا إلى معسكرهم.

فأخذتِ الروم أهبة الاستعداد، وشددت الحراسة على أسوار الحصن، ووضعت عليه آلات الحرب، وأَحْكَمَت غلق الأبواب، فاستصعب الفتح على المسلمين.

ولما طال الحصار جاء البطلُ أبو مسعودٍ البدريُّ وجماعة معه لأميرهم بفكرة لا يَقْدمُ عليها إلا من باع نفسه لله ربِّ العالمين، ألا وهي أن تحمل كتيبةٌ يقودها أبو مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سلالمَ خشبية وذلك عندما يُسْدِلُ الليلُ ستورَه، فيتسللوا نحو الأسوار تسلل القَطَا، فيلصقوا سلالمهم بالأسوار فيتسلقوها ويقتلوا مَنْ عليها، فيقفزوا داخل الحصن ويقتلوا حراس الأبواب، فيفتحوها ويدخل المسلمون.

ولما جَنَّ الليلُ قام أبو مسعودٍ والأبطال معه يَخُدُّون الأرض نحو أسوار الحصن وهم يحملون سلالمهم على عواتقهم كما يحملون أرواحهم على أكفِّهم، كأنهم أشباحٌ يتحركون في ظلام الليل وسكونه، وفجأةً تسلقوا الأسوار في خفة الطير، فقتلوا من عليها وقفزوا داخل الحصن فأحدثوا مقتلةً عظيمةً في حراس الأبواب ومن لاقاهم من جند الروم، وكل هذا في سرعة تشبه لمح البصر، ثم فتحوا أبواب الحصن، وكان أبو مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول من فتح أبوابه، فدخل جيشُ المسلمين، وتم النصر والحمد لله رب العالمين[1].

حرصُه على تطبيقِ السنةِ

كان أبو مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رَكْبِ الفاتحين الذين حملوا نور الإسلام إلى أرض فارس، فلما فُتحت «صَلَّى حُذَيْفَةُ بنُ اليَمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّاسِ بِالْمَدَائِنِ فَتَقَدَّمَ فَوْقَ

(١) ينظر: فتوح الشام (٢/ ٢٥٧- ٢٨٣).

دُكَّانٍ، فَأَخَذَ أَبُو مَسْعُودٍ بِقَمِيصِهِ فَجَبَذَهُ فَرَجَعَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ لَهُ أَبُو مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَلَمْ تَعلَمْ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى أَنْ يَقُومَ الْإِمامُ فوْقَ وَيَبْقَى النَّاسُ خَلْفَهُ؟، فقَالَ حُذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلَى، قَدْ ذَكَرْتُ حِينَ مَدَدْتَنِي»[(١)].

وعن بَشِير بْن أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قال: «إنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ أَخَّرَ صلاةَ العصر يَوْمًا وَهُوَ أميرُ الْكُوفَةِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيُّ فقال: مَا هَذَا يَا مُغِيرَةُ؟ أما والله لقد سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **نَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ فَأَخْبَرَنِي بِوَقْتِ الصَّلَاةِ، فَأَمَّنِي، فَصَلَّيْتُ مَعَهُ، ثم صَلَّيْتُ مَعَهُ، ثم صَلَّيْتُ مَعَهُ، ثم صَلَّيْتُ مَعَهُ**، يَحْسُبُ بِأَصَابِعِهِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ صَلَّى الظُّهْرَ حِينَ تَزُولُ الشَّمْسُ، وَرُبَّمَا أَخَّرَهَا حِينَ يَشْتَدُّ الْحَرُّ، وَرَأَيْتُهُ يُصَلِّي الْعَصرَ وَالشَّمْسُ مُرْتَفِعَةٌ بَيْضَاءُ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَهَا الصُّفْرَةُ، فَيَنْصرِفُ الرَّجُلُ مِنَ الصَّلَاةِ فَيَأْتِي ذَا الْحُلَيْفَةِ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَيُصَلِّي الْمَغْرِبَ حِينَ تَسْقُطُ الشَّمْسُ، وَيُصَلِّي الْعِشَاءَ حِينَ يَسْوَدُّ الْأُفُقُ، وَرُبَّمَا أَخَّرَهَا حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ، وَصَلَّى الصُّبْحَ مَرَّةً بِغَلَسٍ، ثم صَلَّى مَرَّةً أُخْرَى فَأَسْفَرَ بِهَا، ثم كَانَتْ صَلَاتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ التَّغْلِيسَ حَتَّى مَاتَ، وَلَمْ يَعُدْ إِلَى أَنْ يُسْفِرَ»[(٢)].

وهكذا تظهر- من خلال هذين الموقفين- مكانة أبي مسعود العلمية بين أصحاب رسول الله ﷺ، وكذلك مدى حرصه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على تطبيق السُّنة، وكذلك نرى سعة صدر الصحابة عند سماع النصيحة سواءً كانوا أئمة، أو أمراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

مكانتُه العلميةُ بينَ الناسِ

كان لأبي مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مكانة علمية بين الناس، فقد كانوا يأتونه، ويستفتونه،

(١) ينظر: صحيح سنن أبي داود (٦١٠)، ومستدرك الحاكم (٧٦١).

(٢) ينظر: البخاري (٥٢١)، وأحمد (١٧٠٨٩)، وسنن أبي داود (٣٩٤).

ويطلبون العلم على يديه، فقد كان- كما قال عنه الذهبيُّ- معدودًا في علماء الصحابة[١].

فعَنْ سَالِمٍ الْبَرَّادِ قَالَ: «أَتَيْنَا عُقْبَةَ بْنَ عَمْرٍو الْأَنْصَارِيَّ أَبَا مَسْعُودٍ، فَقُلْنَا لَهُ: حَدِّثْنَا عَنْ صَلَاةِ رَسُولِ الله ﷺ، فقال: أَلَا أُصَلِّي لَكُمْ كَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ ﷺ يُصَلِّي؟ فَقُلْنَا: بَلَى، قال سالم: فَقَامَ بَيْنَ أَيْدِينَا فِي الْمَسْجِدِ، فَكَبَّرَ، ثم رَكَعَ فَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَفُصِلَتْ أَصَابِعُهُ عَلَى سَاقَيْهِ، وَجَافَى عَنْ إِبْطَيْهِ حَتَّى اسْتَقَرَّ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ، ثم قَالَ: **سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**، فَاسْتَوَى قَائِمًا حَتَّى اسْتَقَرَّ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ، ثم كَبَّرَ وَسَجَدَ، وَجَافَى عَنْ إِبْطَيْهِ حَتَّى اسْتَقَرَّ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ، ثم رَفَعَ رَأْسَهُ فَاسْتَوَى جَالِسًا حَتَّى اسْتَقَرَّ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ، ثم سَجَدَ الثَّانِيَةَ، فَصَلَّى بِنَا أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ هَكَذَا، ثم قَالَ: هَكَذَا كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ الله ﷺ، أو قَالَ: هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ صَلَّى»[٢].

وقد كانت لأبي مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ محبة في قلوب تلامذته؛ فإنه لما سَكَنَ العراقَ زمنًا التف الناسُ حوله فيها وتعلقوا به، وأصبح مَحَطَّ ثقتِهم ونصحهم، فخرج يومًا وقد أراد سفرًا فوجد الناس ينتظرونه ليشيعوه، وكان من سُكَّان الكوفة فخرجوا معه حتى بلغ القادسية، «فَلَمَّا ذَهَبُوا يُفَارِقُونَهُ، قَالُوا: رَحِمَكَ اللهُ، إِنَّكَ قَدْ رَأَيْتَ خَيْرًا وَشَهِدْتَ خَيْرًا، حَدِّثْنَا بِحَدِيثٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَنْفَعَنَا بِهِ، فقَالَ: أَجَلْ، رَأَيْتُ خَيْرًا وَشَهِدْتُ خَيْرًا، وَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ أُخِّرْتُ لِهَذَا الزَّمَانِ لِشرٍّ يُرَادُ بِي، فَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَنْ يَجْمَعَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَاصْبِرُوا حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، أو يُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ»[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٠٥).

(٢) ينظر: أحمد (١٧٠٧٦)، والنسائي (١٠٣٧)، وسنن أبي داود (٨٦٣).

(٣) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٦٣).

حبُّه للنبيِّ ﷺ وآلِ بيتِه

كان أبو مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُحبُّ آل بيت رسول الله ﷺ حُبًّا شديدًا، وكان يناصرهم، ويؤازرهم، ويدعو لهم، وكان يقول للناس: «لَوْ صَلَّيْتُ صَلَاةً لَا أُصَلِّي فِيهَا عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا رَأَيْتُ أَنَّ صَلَاتِي تَتِمُّ»(١).

ولا شك أن هذا الحُبَّ في الأصل نابعٌ من حُبه لرسول الله ﷺ.

حِرصُه على حقنِ دماءِ المسلمينَ

ولما وقعتِ الفتنة بين علي ومعاوية بعد مقتل عثمان رضي الله عنهم جميعًا كان أبو مسعودٍ ممن بايع عليًّا وأيَّده، وقد ذكرنا حبَّه لآل بيت النبوة، ولكنه كان مع ذلك حريصًا على حقن دماء الفريقين، وكان الوَرَعُ الذي يسيطر على تصرفاته يحمله دائمًا على اجتناب ما يظنه من الشبهات خشية الوقوع في المُهلكات.

ولَمَّا أراد عَلِيٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الخروج إِلَى معركة صِفِّينَ اسْتَخْلَفَ أَبَا مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيَّ عَلَى الْكُوفَةِ، فَكَانُوا يَقُولُونَ لَهُ: قَدْ- وَاللهِ- أَهْلَكَ اللهُ أَعْدَاءَهُ وَأَظْهَرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَقُولُ: إِنِّي- وَاللهِ- مَا أَعُدُّهُ ظَفَرًا أَنْ تَظْهَرَ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ عَلَى الأُخْرَى، قَالُوا: فَمَهْ؟! قَالَ: الصُّلْحُ.

وقد صعد أبو مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَلَى مِنْبَرِ الْكُوفَةِ، وقال للناس: مَا يُعَدُّ فَتْحًا أَنْ يَلْتَقِيَ هَذَانِ الْحَيَّانِ، فَيَقْتُلُ هَؤُلاءِ هَؤُلاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلا رَجْرَجَةٌ مِنْ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ ظَهَرَتْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَلَكِنَّ الْفَتْحَ أَنْ يَحْقِنَ اللهُ دِمَاءَهُمْ، وَيُصْلِحَ بَيْنَهُمْ(٢).

ثم اعتزل أبو مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الفتنة تمامًا، ولما سُئل عن سبب ذلك قال: كُنْتُ

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (١٣٤٤).

(٢) ينظر: تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ٦٥٨)، وتاريخ خليفة بن خياط (٢٠٢).

رَجُلًا عَزِيْزَ النَّفْسِ، حَمِيَّ الأَنْفِ، لَا يَسْتَقِلُّ مِنِّي أَحَدٌ شَيْئًا، سُلْطَانٌ وَلَا غَيْرُهُ، فَأَصْبَحَ أُمَرَائِي يُخَيِّرُوْنَنِي بَيْنَ أَنْ أُقِيمَ عَلَى مَا أَرْغَمَ أَنْفِي وَقَبَّحَ وَجْهِي، وَبَيْنَ أَنْ آخُذَ سَيْفِي، فَأَضْرِبَ، فَأَدْخُلَ النَّارَ[1].

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعدما طاف قطار العمر بأبي مسعود في بلاد الشام ومصر والعراق وفارس، فاتحًا وأميرًا ومعلمًا، يرجع به إلى المدينة المحطة الأولى التي انطلق به منها؛ ليختم حياته فيها، فيفوز بقول حبيبه ﷺ: «**مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَموتَ بِالمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا؛ فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا**»[2].

وقد اختُلف في زمن وفاته فقد قيل: إنه مات في خلافة علي بن أبي طالب، وقيل: في زمن معاوية رضي الله عنهم جميعًا[3].

رضي اللّهُ عن أبي مسعودٍ البدريِّ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٩٥)، وتاريخ دمشق (٤٠/ ٥٣٣).
(٢) أخرجه أحمد (٥٤٣٧)، والترمذي (٣٩١٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٩٢٨).
(٣) ينظر: التاريخ الكبير (٦/ ٤٢٩)، والاستيعاب (٣/ ١٠٧٤)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٤٩٢).

بشرُ بنُ البراءِ بن مَعرُورٍ

سيِّدُكم بِشرُ بنُ البرَاءِ بنِ مَعرُورٍ[1]

إنَّ حديثنا عن حياة بِشْر بن البراء بن معرور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبدأ من حيث انتهى حديثنا عن أبيه، حيث ذكرنا أنه مات وترك ولدًا صالحًا، ومن هنا يطرح السؤال نفسه:

مَن بشرُ بنُ البرَاءِ؟

هو بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورِ بنِ صَخر السُّلميُّ الخزرجيُّ الأنصاريُّ، وَأُمُّهُ خُلَيْدَةُ بِنْتُ قَيْسِ بْنِ ثَابِتِ بْنِ خَالِدٍ الأَشْجَعية الأنصارية، كانت تكنى: أم بشر، وكانت من فضليات الصحابيات، وكانت تروي الحديث عن رسول الله ﷺ، وكان بِشْرٌ بارًّا بها حنونًا[2].

أسلم بِشْرُ بنُ البراء مع أبيه على يَد مصعب بن عمير في يثرب قبل هجرة النبيِّ ﷺ إليها، ثم شهد بيعة العقبة الكبرى، وبعد موت أبيه بقي مع النبيِّ ﷺ لا يفارقه كالظل في واضحة النهار، ينهل من علمه وأخلاقه، ويشهد معه كل مشاهده، فقد شَهِدَ بَدْرًا، وَأُحُدًا، وَالْخَنْدَقَ، وَالْحُدَيْبِيَةَ، وكان من الرُّمَاة المشهورين، ولم تفته غزوة مع رسول الله ﷺ حتى مات بخَيْبَرَ سَنَةَ سَبْعٍ من الهجرة[3].

---

(١) هكذا قال النبيُّ ﷺ لبني سلمة، وسيأتي تخريجه.

(٢) ينظر: المستدرك (٤٩٦٤)، والطبقات الكبرى (٣/ ٥٧٠)، والاستيعاب (١/ ١٦٧)، ومعرفة الصحابة (١/ ٣٧٨).

(٣) ينظر: المستدرك (٤٩٦٤)، والمعجم الكبير (١١٩٩)، والطبقات الكبرى (٣/ ٥٧٠)، والاستيعاب (١/ ١٦٧)، والسير (١/ ٢٦٩).

ولما هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة آخَى بين بِشْر بن البراء وبين واقد بن عبد الله في مشهد الإخاء العظيم بين المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم جميعًا[١].

وفي يومِ أُحُدٍ

ارتبكت صفوف المسلمين المجاهدين بعد نزول الرُّمَاة من أماكنهم، ولكنْ ثبتت طائفةٌ مع رسول الله ﷺ يحيطون به، ويصدون عنه، منهم: بِشْرُ بنُ البَرَاء، ولكنهم أُجْهِدوا من طول القتال وشدته إجهادًا شديدًا، فألقى الله عليهم النُّعَاسِ، لتستريح أبدانهم، وتَهْدَأُ نفوسهم، وها هو ذا الزبيرُ بنُ العَوَام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصف المشهد قائلًا: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوفُ علينا أرسل اللهُ علينا النومَ، فما منا من رجل إلا ذقنه في صَدْرِه»[٢]، ويقول أبو طلحة الأنصاريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنْتُ فِيمَنْ تَغَشَّاهُ النُّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، حَتَّى سَقَطَ سَيْفِي مِنْ يَدِي مِرَارًا، يَسْقُطُ وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ فَآخُذُهُ، فَرَفَعْتُ رَأسِي فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ، وَمَا مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا يَمِيدُ»[٣] تَحْتَ حَجَفَتِهِ[٤] مِنْ النُّعَاسِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤][٥].

ويقول أبو اليَسر الأنصاريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ رَأَيْتنِي يَوْمَئِذٍ فِي أَرْبَعَةَ عَشرَ رَجلًا مِنْ قَوْمِي إِلَى جَنْبِ رَسُولِ الله ﷺ، وَقَدْ أَصَابَنَا النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ، مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا يَغُطُّ غَطِيطًا، وَلَقَدْ رَأَيْت سَيْفَ بِشْرِ بْنِ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ سَقَطَ مِنْ يَدِهِ وَمَا يَشْعُرُ بِهِ، وَأَخَذَهُ

(١) الطبقات الكبرى (٥/ ٤٠٢)، والاستيعاب (١/ ١٦٧)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٦٩).
(٢) قال صاحب السيرة- كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (٢/ ١٧٩)-: أخرجه ابن إسحاق بسند صحيح.
(٣) يتحرك ويضطرب.
(٤) الْحَجَفَة: التُّرْسُ.
(٥) ينظر: البخاري (٣٨٤١)، والترمذي (٣٠٠٨).

بَعْدَ مَا تَثَلَّمَ، وَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ لَتَحْتَنَا»[١].

سيِّدُكم بشرُ بنُ البَرَاءِ

كان البراءُ بنُ مَعرور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيدَ بني سلمة، فلما مات جعل النبيُّ ﷺ سيدهم من بعده الصحابي الجليل عمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن لم يَلبث عمرو بن الجموح كثيرًا حتى مات يوم أحد شهيدًا، فقال النبيُّ ﷺ بعدها لبني سلمة: «**مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟** قالُوا: الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ إِلَّا أَنَّ فِيهِ بُخْلًا، فقَالَ رسولُ الله ﷺ: **وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ، بَلْ سَيِّدُكُمْ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ**»[٢].

هديَّةٌ بنَكهةٍ يهوديةٍ

وجاءت السنة السابعة من الهجرة، فخرج النبيُّ ﷺ فيها بجيشه لغزو يهود خيبر الذين هاجموا المسلمين وحاصروا المدينة مع قريش في جيش الأحزاب، وكان بشرُ بنُ البراء أحد أبطال هذه الغزوة، فقد أبلى فيها بَلاءً حسنًا، وكان يرافق النبيَّ ﷺ فيها خطوة بخطوة، ولما هزم اللهُ اليهود، وفُتِحت خيبر مكث النبيُّ ﷺ فيها، فَأَهْدَتْ لَهُ امرأةٌ يهُودِيَّةٌ بِخَيْبَرَ شَاةً مَصْلِيَّةً سَمَّتْهَا، وَقَدْ سَأَلَتْ: أَيُّ عُضْوٍ مِنَ الشَّاةِ أَحَبُّ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ؟ فَقِيلَ لَهَا: الذِّرَاعُ، فَأَكْثَرَتْ فِيهَا مِنْ السُّمِّ، وَسَمَّمَتْ سَائِرَ الشَّاةِ، ثم جاءَتْ بِهَا، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ تَنَاوَلَ الذِّرَاعَ فَلَاكَ مِنْهَا مُضْغَةً فَلَمْ يُسِغْهَا، وَمَعَهُ بِشْرُ بْنُ الْبراءِ بْنِ مَعْرُورٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَخَذَ مِنْهَا كَمَا أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ، فَأَمَّا بِشْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَسَاغَهَا، وَأَمَّا رَسُولُ الله ﷺ فَلَفَظَهَا، ثم قَالَ: **ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ فَإِنَّ**

(١) مغازي الواقدي (١/ ٢٩٦).

(٢) أخرجه البزار (٨٠٠٨)، والطبراني في الكبير (١٢٠٣)، والحاكم (٤٩٦٥)، وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، ووافقه الذهبي.

عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهَا يُخْبِرُنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ، فرفع الناسُ أيديهم عنها، ثم أَرْسَلَ النبيُّ ﷺ إِلَى صَاحِبَتِهَا، فَقَالَ: **أَسَمَمْتِ طَعَامَكِ هَذَا؟**، فَقَالَتْ: نَعَمْ، من أخبَرَكَ؟ قال: **أخبَرَتني هذه في يَدي**، فَقَالَ ﷺ: **مَا حَمَلَكِ عَلَى ذَلِكَ؟** فَقَالَتْ: بَلَغْتَ مِنْ قَوْمِي مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضرَّكَ الَّذِي صَنَعْتُ، وَإِنْ كُنْتَ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **مَا كَانَ اللهُ لِيُسَلِّطَكِ عَلَيَّ**، فَقَالُوا: أَلَا نَقْتُلُهَا يا رَسُول الله؟ فقَالَ: لَا، فَعَفَا ﷺ عَنْهَا وَلَمْ يُعَاقِبْهَا[١].

وهنا يُجسد لنا النبيُّ ﷺ صورة حية للعفو عند المقدرة لا مثيل لها، ولكن يبقى سؤال مهم:

ما مصيرُ بشر بنِ البراَءِ؟

أما بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «فَلَمْ يَقُمْ مِنْ مَكَانِهِ، حَتَّى عَادَ لَوْنُهُ كالطَّيْلَسانِ[٢]، وماطَلَهُ وَجَعُهُ مِنْهُ، حَتَّى كَانَ مَا يَتَحَوَّلُ إِلَّا مَا حُوِّلَ»[٣]، فقد تمكن السُّمُّ من جسده، وأُنْهِكت قواهُ، ووجد الأَلَمَ يتزايد فَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِنَاجٍ، وأنه ميت، فكأني به وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة ينظر نظرةً طويلةً حادةً عميقةً إلى نبيه وحبيبه ﷺ، يملأ بها عينيه وقلبه من وجهه الشريف، نظرةً يودع بها من هو أحبُّ إليه من نفسه التي ستخرج من الدنيا بعد قليل، وكأني بالنبيِّ ﷺ يحنو عليه، ودموع الحاضرين تنساب على الخدود أسفًا على سيد بني سلمة، وخِيرَةِ شبابها، ثم يُحرك بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ شفتيه بكلماتٍ تُعَبِّرُ عن حُبٍّ صادقٍ نابع من إيمانٍ عميقٍ فيقول للنبيِّ ﷺ: «وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، لَقَدْ وَجَدْتُ ذَلِكَ فِي أُكْلَتِي الَّتِي أَكَلْتُ، فَإِنْ مَنَعَنِي أَنْ أَلْفُظَها إِلَّا أَنِّي كَرِهْت أَنْ أُنَغِّصَ طَعَامَكَ، فَلَمَّا

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٢٤٧٤- ٤١٦٥)، وسنن أبي داود (٤٥١٠- ٤٥١٢)، ومستدرك الحاكم (٧٠٩).

(٢) أي: تغير لونه مائلًا، للسواد.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٠٤) عن عروة بن الزبير.

أَكَلْتَ مَا فِي فِيكَ لَمْ أَرْغَبْ بِنَفْسِي عَنْ نَفْسِكَ، وَرَجَوْتُ أَنْ لَا تكُونَ أَدْغَمْتَهَا»[(١)]،[(٢)].

والله ما أروعك يا بِشْرُ، ألهذا الحد بَلَغَ حُبُّ رسول الله ﷺ في قلبك؟!.

ثم خرجت روحُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لتُحَلِّقَ مع أرواح الشهداء في الجنة، وتسرح فيها حيث شاءت، فهم أحياء عند ربهم يرزقون.

وكما أن النبيَّ ﷺ جَسَّد لنا في قصة الشاة المسمومة صورة حية للعفو، يُجسد لنا- أيضًا- بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صورة حية نرى من خلالها كيف كان النبيُّ ﷺ أحبَّ إلى أصحابه من أنفسهم.

النَّفسُ بالنَّفسِ

ولما مَاتَ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أَكْلَتِهِ الَّتِي أَكَلَ، أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِالمرأة الْيَهُودِيَّةِ، فَقُتِلَتْ قِصَاصًا[(٣)].

مع أنَّ النبيَّ ﷺ قد عفا عنها أول الأمر رغم شروعها في قتله ﷺ، ولَمْ يُعَاقِبْهَا حِينَ لَمْ يمُتْ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ من جرَّاء فعلتها؛ لأنه رحمة الله للعالمين، ولكن بعد موت بِشْر أصبحت المرأة قاتلة متعمدة، فاستحق عقابها في كتاب الله وهو القِصاصَ، وهذا العقاب ليس في شريعة الإسلام فقط، بل أنزله الله من قبل القرآن لليهود في التوراة، كما أخبر الله بذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ

(١) في الأصل: (أَنْ لَا يَكُونَ أَدْغَمْتُها).
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٠٤).
(٣) ينظر: صحيح مسلم (١٧٢١)، وسنن أبي دود (٤٥١٢)، والكبرى، للبيهقي (١٦٠١٣).

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٤ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٤- ٤٥].

عزاءُ النبيِّ ﷺ لأُمِّ بِشرٍ

ويُعَزِّي النبيُّ ﷺ أمَّ بشرٍ في ولدها البار الحنون، ويخفف عنها آلام مصيبتها بكلماته الحانية حين سألته قائلة: يا رسول الله، إنَّه لا يَزَالُ الهَالكُ يَهلك من بني سلمة، فهل يتعارفُ المَوتَى؟، فأرسل إلى بِشرٍ بالسلام، فقال ﷺ لها: **نَعَم، والذي نفسي بيده يا أم بشر، إنَّهم ليتعارفون كما يتعارف الطيرُ في رؤوس الشجر**[1].

وقد بَيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ أرواح المؤمنين تتلاقى في بَرْزَخها في عدة أحاديث صحيحة، منها: حديث أُمِّ هَانِئٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا حين سألته ﷺ فقالت: «يَا رَسُولَ الله، أَنَتَزَاوَرُ إِذَا مِتْنَا؟ وَيَرَى بَعْضُنَا بَعْضًا؟، فَقَالَ ﷺ: **تَكُونُ النَّسَمُ**- أي: الأرواح- **طَيْرًا تَعَلَّقُ بِالشَّجَرِ**- في الجنة- **حَتَّى إِذَا كَانُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ دَخَلَتْ كُلُّ نَفْسٍ فِي جَسَدِهَا**»[2]، وقال ﷺ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا قُبِضَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ، فَتَقُولُ: اخْرُجِي إِلَى رَوْحِ الله، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ مِسْكٍ حَتَّى إِنَّهُمْ لِيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يَشُمُّونَهُ، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: مَا هَذِهِ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي جَاءَتْ مِنَ الْأَرْضِ؟ وَلَا يَأْتُونَ سَمَاءً إِلَّا قَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ**

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٨/ ١٣٢)، وسبل الهدى والرشاد (٣/ ١٣٢).
(٢) أخرجه أحمد (٢٧٤٢٧)، وصحَّحه محققو الرسالة، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٦٧٩).

أَهْلِ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ، فَيَقُولُونَ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ حَتَّى يَسْتَرِيحَ...»[(١)].

وفي رواية: «وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يُصْعَدُ بِرُوحِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَأْتِيهِ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ فَيَسْتَخْبِرُونَهُ عَنْ مَعَارِفِهِمْ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ»[(٢)]، وأحاديث غير ذلك كثيرة.

لذلك كانت أُمُّ بِشْرٍ كلما علمت بأحد ينازعه الموت انطلقت إليه لا لتواسيه فَحَسْب، بل ولترسل معه سَلامَها وأشواقها لولدها البار الحنون.

ومن ذلك: ما كان بينها وبين كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو على فراش الموت، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن كَعْبٍ قَالَ: «لَمَّا حضَرَتْ كَعْبًا الْوَفَاةُ أَتَتْهُ أم بشر بن الْبَرَاءِ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنْ لَقِيتَ ابْنِي فُلَانًا فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ، فَقَالَ لَهَا: غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أُمَّ بِشرٍ، نَحْنُ أَشْغَلُ مِنْ ذَلِكَ، قَالَتْ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَمَا سَمِعْتَ رَسُولَ الله ﷺ يقُولُ: إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فِي طَيْرٍ خُضْرٍ، تَعْلُقُ بِشَجَرِ الْجَنَّةِ؟، قَالَ: بَلَى، قَالَتْ: فَهُوَ ذَاكَ»[(٣)]، وفي لفظ: «قَالَتْ: أَسَمِعْتَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: إِنَّ نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ لَتَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، وَإِنَّ نَسَمَةَ الْكَافِرِ فِي سِجِّينٍ؟، قَالَ: بَلَى، قَالَتْ: فهو ذاك»[(٤)].

بشرٌ في ذاكرةِ النبيِّ ﷺ

وبَقِيَ بِشْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد موته في ذاكرة النبيِّ ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وبالأخص أمه التي لم يفارقها ذكره طرفة عين.

وكان النبيُّ ﷺ من حِينٍ إلى آخر يتألم من أثر الشاة المسمومة، فيتذكر عندئذٍ بشرَ

(١) أخرجه النسائي (١١٩٢٦)، وابن حبان (٣٠١٤)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٣٠٩).
(٢) أخرجه البزار (٩٧٦٠)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٦٢٨).
(٣) أخرجه ابن ماجه (١٤٤٩)، والطبراني في الكبير (٢٧٢)، وصحَّحه الأرناؤوط.
(٤) صححه الشيخ مصطفى العدوي في تحقيقه للمنتخب من مسند عبد بن حميد (١٥٦٩).

بنَ البَرَاء، حتى حَضَرَهُ وَجَعُه الَّذِي قُبِضَ فِيهِ، فأتته أمُّ بِشرٍ فقالت: بِأَبِي أنت وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، مَا تَتَّهِمُ بِنَفْسِكَ؟ فَإِنِّي لَا أَتَّهِمُ بِابْنِي إِلَّا الطَّعَامَ الَّذِي أَكَلَ مَعَكَ بِخَيْبَرَ، فَقَالَ ﷺ: **وَأَنَا لَا أَتَّهِمُ غَيْرَهُ، يَا أُمَّ بِشْرٍ، مَا زِلْتُ أَجِدُ أَلَمَ الْأَكْلَةِ الَّتِي أَكَلْتُ مَعَ ابْنِكِ بِخَيْبَرَ، تُعَاوِدُنِي كُلَّ عَامٍ، حَتَّى كَانَ هَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي**[1] **مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ**[2]، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تعالى جَعَلَهُ ﷺ نَبِيًّا، وَاتَّخَذَهُ شَهِيدًا[3].

رضي اللّهُ عن بِشر بنِ البَراءِ،
وعن الصحابةِ أجمعينَ



---

(١) هو عرق مرتبط بالقلب إذا انقطع مات صاحبه. وينظر: لسان العرب (٤/ ٨٣).
(٢) ينظر: صحيح البخاري (٤١٦٥)، ومسند أحمد (٢٣٩٣٣)، ومستدرك الحاكم (٤٩٦٦).
(٣) أخرجه أحمد (٤١٣٩) عن ابن مسعود، وصحَّحه الأرناؤوط.

أبُو سعيدٍ الخُدريُّ

الإمامُ المجاهدُ، مُفتِي المدينةِ[١]

إن حديثنا في هذه الصفحات عن عَلَمٍ من أعلام الصحابة، ومجاهد ممن أقاموا للأمة صَرْح دولتها، وفقيه ممن أسسوا نواة المدارس العلمية في الأقطار والأمصار، حتى إنك لا تكاد تحضر خطبة جمعة، أو تسمع درسًا، أو تقرأ كتابًا إسلاميًّا إلا وتجد في ذلك أثرًا لعلمه ودعوته، ومع ذلك لا يعرف الكثير منا شيئًا عن حياته وسيرته، إنه الصحابيُّ الأنصاريُّ الجليل أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من أجل ذلك طُفتُ في بستان حياة الصحابة الأبرار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقطفتُ زهورًا من حياة أبي سعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لنستنشق عبيرها، ونتعرف عليه من خلالها.

اسمُه ونسبُه ومولدُه

هو سَعْدُ بْنُ مَالِكِ بْنِ سِنَانِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، الْخُدْرِيُّ، الْخَزْرَجِيُّ، الْأَنْصَارِيُّ[٢].

والْخُدْرِيُّ نسبةٌ إلى بطن من بطون الْخَزْرَجِ يقال لهم بنو خُدْرَةَ، وهو أحد أجداد أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣] وأُمُّه هي: أُنَيْسَةُ بِنْتُ أَبِي حَارِثَةَ، الأنصارية، مِنْ بني النجار، أخوال عبد المطلب جَدِّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي- أيضًا- أُمُّ الصحابي الأنصاري قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، فأبو سعيد الخدري أخو قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ لأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[٤].

---

(١) هكذا قال عنه الذهبي في السير.

(٢) ينظر: الإصابة (٧/ ١٤٧)، والاستيعاب (٤/ ١٦٧١)، وأسد الغابة (٥/ ١٤٢).

(٣) ينظر: جمهرة أنساب العرب (٣٦٢)، والطبقات الكبرى (٥/ ٣٦٧).

(٤) المصدر قبل السابق.

وقد وُلِدَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِيَثْرِب سَنَةَ ثَلَاثٍ من بعثة الرسول ﷺ تقريبًا[(١)].

إسلامُه وبيعتُه

أسلم أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ هو وأبوه وأُمُّه على يد مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قبل هجرة النبيِّ ﷺ إلى المدينة وهو في الثامنة من عمره تقريبًا.

ولما هاجر إليهم النبيُّ ﷺ كان أَبُو سَعِيدٍ ابنَ عشر سنين، وقد خرج بين الولدان في جموع الأنصار الغفيرة لاستقبال رسول الله ﷺ عند قدومه في مشهد حافل لم ولن ترى البشرية مثله.

وأما عن بيعته لرسول الله ﷺ فيحدثنا عنها الصحابي الأنصاري سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول: «بايعت النبيَّ ﷺ أنا وأبو ذرٍّ، وعبادة بن الصَّامت، ومحمد ابن مَسْلمة، وأبو سعيد الخدريِّ، وسادس، على ألا تأخذنا في الله لومة لائم، فاستقال السادس، فأقاله»[(٢)].

ومنذ أن وقعت عين أبي سَعِيد على النبيِّ ﷺ وهو يلازمه كظله، ينهل من علمه، ويتعلم من أخلاقه، إلى أن حاز في العلم مرتبة عالية وهو في سنه الصغيرة حتى قيل: «لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ أَحْدَاثِ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ أَفْقَهَ مِنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[(٣)].

أَبُو سعيدٍ وأَبُوه يومَ أحُدٍ

وجاء شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة وقد خرجت فيه قريش لقتال النبيِّ ﷺ والمسلمين في المدينة، فأحاط المهاجرون والأنصار وأبناؤهم رسولَ الله ﷺ ليرسموا

---

(١) ينظر: كتاب: أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، لمحمد أبي صعيليك (١٨)، والمستدرك (٦٣٨٩)، والاستيعاب (٤/ ١٧٦١).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٦٦).

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٢٨٥)، والسير (٣/ ١٧٠)، والإصابة (٣/ ٦٦).

صورة بديعة يتعلم المتأمل فيها كيف يكون الحُبُّ والفداء.

ولما أراد جيش الإسلام أن يتحرك نحو أُحُدٍ وجد النبيُّ ﷺ بين جموعه عددًا من أبناء الصحابة حَدِيثَةً أَسْنَانُهُمْ فخشي عليهم فأمر بإرجاعهم، وكان من بين هؤلاء الأحداث: أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ الذي خرج مع أبيه ليقدِّما أرواحهما فداءً لله ورسوله، فأخذ والده مالك بن سنان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحاول إقناع النبيِّ ﷺ بإطاقة ولده للقتال، ولنترك الحديث لأبي سَعِيدٍ ليروي لنا القصة، فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عُرِضْتُ يَوْمَ أُحُدٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلِي ثَلَاثَ عَشْرَةَ، فَجَعَلَ أَبِي يَأْخُذُ بِيَدِي فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُ عَبِلُّ الْعِظَامِ[1]، وَإِنْ كَانَ مُؤَذِّنًا، قَالَ: وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَعِّدُ فِيَّ الْبَصرَ وَيُصَوِّبُهُ، ثم قَالَ: رُدَّهُ، فَرَدَّنِي»[2].

ووقف أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع بقية من رَدَّهُم النبيُّ ﷺ وأَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حُزْنًا على فراقهم لرسول الله ﷺ.

وكأني بمَالِكِ بْنِ سِنَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينظر نظرة مُوَدِّعٍ إلى ولده وثَمَرَة فُؤَادِهِ وهو يُطَيِّبُ خَاطِرَه، ويمسح الدمع عن عينيه، وكأنه يشعر أنه آخر لقاء به في الدنيا.

ووقف مَالِكُ بْنُ سِنَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمام رسول الله ﷺ وكأنه يَشَمُّ رائحة الشهادة، فقال: يا رسول الله، نحنُ- واللهِ- بَين إحْدَى الحُسْنيين، إمَّا يظفرنا اللهُ بهم، فهذا الذي نريد، فيذلهم اللهُ لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر، فلا يبقى منهم إلا الشريد، والأخرى يا رسول الله يرزقنا الله الشهادة، والله يا رسول الله ما أبالي أيهما كان، إنَّ كُلًّا لفيه الخير[3].

ولما دارت رَحَى المعركة شُجَّ رَسُولُ الله ﷺ فِي وَجْهِهِ، فَتَلَقَّاهُ مَالِكُ بْنُ سِنَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَلَحَسَ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ﷺ فَمَصَّ جُرْحَ رَسُولِ الله ﷺ، ثم ابْتَلَعَهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَتَشْرَبُ الدَّمَ؟،

---

(١) أي: ضخم العظام. ينظر: لسان العرب (١١/ ٤٢٠).

(٢) ينظر: مستدرك الحاكم (٦٣٨٩)، والمعجم الكبير، للطبراني (٥١٥٠).

(٣) ينظر: مغازي الواقدي (١/ ٢١١)، وإمتاع الأسماع، للمقريزي (٩/ ٢٤٩).

قَالَ: نَعَمْ، أَشْرَبُ دَمَ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَنْ خَالَطَ دَمِي دَمَهُ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ**»، وفي لفظٍ: «**خَالَطَ دَمِي بِدَمِهِ، لَا تَمَسُّهُ النَّارُ**»(١).

وقاتل مَالِكُ بْنُ سِنَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ أُحُدٍ أشد القتال حتى رزقه الله الشهادة التي كان يرجوها، ثم بَلَغَ الناسَ في المدينة مُصَابُ رَسُولِ الله ﷺ، فيقول أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَلَمَّا كَانَ من النَّهَارِ وَبَلَغَنَا مُصَابُ رَسُولِ الله ﷺ، جِئْت مَعَ غِلْمَانٍ مِنْ بَنِي خدرَةَ نَعْتَرِضُ لِرَسُولِ الله ﷺ وَنَنْظُرُ إِلَى سَلَامَتِهِ فَنَرْجِعُ بِذَلِكَ إِلَى أَهْلِنَا، فَلَقِينَا الناسَ مُنْصَرِفِينَ، فَلَمْ يَكُنْ لَنَا هِمَّةٌ إِلَّا النبي ﷺ نَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَدَنَوْت مِنْهُ فَقَبَّلْتُ رُكْبَتَهُ وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ، ثم نَظَرْت إِلَى وَجْهِهِ فَإِذَا فِي وَجْنَتَيْهِ مَوْضِعُ الدِّرْهَمِ فِي كُلِّ وَجْنَةٍ، وَإِذَا شَجَّةٌ فِي جَبْهَتِهِ عِنْدَ أُصُولِ الشَّعْرِ، وَإِذَا شَفَتُهُ السُّفْلَى تَدْمَى، وَإِذَا رَبَاعِيَتُهُ الْيُمْنَى شَظِيَّةٌ، فَإِذَا عَلَى جُرْحِهِ شَيْءٌ أَسْوَدُ فَسَأَلْت: مَا هَذَا عَلَى وَجْهِهِ؟ فَقَالُوا: حَصِيرٌ مُحَرَّقٌ، وَسَأَلْت: مَنْ دَمَّى وَجْنَتَيْهِ؟ فَقِيلَ: ابْنُ قَمِيئَةَ. فَقُلْت: مَنْ شَجَّهُ فِي جَبْهَتِهِ؟ فَقِيلَ: ابْنُ شِهَابٍ، فَقُلْت: مَنْ أَصَابَ شَفَتَهُ؟ فَقِيلَ: عُتْبَةُ، فَجَعَلْت أَعْدُو بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيَّ قَالَ: **سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ؟** قُلْت: نَعَمْ، بِأَبِي وَأُمِّي!، ثم قَالَ رسول الله ﷺ: **آجَرَك اللهُ فِي أَبِيك**»(٢).

وكان أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد علم أنَّ أباه قد استُشهد في المعركة فانطلق وَعَيْنُهُ تَفِيضُ بالدَّمْعِ من جديد، وأقدامه تسابق الريح حتى وقف على جثمان أبيه الحنون وهو مجندل في دمائه، ولنترك أبا سَعِيدٍ يحدثنا بما فعل عندئذٍ، فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قُتِلَ أَبِي مَالِكُ بْنُ سِنَانٍ يَوْمَ أُحُدٍ، فَنَقَلْتُهُ، فَلَقِينَا صَارِخٌ بَعَثَهُ رَسُولُ الله ﷺ **أَنِ ادْفِنُوهُمْ حَيْثُ أَدْرَكْتُمُ الدَّعْوَةَ**، قَالَ: فَدَفَنْتُ أَبِي»(٣).

---

(١) ينظر: المستدرك (٦٣٩٤- ٦٣٨٦)، والمعجم الأوسط (٩٠٩٨)، والمعجم الكبير (٥٤٣٠).
(٢) ينظر: مغازي الواقدي (١/ ٢٤٨).
(٣) أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٥٩٩٥).

جهادُه مع رسولِ الله ﷺ

كانت أول مشاهد أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع رسول الله ﷺ غزوة بني المصطلق، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، ثم شَهِدَ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَشَاهِدَ كلها(١).

وقد كان أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع النبيِّ ﷺ في الحديبية، وكان ممن بايع تحت الشجرة، فهَنِيئًا له البشرى في قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح: ١٨].

الزواجُ السعيدُ

كان النبيُّ ﷺ حريصًا على تحصين المجتمع المسلم بالزواج، وكان حرصه أشد على الشباب، وها هو ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ شَبَابًا لَا نَجِدُ شَيْئًا، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ: **يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»(٢).

فعزم الشاب الصالح سَعْدُ بْنُ مَالِكِ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على البحث عن فتاة مؤمنة تملأ عليه دنياه سعادة، وتعينه على أمر الآخرة، فرزقه الله الزواج من الفتاة الأنصارية زَيْنَبَ ابنة الصحابي الجليل كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، وقد رزقه الله منها بعدد من الأبناء، وهم: سَعِيدٌ الذي كان يُكْنَى به، وعبد الرحمن، وعبد الله، وحمزة، وبشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ(٣).

عفَّتُه واستغناؤُه بالله

عن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَصَابَنِي جُوعٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى شَدَدْتُ عَلَى بَطْنِي حَجَرًا، فَقَالَتْ لِي امْرَأَتِي: لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ الله ﷺ فَسَأَلْتَهُ، فَقَدْ أَتَاهُ فُلَانٌ

---

(١) ينظر: المستدرك (٦٣٨٨).
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم (١٤٠٠).
(٣) ينظر: المعارف، لابن قتيبة (١٥٣)، وجمهرة أنساب العرب (٣٦٢)، والإصابة (٤/ ٣١٢).

فَسَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ، وَأَتَاهُ فُلَانٌ فَسَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ، فَقُلْتُ: لَا أَسْأَلُهُ حَتَّى لَا أَجِدُ شَيْئًا، فَالْتَمَسْتُ فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا، فَانْطَلَقْتُ إِلَيْهِ فَوَافَقْتُهُ يَخْطُبُ، فَأَدْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: **مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ سَأَلْنَا فَإِمَّا أَنَّ نَبْذُلَ لَهُ، وَإِمَّا أَنْ نُوَاسِيَهُ، وَمَنِ اسْتَغْنَى عَنَّا أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّنْ سَأَلْنَا**. قال: فَرَجَعْتُ فَمَا سَأَلْتُ أَحَدًا بَعْدَهُ شَيْئًا، فَجَاءَتِ الدُّنْيَا، فَمَا أَهْلُ بَيْتٍ مِنَ الْأَنْصَارِ أَكْثَرَ أَمْوَالًا مِنَّا»[١].

أبو سعيدٍ يُداوي بالقرآنِ

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ، أو سَرِيَّةٍ فَمَرَرْنَا عَلَى أَهْلِ أَبْيَاتٍ فَاسْتَضَفْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ فَلَمْ يَنْفَعْهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْنَا فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ، فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ، أو رَاقٍ؟، فَقُلْتُ: أَنَا رَاقٍ، قَالَوا: فَارْقِ صَاحِبَنَا، قُلْتُ: لَا، قَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، قَالُوا: فَإِنَّا نُجَعِّلُ لَكُمْ، فَجَعَلُوا لَنَا ثَلَاثِينَ شَاةً، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَجَعَلْتُ أَمْسَحُهُ وَأَقْرَأُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَأُرَدِّدُهَا حَتَّى بَرَأَ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ، فَأَخَذْنَا الشِّيَاهَ فَقُلْنَا: أَخَذْنَاهُ وَنَحْنُ لَا نُحْسِنُ أَنْ نَرْقِيَ، مَا نَحْنُ بِالَّذِي نَأْكُلُهَا حَتَّى نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَتَيْنَاهُ فَذَكَرْنَا لَهُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: **وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟!** قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا دَرَيْتُ أَنَّهَا رُقْيَةٌ، وَلَكِنْ شَيْءٌ أَلْقَى اللهُ فِي نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **كُلُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ**»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١١٤٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٢٢٨).

(٢) ينظر: البخاري (٢١٦٥- ٥٤٠٤)، ومسلم (٢٢٠١)، والحاكم (٢٠٥٤).

النبيُّ ﷺ يُبشِّرُه بالجنةِ

كان أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُلَازِمًا لمسجد رسول الله ﷺ، مُحِبًّا لحِلَقِ الذِّكْرِ ومجالس العلم، حتى إنه كان إذا خرج في سَرية للجهاد يبدأ عند عودته بالمسجد ليتعلم ما فاته من حديث رسول الله ﷺ[(١)]، وكيف لا يكون هذا حاله مع مجالس الذكر وهو الذي يروي للأمة قول النبيِّ ﷺ: «**مَا مِنْ قَوْمٍ يَجْلِسُونَ مَجْلِسًا لَا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إِلَّا كَانَتْ عَلَيْهِمْ حسرَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ**»[(٢)]، وكان هو يقول للناس: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يُصَلَّ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا كَانَتْ عَلَيْهِمْ حَسرَةٌ، وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ»[(٣)].

وكان أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحب مرافقة أهل الصفة وفقراء المهاجرين، فدخل النبيُّ ﷺ عليهم ذات مرة وهم يقرؤون القرآن فبشرهم بالجنة، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَلَسْتُ فِي عِصَابَةٍ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَسْتَتِرُ بِبَعْضٍ مِنَ الْعُرْيِ، وَقَارِئٌ يَقْرَأُ عَلَيْنَا إِذْ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَامَ عَلَيْنَا، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَكَتَ الْقَارِئُ، فَسَلَّمَ، ثم قَالَ: **مَا كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟**، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ كَانَ قَارِئٌ لَنَا يَقْرَأُ عَلَيْنَا، فَكُنَّا نَسْتَمِعُ إِلَى كِتَابِ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي جَعَلَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ**، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسْطَنَا لِيَعْدِلَ بِنَفْسِهِ فِينَا، ثم قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَتَحَلَّقُوا، وَبَرَزَتْ وُجُوهُهُمْ لَهُ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَرَفَ مِنْهُمْ أَحَدًا غَيْرِي، فَقَالَ ﷺ: **أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ صَعَالِيكِ الْمُهَاجِرِينَ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَاءِ النَّاسِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَذَاكَ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ**»[(٤)].

(١) ينظر: حياة الصحابة (٣/ ١٨٧)، وكنز العمال (٥/ ٢٤٠).

(٢) أخرجه النسائي (١٠١٧٠).

(٣) أخرجه النسائي (١٠١٧١).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٦٦)، والطبراني في الأوسط (٨٨٦٦).

فِراقٌ مُؤلمٌ

عاش أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع النبيِّ ﷺ لا يكاد يفارقه حتى نزل الموت برسول الله ﷺ ليفرق بينهما، فحزن على موت رسول الله ﷺ حُزْنًا شديدًا، وكأني به يتذكر جلوسه مع رسول الله ﷺ في المسجد، والصلاة خلفه، والسفر معه، والجهاد تحت رايته، وزيارته ﷺ له بعد زواجه، فها هو ذا أحد أبناء أَبِي سَعِيدٍ يقول: «جاء رسولُ الله ﷺ عائدًا إلى أبي سعيد فقدمنا إليه ذراع شاة»(١)، فلا شك أن كل هذه الذكريات كانت تدور في ذهن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى أَلَمَّتْ به لَوْعَةُ الفِرَاقِ، وها هو ذا أَبُو سَعِيدٍ يحدثنا عن ذلك فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا عَدَا وَارَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ فِي التُّرَابِ، فَأَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا»(٢).

مكانتُه العلميةُ بينَ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

تَصَدَّرَ أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مكانة علمية بين الصحابة بعد موت رسول الله ﷺ وذلك مع حَدَاثَةِ سِنِّهِ، فقد توفي النبيُّ ﷺ وهو في العشرين من عُمُرِهِ تقريبًا، ولكن كان كبار الصحابة يثقون في علمه وسعة فقهه، وإليك بعض المواقف التي تُبَيِّنُ ذلك:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنْتُ جَالِسًا بِالْمَدِينَةِ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ، فَأَتَانَا أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ فَزِعًا كَأَنَّهُ مَذْعُورٌ، قُلْنَا: مَا شَأْنُكَ؟، قَالَ: إِنَّ عُمَرَ أَرْسَلَ إِلَيَّ أَنْ آتِيَهُ، فَأَتَيْتُ بَابَهُ فَاسْتَأْذَنْتُ ثَلَاثًا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي- كَأَنَّهُ كَانَ مَشْغُولًا-، فَرَجَعْتُ، فَقَالَ عُمَرُ لِلْبَوَّابِ: أَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتَ عَبْدِ الله بْنِ قَيْسٍ؟، ائْذَنُوا لَهُ، قَالَ: قَدْ رَجَعَ، قَالَ: عَلَيَّ بِهِ، قال: ثم جِئْتُهُ الْيَوْمَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَأَخْبَرْتُهُ: أَنِّي جِئْتُ أَمْسِ فَسَلَّمْتُ ثَلَاثًا، ثم انْصَرَفْتُ، فَقَالَ عُمَرُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَدْ سَمِعْنَاكَ وَنَحْنُ

---

(١) ينظر: الإصابة (٣/ ٦٦).

(٢) أخرجه البزار (٨٥٣)، وقال الهيثمي- في المجمع (٩/ ٣٨)-: رِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

حِينَئِذٍ عَلَى شُغْلٍ، قُلْتُ: السُّنَّةُ، قَالَ: آلسُّنَّةُ؟، قُلْتُ: اسْتَأْذَنْتُ ثَلَاثًا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ، وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ**، فَقَالَ عُمَرُ: فَوَالله، لَأُوجِعَنَّ ظَهْرَكَ وَبَطْنَكَ، أو لَتَأْتِيَنَّ بِمَنْ يَشْهَدُ لَكَ عَلَى هَذَا، فَقَالَ أَبُو مُوسَى: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَسْتُمْ أَعْلَمَ النَّاسِ بِحَدِيثِ رَسُولِ الله ﷺ؟، أَنْشُدُكُمُ اللهَ هَلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ، فَقُلْتُ: أَتَاكُمْ أَخُوكُمُ الْمُسْلِمُ قَدْ أُفْزِعَ، تَضْحَكُونَ؟، فَجَعَلَ الْقَوْمُ يُمَازِحُونَهُ، فَقَالُوا: لَا يَشْهَدُ لَكَ عَلَى هَذَا إِلَّا أَصْغَرُنَا سِنًّا: أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، قُمْ يَا أَبَا سَعِيدٍ، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ فَقُمْتُ مَعَهُ، فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَلِكَ، فَقَالَ عُمَرُ: خَفِيَ عَلَيَّ هَذَا مِنْ أَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ، أَلْهَانِي عَنْهُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ»[(١)].

ومن المواقف- أيضًا- التي تدل على مكانته العلمية بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: موقفه مع فُتيا ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الربا، فعن حَيَّان بْن عُبَيْدِ الله الْعَدَوِيُّ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا مِجْلَزٍ عَنِ الصَّرْفِ، فَقَالَ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَا يَرَى بِهِ بَأْسًا زَمَانًا مِنْ عُمْرِهِ حَتَّى لَقِيَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَلَا تَتَّقِي اللهَ؟، حَتَّى مَتَى تُؤَكِّلُ النَّاسَ الرِّبَا؟ أَمَا بَلَغَكَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ- وَهُوَ عِنْدَ زَوْجَتِهِ أُمِّ سَلَمَةَ-: **إِنِّي أَشْتَهِي تَمْرَ عَجْوَةٍ**، وَإِنَّهَا بَعَثَتْ بِصَاعَيْنِ مِنْ تَمْرٍ عَتِيقٍ إِلَى مَنْزِلِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأُتِيَتْ بَدَلَهُمَا بِصَاعٍ مِنْ عَجْوَةٍ، فَقَدَّمَتْهُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَعْجَبَهُ فَتَنَاوَلَ تَمْرَةً، ثم أَمْسَكَ، فَقَالَ: **مِنْ أَيْنَ لَكُمْ هَذَا؟!** قَالَتْ: بَعَثْتُ بِصَاعَيْنِ مِنْ تَمْرٍ عَتِيقٍ إِلَى مَنْزِلِ فُلَانٍ فَأُتِينَا بَدَلَهُمَا مِنْ هَذَا الصَّاعِ الْوَاحِدِ، فَأَلْقَى التَّمْرَةَ مِنْ يَدِهِ وَقَالَ: **رُدُّوهُ رُدُّوهُ لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، التَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْحِنْطَةُ بِالْحِنْطَةِ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، يَدًا بِيَدٍ، مِثْلًا بِمِثْلٍ،**

(١) ينظر: البخاري (٦٢٤٥- ٥٠٦٢)، ومسلم (٢١٥٣- ٢١٥٤)، والترمذي (٢٦٩٠)، وأبو داود (٥١٨٠).

لَيْسَ فِيهِ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ، فَمَنْ زَادَ، أو نَقَصَ فَقَدْ أَرْبَى، وَكُلُّ مَا يُكَالُ، أو يُوزَنُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَزَاكَ اللهُ يَا أَبَا سَعِيدٍ الْجَنَّةَ، فَإِنَّكَ ذَكَّرْتَنِي أَمْرًا كُنْتُ نَسِيتُهُ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، قال أبو مِجْلَز: فَكَانَ يَنْهَى عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ»[(١)].

وكان ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا سُئل عن فتواه القديمة قال: «إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عَنْ رَأْيِي، وَهَذَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ نَهَى عَنْ الصرْفِ، فَتَرَكْتُ رَأْيِي إِلَى حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[(٢)].

موقفُه مع ابن صيَّادٍ

كان ابنُ صياد من اليهود، وكان النبيُّ ﷺ يظن أنه المسيح الدجال، ثم أسلم ابنُ صياد بعد موت رسول الله ﷺ، وكان لأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقفٌ طريفٌ عجيبٌ معه، فهيا بنا نسمعه من أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَرَجْنَا حُجَّاجًا، أو عُمَّارًا وَمَعَنَا ابْنُ صَائِدٍ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ، وبَقِيتُ أَنَا وَهُوَ، وَكَانَ لَا يُسَايِرُهُ أَحَدٌ، وَلَا يُرَافِقُهُ، وَلَا يُؤَاكِلُهُ، وَلَا يُشَارِبُهُ، وَيُسَمُّونَهُ الدَّجَّالَ، فَقُلْتُ: إِنَّا لله، مَا صَبَّ هَذَا عَلَيَّ، فَاسْتَوْحَشْتُ مِنْهُ وَحْشَةً شَدِيدَةً، وَأَخَذَتْنِي مِنْهُ ذَمَامَةٌ، مِمَّا يُقَالُ عَلَيْهِ، فعَذَرْتُ النَّاسَ، قَالَ: وَجَاءَ بِمَتَاعِهِ فَوَضَعَهُ مَعَ مَتَاعِي، فَقُلْتُ له: إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ، فَلَوْ وَضَعْتَهُ تَحتَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، قَالَ: ففَعَلَ، قَالَ: فَرُفِعَتْ لَنَا غَنَمٌ، فَانْطَلَقَ فَجَاءَ بِعُسٍّ، فقَالَ: اشْرَبْ أَبَا سَعِيدٍ، فَقُلْتُ: إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ، وَاللَّبَنُ حَارٌّ، مَا بِي إِلَّا أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَشْرَبَ عَنْ يَدِهِ-، أو قَالَ: آخُذَ عَنْ يَدِهِ- فَقَالَ ابْنُ صَائِدٍ: مَا لِي وَلَكُمْ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ؟، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آخُذَ حَبْلًا فَأُعَلِّقَهُ بِشَجَرَةٍ، ثم أَخْتَنِقَ مِمَّا يَقُولُ لِي النَّاسُ، يَا أَبَا سَعِيدٍ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا يَصْنَعُ بِي النَّاسُ؟ لَا

---

(١) ينظر: مستدرك الحاكم (٢٢٨٢)، والسنن الكبرى، للبيهقي (١٠٥١٩).

(٢) أخرجه أحمد (١١٤٩٧)، وابن ماجه (٢٢٥٨).

يُسَايِرُنِي أَحَدٌ، وَلَا يُرَافِقُنِي أَحَدٌ، وَلَا يُشَارِبُنِي أَحَدٌ، وَلَا يُؤَاكِلُنِي أَحَدٌ، وَيَدْعُونَنِي الدَّجَّالَ، يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ حَدِيثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَسْتَ أَنْتَ يَا أَبَا سَعِيدٍ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **هُوَ كَافِرٌ**، وَأَنَا مُسْلِمٌ؟، قُلْتُ: بَلَى، قال: أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **هُوَ عَقِيمٌ لَا يُولَدُ لَهُ**؟، وَقَدْ تَرَكْتُ وَلَدِي بِالْمَدِينَةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قال: أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **لَا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ وَلَا مَكَّةَ**، وَقَدْ أَقْبَلْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَأَنَا أُرِيدُ مَكَّةَ؟، قُلْتُ: بَلَى، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: فَكَأَنِّي رَقَقْتُ لَهُ، حَتَّى كِدْتُ أَنْ أَعْذِرَهُ، ثم قَالَ لِي - فِي آخِرِ قَوْلِهِ -: أَمَا، وَاللهِ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ، وَأَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، وَأَعْرِفُ مَوْلِدَهُ، وَأَيْنَ هُوَ الْآنَ، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَقُلْتُ: أَيَسرُّكَ أَنَّكَ ذَاكَ الرَّجُلُ؟، فَقَالَ: لَوْ عُرِضَ عَلَيَّ مَا كَرِهْت، فَقُلْتُ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْم»[(١)].

نصيحتُه لإمامِ المسلمينَ

كان أبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحب النصح لعامة المسلمين وأئمتهم؛ عملًا بقول النبيِّ ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**، فَقُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: **للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[(٢)].

وذات يوم «شَهِدَ أبو سعيد جِنَازَةً صَلَّى عَلَيْهَا مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أمير المدينة آنذاك - فَذَهَبَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ مَرْوَانَ حَتَّى جَلَسَا فِي الْمَقْبَرَةِ، فَجَاءَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، فَقَالَ لِمَرْوَانَ: أَرِنِي يَدَكَ فَأَعْطَاهُ يَدَهُ فَقَالَ: قُمْ، فَقَامَ، ثم قَالَ مَرْوَانُ: لِمَ أَقَمْتَنِي؟ فَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رَأَى جِنَازَةً قَامَ حَتَّى يُمَرَّ بِهَا، وَيَقُولُ: **إِنَّ الْمَوْتَ فَزَعٌ**، فَقَالَ مَرْوَانُ: أَصَدَقَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا مَنَعَكَ أَنْ

---

(١) ينظر: صحيح مسلم (٢٩٢٧)، ومسند أحمد (١١٣٩٠، ١١٧٤٩).

(٢) ينظر: المستدرك (١٣١٩)، ومسند أبي يعلى (٦٤٥٥)، والسلسلة الصحيحة (٢٨٥٢).

تُخْبِرَنِي؟ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتَ إِمَامًا فَجَلَسْتَ فَجَلَسْتُ»[(١)].

فما أجمل أن يحيط أهلُ العلم الأمراءَ لنصحهم وإرشادهم، ولو تمَّ ذلك لعَمَّ الخير.

حرصُه على تطبيقِ السُّنةِ

عَنْ عِيَاضِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ قال: «إِنَّ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ دَخَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَمَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ يَخْطُبُ، فَقَامَ يُصَلِّي، فَجَاءَ الحَرَسُ لِيُجْلِسُوهُ، فَأَبَى حَتَّى صَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَيْنَاهُ، فَقُلْنَا: رَحِمَكَ اللهُ، إِنْ كَادُوا لَيَقَعُوا بِكَ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَتْرُكَهُمَا بَعْدَ شَيْءٍ رَأَيْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثم ذَكَرَ: أَنَّ رَجُلًا جَاءَ يَوْمَ الجُمُعَةِ فِي هَيْئَةٍ بَذَّةٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أَصَلَّيْتَ**؟ قَالَ: لَا، قَالَ: **صَلِّ رَكْعَتَيْنِ**، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ»[(٢)].

خوفُه من الدِّماءِ

وفي سنة ثلاث وستين من الهجرة خلع أهل المدينة بيعة يزيد بن معاوية وولَّوا على الأنصار عبد الله بن مطيع، وعلى قريش عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر، فأرسل يزيد بن معاوية جيشًا لقتالهم فحدثت فتنة عظيمة سُمِّيَت بوقعة الحَرَّةِ[(٣)].

فاعتزل أبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الفتنة، وذلك ليس جُبنًا منه، بل خوفًا من التَوَرُّطِ في الدماء، فقد قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**»، ولزم أبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غارًا في جبل وترك الناس وما هم فيه، ومع ذلك فقد دخل عليه رجل ليقتله، فيا ترى ماذا فعل أبو سعيد؟.

يخبرنا بذلك أَبو نَضْرَةَ أحدُ تلاميذه فيقول: «دَخَلَ أَبُو سَعِيدٍ يَوْمَ الحَرَّةِ غَارًا،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٤)، والنسائي (١٤٠٨)، والحاكم (١٠٥٤).

(٢) ينظر: البداية والنهاية (٨/ ٢١٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٦٢).

فَدَخَلَ عَلَيْهِ فِيْهِ رَجُلٌ، ثم خَرَجَ، فَقَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ: أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ تَقْتُلُهُ؟، فَلَمَّا انْتَهى الشَّامِيُّ إِلَى بَابِ الغَارِ، وَفِي عُنُقِ أَبِي سَعِيْدٍ السَّيْفُ، قَالَ لِأَبِي سَعِيْدٍ: اخْرُجْ، قَالَ: لَا أَخْرُجُ، وَإِنْ تَدْخُلْ أَقْتُلْكَ، فَدَخَلَ الشَّامِيُّ عَلَيْهِ، فَوَضَعَ أَبُو سَعِيْدٍ السَّيْفَ، وَقَالَ: بُؤْ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ، وَكُنْ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، قَالَ: أَنْتَ أَبُو سَعِيْدٍ الخُدْرِيُّ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاسْتَغْفِرْ لِي، غَفَرَ اللهُ لَكَ»[(١)].

وكان أبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَحطَّ ثقة الناس، وموضعَ استشاراتهم في أمور دينهم ودنياهم، فبعد وقعة الحَرَّة ارتفعت الأسعار في المدينة المنورة، وضاقت على الناس أمور المعيشة، فجاء بعض الناس إلى أبي سعيد يستشيرونه في أن يتحولوا من المدينة إلى غيرها، وهذا أحدهم يحدثنا عن ذلك فيقول: «إِنَّهُ جَاءَ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ لَيَالِي الْحَرَّةِ، فَاسْتَشَارَهُ فِي الْجَلَاءِ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَشَكَا إِلَيْهِ أَسْعَارَهَا، وَكَثْرَةَ عِيَالِهِ، وَأَخْبَرَهُ: أَنْ لَا صَبْرَ لَهُ عَلَى جَهْدِ الْمَدِينَةِ وَلَأْوَائِهَا، فَقَالَ لَهُ: وَيْحَكَ لَا آمُرُكَ بِذَلِكَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **لَا يَصْبِرُ أَحَدٌ عَلَى لَأْوَائِهَا، فَيَمُوتَ، إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا**- أو: **شَهِيدًا**- **يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا كَانَ مُسْلِمًا**»[(٢)].

حبُّه لطلبةِ العلم

كان النبيُّ ﷺ يُوصي أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قائلًا: «**سَيَأْتِيكُمْ أَقْوَامٌ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَقُولُوا لَهُمْ: مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلِّمُوهُمْ**»[(٣)].

وفي رواية: «**إِنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبَعٌ، وَإِنَّ رِجَالًا يَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الأَرَضِينَ يَتَفَقَّهُونَ**

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٧٠)، وتاريخ دمشق (٧/ ٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٧٤).

(٣) ينظر: الحاكم (٢٩٨)، وابن ماجه (٢٤٧)، والسلسلة الصَّحِيحَة (٢٨٠).

فِي الدِّينِ، فَإِذَا أَتَوْكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا»[(١)].

فلما مات النبيُّ ﷺ كان طلابُ العلم يأتون المدينة من أقطار الأرض ليتفقهوا في الدين على يد أصحاب رسول الله ﷺ، فكان أبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُرَحِّب بهم، ويُحسن استقبالهم وضيافتهم، ويَصُبُّ عليهم من بحر علمه الفياض.

فعَنْ أَبِي هَارُونَ العَبْدِيِّ قَالَ: «كُنَّا نَأْتِي أَبَا سَعِيدٍ فَيَقُولُ: مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **إِنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبَعٌ، وَإِنَّ رِجَالًا يَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الأَرَضِينَ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ، فَإِذَا أَتَوْكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا**»[(٢)].

وَعَنْ أَبِي نَضْرَةَ أن أبا سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول لهم: «مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ، كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُوصِينَا بِكُمْ، يَقُولُ: **سَيَأْتِيكُمْ أَقْوَامٌ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَقُولُوا لَهُمْ: مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلِّمُوهُمْ**»[(٣)].

وكان أبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَيِّنًا لَيِّنًا مع تلامذته، متواضعًا في علاقته بهم، لا يرون منه جَفاءً ولا غِلْظَةً ولا تَكَلُّفًا، بل كان يتعامل معهم بأريحية تشرَّبها من خير معلم عرفته البشرية ﷺ، الذي قال له ربه سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذا أبو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أحد تلامذته يحدثنا بموقف له مع أبي سعيد نرى من خلاله جمال العلاقة بينه وبينهم، فيقول: «تَذَاكَرْنَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَتَيْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ وَكَانَ صَدِيقًا لِي، فَقُلْتُ: أَلَا تَخْرُجُ بِنَا إِلَى النَّخْلِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٠).

(٣) ينظر: الحاكم (٢٩٨)، وابن ماجه (٢٤٧)، والسلسلة الصَّحِيحَة (٢٨٠).

نَتَحَدَّثُ؟، فَخَرَجَ وَعَلَيْهِ خَمِيصَةٌ لَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: حَدِّثْنِي مَا سَمِعْتَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ، قَالَ: اعْتَكَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشْرَ الأُوَلِ مِنْ رَمَضَانَ وَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تطْلُبُ أَمَامَكَ، فاعْتَكَفَ العَشْرَ الأَوْسَطَ، فَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ خَطِيبًا صَبِيحَةَ عِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ فقال ﷺ: **إِنِّي أُرِيتُ لَيْلَةَ القَدْرِ، وَإِنِّي نُسِّيتُهَا، وَإِنَّهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ، فِي وِتْرٍ، وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ**، وَكَانَ سَقْفُ المَسْجِدِ جَرِيدَ النَّخْلِ، وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ شَيْئًا، فَجَاءَتْ قَزَعَةٌ فَأُمْطِرْنَا، فَصَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ وَالمَاءِ عَلَى جَبْهَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَرْنَبَتِهِ تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ»[(١)].

ومع ذلك كان أبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يمنعه لينُه وحُسْنُ خُلُقِهِ مع تلامذته أن ينظر في حالهم هل يعملون بما يتعلمون، أم لا، فهذا أبو العالية يقول: «أَتَيْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ فَسَلَّمْتُ فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، ثم سَلَّمْتُ فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، ثم سَلَّمْتُ الثَّالِثَةَ فَرَفَعْتُ صَوْتِي وَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الدَّارِ، فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، فَتَنَحَّيْتُ نَاحِيَةً فَقَعَدْتُ، فَخَرَجَ إِلَيَّ غُلَامٌ فَقَالَ: ادْخُلْ، فَدَخَلْتُ، فَقَالَ لِي أَبُو سَعِيدٍ: أَمَا إِنَّكَ لَوْ زِدْتَ لَمْ يُؤْذَنْ لَكَ»[(٢)]؛ وذلك لقول النبيِّ ﷺ: «**إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ**»[(٣)].

ولما كانت هكذا علاقة أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بطلبة العلم كَثُرَ تلاميذه، وانتشروا بعلمه في الأقطار والأمصار ليصبح كل واحد منهم نَواةً لمدرسة علمية في بلدته يتعلم الناس فيها شتى علوم الشريعة، ويتخرج منها العلماء والدعاة جيلًا بعد جيل.

---

(١) ينظر: البخاري (٨١٣)، ومسلم (١١٦٧)، والنسائي (٣٣٧٤).
(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٧٠)، وصحَّحه الألباني.
(٣) أخرجه مسلم (٢١٥٣).

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعد حياة طويلة عاشها أبو سعيد الخُدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عابدًا وعالمًا ومجاهدًا تصل به الدنيا إلى آخر محطاتها، فلما شعر بقرب أجله اتَّكَأَ على ولده عبد الرحمن ليوصيه وصية مُودِّع، ولنتركه يخبرنا بذلك، فيقول: «قَالَ لِي أَبِي: إِنِّي كَبِرْتُ وَذَهَبَ أَصْحَابِي وَجَمَاعِتِي فَخُذْ بِيَدِي، قَالَ: فَاتَّكَأَ عَلَيَّ حَتَّى جَاءَ إِلَى أَقْصَى الْبَقِيعِ- مَكَانًا لَا يُدْفَنُ فِيهِ-، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِذَا أَنَا مُتُّ فَادْفِنِّي هَهُنَا، وَلَا تَضرِبْ عَلَيَّ فُسْطَاطًا، وَلَا تَمْشِ مَعِي بِنَارٍ، وَلَا تَبْكِيَنَّ عَلَيَّ نَائِحَةٌ، وَلَا تُؤْذِنْ بِي أَحَدًا، وَاسْلُكْ بِي زُقَاقَ عَمْقَةَ، وَلْيَكُنْ مَشْيُكَ خَبَبًا، قال عبد الرحمن: فَهَلَكَ- أي: مات- يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُؤَذِّنَ النَّاسَ لَمَّا كَانَ نَهَانِي فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ: مَتَى تُخْرِجُوهُ؟ فَأَقُولُ: إِذَا فَرَغْتُ مِنْ جِهَازِهِ أُخْرِجُهُ، قَالَ: فَامْتَلَأَ عَلَى الْبَقِيعِ النَّاسُ»(١).

وارتجت المدينة بخبر موت أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد جاءها أبو عثمان النَّهدي زَائِرًا لها، فسأل الناس عن سبب بكائهم واجتماعهم، فقالوا له: لسْتَ مِنْ أهل البَلد؟، قالَ: نَعم، قالوا: صَدقتَ، لو كنتَ مِنْ أهل البلد لعلمْتَ، ماتَ أبو سَعيدٍ الخدريُّ(٢).

هذا وقد اختلفت الأقوال في سنة موته، فقد قيل: سنة أربع وستين، وقيل: سنة خمس وستين، وقيل: سنة أربع وسبعين، وقيل غير ذلك. والله أعلم بالصواب(٣).

ولئن كان أبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد مات ورحل عن عالمنا إلا أن ذكره باقٍ بين الناس إلى يوم الناس هذا، فَلَا تُذْكَرُ غزوات الرسول ﷺ إلا ويذكر الناس أبا سعيد صَبِيًّا يعرضه أبوه يوم أُحُد على رسول الله ﷺ، ولا تُذكر رواية الحديث إلا ويظهر في

---

(١) أخرجه الحاكم (٦٣٩٢).

(٢) ينظر: المعرفة والتاريخ، ليعقوب بن سفيان (٢/ ١٠٥).

(٣) ينظر: مشاهير علماء الأمصار (١١)، والإصابة (٣/ ٦٥)، والسير (٣/ ١٧١)، وتهذيب التهذيب (٣/ ٤١٧).

ساحتها راوية المدينة ومحدِّثها أبو سعيد الخدريُّ، ولا تكاد تحضر خطبة جمعة، أو تسمع درسًا، أو تقرأ كتابًا إسلاميًّا إلا وتجد في ذلك أثرَ أبي سعيد الخدري، حتى اشتاق نفسي لرؤيته، فالله أسأل أن يرزقني في الجنة صحبته.

رضي اللّهُ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ،
وعن الصحابةِ أجمعينَ



عامرُ بنُ رَبيعةَ

أولُ من دخلَ بأسرتِه المدينةَ مُهاجرًا

أيها القارئُ الكريم، إننا سنقطع الآن الزمان والمكان مسافرين إلى عصر السابقين الأولين من المهاجرين، لنتعرف على رجل من أبطالهم، كان على ملة إبراهيم قبل بعثة النبيِّ محمدٍ عليهما صلوات الله وسلامه، ثم جاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

إنه الصحابي الجليل عَامِرُ بنُ رَبيعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بطاقةُ تعريفٍ[1]

هو عَامِرُ بنُ رَبيعَةَ بنِ مَالك، وقيل: عَامِرُ بنُ رَبيعَةَ بنِ كَعب، كُنْيته: أبو عبد الله.

يرجع نسبُه إلى أصول يمانية، وقيل غير ذلك، ولكنه عاش في مكة، وترعرع في بطن من بطون قريش، وهم بَنو عَدِيِّ بْنِ كَعْبِ، فقد كان حليفًا لسيدهم الخطاب بن نُفَيل والدِ الفاروقِ عمر، وقد بلغ حُبُّ الخطاب لعامرٍ أنْ تبنَّاه في الجاهلية حتى أصبح يُقال له: عَامرُ بنُ الخطاب، ومضى ذلك حتى جاء الإسلام، وحرَّمَ اللهُ التبنِّي، وقال للناس: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٥]، فرجعوا يدعونه عامر بن ربيعة.

ولقد تزوج عَامِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من إحدى نساء بَني عَدِيِّ بْنِ كَعْبِ وهي المرأة الطاهرة

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٢٩٥)، والاستيعاب (٢/ ٧٩٠)، ومعرفة الصحابة (٤/ ٢٠٤٩)، وأسد الغابة (٣/ ١١٨).

العفيفة لَيْلَى بِنْتُ أَبِي حَثْمَةَ الْعَدَوِيَّةُ التي كانت خيرَ عَوْنٍ له على إيمانه.

قصةُ إسلامِهِ

كان هناك موحدون في جزيرة العرب قبل بعثة النبيِّ محمد ﷺ، من أشهرهم: رجل من بَني عَدِيِّ بْنِ كَعْبِ اسمُه: زَيْدُ بنُ عمرو بنِ نُفيل، وهو ابنُ عم عمر بن الخطاب، وكان حنيفًا على دين إبراهيم ﷺ، وكان لا يأكل إلا مما ذُكر اسمُ الله عليه، وكان يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ، وَيَقُولُ لهم: الشَّاةُ خَلَقَهَا اللهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنْ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنْ الْأَرْضِ، ثم تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللهِ؟!، وَكَانَ يُحْيِي الْمَوْءُودَةَ، فيَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ: لَا تَقْتُلْهَا، أَنَا أَكْفِيكَهَا مَئُونَتَهَا[(١)].

وأما عامر بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد ساقه القدرُ من بلاده إلى مكة ليعيش في بني عَدِيِّ بْنِ كَعْبِ مع ذلكم المُوحدِ زيد بن عمرو الذي أصبح بمثابة ابنِ عمه بعدما تبناه الخطاب بنُ نُفيل، فكانت أقواله وأفعاله تأخذ بقلب عامرٍ إلى عبادة الله وحده ونَبْذِ ما عليه أهل الشرك والوثنية حتى لَقِيَهُ يومًا «وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ مَكَّةَ يُرِيدُ حِرَاءً يُصَلِّي فِيهِ، وَإِذَا هُوَ قَدْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ سُوءٌ فِي صَدْرِ النَّهَارِ فِيمَا أَظْهَرَ مِنْ خِلَافِهِمْ وَاعْتِزَالِ آلِهَتِهِم، وَمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ، فَقَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو: يَا عَامِرُ، إِنِّي خَالَفْتُ قَوْمِي، فَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ، وَمَا كَانَ يَعْبُدُ ابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنْ بَعْدِهِ، وَمَا كَانَ يُصَلُّونَ إِلَى هَذِهِ الْقِبْلَةِ، فَأَنَا أَنْتَظِرُ نَبِيًّا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ اسْمُهُ: أَحْمَدُ، وَلَا أُرَانِي أُدْرِكُهُ، فَأَنَا يَا عَامِرُ أُومِنُ بِهِ وَأُصَدِّقُهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنْ طَالَتْ بِكَ الْمُدَّةُ فَرَأَيْتَهُ فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ، وَسَأُخْبِرُكَ يَا عَامِرُ مَا نَعْتُهُ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، قَالَ عامرٌ: هَلُمَّ، فقَالَ: هُوَ رَجُلٌ لَيْسَ بِالْقَصِيرِ وَلَا بِالطَّوِيلِ، وَلَا بِكَثِيرِ الشَّعْرِ

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣٦١٤، ٣٦١٦، ٣٨٢٧).

وَلَا بِقَلِيلِهِ، وَلَيْسَ تُفَارِقُ عَيْنَيْهِ حُمْرَةٌ، وَخَاتَمُ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَاسْمُهُ: أَحْمَدُ، وَهَذَا الْبَلَدُ مَوْلِدُهُ وَمَبْعَثُهُ حَتَّى يُخْرِجَهُ قَوْمُهُ مِنْهَا، وَيَكْرَهُونَ مَا جَاءَ بِهِ، حَتَّى يُهَاجِرَ إِلَى يَثْرِبَ فَيَظْهَرُ أَمْرُهُ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُخْدَعَ عَنْهُ؛ فَإِنِّي بَلَغْتُ الْبِلَادَ كُلَّهَا أَطْلُبُ دِينَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكُلُّ مَنْ أَسْأَلُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ يَقُولُ: هَذَا الدِّينُ وَرَاءَكَ، وَيَنْعَتُونَهُ مِثْلَ مَا نَعَتُّهُ لَكَ، وَيَقُولُونَ: لَمْ يَبْقَ نَبِيٌّ غَيْرُهُ، قَالَ عَامِرٌ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي الْإِسْلَامُ مِنْ يَوْمِئِذٍ»[(١)].

ثم مات زيدُ بنُ عمرو قبل بعثة النبيِّ ﷺ، وبَقِيَتْ بذورُ الإيمان التي ألقاها في قلب عامر بن ربيعة تبحث عن مَنْ يَرويها حتى أوحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ، فكان ﷺ وصاحبُه أبو بكر يطوفان مكة يدعوانِ الناسَ سِرًّا إلى الإسلام، فَلَقِيَ أبو بكرٍ عامرَ بنَ ربيعة يومًا فخلا به ودعاه إلى الله ورسوله، فأسرع إلى ما كان ينتظره، وكأنَّ كلماتِ أبي بكر عن الإسلام كانت كالماء الطهور الذي نزل على بذور الإيمان في قلب عامرٍ فأحياها، فانطلق عامرٌ إلى زوجته مُسرعًا فدعاها إلى الإسلام فسارعت، وكان ذلك في أوائل أيام الدعوة قبل دخول النبيِّ ﷺ دار الأرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)].

عامرٌ يحملُ السلامَ للنبيِّ ﷺ

ولما بُعث النبيُّ ﷺ وآمن به عامرٌ هاجت الذكرياتُ في نفسه وتذكَّر الأمانة التي حمَّلَها له زيدُ بنُ عمرو للنبيِّ ﷺ حين قال له: «فَإِنْ طَالَتْ بِكَ الْمُدَّةُ فَرَأَيْتَهُ فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ»، وها هو ذا يُحدثنا عن ذلك، فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنْتُ رَجُلًا حَلِيفًا فِي قَوْمِي، وَكَانَ قَوْمِي أَقَلَّ قُرَيْشٍ عَدَدًا، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى اتِّبَاعِهِ ظَاهِرًا، فَأَسْلَمْتُ سِرًّا، وَكُنْتُ

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٩٠)، وأبو نعيم في الدلائل (٥٢)، والفاكهي في أخبار مكة (٢٤١٩) عن عامر بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٢٩٦)، والمستدرك (٣/ ٤٠٣)، والروض الأنف (٢/ ٣٠٣).

أَخْبَرْتُ رَسُولَ الله ﷺ بِمَا أَخْبَرَنِي بِهِ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْل، وَأَقْرَأْتُهُ مِنْهُ السَّلامَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ السلامَ، وتَرَحَّمَ عَلَيْهِ، وَقَالَ ﷺ: **لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْجَنَّةِ يَسْحَبُ ذَيْلًا لَهُ، أو ذُيُولًا**»[(١)]، وفي رواية أم المؤمنين عائشة قال ﷺ: «**دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَرَأَيْتُ لِزَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ دَرَجَتَيْنِ**»[(٢)]، وكان ﷺ يقول عنه: «**إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ**»[(٣)].

محنةٌ وهجرةٌ

لما فشا خَبَرُ الإسلام في مكة فُرِشَتْ أرضُها بألوان العذاب للمؤمنين المستضعفين، فأخذهم المشركون وصَهَروهم في الشمس، ونَهَشَتْ سياطُهم لحومَهم البريئة، فسالت دماؤهم على الأرض تحفر الأخاديد، ومنعوهم الطعامَ والشرابَ حتى فَتَتَ الجوعُ أكبادهم، وكاد العطشُ أن يقطع أعناقهم، ولقد وَصَفَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِحنتهم بقوله: «وَالله إِنْ كَانُوا لَيَضرِبُونَ أَحَدَهُمْ وَيُجِيعُونَهُ وَيُعْطِشُونَهُ حَتَّى مَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَسْتَوِيَ جَالِسًا مِنْ شِدَّةِ الضُّرِّ الَّذِي بِهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُعْطِيهِمْ مَا سَأَلُوهُ مِنَ الْفِتْنَةِ حَتَّى يَقُولُوا لَهُ: آللَّاتُ وَالْعُزَّى إِلَهُكَ مِنْ دُونِ الله؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، حَتَّى إِنَّ الْجُعَلَ لَيَمُرُّ بِهِمْ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَهَذَا الْجُعَلُ إِلَهُكَ مِنْ دُونِ الله؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، افْتِدَاءً مِنْهُمْ مِمَّا يَبْلُغُونَ مِنْ جَهْدِهِ»[(٤)]، ومع ذلك كان القرآنُ يفتح لهم باب الرجاء حين ينزل يستثني من عذاب الله لمن كفر ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النحل: ١٠٦]، ويأتي القصصُ القرآنيُّ كقصة أصحاب الأخدود وغيرها يُثبتُ

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٩٠)، وأبو نعيم في الدلائل (٥٢)، والفاكهي في أخبار مكة (٢٤١٩).
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (١٩/ ٥١٢)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٤٠٦).
(٣) أخرجه أبو يعلى (٩٧٣) عن سعيد بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألباني في صحيح السيرة (ص٩٤).
(٤) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٦٨٩٨)، وحسَّنه الصوياني في الصحيح من أحاديث السيرة (١/ ٧١).

أفئدتهم، وَيَقُص عليهم النبيُّ ﷺ نَبأَ تضحياتِ الأمم من قبلهم، فيقول ﷺ لهم: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[١]، فَتَخْمَدُ - عندئذٍ - نيرانُ آلامِهم، ويستنشقون عبيرَ الحياة من جديد، وترى أعينُهم شعاعَ الأملِ من بعيد.

ولقد كان لعامر بن ربيعة ومن أسلم معه من بَني عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ نصيب عظيم من وحشية ذلكم التعذيب ودمويته على يد عمرَ بن الخطاب في جاهليته، حتى قالت عنه أمُّ عبد الله زوجةُ عامر بن ربيعة: «كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَيْنَا فِي إِسْلَامِنَا»[٢].

وظلت هذه الثُلةُ المؤمنةُ صابرةً محتسبةً لمَرارةِ الإهانةِ ولَأْوَاءِ العذاب حتى اجتمع بهم النبيُّ ﷺ سِرًّا وقال لهم: «**إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ؛ فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**»[٣]، فخرجوا في السر أَرْسَالًا، وتجهز عامرٌ وزجته للهجرة، ثم ذهب يتحسس الوقت المناسب للفرار، وبينما أمُّ عبد الله على بعيرها تنتظر زوجها إذ ظهر أمامها عمر بن الخطاب فجأةً، وها هي تحدثنا فتقول: «فَلَمَّا تَهَيَّأْنَا لِلْخُرُوجِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ وَقَدْ ذَهَبَ عَامِرٌ فِي بَعْضِ حَاجَتِنَا، إِذْ أَقْبَلَ عُمَرُ بنُ الخطاب حَتَّى وَقَفَ عَلَيَّ وَهُوَ عَلَى شِرْكِهِ، وَأَنَا عَلَى بَعِيرِي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في الفضائل (٣٧١)، والطبراني في الكبير (٤٧)، واللفظ له، وصحَّحه الهيثمي في المجمع (٩٨٤٠).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٧٧٤٣)، وجوَّد إسناده الألباني في الصحيحة (٣١٩٠).

أُرِيدُ أَنْ أَتَوَجَّهَ، فَقَالَ: إلى أَيْنَ يَا أُمَّ عَبْدِ الله، إِنَّهُ لَانْطِلَاقٌ؟ فقُلْتُ: نَعَمْ، آذَيْتُمُونَا فِي دِيننا وَقَهَرْتُمُونَا، فلَنَخْرُجَنَّ فِي أَرْضِ اللهِ، حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَنَا مَخْرَجًا، حَيْثُ لَا نُؤْذَى فِي عِبَادَةِ اللهِ، فَقَالَ عُمَرُ: صَحِبَكُمُ اللهُ، قالت: وَرَأَيْتُ لَهُ رِقَّةً لَمْ أَكُنْ أَرَاهَا، ثم انْصَرَفَ وَقَدْ أَحْزَنَهُ فِيمَا أَرَى خُرُوجُنَا، فَجَاءَنِي زَوْجِي عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، لَوْ رَأَيْتَ عُمَرَ آنِفًا وَرِقَّتَهُ وَحُزْنَهُ عَلَيْنَا، قَالَ: أَطَمِعْتِ فِي إِسْلَامِهِ؟، قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللهِ لَا يُسْلِمُ حَتَّى يُسْلِمَ حِمَارُ الْخَطَّابِ»[(١)].

ثم انطلقوا إلى الحبشة مهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومع أنَّ أمَّ عبد الله رأت على يد عمرَ قسوةً وعذابًا، ومع أنها كلَّمَته بصوتٍ قد أنهكَتْه السياط، إلا أنها لم تَهَبْهُ حين وقف أمامها، ولم تَخَفْ من بَطْشه حين سألها، بل أجابته بكلماتٍ أظهرت ثباتَها على دينها، وإصرارَها على إكمال طريقها، وكأنَّ سياطه التي كانت تَهتك أجسادَ المؤمنين ما زادتهم إلا إيمانًا.

ثم أَحَسَتْ بقلبها الطاهر، ورأت بفراستها العميقة أنَّ الرِّقَةَ التي كانت من عمر تحمل وراءها إيمانًا سيخالط شغاف قلبه عمَّا قليل، فما أعظم تلك المرأة.

واعلم- أيها القارئ الكريم- أن هذه الصفات التي رأيناها في هذه المرأة من قوةٍ وصلابةٍ وصبرٍ وثباتٍ وفِراسةٍ لم تكن وليدة اللحظة، بل هي نِتاج تربيةٍ نَبويةٍ أصيلةٍ لم تكن قاصرة على حضورها وزوجها في مدرسة دار الأرقم فَحَسْب، بل كان النبيُّ ﷺ يَخُصهما بالزيارة، ويَبُثُّ فيهما من علمه وأخلاقه، وإليك صورةً من صور هذه التربية الخاصة، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَامِرِ بن ربيعة أَنَّهُ قَالَ: «أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِنَا وَأَنَا صَبِيٌّ، فَذَهَبْتُ أَخْرُجُ لِأَلْعَبَ، فَقَالَتْ أُمِّي: يَا عَبْدَ الله، تَعَالَ أُعْطِكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: وَمَا

(١) ينظر: فضائل الصحابة، لأحمد (٣٧١)، والمعجم الكبير، للطبراني (٤٧)، وصحيح السيرة، للألباني (ص١٩٠).

أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيَهُ؟»، قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كُتِبَتْ عَلَيْكِ كَذْبَةٌ»**[1].

مِن هجرةٍ إلى هجرةٍ

ثم صَدَقَتْ فراسَةُ أمِّ عبد الله وأسلم عمرُ بنُ الخطاب بعد هجرتهم، ومِن قَبله أسلم حمزة بن عبد المطلب، بل وأشيع بين الناس أنَّ قريشًا أسلمت، وطارت الأخبار إلى أرض الحبشة، فرجع عدد من المهاجرين إلى مكة منهم عامر بن ربيعة وزوجته.

وما إنْ حَطَّ العائدون رحالهم حتى أمرهم النبيُّ ﷺ بالهجرة إلى المدينة، فتركوا أموالهم وديارهم وخرجوا يقطعون الصحارَى مهاجرين إلى الله ورسوله.

وكانت أول أُسرةٍ تدخل المدينة من المهاجرين هي أسرة عامر بن ربيعة، وكانت زوجته لَيْلَى بنت أبي حَثْمَةَ أول امرأة دخلت المدينة مهاجرةً في سبيل الله[2].

وفي مشهد الإخاء العظيم بين المهاجرين والأنصار آخَى النبيُّ ﷺ بَيْنَ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ وَيَزِيدَ بْنِ الْمُنْذِرِ بْنِ سَرْحٍ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[3].

وفي المدينة سيعيش عامرٌ والصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع النبيِّ ﷺ طَوْرًا جديدًا في حياتهم، سَيُشَيِدون فيه للإسلام دولةً ستزلزل عروشَ الطغاة، وستَحمل الهداية للعالمين.

جهادُه في سبيلِ اللهِ

ولمَّا نُصِبَتْ رايةُ الجهاد في سبيل الله كان عامر بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -كعادته- من السابقين إلى الله ورسوله، فلم يَفُتْه مشهدٌ مع النبيِّ ﷺ، فقد شهد بدرًا وأحدًا والخندق

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٠٢)، وأبو داود (١٤٩٩١).
(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٢٩٦)، والمستدرك (٣/ ٤٠٣)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٣٤)، وأسد الغابة (٣/ ٤٧٠).
(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٢٩٦)، والمستدرك (٣/ ٤٠٣)، وتاريخ دمشق (٢٥/ ٣١٦).

والحديبية وتبوك وغيرهم، وإليك قَبَسات من صفحات جهاده.

أولًا: سَريةُ نَخلةَ ودفاعُ القرآنِ عَنهم:

بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ إِلَى نَخْلَةَ قَبلَ بَدرٍ، فَقَالَ لَهُ: «**كُنْ بِهَا حَتَّى تَأْتِيَنَا بِخَبَرٍ مِنْ أَخْبَارِ قُرَيْشٍ**»، وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِقِتَالٍ، وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يُعْلِمَهُ أَيْنَ يَسِيرُ، فَقَالَ له فيه: «**اخْرُجْ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ حَتَّى إِذَا سِرْتَ يَوْمَيْنِ فَافْتَحْ كِتَابَكَ وَانْظُرْ فِيهِ فَمَا أَمَرْتُكَ فِيهِ فَامْضِ لَهُ، وَلَا تَسْتَكْرِهَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِكَ عَلَى الذَّهَابِ مَعَكَ**»، وَكَانَ أصحابُ عَبْدِ الله بْنِ جَحْشٍ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ: أَبُو حُذَيفة بْنُ عُتْبة بْنِ رَبِيعَةَ، وعُكَّاشة ابْنُ مِحْصن، وعُتبة بْنُ غَزْوان، وسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وعامر بن ربيعة، وَوَاقِدُ بْنُ عَبْدِ الله، وَخَالِدُ بْنُ الْبُكَير، وسُهَيْل بن بيضاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَلَمَّا سَارَ يَوْمَيْنِ فَتَحَ الْكِتَابَ، «فَإِذَا فِيهِ: **أَنِ امْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ فَتَأْتِيَنَا مِنْ أَخْبَارِ قُرَيْشٍ بِمَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ**»، فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ اسْتَرْجَعَ، ثم قَالَ: سَمْعًا وَطَاعَةً لله وَرَسُولِهِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ حِينَ قَرَأَ الْكِتَابَ: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَهُ رَغْبَةٌ فِي الشَّهَادَةِ فَلْيَنْطَلِقْ مَعِي فَإِنِّي مَاضٍ لِأَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ، وَمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَرْجِعْ؛ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ نَهَانِي أَنْ أَسْتَكْرِهَ مِنْكُمْ أَحَدًا، فَمَضَى مَعَهُ الْقَوْمُ حَتَّى إِذَا كَانَ بِبُحْرَانَ أَضَلَّ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ بَعِيرًا لَهُمَا كَانَا يَعْتَقِبَانِهِ، فَتَخَلَّفَا عَلَيْهِ يَطْلُبَانِهِ، وَمَضى الْقَوْمُ حَتَّى نَزَلُوا نَخْلَةَ، فَمَرَّ بِهِمْ عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيِّ وَالْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ وَعُثْمَانُ وَالْمُغِيرَةُ ابْنَا عَبْدِ الله، مَعَهُمْ تِجَارَةٌ قَدِمُوا بِهَا مِنَ الطَّائِفِ أُدْمٌ وَزَبِيبٌ، فَلَمَّا رَآهُمُ الْقَوْمُ أَشْرَفَ لَهُمْ وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ الله، وَكَانَ قَدْ حَلَقَ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَأَوْهُ حَلِيقًا قَالُوا: عُمَّارٌ لَيْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ بَأْسٌ، وتشاور أَصْحَاب رَسُولِ الله ﷺ في أمرهم، فَأَجْمَعَ الْقَوْمُ عَلَى قَتْلِهِمْ، فَرَمَى وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ الله عَمْرَو بْنَ الْحَضْرَمِيِّ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، وَلَمْ يَدْرِ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ رَجَبٍ، أو مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ، وَاسْتَأْسَرَ عُثْمَانَ بْنَ عَبْدِ الله، وَالْحَكَمَ بْنَ كَيْسَانَ، وَهَرَبَ الْمُغِيرَةُ وَأَعْجَزَهُمْ، وَاسْتَاقُوا

الْعِيرَ فَقَدِمُوا بِهَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَحَدَّثُوهُ الْحَدِيثَ فَقَالَ لَهُمْ: «**وَالله مَا أَمَرْتُكُمْ بِالْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ**»، فَأَوْقَفَ رَسُولُ الله ﷺ الْأَسِيرَيْنِ وَالْعِيرَ، فَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا شَيْئًا، فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ مَا قَالَ أُسْقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَظَنُّوا أَنْ قَدْ هَلَكُوا، وَعَنَّفَهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ- حِينَ بَلَغَهُمْ أَمْرُ هَؤُلَاءِ-: قَدْ سَفَكَ مُحَمَّدٌ الدَّمَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَأَخَذَ فِيهِ الْمَالَ، وَأَسَرَ فِيهِ الرِّجَالَ، وَاسْتَحَلَّ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فَلَمَّا نَزَلَت أَخذَ رَسُولُ ﷺ الْعِيرَ، وَفَدَى الْأَسِيرَيْنِ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ- عن أصحاب هذه السَرِيَّة-: إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَصَابُوا فِي شَهْرِهِمْ هَذَا وِزْرًا، فَلَيْسَ لَهُمْ فِيهِ أَجْرٌ، فذهب عامرُ بنُ ربيعةَ وعَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ وأفراد السرِيَّة إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أَتَطْمَعُ لَنَا أَنْ تَكُونَ غَزْوَةً نُعْطَى فِيهَا أَجْرَ الْمُجَاهِدِينَ؟، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ٢١٨]»[(١)].

فإن هؤلاء الذين هاجروا من ديارهم، وضحوا بأموالهم من أجل الله، ثم خرجوا جِهَادًا فِي سَبِيلِه، لا شك أنهم لم يتعمدوا انتهاك حرمة الشهر الحرام، وإنما كان ما وقع خطأ منهم، وقَدْ بَيَّن الله حُسْن نيتهم، وصدْقَ وِجْهَتهم، بقوله تعالى عنهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾، وقد أشارت الآية إلى رحمة الله بهم، ومغفرته لهم، حين خُتِمَت بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فكأن نزول هذه الآية في ذاك التوقيت

---

(١) ينظر: سنن النسائي (٨٧٥٢)، والكبرى، للبيهقي (١٧٩٨٩)، ومسند أبي يعلى (١٥٣٤)، والمعجم الكبير، للطبراني (١٦٧٠)، والسيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (٢/ ٢٣)، وتاريخ المدينة، لابن شبة (٢/ ٤٧٣).

كان بمثابة وسام شرف على صدر عامر بن ربيعةَ وأصحابه المجاهدين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ.

ثانيًا: سَريةُ ذاتِ السلاسلِ:

وبعد عودة أسودِ الإسلام من معركة مؤتة جاءت اسْتِخْبَاراتُ النبيِّ ﷺ تُعْلِمُهُ أنَّ بعض قبائل العرب المشركة يتجمعون ويتجهون بجيشهم نحو المدينة، فأخرج لهم النبيُّ ﷺ سَريةً من خِيرة المهاجرين والأنصار من بينهم البطل عامر بن ربيعة، فخرجوا يَحملهم نهارٌ، ويَحُطُّهم ليلٌ، حتى التقى الفريقان فهزمهم المسلمون هزيمةً مُنكرةً بفضل الله، وأبلى عامرٌ في المعركة بلاءً حسنًا إلا أنه أُصيب أثناءَ القتالِ إصابةً شديدة ظل يُعاني من آلامها، ثم بَرَأَ منها بعد عوته المدينةَ بفترة[1].

ثالثًا: مِنْ صُورِ مُعاناتِه في الجهادِ:

لقد عانَى السابقون الأولون مع رسول الله ﷺ أشد المعاناة الجسدية والنفسية أثناء جهادهم في سبيل الله بسبب قلة الإمكانات المالية والعسكرية، ورغم ذلك لم يَرَوا ذلك عائقًا أبدًا عن تحقيق هدفهم، ولم يتخذوا منه مُسَوِّغًا للتواني، أو القعود عن الجهاد، وها هو عامرُ بنُ ربيعةَ يُحَدِّث وَلَدَهُ عبدَ الله عن لَوْنٍ من ألوان تلك المعاناة فيقول رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «لَقَدْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَبْعَثُنَا فِي السَّرِيَّةِ، مَا لَنَا مِنْ زَادٍ إِلَّا السَّلْفَ مِنَ التَّمْرِ، نَقْسِمُهُ قَبْضَةً قَبْضَةً، حَتَّى نَصِيرَ إِلَى تَمْرَةٍ تَمْرَةٍ، فَقَالَ: يَا أَبَتِ، وَمَا عَسَى أَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمُ التَّمْرَةُ؟ فقَالَ: لَا تَقلْ ذَاكَ يَا بُنَيَّ، فَمَا عَدَا أَنْ فَقَدْنَاهَا فَوَجَدْنَا فَقْدَهَا»[2].

كرمُه وزهدُه

نَزَلَ ضَيْفٌ على عامر بن ربيعة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فأكرمَ مَثْواه، وأحسنَ إليه، وكانت للرجل

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٢/ ١٣١)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٤/ ٤٠١)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٧).
(٢) هو الجِراب، كما في لسان العرب (٩/ ١٦٠).

حاجةٌ عند رسول الله ﷺ، فَشَفَعَ له عامرٌ حتى قُضِيَتْ حاجتُه، فأراد الرجلُ أن يُكافئ عامرًا على معروفه وحُسن صنيعه معه، فقال: «يا عامر، إِنِّي اسْتَقْطَعْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَادِيًا مَا فِي الْعَرَبِ وَادٍ أَفْضَلَ مِنْهُ، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ لَكَ مِنْهُ قِطْعَةً تَكُونُ لَكَ وَلِعَقِبِكَ مِنْ بَعْدِكَ، ففوجئ الرجلُ بعامرٍ يقول له: لَا حَاجَةَ لِي فِي قَطِيعَتِكَ، فقال الرجلُ: لِمَ؟، قال: نَزَلَتِ الْيَوْمَ سُورَةٌ أَذْهَلَتْنَا عَنِ الدُّنْيَا، قال الرجلُ: وما هي؟، قال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]»[(١)].

فلله دَرُّكَ يا عامر، ألهذا الحدُّ أذهلتك عن الدنيا تلكم الآيات؟!، فيا خيبتنا، ويا حسرتنا، فلكم قرأناها مراتٍ ومراتٍ وما قامت قلوبنا من غفلتها، ولا تحركت من رقدتها، ولا شك أن العَيب في هذه القلوبِ الأسيرةِ للشهواتِ والشبهات، ولكنك- أيها الرجل الصادق- قد لَفَتَّ انتباهنا إلى مرادها وعمق معانيها، فجزاك الله عنا خيرًا.

ولِعَجْزي عن حُسن التعبير لا أملكُ إلا أنْ أقول لك: إن هذا الموقف هو إضافة إلى قائمة المناقب والعجائب في سيرتك العطرة.

وأقول للناس: ها هي رائعةٌ جديدةٌ من روائع الإيمان يُقدمها لكم عامر بن ربيعة، لِتَرَوا أُنْمُوذَجًا من جيلٍ فريدٍ تَعايَشَ مع القرآن بقلبه وجوارحه، وتفاعل مع أمره ونهيه ووعده ووعيده، حتى كانت تُحَركهم الآية الواحدة، فتكسوهم خُلُقًا، أو تغرس في نفوسهم ولاءً وبراءً، فيُقيمون بها حربًا، أو تصنع لهم سِلمًا، أو تَعْزِفُ بهم عن زهرة الدنيا وتُزَهدهم فيها، فوالله ما عَرَفتِ البشريةُ جيلًا تعايش وتفاعل مع كلام ربه كجيل الصحابة الأبرار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ووالله ما سبقوا مَنْ كان قبلَهم ومَنْ جاء بعدَهم بكثرة صلاةٍ، أو صيامٍ ولكنْ بشيءٍ وَقَرَ في قلوبهم، فلله دَرُّهم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٥٦٩٢)، والطبراني في الأوسط (٨٨٧٤).

وفي عصرِ الخلافةِ الراشدةِ

جاهد عامر بن ربيعة المرتدين في خلافة أبي بكر، ثم أبلى في خلافة عمر بلاءً حسنًا، وكان الخلفاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعرفون له قَدْره وحقه، وقد استخلفه أمير المؤمنين عثمانُ على المدينة لما حَجَّ بالمسلمين[١].

كرامةٌ ثابتةٌ عند موتِه

وفي أواخر خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هاجت رياح الفتنة التي أخبر النبيُّ ﷺ أنها ستمُوج بالأمة كموج البحر، وطَعَنَ الفاسقون في أمير المؤمنين التقي النقي الأمين، الذي بشَّره النبيُّ ﷺ بالشهادة والجنة على بلوى تصيبه، وأمره بالثبات عند خروج الناس عليه فقال ﷺ: «**يَا عُثْمَانُ، إِنْ وَلَّاكَ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ يَوْمًا، فَأَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَخْلَعَ قَمِيصَكَ الَّذِي قَمَّصَكَ اللهُ، فَلَا تَخْلَعْهُ**»[٢].

وفي ظل أجواء الفتنة العَكِرَةِ كان عامر بن ربيعة صاحب القلب الطاهر يدعو ربه أن يُعيذه من شر هذه الفتن، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من عادته إذا جَنَّ الليل نَصَبَ قدميه متهجدًا، يُناجي ربه متضرعًا مُتبتلًا، وذات ليلة لما فرغ من قيام ليله غلبته عينه قبيل الفجر فنام، فأتته رسالة من ربه في رؤيا عجيبة يقصها علينا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ فيقول: «لَمَّا أَخذَ النَّاسُ فِي الطَّعْنِ عَلَى عُثْمَانَ قَامَ أَبِي يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، ثم نَامَ فَأُتِيَ فِي الْمَنَامِ فَقِيلَ له: قُمْ فَسَأل اللهَ أَنْ يُعِيذَكَ مِنَ الْفِتْنَةِ الَّتِي أَعَاذَ مِنْهَا عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ، فَقَامَ، ثم صَلَّى وَدَعَا، وَقَالَ: اللَّهُمَّ قِنِي مِنَ الْفِتْنَةِ بِمَا وَقَيْتَ بِهِ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ، فَمَرِضَ، فَمَا خَرَجَ وَلَا أَصْبَحَ إِلَّا بِجِنَازَتِهِ»[٣].

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٣٨٧)، والمستدرك (٣/ ٤٠٣)، والإصابة (٣/ ٤٦٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١١٢)، وصحَّحه الألباني والأرناؤوط.

(٣) ينظر: مستدرك الحاكم (٥٥٣٤)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣٢٠٤٤)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٦/ ٤٠٤).

ويخرج عامر بن ربيعة من الدنيا ولم يتلبس منها ومن فتنتها بشيء؛ ليرى وعدَ الله الذي ينتظره في جنات النعيم، اللهم قِنَا مِنَ الفِتَنِ بِما وَقَيتَ به عبادكَ الصالحين.

رضي اللّهُ عن عامرٍ بنِ ربيعةَ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



سَفِينَةُ

مولى رسولِ اللهِ ﷺ

كثيرٌ ما تَمُرُّ بالإنسان أحداث يظن أن فيها هَلَاكه، وهي في الحقيقة جاءت تحمل له في طياتها رحمات رب العالمين.

فكـــم للهِ مِـــن تـــدبيرِ أمـــرٍ ... طوتْـهُ عَـنِ المشـاهدةِ الغيـوبُ

وقد قال ربنا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال سبحانه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

وإنَّ بطل قصتنا رجل قيل: أصله من الروم، وقيل: من فارس، ولكن المهم: أنه وقع في الرِّقِّ وتَجرَّع مَرارة العبودية، ولا شك أنه شَعَرَ أن حياته في ظل الرق والعبودية سجن كبير، أو قَيدٌ مُحكم لا ينفك عنه إلا بالموت، وهو لا يدري أن قيود الرِّقِّ هذه قد جاءه القَدَرُ بها ليجَرَّه منها نحو السعادة جَرًّا.

إن حديثنا عن الصحابي الجليل: (سفينة) مولى رسول الله ﷺ.

مَن سَفِينَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

هو رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ، اختُلف في اسمه فقيل: رومان، وقيل: مِهْرَان، وقيل: عَبْس، وكان له من الولد عبد الرحمن وعمر وإبراهيم، وكان يكنى بأبي عبد الرحمن، وكان عَبْدًا مَمْلُوكًا اشترته أمُّ سلمة زوج النبيِّ ﷺ، ثم أعتقته ووهبته للنبيِّ ﷺ فجعله من مواليه، ولقَّبه بسفينة، فاشتهر بهذا اللقب، وجاهد مع النبيِّ ﷺ

وشهد معه المشاهد، حتى مات ﷺ وهو عنه راضٍ[(١)].

عِتقٌ ولكن بشرطٍ

عَنْ سَفِينَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ مَمْلُوكًا لِأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ لي: أُعْتِقُكَ، وَأَشْتَرِطُ عَلَيْكَ أَنْ تَخْدُمَ رَسُولَ الله ﷺ مَا عِشْتَ، فَقُلْتُ: وَإِنْ لَمْ تَشْتَرِطِي عَلَيَّ، مَا فَارَقْتُ رَسُولَ الله ﷺ مَا عِشْتُ، قال سفينة: فَأَعْتَقَتْنِي وَاشْتَرَطَتْ عَلَيَّ»[(٢)].

وعاش سفينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَفِيًّا بالشرط خادمًا مطيعًا لرسول الله ﷺ لعشر سنوات، كما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين»[(٣)].

لماذا سُمِّي سَفينةَ؟

قِيلَ لسفينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِمَ سُمِّيت سفينة؟، فقال: «كنتُ مع رسولِ الله ﷺ في سفر، وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ، فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ مَتَاعُهُمْ، وكنتُ أَحْمِلُ زَادِي وَزَادَ النَّبِيِّ ﷺ، وكُنْتُ كُلَّمَا أَعْيَا[(٤)] بَعْضُ الْقَوْمِ أَلْقَى عَلَيَّ سَيْفَهُ، وَتُرْسَهُ، وَرُمْحَهُ، وثيابه، حَتَّى حَمَلْتُ مِنْ ذَلِكَ شيئًا كَثِيرًا، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: **ابْسُطْ كِسَاءَكَ**، فَبَسَطْتُهُ، فَجَعَلُوا فِيهِ مَتَاعَهُمْ، ثم حَمَلُوهُ عَلَيَّ، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: **احْمِلْ، فَما أَنْتَ الْيَوْمَ إِلَّا مِثْل السَّفِينَةِ**، قال سفينة: فَلَوْ حَمَلْتُ يَوْمَئِذٍ وِقْرَ بَعِيرٍ، أو بَعِيرَيْنِ، أو ثَلَاثَةٍ، أو أَرْبَعَةٍ، أو خَمْسَةٍ، أو سِتَّةٍ، أو سَبْعَةٍ مَا ثَقُلَ عَلَيَّ إِلَّا أَنْ تَجْفُو»[(٥)(٦)].

---

(١) ينظر: معرفة الصحابة (٢/ ١١٣٢)، والسير (٣/ ٢٧٣)، والتكميل (٤/ ٦٢).
(٢) أخرجه أحمد (٢٦٧١١)، وأبو داود (٣٩٣٢)، وحسَّنه الألباني.
(٣) أخرجه البغوي في معجم الصحابة (١١٩٤).
(٤) أي: تعب.
(٥) أي: إلا إذا سقط المتاع لعدم استقراره على ظهري.
(٦) ينظر: مسند أحمد (٢١٩٧٥، ٢١٩٧٨، ٢١٩٣٢)، ومسند الروياني (٦٦٣)، والسلسلة الصحيحة (٢٩٥٩).

وأطلق عليه النبيُّ ﷺ يومها اسم: سفينة، فقال له: «**أَنْتَ سَفِينَةُ**»[(١)].

ومن يومها عُرف بين الناس بهذا الاسم، وأصبح الناس لا ينادونه إلا به، وكان من حُبِّه لهذا الاسم إذا ناداه أحد باسمه الأصلي لا يجيبه، بل سأله رجل يومًا عن اسمه الأصلي، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له: «مَا أَنَا بِمُخْبِرِكَ، سَمَّانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ سَفِينَةَ»[(٢)]، ولا شك أن حُبه الشديد لهذا الاسم نابع من حبه الأشد للنبيِّ ﷺ.

مكانتُه بينَ التابعينَ

وبعد وفاة رسول الله ﷺ عاش سفينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ داعيًا إلى الله ومُجاهدًا في سبيله، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحب طلبة العلم من التابعين، وكان يستضيفهم في بيته ليحدثهم بحديث رسول الله ﷺ، فهذا سَعِيد بْن جُمْهَانَ أحد تلامذته يحدثنا عن هذا فيقول: «لَقِيتُ سَفِينَةَ مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِبَطْنِ نَخْلٍ فِي زَمَنِ الْحَجَّاجِ، فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ ثَمَانِ لَيَالٍ أَسْأَلُهُ عَنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[(٣)].

وكان لسفينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عدد من التابعين يطلبون منه العلم، ويَرْوون عنه حديث رسول الله ﷺ منهم: الحسن البصري، وسالم بن عبد الله بن عمر، وسعيد بن جُمْهَانَ وأبو ريحانة، وحدَّث عنه ابناه: عبد الرحمن، وعمر، وغيرهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ[(٤)].

رحلةُ الجهادِ والمُغامرَةِ

خرج سفينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جيوش المسلمين التي وجهها أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خلافته لفتح الشام، وقد أرسل أبو عبيدة بنُ الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائد هذه الجيوش سريةً

---

(١) مسند أحمد (٢١٩٧٥).

(٢) مسند أحمد (٢١٩٧٨).

(٣) أخرجه أحمد (٢١٩٧٨). وينظر: السلسلة الصحيحة (٢٩٥٩).

(٤) ينظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٧٣).

عددها مائتي فارس فيهم سفينة مولى رسول الله ﷺ، وذلك لشَنِّ غارة على بعض نواحي أرض الروم، فانطلقتِ السَّرية، فَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ توقفوا ليستريحوا ويُريحوا خيولهم، ولما جاء السَّحَرُ ما شعروا إلا وجيش الروم قد أحاط بهم، فلم يتمكنوا من ركوب خيلهم، ولكنهم قاتلوا رجالًا أشد القتال، فأُسِرَ منهم مَن أُسِرَ، وقُتِلَ من قُتِلَ.

ووقع سفينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الأسر، ولكنه لم يستسلم، فقد استطاع أن يفك قيده ويتسللَ في خُفْيَة، ثم انطلق هَارِبًا يَلْتَمِسُ جيش المسلمين ولكنه ضلَّ الطريق حتى وصل إلى البحر فوجد على شاطئه قاربًا بحريًّا صغيرًا، فطلب من أصحابه أن يحملوه معهم فأركبوه، فلما توسطوا البحر لَعِبَ بِهِمْ الْمَوْجُ، وضربت الرياحُ جوانبَ القارب فأغرقته[1]، فيا ترى ماذا فعل سفينة؟

يحدثنا هو فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَكِبتُ الْبَحْرَ فَانْكَسَرَتْ سَفِينَتِي الَّتِي كُنْتُ فِيهَا فَرَكِبْتُ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِهَا فَطَرَحَنِي اللَّوْحُ فِي أَجَمَةٍ فِيهَا الْأَسَدُ فَأَقْبَلَ إِلَيَّ يُرِيدُنِي فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْحَارِثِ، أَنَا مَوْلَى رَسُولِ الله ﷺ فَطَأْطَأَ رَأْسَهُ، وَأَقْبَلَ إِلَيَّ فَدَفَعَنِي بِمَنْكِبِهِ حَتَّى أَخْرَجَنِي مِنَ الْأَجَمَةِ، وَوَضَعَنِي عَلَى الطَّرِيقِ وَهَمْهَمَ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوَدِّعُنِي، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ عَهْدِي بِهِ»[2].

ثم التحق سفينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجيش المسلمين، وأخبرهم الخبر، فنصروا إخوانهم، وفُتحت الشام على أيديهم، وأعادوا القدس إلى رحاب المسلمين.

فكانت هذه الرحلة هي إحدى رحلات الجهاد والمغامرة في حياة سفينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ابتُلي فيها بلاءً شديدًا، ورأى فيها من الأعاجيب، وحدثت له فيها كَرَامَةً من كرامات أولياء الله الصالحين.

---

(١) ينظر: فتوح الشام، للواقدي (١/ ٣٧٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٤٣٢)، والحاكم في المستدرك (٦٥٥٠)، وقال: هذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي.

فأين أصحاب القلوب الْمُولَعَة بقصص السندباد، وعلاء الدين، وغيرها من أخبار المغامرات الواهية المختلقة؟!، أين هم من قصة هذا الصحابي الجليل سفينة؛ ليروا فيها صورة حقيقية من صور البطولة والفداء؟!، فإن الفارق بينها وبين هذه المغامرات أنها مغامرة في سبيل الله، ومن أجل إعلاء كلمة لا إله إلا الله، كانت أحداثها صفحة من صفحات جهاد عظيم كان على أثره دخولُ الإسلام أرضَ الشام، وفتحُ القدس، وما وراء ذلك من البلدان.

فحَرِيٌّ بنا- مَعشر المسلمين- أنْ نُحْيي في قلوب أبنائنا أمجاد أجدادنا من أصحاب رسول الله ﷺ، بدلًا من القصص والروايات المشحونة بالكذب والاختلاق التي تُحكَى لهم قبل النوم، وفي الرحلات، وفي الاجتماعات بهم، فقد كان سعدُ بنُ أبي وقاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يجمع أبناءه ويقص عليهم مغازي رسول الله ﷺ وبطولات الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ويقول لهم: «هذه مَآثِرُ آبائكم فلا تُضَيعوا ذِكرَها»[(١)].

ولا يخافُونَ لومةَ لائِمٍ

إن من أحب الصفات إلى الله: أنْ يقول العبدُ الحقَّ ولا يَخاف في الله لومة لائم، وهذا ما أخبر الله به في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وعلى هذا بايع الصحابة النبيَّ ﷺ إذ قال لهم: «**تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي الله، لَا تَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ**»[(٢)].

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٤٢)، وتاريخ دمشق (٦٧/ ١٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٦٩٤)، وصحَّحه الألباني.

وها هو سفينة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يطول به العمر بعد وفاة رسول الله ﷺ ولكنه يبقى على عهد تلك البيعة، فقد عاش حتى أدرك زمن دولة بني أمية، فكان يُنكر في مجالس العلم على بعض ملوكهم ما ينسبونه لأنفسهم ولا يخاف في ذلك لومة لائم، فعنْ سَعِيدِ بْنِ جُمْهَانَ أنه قال: «لَقِيتُ سَفِينَةَ مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ بِبَطْنِ نَخْلٍ فِي زَمَنِ الْحَجَّاجِ، فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ ثَمَانِ لَيَالٍ أَسْأَلُهُ عَنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ الله ﷺ»[١]، فحدثه سفينة: أن النبيَّ ﷺ قال: «**خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثم يُؤْتِي اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ**، قَالَ سَعِيدٌ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ يَزْعُمُونَ: أَنَّ الْخِلَافَةَ فِيهِمْ، فَقَالَ: كَذَبَ بَنُو الزَّرْقَاءِ[٢]، بَلْ هُمْ مُلُوكٌ مِنْ شَرِّ الْمُلُوكِ[٣]، قَالَ سَعِيدٌ: ثم قَالَ لِي سَفِينَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ: خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ سَنَتَيْنِ، وَخِلَافَةَ عُمَرَ عَشرًا، وَخِلَافَةَ عُثْمَانَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ، وَخِلَافَةَ عَلِيٍّ سِتَّ سِنِينَ، قَالَ سَعِيدٌ: فَوَجَدْنَاهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً»[٤].

وحَانَ وَقتُ الرَّحِيلِ

وبعد حياة طويلة عاشها هذا الصحابي البطل المجاهد في سبيل الله تنتهي مدة إقامته في الدنيا، فيأتيه الموت لينقله إلى أول منازل الآخرة، فتقبض رُوحُه سنة سبعين من الهجرة، ولكنه بقي حيًّا في ذاكرة المسلمين[٥].

رضي اللهُ عن سفينةَ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٧٨)، وينظر: السلسلة الصحيحة (٢٩٥٩).

(٢) هي امرأة من أمهات بني أمية. ينظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٨).

(٣) لا شك أنه ليس كل ملوك بني أمية هكذا، فقد كان منهم الصحابي الجليل معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومنهم الملك العادل عمر بن عبد العزيز رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقد وصل الإسلام في دولتهم إلى إفريقيا وأوروبا وحدود الصين، إلى غير ذلك من المناقب.

(٤) ينظر: أحمد (٢١٩٦٩)، والترمذي (٢٢٢٦)، وأبو داود (٤٦٤٦)، والسلسلة الصحيحة.

(٥) ينظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٧٣).

عبدُ اللّهِ بنُ زَيدِ بنِ عبدِ ربِّه

صاحبُ رؤيَا الأذَانِ

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا طَهَّرَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ**، قَالُوا: وَمَا طَهُورُ الْعَبْدِ يَا رَسُولَ الله؟، قَالَ: **عَمَلٌ صَالِحٌ يُلْهِمُهُ إِيَّاهُ، حَتَّى يَقْبِضَهُ عَلَيْهِ**»[(١)].

فإن من عَلامَات حُبِّ الله تبارك وتعالى للعبد: أن يُلْهَمُ الخير، وأن يُوَفَّق لعمل صالح يبقى أثرُه وثوابُه جَارِيًا لا يتوقف بمرضه، أو موته، وإن هذه المعاني سنراها واضحة جَلِيَّة ونحن نقلب معًا صفحات هذه الترجمة؛ فإنها صفحات من حياة أحد المُلْهَمين من أنصار ربِّ العالمين، مع أنه لم تُسلط عليه الأضواء، ولم يُشْتهر بين الناس في الأنحاء، إلا أنه أحد سادات جيل العظماء.

إنَّ حديثنا عن البطل الْبَدْرِيِّ عَبْدِ الله بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بطاقةُ تَعريفٍ

هو عَبْدُ اللهِ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ، الْخَزْرَجِيُّ، الْأَنْصَارِيُّ، وَأُمُّهُ: سَعْدَةُ بِنْتُ كُلَيْبِ بْنِ يَسَافِ، وكان عبد الله بن زيد من سادات بني الحارث بن الخزرج، وكان يُكَنَّى بِأَبِي محمد، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا وَسِيمًا، ليس بالطويل ولا بالقصير، أسلم قبل الهجرة في المدينة على يد داعية الإسلام مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم شهد بيعة العقبة الكبرى، وكان يُحْسِن الكتابة بالعربية قبل الإسلام، وكانت الكتابة في العرب يَوْمَئِذٍ قَلِيلًا، فلما أسلم كان يكتب لرسول الله ﷺ[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٩٠٠)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٦).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٤٠٥)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٧٥)، وتاريخ دمشق (٤/ ٢٣٨).

بناءُ المسجدِ النبويِّ الشريفِ

هاجر النبيُّ ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى المدينة بعد بيعة الأنصار له على حمايته ونصرته حتى يبلِّغ رسالة ربه، واستقبله الأنصار عند مقدمه ﷺ استقبالًا حافلًا لم تعرف البشرية استقبالًا يُشبهه قبله ولا بعده.

ولما استقر النبيُّ ﷺ في المدينة أمر ببناء المسجد لتقام فيه الصلوات المكتوبات، وبقية شعائر الإسلام التي طالما حوربت من قبل، وليكون جامعة يتعلم المؤمنون فيها على يَدِ رسول الله ﷺ الكتاب والحكمة، ويَؤُمَّه طلابُ العلم من كل مكان ليتفقهوا في الدين ويرجعوا إلى أقوامهم مبشرين ومنذرين، إلى غير ذلك من أهداف بنائه العظيمة.

وبالفعل بُنِيَ المسجد، وبدأ النبيُّ ﷺ يُقيمُ فيه الصلاة، «وكَانَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلَوَاتِ، وَلَيْسَ يُنَادِي بِهَا أَحَدٌ، واهْتَمَّ النَّبِيُّ ﷺ لِلصَّلَاةِ كَيْفَ يَجْمَعُ النَّاسَ لَهَا»[(١)]، فبحث عن وسيلة للإعلان عن دخول وقت الصلاة، فاجتمع بأصحابه في المسجد ليشاورهم في الأمر، فَقَالَ ﷺ لهم: «**لَقَدْ أَعْجَبَنِي أَنْ تَكُونَ صَلَاةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةً حَتَّى لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَبُثَّ رِجَالًا فِي الدُّورِ فَيُؤْذِنُونَ النَّاسَ بِحِينِ الصَّلَاةِ، وَحَتَّى هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رِجَالًا يَقُومُونَ عَلَى الْآطَامِ يُنَادُونَ الْمُسْلِمِينَ بِحِينِ الصَّلَاةِ**»[(٢)]، ثم سَمَحَ النبيُّ ﷺ لهم بإبداء الآراء، فقال بعضُهم: انْصِبْ رَايَةً عِنْدَ حُضُورِ الصَّلَاةِ فَإِذَا رَأَوْهَا آذَنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَلَمْ يُعْجِبْهُ ﷺ ذَلِكَ، وقَالَ بَعْضُهُمْ: اتَّخِذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى، فَكَرِهَهُ ﷺ مِنْ أَجْلِ النَّصَارَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ قَرْنًا مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ، فَكَرِهَهُ ﷺ مِنْ أَجْلِ الْيَهُودِ، فَقَالَ عُمَرُ بنُ

(١) البخاري (٦٠٤).
(٢) ينظر: سنن أبي داود (٥٠٦)، وصحيح ابن خزيمة (٣٧٠).

الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَوَلَا تَبْعَثُونَ رَجُلًا يُنادِي بِالصَّلَاةِ؟![١].

وبقي النبيُّ ﷺ في حَيْرَةٍ من أمره والمسلمون كذلك، والوحيُ لم ينزل بعد ليفصل في المسألة، حتى مَالَ النبيُّ ﷺ لفكرة الناقوس وَهُوَ لَهُ كَارِهٌ لِمَوَافَقَةِ النَّصَارَى، ثم أَمَرَ بِالنَّاقُوسِ فَنُحِتَ[٢].

قصةُ الأذانِ

وانفض المجلس الذي يَتَجَلَّى فيه امتثال النبيِّ ﷺ لأمر ربه حين قال له: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وتفرق الناسُ ومن بينهم رجلٌ من أولياء الله تعالى وأنصاره، إنه عَبْدُ الله بْنُ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، الذي انصرف وقد علاه الهمُّ من شدة التفكير في الأمر، خاصة أنه رأى رسولَ الله ﷺ قد أمَرَ بصناعة الناقوس وهو كارهٌ له، وقد بَدَا الهمُّ واضحًا على ملامح عبدِ اللهِ بنِ زَيْد حتى قال أحدُ الأنصار: «فَانْصرَفَ عَبْدُ اللهِ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ وَهُوَ مُهْتَمٌّ لِهَمِّ رَسُولِ الله ﷺ»[٣].

وخَيَّمَ الليلُ، وانتثرت نجومُه في السماء تضيء فوق نخيل المدينة وبيوتها، ونامت العيون، وبات عبدُ الله بنُ زيد يُقَلِّبُه الهَمُّ بين النوم واليقظة، قلبه مشغول بالصلاة التي هي عمود الإسلام كيف يُجْمَعُ النَّاسُ لها، وبينما هو على هذا الحال إذ رأى رؤيا عجيبة تُعَدُّ من كرامات الأولياء، فهيا بنا نتركه يقص علينا بنفسه ما رآه.

قال عبدُ الله بنُ زَيدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِالنَّاقُوسِ يُعْمَلُ لِيُضرَبَ بِهِ

---

(١) ينظر: البخاري (٦٠٤)، ومسلم (٣٧٧)، وابن ماجه (٧٠٧).
(٢) ينظر: أحمد (١٦٤٧٧)، وابن ماجه (٧٠٦).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٨)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٥١١).

لِلنَّاسِ لِجَمْعِ الصَّلَاةِ طَافَ بِي من الليل وَأَنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ رَجُلٌ نزل من السماء، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ، وَفِي يَدِهِ نَاقُوسٌ يَحْمِلُهُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَبْدَ الله، أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ؟، قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟، قُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى ما هو خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟، فَقُلْتُ: بَلَى، وما هو؟، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وقَالَ: تَقُولُ:

اللهُ أَكبَرُ اللهُ أَكبَرُ، اللهُ أَكبَرُ اللهُ أَكبَرُ

أشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

أَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، أَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله

حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ

حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ، حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ

اللهُ أَكبَرُ اللهُ أَكبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

قال عبد الله: ثم اسْتَأْخَرَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثم قَالَ: وتَقُولُ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ:

اللهُ أَكبَرُ اللهُ أَكبَرُ

أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله

حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ

قَد قَامَتِ الصَّلَاةُ، قَد قَامَتِ الصَّلَاةُ

اللهُ أَكبَرُ اللهُ أَكبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

قال عبد الله: فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فقلت: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي لَمَّا رَجَعْتُ لِمَا رَأَيْتُ مِنَ اهْتِمَامِكَ رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ، وَلَوْ قُلْتُ: إِنِّي لَمْ أَكُنْ نَائِمًا لَصَدَقْتُ، وفي رواية قال: فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُ رَسُولَ الله، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا رَأَيْتُ»(١).

(١) ينظر: مسند أحمد (١٦٤٧٧، ٢٢١٢٤، ٢٢٠٢٧)، وسنن أبي داود (٤٩٨)، وابن ماجه (٧٠٦)، وصحيح ابن خزيمة (٣٧٠).

فاستبشر النبيُّ ﷺ وشُرِح صدره، وعلم أنها وحيٌ من الله، فهو الذي قال: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَة مِنَ الله»[(١)]، وهو القائل- أيضًا-: «**الرُّؤْيَا الحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»[(٢)]، ثم قال النبيُّ ﷺ لعبد الله بن زيد: «**نِعْمَ مَا رَأَيْتَ، لَقَدْ أَرَاكَ اللهُ خَيْرًا، وإِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا حَقٌّ- إن شاء الله-، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ إلى المسجد فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا قِيلَ لَكَ؛ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ، فَإِنَّهُ أَنْدَى وأَمَدُّ صَوْتًا مِنْكَ، وقال ﷺ لبلال: يا بلالُ، قُم فانظُر ما يأمُرُكَ به عبدُ الله بنُ زيد فافعَله، قال عبد الله: فقُمتُ مع بلالٍ، فجعلتُ أُلقيها عليه، ويُؤَذنُ بها**»[(٣)].

وانطلقت كلماتُ الأذان من فم بلال تدوي في أرجاء المدينة، تخترق جدران البيوت، وتقرع الآذان، «فَلَمَّا سَمِعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب نِدَاءَ بِلَالٍ بِالصَّلَاةِ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ خَرَجَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ الَّذِي رَأَى، إِنَّهُ قَدْ طَافَ بِي مِثْلُ الَّذِي أَطَافَ بِهِ، فقال النبيُّ ﷺ: **فَللهِ الْحَمْدُ، فَذَلِكَ أَثْبَتُ**، ثم قال ﷺ لعمر: ما مَنَعَكَ أن تُخبِرَني؟، قال: سَبَقَني عبدُ الله بنُ زيد، فاستَحييتُ»[(٤)].

قال عبدُ الله بنُ زيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فكَانَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُ بِذَلِكَ، وَيَدْعُو رَسُولَ الله ﷺ إِلَى الصَّلَاةِ، فَجَاءَهُ فَدَعَاهُ ذَاتَ غَدَاةٍ إِلَى الْفَجْرِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَائِمٌ، فَصَرَخَ بِلَالٌ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: الصَّلَاةُ خَيْرٌ مِنْ النَّوْمِ»[(٥)]، فأقره النبيُّ ﷺ عليها، وأمره بها في أذان الفجر، فكان بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أُثَوِّبَ فِي الْفَجْرِ، وَنَهَانِي أَنْ أُثَوِّبَ فِي الْعِشَاءِ»[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٨٣).

(٣) ينظر: سنن الترمذي (١٨٩)، وسنن أبي داود (٤٨٩، ٤٩٩)، وسنن ابن ماجه (٧٠٦).

(٤) ينظر: مسند أحمد (٢٢٠٢٧)، وسنن أبي داود (٤٨٩، ٤٩٩)، وسنن الترمذي (١٨٩).

(٥) أخرجه أحمد (١٦٤٧٧)، وجوَّد إسناده الألباني في الثمر المستطاب (١/ ١١٥).

(٦) أخرجه ابن ماجه (٧١٤)، وحسَّنه الأرناؤوط.

وكان عبدُ الله بنُ زَيدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يفتخر بما مَنَحَه اللهُ من فضل فينشد قائلًا[(١)]:

أَحْمَــدُ اللهَ ذَا الْجَــلَالِ وَذَا الْإِكْــ رَامِ حَمْــدًا عَلَــى الْأَذَانِ كَثِيــرَا
إِذْ أَتَــانِي بِــهِ الْبَشِــيرُ مِــنَ اللــ ــهِ فَــأَكْرِمْ بِــهِ لَــدَيَّ بَشِــيرَا
فِــي لَيَــالٍ وَالَــى بِهِــنَّ ثَــلَاثٍ كُلَّمَــا جَــاءَ زَادَنِــي تَــوْقِيرَا

وقد ذهب بعض العلماء كالحافظ ابن كثير وغيره إلى أنَّ الوحيَ قد جاء النبيَّ ﷺ بخبر الأذان قبل ما رآه عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ وذلك لما رواه أبو داود في مراسيله عن عُبَيْد بن عُمَيْرٍ أنه قال: «ائْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ وَأَصْحَابُهُ كَيْفَ يَجْعَلُونَ شيئًا إِذَا أَرَادُوا جَمعَ الصَّلَاةِ اجْتَمَعُوا لَهَا بِهِ، فَائْتَمَرُوا بِالنَّاقُوسِ، فَبَيْنَمَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُرِيدُ أَنْ يَبْتَاعَ خَشَبَتَيْنِ لِنَاقُوسٍ إِذْ رَأَى عُمَرُ فِي الْمَنَامِ: أَنْ لَا تَجْعَلُوا النَّاقُوسَ، بَلْ أَذِّنُوا بِالصَّلَاةِ، فَذَهَبَ عُمَرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيُخْبِرَهُ بِالَّذِي رَأَى وَقَدْ جَاءَ الْوَحْيُ بِذَلِكَ فَمَا رَاعَ عُمَرَ إِلَّا بِلَالٌ يُؤَذِّنُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ عُمَرُ: **قَدْ سَبَقَكَ بِذَلِكَ الْوَحْيُ**»[(٢)].

فها هو ذا عمر بن الخطاب قد رأى مثل الذي رآه عبد الله بن زيد، وهو عمر المُلْهَمُ المؤيد من قبل السماء، الذي قال عنه النبيُّ ﷺ: «**لَقَدْ كَانَ فِيمَا مَضى قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ نَاسٌ مُحَدَّثُونَ**- أي: مُلْهَمُون- **مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ، وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ**»[(٣)]، فكأنَّ في ذلك إشارة إلى أن في هذه الأمة مُحَدَّثِينَ مُلْهَمِينَ غير عُمَر، منهم: عَبْدُ الله بْنُ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ الأنصاري.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٧٠٦)، وحسَّنه الألباني والأرناؤوط.
(٢) أخرجه أبو داود في مراسيله (٢٠)، وعبد الرزاق في مصنفه (١٧٧٥)، وابن كثير في مسند الفاروق (٦٥)، وقال محققه إمام علي: مرسلٌ صحيحُ الإسناد.
(٣) ينظر: البخاري (٣٤٦٩، ٣٦٨٩)، ومسلم (٢٣٩٨).

ولا شك أن الذي رآه عبد الله بن زيد سَوَاءً كان في منامه، أو وهو في حالة بين النائم واليقظان كما صَرَّح عبد الله بنفسه هو مَلَك من الملائكة أرسله الله إليه ليخصه بهذا الفضل العظيم، ولا غرابة في ذلك فقد أخبرنا الله ﷻ في قرآنه: أنه يرسل الملائكة في صورة بشرية- أحيانًا- ببُشريات ورسائل لبعض عباده الصالحين، وهم ليسوا أنبياء، كما في قصة مريم صديقة بني إسرائيل؛ إذ قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، وأخبرنا النبيُّ ﷺ بمثل ذلك؛ إذ قال: «**خَرَجَ رَجُلٌ يَزُورُ أَخًا لَهُ فِي اللهِ ﷻ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ ﷻ عَلَى مَدْرَجَتِهِ**[١] **مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ الْمَلَكُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أَزُورُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: لِقَرَابَةٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: هَلْ لَهُ عَلَيْكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ ﷻ، قَالَ الْمَلَكُ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ**»[٢]، وقد دخل جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ على النبيِّ ﷺ وأصحابه في صورة رجل شَدِيد بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيد سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وأخذ يسأل عن أشياء والنبيُّ ﷺ يُجيب، فلما انصرف قال النبيُّ ﷺ: «**إِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينكُمْ**»[٣].

وقد يرسل الله- أيضًا- مَلَكًا في صورة بشرية لبعض ضعاف الإيمان من عباده ليُلَقنهم دَرْسًا ويُعيدهم إلى رُشْدهم، كما في قصة الأقرع والأبرص والأعمى[٤].

ونلمح في قصة الأذان حُبَّ الله تعالى لعبد الله بن زيد وإرادته سبحانه الخير به، فقد قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا عَسَلَهُ**. وفي رواية: **إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ**، قِيلَ: وَمَا عَسَلُهُ؟، قَالَ: **يُفْتَحُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِهِ حَتَّى**

---

(١) يعني: طريقه.

(٢) ينظر: مسلم (٢٥٦٧)، وأحمد (٧٩١٩، ٩٢٩١).

(٣) صحيح مسلم (٨).

(٤) ينظر: قصتهم في صحيح البخاري (٣٤٦٤)، وصحيح مسلم (٢٩٦٤).

يَرْضَى عَنْهُ»(١)، وفي رواية أخرى: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ، فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ المَوْتِ»(٢).

فضلُ الأذانِ والمؤذِّنينَ

أولًا: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ - أي: الأذان - وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثم لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا - أي: يقترعوا - عَلَيْهِ، لَاسْتَهَمُوا»(٣).

ثانيًا: قَالَ ﷺ: «الْمُؤَذِّنُ يُغْفَرُ لَهُ مَدَى صَوْتِهِ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ سَمِعَ صَوْتَهُ»(٤)، وفي رواية: «وَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ صَلَّى مَعَهُ»(٥).

ثالثًا: قَالَ ﷺ: «لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ المُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَجَرٌ وَلَا حَجَر وَلاَ شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٦).

رابعًا: قَالَ ﷺ: «الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٧).

خامسًا: قَالَ ﷺ: «مَنْ أَذَّنَ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَكُتِبَ لَهُ بِتَأْذِينِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ سِتُّونَ حَسَنَةً، وَلِكُلِّ إِقَامَةٍ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً»(٨).

سادسًا: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «الْإِمَامُ ضَامِنٌ، وَالْمُؤَذِّنُ مُؤْتَمَنٌ، اللَّهُمَّ أَرْشِدِ الْأَئِمَّةَ وَاغْفِرْ لِلْمُؤَذِّنِينَ»(٩).

---

(١) ينظر: المستدرك (١٢٥٨)، وصحيح ابن حبان (٣٤٢)، والسلسلة الصحيحة (١١١٤).
(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٢)، وصحَّحه الألباني.
(٣) أخرجه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧)، وابن خزيمة (٣٩١)، واللفظ له.
(٤) أخرجه أحمد (٦٢٠٢)، وابن ماجه (٧٢٤)، وصحَّحه الألباني.
(٥) أحمد (١٨٥٠٦)، والنسائي (٦٤٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٤٣).
(٦) أخرجه مسلم (٣٨٧).
(٧) ينظر: البخاري (٦٠٩)، وأحمد (١١٠٤٥).
(٨) أخرجه ابن ماجه (٧٢٨)، والحاكم (٧٣٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٢).
(٩) أخرجه الترمذي (٢٠٧)، وأبو داود (٥١٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٨٧).

فضلُ التَّردِيدِ مع المُؤذنِ

أولًا: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ أَحَدُكُمْ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، ثم قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثم قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، ثم قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، فَقَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثم قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، فَقَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثم قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، ثم قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[١].

ثانيًا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَامَ بِلَالٌ يُنَادِي- يعني: يؤذن- فَلَمَّا سَكَتَ، قَالَ ﷺ: مَنْ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ هَذَا يَقِينًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»[٢].

ثالثًا: عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الْمُؤَذِّنِينَ يَفْضُلُونَنَا، فَقَالَ ﷺ: قُلْ كَمَا يَقُولُونَ، فَإِذَا انْتَهَيْتَ، فَسَلْ تُعْطَهُ»[٣].

ما يُقالُ بعد سَماعِ الأذانِ من الذِّكرِ وفضلُه

أولًا: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثم صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثم سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»[٤].

وقد بَيَّنَ النبيُّ ﷺ معنى قوله: «ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ» في قوله ﷺ: «مَنْ قَالَ

(١) أخرجه مسلم (٣٨٥).
(٢) ينظر: أحمد (٨٦٠٩)، والنسائي (٦٧٤)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٤٦).
(٣) أخرجه أحمد (٦٦٠١)، وأبو داود (٥٢٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٥٣٦).
(٤) أخرجه مسلم (٣٨٤).

حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلَاةِ القَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ»[(١)] .

ثانيًا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ**»[(٢)] .

فيتبين من هذه الأحاديث الصحيحة: أن العبد إذا سمع الأذان فردده، ثم صلَّى على رسول الله ﷺ، ثم قال: «**وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا**»، ثم قال: «**اللهمَّ رَبَّ هذه الدعوةِ التامَّةِ، والصلاةِ القائمةِ، آتِ محمَّدًا الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعثْه مقامًا محمودًا الذي وعدتَه**»، فإن الله تعالى يصلي عليه عَشرًا، ويغفر له ذنبه، وإذا سأله أعطاه، ويوم القيامة يشفع له النبيُّ ﷺ، ويدخله الله الجنة، فما أعظم هذا الثواب!، وما أسهل هذا العمل!.

وإذا كان هذا هو الثواب الذي سَيَحْصُلُ عليه المؤذنون، ومن ردَّد معهم، ومن قال تلك الأذكار بعد الأذان فاعلم أن كل هذه الحسنات ستكتب- إن شاء الله- في صحيفة عبد الله بن زيد التي لم تُطْوَ بموته، فهو صاحب رؤيا الأذان، وهو الذي علم بلالًا كلمات الأذان؛ لينادي بها في أول أذان في الإسلام، حتى انتشر الأذان والمؤذنون في أنحاء الدنيا وأصواتهم تشق عنان السماء، وهكذا ستظل في كل يوم وليلة إلى يوم القيامة تنزل الحسنات لا تحصى كالمطر في صحيفة عبد الله بن زيد الأنصاري، فقد أخبرنا نبينا ﷺ أَنَّ «**مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ**»[(٣)]، وقال ﷺ- أيضًا-: «**مَنْ**

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٤).

(٢) أخرجه مسلم (٣٨٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٩٣).

سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[(١)].

فهكذا صاحب السبق في العمل الصالح يُكتب في صحيفته ثواب من عمله بعده إلى يوم القيامة، وكذلك صاحب السبق في المعصية يحمل على عاتقه أوزار من تبعه إلى يوم القيامة، فقد قال تعالى: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٥]، ولقد أخبر النبيُّ ﷺ أنه «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ»[(٢)].

قصتُه العجيبةُ مع الصدقةِ

وتنزل آيات القرآن تَحث المجتمع المسلم على الإنفاق في سبيل الله؛ كقوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾ [الحديد: ١١]، وكما في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فيستمع عبد الله بن زيد إلى تلك الآيات بقلبٍ واعٍ لا مكان لحُبِّ الدنيا فيه، ولا مكان فيه إلا لله ورسوله، فنظر إلى بستانه الذي ينفق منه على أبويه وزوجته وأبنائه، ولا يملك من حطام الدنيا غيره، وعلم أنه حتمًا سيموت عاجلًا، أو آجلًا، وسيترك هذا البستان الجميل الذي أفنى فيه أجمل أيام عمره، فقرر أن يأخذه معه إلى الدار الآخرة، وذلك بأن يجعله صدقة في سبيل الله، ثم يبحث عن مصدر رزق آخر له ولآل بيته، فانطلق إلى النبيِّ ﷺ فقال له: «يَا رَسُولَ الله، إن حَائِطِي[(٣)] هَذَا

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٥).
(٣) أي: بستاني.

صَدَقَةٌ وَهُوَ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ».

وهكذا باعه عبد الله في لحظة لله، من غير تردد ولا مشورة، ولم يلتفت إلى أطرافه التي طالما تعبت فيه، أو إلى عَرَقِهِ الذي طالما سال وهو يحرث أرضه، ويزرع بذره، ويحصد ثمره، فَقَبِلَهُ النبيُّ ﷺ منه، وقبل أن يأمر النبيُّ ﷺ فيه بشيء علم أبواه بالخبر فذهبا إلى النبيِّ ﷺ وكانا شيخين كبيرين قد طعنا في السن، فقالا: «يَا رَسُولَ اللهِ، كَانَ- الحائط- قِوَامَ عَيْشِنَا، فَرَدَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمَا»، فكان عبد الله يعمل في البستان وهو مِلْكٌ لأبويه وينفق منه على نفسه وآل بيته، وبعد زمن يسير مات أبواه، ولا وارث لهما إلا ابنهما عبد الله، فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِ الحائط مِيرَاثًا[1].

فيالها من قصة عجيبة، يتصدق الرجل الصالح بالبستان فيُكْتَبُ لَهُ أجر الصدقة، ومع ذلك لم يحرمه الله منه، ولم يجعله يعمل أجيرًا في بستان غيره، بل أبقاه يعمل فيه وهو مِلْكٌ لأبويه، ثم يردُّه الله إليه مِيرَاثًا، فيصبح صاحبَ المال من جديد.

وهكذا عاقبةُ العمل الصالح مكافأةٌ في الدنيا، وأجرٌ عظيم في الآخرة، وهذا الذي وعد الله به عباده المحسنين حين قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠: ٣١].

جهادُه في سبيلِ الله

ومن أول وَهْلَة عرف فيها عبد الله بن زيد الإسلام وقد فهم أن هذا الدين يحتاج لنصرته رِجَالًا لا يُبَالون إن سالت دماؤهم، أو زُهقت أنفسهم في سبيل بِنَاء دولته وإعلاء كلمته، فيكفيه شَرَفًا: أنه كان أحد السبيعين رَجُلًا الذين انتفضوا، وقالوا:

(١) ينظر: القصة في مستدرك الحاكم (٨٠٩١)، والسنن الكبرى، للبيهقي (١١٩١٣).

«حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ الله ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ»[١]، فَرَحَلوا إِلَيْهِ وهم يحملون أرواحهم عَلَى أَكُفِّهِمْ فبايعوه بيعة العقبة الكبرى، فهاجر بعدها النبيُّ ﷺ والمسلمون إليهم، وأسسوا دولة الإسلام على أرضهم، وكان ذلك الحدث نقطة تحول في تاريخ الإسلام، فحُق لأهل تلك البيعة أن يفخروا بها حين قال قائلهم: «لَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا»[٢].

ثم لَمْ يَفُتْهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مشهد مع رسول الله ﷺ، فقد شهد معه بدرًا وأحدًا والخندقَ والحديبيةَ، فكان ممن قال الله تعالى عنهم: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، وفاز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقول النبيِّ ﷺ: «**لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ رَجُلٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ**»[٣].

ولما خرج النبيُّ ﷺ لفتح مكة خرج معه عبد الله بن زيد يحمل راية بني الحارث بن الخزرج، ثم شهد حُنينًا، وحصار الطائف، ثم خرج مع النبيِّ ﷺ إلى تبوك[٤].

وبعد موت النبيِّ ﷺ صمد عبد الله بن زيد مع أبي بكر في حروب الردة، وشارك في الفتوحات الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة.

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعد حياة طويلة من البذل والعطاء والتضحية والجهاد في سبيل الله ينام عبدُ الله ابنُ زيد بن عبد ربه الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على فراش الموت، وكان ذلك في أواخر

(١) أخرجه أحمد (١٤٤٩٦) عن جابر، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٩) عن كعب بن مالك.
(٣) أخرجه أحمد (١٥٢٦٢)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢١٦٠).
(٤) ينظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٤٠٥)، ومستدرك الحاكم (٥٤٤٧).

خلافة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في السنة الثانية والثلاثين من الهجرة، وهو ابن أربع وستين سنة، ثم تخرج روحه لتسرح في الجنة مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، وقد صلى على جنازته أمير المؤمنين عثمان والمسلمون معه في المدينة، ودُفن في البقيع[١].

ومات عبد الله بن زيد لكنه بقي حيًا في قلوب المسلمين، وستبقى كلمات الأذان تدوي في أنحاء الدنيا وأرجائها، تُشَنِّفُ آذان المؤمنين، وتزلزل قلوب الكافرين، توقظ النومان، وتنبه الغفلان، وتطرد الشيطان.

وتبقى صحيفة حسناته إلى يوم القيامة مفتوحة، تصَبُّ الحسنات فيها ما أُذِّنَ في الدنيا أذان، وما أقيمت على الأرض صلاة.

رضي اللهُ عن عبدِ اللهِ بن زيدٍ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٤٠٦)، والمستدرك (٥٤٤٧)، والسير (٢/ ٣٧٥).

أبو مَحذُورَة

مؤذنُ المسجدِ الحرامِ

لما فتح النبيُّ ﷺ مكة جَمَع أهلَها بين يديه، فَمَرَّ شريطُ ذكرياتٍ أمام أعينهم يَرَون فيه تكذيبَهم لرسول الله ﷺ، وإيذاءَهم له، وتطاولَهم عليه، ومحاولاتِهم قتله، وإخراجَهم له من بلدته، ثم حروبَهم له بعد هجرته، وها هو الآن قد ظفر بهم.

ثم أخذ سؤالٌ يتردد في صدورهم وكأنه شَبَحٌ مخيف: ما مصيرنا الآن؟

وفجأةً طرح النبيُّ ﷺ عليهم نفسَ السؤال فقال: «**يَا مَعْشر قريشٍ، ما تظنون أنِّي فاعلٌ بِكُم؟**»، قالوا: خَيرًا، أَخٌ كَريمٌ، وابْنُ أَخٍ كَريمٌ.

فقال لهم ﷺ: **فَإِنِّي أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ: لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُو أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**»[(١)].

فخرج أهلُ مكة إليه ﷺ أفواجًا ليبايعوه على الإسلام، إلا أنَّ بعضهم أَبَى أنْ يُسلم، وأَضْمَروا في نفوسهم بُغضَ رسولِ الله ﷺ، وعلى رأس هؤلاء بَطنٌ من أعرق بطون قريش وهم بنو جُمَح، فقد رفض سيدهم صفوان بن أمية الإسلام في أول الأمر، ثم أسلموا بعد ذلك عن آخرهم.

وأثناء بقاء النبيِّ ﷺ في مكة جاءه خبرٌ أنَّ بعضَ قبائلِ مشركي العرب قد تحالفوا على قتال المسلمين، وتجمعوا لهم في أعداد هائلة في وادٍ يقال له حُنَيْن، فخرج النبيُّ ﷺ إليهم، فنصره الله تعالى عليهم بعد معركة طاحنة نَصرًا عظيمًا.

---

(١) ينظر: سنن النسائي (١١٢٣٤)، والسنن الكبرى، للبيهقي (١٨٢٧٥)، والسيرة النبوية الصحيحة، للعمري (٥٣٦).

وبعد أيام من خروج المسلمين إلى حُنين خرج من مكة شابٌ جُمَحِيٌّ اسمه أَوْسُ بْنُ مِعْيَر، ويدعى: أبا مَحذورة[١]، وكان في رُفقةٍ من أصحابه، فلَقوا جيش المسلمين الفاتح ببعض الطريق، ولم يكن يَخطر ببال هذا الشاب أنه في هذا المكان سيولد من جديد، ولم يكن يعلم أنَّ القَدَرَ قد ساق أقدامَه لتسلك طريقًا سيذهب به من الكفر إلى الإيمان، ومن الجحيم إلى جنات النعيم.

ومن هنا نَبدأُ الحكايةَ

ولنترك أبا محذورة يقصها علينا بنفسه، فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لمَّا خرجَ رسولُ الله ﷺ مِنْ حُنين خرجتُ في عَشَرةِ فِتيانٍ مِنْ أهلِ مكةَ، فَلَقِينا رسولُ الله ﷺ في بَعْضِ الطَرِيقِ، وَهُوَ أَبْغَضُ الناسِ إلينا، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُ رسولِ الله ﷺ، فسمعنا صوتَ المُؤذنِ ونَحْنُ عنه مُتَنَكِّبونَ[٢]، فظللنا نَحْكِيه[٣]، وقُمنا نُؤذنُ مُسْتهزئين بهم، وكُنتُ أَحَدَّهُم صَوتًا، فسَمِعَ رسولُ الله ﷺ الصَوتَ فقال: **لَقَدْ سَمِعْتُ فِي هَؤُلَاءِ تَأْذِينَ إِنْسَانٍ حَسَنِ الصوْتِ، إِيتُونِي بِهَؤُلَاءِ الْفِتْيَانِ**، فأرسلَ إلينا قَوْمًا فَأقعدونا بينَ يَدَيه، فقال رسولُ الله ﷺ: **أَذِّنُوا**. قال: فَأَذَّنَّا رَجُلٌ رَجُلٌ، وَكُنْتُ آخِرَهُمْ.

فقال ﷺ: **أَيُّكُم الذي سمعتُ صوتَه قد ارتفع؟**

قال: فأشارَ القَومُ إليَّ كلُّهم، وصدَقُوا.

فقال ﷺ: **نَعَم، هذا الذي سمعتُ صوتَه**.

قال: فأرسلَهم كلَّهم، وحَبَسَني!.

فقال ﷺ لأبي محذورة: **تعالَ**.

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ٤٠٦)، والاستيعاب (١/ ١٢١)، وأسد الغابة (١/ ٣٢٩)، والإصابة (١/ ٣٠٦).

(٢) يعني: بعيدون عنه. ينظر: لسان العرب (١/ ٧٧٠).

(٣) يعني: نُقَلده، ونفعل مثل فعله. ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ٩٣).

قال رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: فأجلَسَني بين يديه، ولا شيءٌ أَكْرَه إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا مما يأمُرُني به، ثم وضع يَدَهُ على ناصية أبي محذورة، ثم أَمرَّها على وجهِهِ، ثم مِنْ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثم عَلَى كَبِدِهِ، ثم بَلَغَتْ يَدُهُ سُرَّةَ أَبِي مَحْذُورَةَ، ثم قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ثلاثَ مرات: **بَارَكَ اللهُ فِيكَ، وَبَارَكَ عَلَيْكَ**، وَأَعْطَانِي صُرَّةً فِيهَا شَيْءٌ مِنْ فِضَّةٍ، فذَهَبَ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ لِرَسُولِ الله ﷺ مِنْ كَرَاهِيَةٍ، وَعَادَ ذَلِكَ كُلُّهُ مَحَبَّةً لِرَسُولِ الله ﷺ، فقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، عَلِّمْنِي سُنَّةَ الْأَذَانِ، فَمَسَحَ مُقَدَّمَ رَأْسِي، فَأَلْقَى عَلَيَّ بِنَفْسِهِ الْأَذَانَ تِسْعَ عَشْرَةَ كَلِمَةً، وَالْإِقَامَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ كَلِمَةً.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مُرْنِي بِالتَّأْذِينِ بِمَكَّةَ.

فَقَالَ ﷺ: **قَدْ أَمَرْتُكَ بِهِ، اذْهَبْ فَأَذِّنْ لأهلِ مكةَ عِنْدَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَقُلْ لِعَتَّابِ بْنِ أُسَيْدٍ أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أُؤَذِّنَ لِأَهْلِ مَكَّةَ**. قال رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: فَقَدِمْتُ عَلَى عَتَّابِ بْنِ أَسِيدٍ عَامِلِ رَسُولِ الله ﷺ بِمَكَّةَ فَأَذَّنْتُ مَعَهُ بِالصَّلَاةِ عَنْ أَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ»[(١)].

وعندئذٍ وُلِدَ في سماء الإسلامِ نَجْمٌ جديدٌ يدعى: أبا مَحْذورة.

وإني لأقول مُفْتَخرًا: ما أجملك وما أحلمك وما أروعك يا رسول الله، فأنت بحق رحمَةُ الله للعالمين.

فإن النَّقْلَةَ التي أَحْدَثْتَها في حياة أبي مَحذورةَ درسٌ عمليٌّ يتعلمُ منه صُنَّاعُ الأجيال من الدعاة والمربين في كل زمان ومكان، إذ لم تكن نظرتك لذلك الشاب القرشي المستهزئ بالأذان نظرةَ غَيظ، أو كره، بل كانت نظرةَ مرشد يحمل مصباح الهُدى لكل من ضل الطريق، نظرةَ مشفق أدرك أن هذه الحيوية الطائشة المتهورة في

---

(١) ينظر: صحيح مسلم (٣٧٩)، ومسند أحمد (١٥٣٧٩، ١٥٤١٧)، وسنن النسائي (٦٣٢، ٦٣٣)، وسنن الترمذي (١٩١، ١٩٢)، وسنن ابن ماجه (٧٠٨)، والسنن الكبرى، للبيهقي (١٨٤٧)، والمعجم الكبير، للطبراني (٦٧٣٤).

حاجة عاجلة إلى يَدٍ حانيةٍ تترفق بها لتخرجها من الظلمات إلى النور.

وما إن وَقَعَتْ عينك على الفتى حتى لمحْتَ بين جنبيه كَنزًا دفينًا تحت رُكام الشرك وأدرانه، فسرعان ما استخرجتَه من أعماق أعماقه، فإذا هو يحوي مِنحةً إلهيةً مكنونةً وُضِعت في طبقات صوت هذا الفتى، وموهبةً حائرةً مُهْدرةً تبحث عن خبير يعتني بها، ويُحسن توظيفها، ويَظهر بها على ساحة الإبداع.

وكأني بعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد أفراد هذا الجيش يتأمل صَنيع النبيِّ ﷺ في مثل هذه المواقف ليخطوَ خطاه في أشباهها.

فها هو ذا يَمُرُّ وهو بالعراق على شاب اسمه: زَاذان الكِندي يضرب بالعُود ويغني بصوت حسن جميل في فتيان يشربون خَمرًا، فقال ابنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمن معه: «ما أَجملَ هذا الصوت لو كان بكلام الله، ثم دخل على الفتى، وقال له: لَوْ كَانَ مَا يُسْمَعُ مِنْ حُسْنِ صَوْتِكَ يَا غُلاَمُ بِالقُرْآنِ، كُنْتَ أَنْتَ أَنْتَ».

فكانت هذه الكلمات نقطة تحول في حياة هذا الفتى جعلته من عُبَّاد التابعين، وأحدَ الذين نقلوا للأمة هذا الدين، فقد كان يروي حديث رسول الله ﷺ عن ابن مسعود وعليٍّ وابنِ عمرَ وسلمانَ وعائشةَ رضي الله عنهم أجمعين[(١)].

أما أبو محذورة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد أصبح أولَ مؤذن رسميٍّ للمسجد الحرام، وقد كان لأذانه طريقة مميزة تعرف في كتب الفقه بأذان أبي محذورة.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا دخل وقت الصلاة قام يؤذن عند الكعبة أذانًا يَحْدُو بقلوب السامعين إلى الصلاة حَدْوًا من حُسن أدائه ونداوته، وترتج لأصدائه أركانُ مكة وجبالُها من شدة صوته وقوته، حتى إنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سمع أذانه يومًا فقال

---

(١) ينظر قصته في: الطبقات الكبرى (٦/ ٢١٦)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٢٨١).

لمن حوله: «وَيْحَهُ مَا أَشَدَّ صَوْتَهُ، أَمَا يَخَافُ أَنْ يَنْشَقَّ مُرَيْطَاؤُهُ[(١)]؟!»[(٢)].

من وَصايا النبيِّ ﷺ لأبي محذورةَ

عَنْ أَبِي مَحْذُورَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَذَّنْتَ الْمَغْرِبَ، فَاحْدُرْهَا مَعَ الشَّمْسِ حَدْرًا»[(٣)].

وعنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الْمُؤَذِّنُونَ أُمَنَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَلَاتِهِمْ»[(٤)].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤَذِّنُونَ أُمَنَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى فِطْرِهِمْ وَسُحُورِهِمْ»[(٥)].

حبُّه وتعظيمُه لرسولِ الله ﷺ

كان لأبي محذورة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَعرٌ جميلٌ يَلفت الأنظار، وقد بلغ حبُّ النبيِّ ﷺ وتعظيمُه في قلب أبي محذورة درجةً جعلتْه يأبَى أنْ يأخذ من شَعره شيئًا أبدًا إلى أن مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وذلك لأن هذا الشَعْر قد مسَّته يَدُ النبيِّ ﷺ حين وضعها على مُقَدَّم رَأْسِه وهو يعلِّمُه الأذان، فقد رأى النبيُّ ﷺ جَمال شَعره فمسح عليه، ودعا فيه بالبركة، حتى كان أبو محذورة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا أرسل شعره مَسَّ الأرض، ولكنه كان يجعله ضفائِرَ.

وكان إذا قيل له: ألا تأخذ من شعرك؟

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما كنتُ لآخذ شَعرًا مسح عليه رسولُ الله ﷺ ودعا فيه بالبركة، فلم أكن لأحلقه حتى أموت[(٦)].

---

(١) هي منطقة ما بين السرة إلى العانة. ينظر: لسان العرب (٧/ ٤٠٦).
(٢) ينظر: السنن الكبرى، للبيهقي (٢٠٦٩)، والمقصد العلي، لأبي يعلى (١٨٩)، ومصنف عبد الرزاق (٢٠٦٠).
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٧٤٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٨).
(٤) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٩٩٩)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٤٠٣).
(٥) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٩٤١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٦٧٢)، واللفظ له.
(٦) ينظر: الاستيعاب (٤/ ١٧٥٣)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ١١٨).

فخرُ أهلِ مكةَ بأبي محذورةَ

كان حُسْنُ صوتِ أبي محذورة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مما يَفْتخر به أهل مكة، فهذا الإمام مُجاهد المُفسر الفقيه كان يقول: «كُنَّا نَفْخَرُ عَلَى النَّاسِ بِأَرْبَعَةٍ: بِفَقِيهِنَا وَقَاصِّنَا وَمُؤَذِّنِنَا وَقَارِئِنَا، فَفَقِيهُنَا ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُؤَذِّنُنَا أَبُو مَحْذُورَةَ، وَقَاصُّنَا عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَقَارِئُنَا عَبْدُ الله بْنُ السَّائِبِ»[(١)].

بل وكان شاعرُهم يُقْسِمُ بمَنْ أنْعَمَ بهذا الصوت على أبي محذورة فيقول[(٢)]:

أَمَــا وَرَبِّ الكَعْبَــةِ المَسْــتُوْرَهْ   وَمَـا تَـلاَ مُحَمَّـدٌ مِـنْ سُـوْرَهْ

وَالنَّغَمَـاتِ مِـنْ أَبِـي مَحْـذُوْرَهْ   لأَفْعَلَــنَّ فِعْلَــةً مَــذْكُوْرَهْ

وهكذا أصبح أذانُ أبي محذورة رمزًا من رموز مكة، وكان المسلمون في موسم الحج إذا فتروا عن رفع الصوت بالتهليل والتكبير خرج عليهم أبو محذورة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفع صوته ذا النَّبْرَة المتميزة قائلًا: «يا حُجاج بيت الله هللوا وكبروا»، فكان الناس إذا سمعوا صوته ملأوا مكة تهليلًا وتكبيرًا[(٣)].

قصتُه مع مؤذنِ معاويةَ

بعد فتح مكة أَوْكَلَ النبيُّ ﷺ لبعض أهلها عددًا من المهام التي تخص العناية بالبيت الحرام، وإقامة الشعائر فيه، ورعاية حُجَّاجه، وقد كانت هذه المهام تشريفًا لأهلها، يعتبرونها تاجًا فوق الرأس ووسامًا على الصدر، وقبل ذلك طاعةً لله ورسوله.

وها هو ذا أبو محذورة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخبرنا بشيء من ذلك فيقول: «جَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٧٤٣)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٤٧).
(٢) ينظر: معرفة الصحابة (٣/ ١٤١١)، والاستيعاب (١/ ١٢١)، وأسد الغابة (١/ ١٧٧)، ومعجم الصحابة، للبغوي (١/ ٢١٦).
(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ٤٢١).

لِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ السِّقَايَةَ، وَلِبَنِي عَبْدِ الدَّارِ الْحِجَابَةَ، وَجَعَلَ الْأَذَانَ لَنَا وَلِمَوَالِينَا»[(١)].

ولما أصبح معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميرًا للمؤمنين جاء إلى الحج ومعه مؤذنه، فلما حان وقت الصلاة قام يؤذن في المسجد الحرام، فلما رأى ذلك أبو محذورة استشاط غضبًا، وشَعَر أنه سُلِبَ حَقَّه، فانطلق إلى المؤذن فاحتمله وألقاه في بئر زمزم.

فعن ابن أبي مُليكة قال: «أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِمُعَاوِيَةَ بِمَكَّةَ فَاحْتَمَلَهُ أَبُو مَحْذُورَةَ فَأَلْقَاهُ فِي بِئْرِ زَمْزَمَ»[(٢)].

وكأنها رسالة قاسية من أبي محذورة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لكل من أراد أن ينازعه فيما أَوْكله إليه النبيُّ ﷺ ولأبنائه من بعده، وما ذلك إلا حرصًا على أداء الأمانة، وتحصيلَ الثواب.

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعد عُقُودٍ من الدهر عاشها أبو محذورة يُوقظُ صوتُه العَذْبُ عيونَ النائمين، ويُحْيي قلوبَ المؤمنين، ويُشَنِّفُ آذانَ السامعين، وهو يرفع الأذان في البلد الأمين، ينام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على فراش الموت سنة تسع وخمسين، وقيل: سنة تسع وسبعين، حتى اختفى صوته فجأة من الدنيا، وبقيت سيرته العطرة في قلوب المسلمين[(٣)].

رضي اللهُ عن أبي محذورةَ
وعن الصحابةِ أجمعينَ



---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٢٥٣)، والطبراني في الكبير (٦٧٣٧)، والحاكم (٦١٨٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٧٨٣)، والحاكم في المستدرك (٦١٨٥).

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ٤٢١)، والاستيعاب (٤/ ١٧٥٣)، والسير (٣/ ١١٨)، والإصابة (٧/ ٣٠٣).

شُرَحبيلُ بنُ حَسَنة

الأميرُ الفاتِحُ

إن ما بين أيدينا الآن قصةُ كفاحٍ خاضها أحدُ العظماء في سبيل الله؛ لِيَرْسم مع الخالدين خريطةَ دولةِ الإسلام في عصر الراشدين، وللأسف الشديد مع دَوْره العظيم في صناعة مجد هذه الأمة لمْ يُشْتَهَر بين المسلمين، ومَنْ عرَفَ اسمَه من أبناء جيلنا قَلَّما يعرِف شيئًا عن حياته وبطولاته، أو عن تضحياته مِن أجلنا، فرأيتُ أنَّ مِن أَقَلِّ حقوق هذا البطل: أن أجمع من بستان سيرتِه قطوفًا، ثم أضعُها للأمة على سطور هذه الورقات لنعرفه من خلالها.

بطاقةُ تعريفٍ[1]

هُوَ شُرَحْبِيلُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ الْمُطَاعِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الْغِطْرِيفِ، التميميُّ، وقيل: الكِنْديُّ، وكنيته: أبو عبد الله.

وأمُه هي: حسَنَةُ العَدوليَّة، وإليها يُنسب شُرحبيل؛ لأنها عَكفت على تربيته زمنًا بعد موت أبيه، فعُرف بين الناس بشُرحبيل بن حسنة، ثم تزوجت أمُه من سفيان بن مَعْمر بن حبيب الزُرَقي، فولدت له جُنادةَ وجابرًا رضي الله عنهم جميعًا.

وعاشَ شُرَحْبيلُ اليتيمُ في ظل هذه الأسرة حياةً دافئةً، حيث كان زوجُ أمه يعامله كولده، وَقد سَادَتْ بينه وبين أخويه لأمِّه محبةٌ شديدةٌ حتى قال شُرَحبيلُ عنهما: «كانَا

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٨/ ٢٦٨)، والاستيعاب (٢/ ٦٩٨)، ومعرفة الصحابة (٣/ ١٤٦٤)، وأسد الغابة (٢/ ٦١٩)، والإصابة (٣/ ٢٦٥)، وفتوح الشام (١/ ١١)، والموسوعة في صحيح السيرة النبوية (ص١٥٠).

أحبَّ الناسِ إليَّ».

ولما أشرقت شمسُ الإسلام بمكة سارع شُرحبيلُ إلى الإسلام، وأسلمت معه أمه وزوجُها وأخواه، فكانوا من المِائة المُسْلمة الأولى مع رسول الله ﷺ.

وكان شُرحبيلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُجيدُ القراءة والكتابة، فجعله النبيُّ ﷺ من كَتَبَةِ الوَحْي.

وقد تزوج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بفتاة من أسرة صالحة، فهي ابنة الشِّفاءِ بنتِ عبد الله العَدَوية التي كانت تُعَد من فضليات الصحابيات وفقهائهن.

طريقُ الهجرتينِ

ولما ضاقت مكة على المسلمين بما رَحُبَت، وأصبحت مَسْرَحًا لحملات التعذيب الجماعية، قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «**إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ؛ فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**»[(١)]، فركب شُرحبيلُ البحر بزوجته وأمه وزوجها وأخويه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم في ثُلة من المؤمنين حتى ألقتهم سفينتهم على سواحل الحبشة السَّمْراء، فعاشوا فيها آمنين في رحاب عدل النجاشي الذي عرف الإسلامَ على أيديهم.

ثم هاجر النبيُّ ﷺ بعدهم بسنوات إلى المدينة، وأرسل إلى مهاجرة الحبشة يأمرهم بالبقاء هناك ليكونوا بمثابة لَبِنَة البناء الأولى لصرْح التوحيد الخالص فيها، وليُمَهِّدوا طريق دعوة الإسلام للأجيال القادمة من بعدهم.

وبعد زمنٍ مَرِض أحدُ مهاجرة الحبشة وهو عبيد الله بن جحش زوج أمِّ حَبيبة بنت أبي سفيان، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَوْصَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وطار خبر موته إلى المدينة، فأرسل النبيُّ ﷺ إلى أمِّ حَبيبة يطلبها للزواج إكرامًا لها، فَزَوَّجَهَا النَّجَاشِيُّ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَمْهَرَهَا عَنْهُ

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٧٧٤٣)، وجود إسناده الألباني في الصحيحة (٣١٩٠).

أَرْبَعَةَ آلَافٍ، وَبَعَثَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَ شُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ.

فخرج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعائلته المؤمنة ليسلك في سبيل الله طريقَ الهجرتين من الحبشة إلى المدينة، وفي صحبتهم أمُّ حبيبة ليزفوها إلى رسول الله ﷺ؛ ولذلك كان شُرحبيلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُلقب بذي الهجرتين[١].

لماذا تأخَّرَ عن صَلاةِ الجماعةِ؟

واستكمل شرحبيلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المدينة رحلة المعاناة، فلقد جاء بعائلته إلى أرض جديدة ليبدؤوا فيها حياةً جديدة، نَعَم كانت تغمُرهم سعادةُ الإيمان، ويتمتعون برؤية رسول الله ﷺ وصُحبته، وكانت جنتُهم الحقيقة تحملُها صدُورُهم، إلا أنهم كانوا يعانون من ضيق ذات اليد الذي أخَّرَ شُرحبيلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا عن صلاة الجماعة في المسجد، وهذه كارثة كبرى في حياة الصحابة، ولكي تتصور معي عِظَمَ قَدْرِها عندهم اسْمَعْ لأحدهم وهو يقول للناس: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ؛ فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنَ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثم يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»[٢].

أما شرحبيلُ فتُحدثنا الشفاءُ بنتُ عبد الله عن قصة تأخُّره عن الصلاة فتقول:

---

(١) ينظر: المستدرك (٢٧٤١)، وصحيح أبي داود (١٨٣٥)، ومعرفة الصحابة (٣/ ١٤٦٤)، وأسد الغابة (٢/ ٦١٩).

(٢) أخرجه مسلم (٦٥٤) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«جِئْتُ يَوْمًا حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلْتُهُ وَشَكَوْتُ إِلَيْهِ[1]، فَجعَلَ يَعْتَذِرُ إِلَيَّ وَجَعَلْتُ أَلُومُهُ، ثم إِنَّهُ حَانَتْ صَلَاةُ الظُّهْر، فَخَرَجْتُ حَتَّى دَخَلَتْ عَلَيَّ ابْنَتِي وَهِيَ تَحْتَ شُرَحْبِيلِ بْنِ حَسَنَةَ، فَوَجَدْتُ شُرَحْبِيل في البيت فَجَعَلْتُ أَلُومُهُ، وَقُلْتُ: حَضرَتِ الصَّلَاةُ وَأَنْتَ هَهُنَا في البيت؟!، فَقَالَ: يَا خَالَةُ لَا تَلُومِينِي؛ فَإِنَّهُ كَانَ لَنَا ثَوْبٌ فاسْتَعارَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي، كُنْتُ أَلُومُهُ مُنْذُ الْيَوْمَ وَهَذِهِ حَالُهُ وَلَا أَشْعُرُ، فَقَالَ شُرَحْبِيلٌ: مَا كَانَ إِلَّا دِرْعٌ رَقَّعْنَاهُ»[2].

وهذا الموقف نَلمح من خلاله مدى العلاقة التي كانت تجمع شرحبيلَ بالنبيِّ ﷺ.

ومنذ أن هاجر شرحبيلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى المدينة وقد شهد مع النبيِّ ﷺ ما بقي من مشاهده وانتصاراته إلى أن انتقل النبيُّ ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

بطولاتُه في حُروبِ الرِّدَّةِ

وبعد موت رسول الله ﷺ هاجت رياح الفتنة، وَاشْرَأَبَّ النِّفَاقُ، وارتدت بعض قبائل العرب، وحشد مسيلمة الكذاب جيشه بأرض اليمامة، وقالت العَجَمُ: قد مات هذا الرجل الذي كانت العرب تُنصر به، وظن أعداء الإسلام أن الفرصة سانحة للقضاء عليه، ولكن فات هؤلاء أنَّ النبيَّ ﷺ قد خلَّفَ جيلًا من أصحابه على أُهْبَة الاستعداد لتقديم أرواحهم فداءً لهذا الدين القَيِّم[3].

فعزم أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ على مواجهة هذه الفتنة الشرسة بقوة ضاربة، فأعلن الحربَ على الرِّدّةِ ورؤوسِها، ووجَّهَ جيشًا يقوده عكرمة بنُ أبي جهل لقتال جيش مسيلمة الكذاب باليمامة، ولما علم أبو بكر بضخامة جيش اليمامة عُدةً

(١) أي: شكوت له شدة الفقر.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦٨٩٢)، والطبراني في الكبير (٧٩٥)، والبيهقي في الشعب ٠٣٢١٩).
(٣) ينظر: فضائل الصحابة، لأحمد (٦٨)، والبداية والنهاية (٩/ ٤٣٣)، وحياة الصحابة (٢/ ٢٥).

وعددًا أرسل على أثره شُرحبيلَ بنَ حسنةَ مددًا له، ولكنَّ عكرمة هُزِمَ قبل وصول المَدد، فكتب أبو بكر لشرحبيلَ يأمره بالمُقام قريبًا من اليمامة حتى يأتيه خالد بنُ الوليد بجيشه فيقاتل شرحبيلُ بجنده تحت قيادته، فقال شرحبيلُ: سمعًا وطاعةً.

ولما جاء خالدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَتَّبَ جيشه وجعل شرحبيلَ بنَ حسنة قائدًا للمُقدمة، ودارت بينهم وبين جيش مسيلمة معركةٌ طاحنة كانت الغَلَبَةُ فيها للمسلمين بفضل الله تعالى[(١)].

وكتَبَ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى شُرحبيلَ بنَ حسنةَ أنْ: «إِذَا فَرَغتَ مِنَ الْيَمَامَةِ فَالْحَقْ بِقُضَاعَةَ وَأَنْتَ عَلَى خَيْلِكَ تُقَاتِلُ أَهْلَ الرِّدَّةِ»، فَلَحِقَ بهم شرحبيلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجيشه وقضى على الفتنة فيها، والحمد لله رب العالمين[(٢)].

وظل شرحبيلُ بنُ حسنة سيفًا صَلْتًا في يد أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ يُوَجِّهه في نُحُور الرِّدَّةِ أينما كانت، حتى رجع الناسُ إلى حظيرة الإسلام، واستتبتِ الأمور.

رؤياهُ الصادقةُ بفتحِ الشَّامِ

وبعدما قُضِيَ على الرِّدَّةِ ورُؤوسِها كانت نفسُ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تُحَدِّثه بفتح بلاد الشام، وإعلاءِ كلمة لا إله إلا اللهُ على أرضها، فأرسل الله له بشارةً تُؤيده وتدفعه نحو هذه الخطوة دفعًا يحملها له الرجلُ الصالحُ شرحبيلُ بنُ حسنةَ في رؤيا رآها، ومثلُ هذا أخبر به النبيُّ ﷺ قبل موته؛ إذ قال: «**إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ، أو تُرَى لَهُ**»[(٣)].

والعجيب أنَّ شرحبيل كان في جيش خالد بن الوليد الذي وجَّهَه أبو بكر لقتال الفرس بالعراق، ولكنَّ القَدَرَ ساقه من العراق إلى المدينة من جديد برسالة يحملها

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢٢٥)، والبداية والنهاية (٦/ ٣٢٣).
(٢) ينظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢٤٩)، والكامل، لابن الأثير (٣/ ٢٠٤).
(٣) أخرجه مسلم (٤٧٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٦٨٥)، واللفظ له.

من خالدٍ إلى أبي بكر، ولم يكن شرحبيلُ مُحَمَّلًا بالرسالة وحدها، فقد جاء إلى أبي بكرٍ فقال له: يا خليفة رسول الله ﷺ، أتُحدِّثُ نفْسَك أنك تَبْعث إلى الشام جندًا؟، قال: نعم، قد حدثت نفسي بذلك، وما أطلعْتُ عليه أحدًا، وما سألتني عنه إلا لشيءٍ؟!، قال: أجل، إنِّي رأيتُ فيما يرى النائم كأنك تمشي في الناس فوق خَرْشَفَةٍ(١) من الجبل، ثم أقبلتَ تمشي حتى صعَدتَ قِنَةً من القنان العالية فأشرفتَ على الناس ومعك أصحابك، ثم إنك هبطتَ من تلك القنان إلى أرضٍ سهلةٍ دَمِثَةٍ فيها الزرع والقُرى والحُصُون، فقلتَ للمسلمين شُنُّوا الغارة على أعداء الله وأنا ضامن لكم بالفتح والغنيمة، فشدَّ المسلمون وأنا فيهم معي رايةٌ، فتوجهتُ بها إلى أهل قريةٍ فسألوني الأمان فأمَّنتُهم، ثم جئتُ فأجدك قد انتهيتَ إلى حصن عظيم ففتح الله لك وألقوا إليك السَّلَم، ووضع الله لك مجلسًا فجلستَ عليه، ثم قيل لك: يَفتح اللهُ عليك وتُنْصَر، فاشكر ربك واعمل بطاعته، ثم قرأ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١ - ٣] ثم انتبهتُ.

فقال له أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نامت عيناك، خيرًا رأيتَ، وخيرًا يكون- إن شاء الله-، ثم أخذ الصِدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُأَوِّلُ الرؤيا بفتح بلاد الشام بعد مشقةٍ في الحرب والقتال، وأن شرحبيلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيكون أحد قادة هذا الفتح العظيم، وأنَّ الرؤيا تحمل في طياتها لأبي بكر إشارةً بِدُنو أجله(٢).

ومِن هنا نلمح نحن- أيضًا- فراسةَ شرحبيلَ وفقهَه حيث فَهِمَ من رؤياه أنَّ خليفة المسلمين تُحدثه نفسُه بفتح هذه البلاد.

---

(١) الأَرْضُ الْغَلِيظَةُ الَّتِي لَا يُسْتَطَاعُ المشيُ فيها. ينظر: تاج العروس (٢٣/ ١٨٥).
(٢) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٨٩)، والتاريخ الإسلامي، للحميدي (٩/ ١٧٩)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٢/ ٦١).

الطريقُ إلى فتحِ الشَّامِ

وبعد رؤيا شرحبيل بن حسنة عزم الصدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على فتح بلاد الشام بعد مشاورة أهلِ الحَلِّ والعقد من أكابر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فوجَّه إليها أربعة جيوش: الأول: بقيادة يزيد بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويتوجه نحو دِمَشق، والثاني: بقيادة أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويتوجه نحو حِمْص، والثالث: بقيادة شرحبيل بن حسنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويتوجه نحو الأردن، والرابع: بقيادة عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويتوجه نحو فلسطين، وبالفعل تحركت الجيوش الأربعة تَخُدُّ الأَرْضَ خَدًّا حتى وصلت إلى مواقعها بأرض الشام، ولكنهم فوجئوا بأنَّ الروم قد حشدوا لهم جيوشًا في أعداد هائلة تفوق أضعاف أضعاف جيوش المسلمين، فعقد الأمراء الأربعة اجتماعًا عاجلًا في مدينة الجولان ليتشاوروا في الأمر، فاتفقت كلمتهم على توحيد الجيوش الأربعة تحت راية واحدة لإجبار جحافل الروم على خوض معركة فاصلة، وقد أرسلوا إلى أبي بكر بخبرهم فأقرهم على ذلك.

وأرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد يأمره بترك قتال الفرس بالعراق للمثنى بن حارثة، وأن يخرج بعشرة آلاف مقاتل إلى الشام ليتولى القيادة العامة لجيش المسلمين هناك، فلما علمتِ الروم بخُطة المسلمين وجَّهوا لهم جيشًا عظيمًا يحوي قرابةَ رُبعِ مليونَ جنديٍّ لقتالهم، فالتقى الفريقان على أرض اليرموك[(١)].

شُرحبيلُ في معركةِ اليَرمُوكِ

وقبل المعركة قسَّمَ خالدُ بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جيشه الذي يحوي قرابة أربعين ألفًا

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٩٣)، والتاريخ الإسلامي، للحميدي (٩/ ٢١٣- ٢٢٣)، وتاريخ دمشق، لابن عساكر (٢/ ٦٣).

إلى ميمنة وميسرة وقلب ومؤخرة، وجعل شرحبيلَ بنَ حسنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد قادة الميمنة، ثم التقى الجيشان فاقتتلوا مقتلة عظيمة لم يَرَ المسلمون مثلها من قبل، فقد انهالت سهام الروم ونَبْلُهُم عليهم كالمطر، وأحدث الروم خللًا في صفوف المسلمين، وعندئذٍ ظهرت على ساحة اليرموك نماذج بطولية إسلامية رائعة من أبرزها ما قام به الأمير شرحبيل بن حسنة، حيث ثبت أمام جحافل الروم الجرَّارة ثباتَ الشُّمِّ الرواسي، وراح يضرب بسيفه يمينًا وشمالًا، ورفع صوته ينادي في المسلمين وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، وأخذ يصيح في الجُنْد: أين الشَّارُون أنفسَهم ابتغاء مرضاة الله؟ وأين المشتاقون إلى جوار الله؟، فكان لهذه الكلمات الصادقة وَقْعٌ في نفوس كثير من المجاهدين فثبتت قلوبُهم وجُمِعَ شتاتُهم حتى نصرهم الله على أعدائهم نصرًا ساحقًا.

شُرَحبيلُ فاتحُ بُصرَى

وبعد اليرموك فتح المسلمون دمشق وبعضَ قرى الشام وقد أبلى شرحبيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه الفتوح بلاءً حسنًا[(١)].

ثم وَجَّه أبو عبيدة الذي أصبح القائد الأعلى لجند الشام شرحبيلَ بنَ حسنة في أربعة آلاف فارس لفتح بُصْرَى، فلما وصل شرحبيلُ بجيشه خرج إليه الروم في اثني عشر ألف فارس، فوقف شرحبيلُ يَعِظُ جنده ويذكِّرهم بالله قائلًا: «اعلموا- رحمكم

(١) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ٢٠)، والكامل في التاريخ (٢/ ٢٧٩).

الله- أنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ، وأنَّ أحبَّ ما قُرِّبَ إلى الله قطرةُ دمٍ في سبيل الله، أو دَمعةٌ جَرَت في جوف الليل من خشية الله، فـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]»، ثم رفع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يديه إلى السماء فقال متضرعًا: «يا حيُّ يا قَيُّوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، اللهم انصرنا على القوم الكافرين»، ثم حمل بجيشه على الروم حملة رجلٍ واحدٍ، ودارت بينهما معركة عظيمة حتى نصرهم الله العزيز الحكيم[(١)].

وافتتح شرحبيلُ غيرَ بُصْرى العديد من المدن السورية كالجُولان وقِنَّسرِينَ وغيرهما[(٢)]، وفي تقسيم غنائم قِنَّسْرِينَ ظهر فقهُه وعلمُه بالسُّنة، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا افْتَتَحَ شُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ قِنَّسْرِينَ أَصَابَ بِهَا بَقَرًا وَغَنَمًا فَقَسَمَهَا بَيْنَ النَّاسِ، وَبَقِيَتْ بَقَايَا فَأَدْخَلَ ثَمَنَهَا فِي الْمَغَانِمِ، قَالَ ابْنُ غَنْمٍ: فَحَدَّثْتُ بِهِ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَسَمَ بَيْنَنَا مَاشِيَةَ خَيْبَرَ، فَبَقِيَتْ مِنْهَا بَقَايَا فَبَاعَهَا فَأَدْخَلَ ثَمَنَهَا فِي الْمَقَاسِمِ»[(٣)].

شُرَحبيلُ فاتحُ الأُردُنِّ

وقد أَمَرَ الخليفةُ عمرُ بنُ الخطابِ أبا عبيدة أنْ يُوَجِّهَ شرحبيلَ بنَ حسنة بجيشه لفتح الأردن، فتَوَغَّلَ شرحبيلُ داخل الأردن فهزم الرومَ في بَيْسان، ثم افتتح بقية مدن الأردن عَنْوَةً إلا طبرية فقد صالحه أهلُها بعد ما حاصرهم حصارًا شديدًا[(٤)].

---

(١) ينظر: فتوح الشام (١/ ٢٥).
(٢) ينظر: فتوح البلدان، للبلاذري (١٢٢)، والمعجم الكبير، للطبراني (٢٠/ ٧٠).
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣١).
(٤) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٣٠)، والكامل في التاريخ (٢/ ٢٨٠)، وتاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ١٣٩)، وفتوح البلدان (١٢٢).

بطولاتُه في فَتحِ فِلسطِينَ

ولما قَادَ عمرو بن العاص جيش الإسلام لفتح فلسطين كان شرحبيلُ بنُ حسنة أحد أمرائه، ولقد شهدت ساحات الجهاد له في فلسطين صَوَلاتٍ وجَوَلات.

ولما وصل المسلمون إلى (قَيسارية) خرجت إليهم الروم في جُمُوعٍ غفيرة، وخرج أحد قادتهم يطلب المبارزة، وكان فارسًا ماهرًا عظيمَ الجُثَّةِ، فخرج إليه رجلٌ من المسلمين فشَطَرَ الروميُّ رأسه بالسيف، فخرج إليه البطلُ شرحبيلُ بن حسنة، وكان نحيفًا من طول الصيام والقيام، فاقتتلا كلٌّ على فرسه في يومٍ شديد البَرْدِ كثيفِ السَّحاب، واشتد القتال بينهما تحت المطر الهاطل عليهما كأنه ساقط من أفواه القرب، فنزلا عن فرسَيْهما، فغاصت أقدامُهما في الوحْل، وجُرِحَ شرحبيلُ ولكنَّ الله قَتَلَ عدوَّه، فخرج البطلُ من الوحل يَجُرُّ فرسَه والدماء تقطر من جسده وسيفه، ثم حمل المسلمون على جيش الروم فهزموهم وفُتِحت قيسارية[(١)].

وشهد شرحبيلُ فتح القدس وكل مدن فلسطين، وقد أمَّرَه عمرو بن العاص على بعض الجيش فقاد بهم فتح عكَّا وصُور وصفورية[(٢)].

بطولاتُه في فتحِ مِصرَ

ثم شهد شرحبيلُ مع عمرو بن العاص فتح مصر، وما أنْ وَطِأَ شرحبيلُ أرض الكنانة حتى رسم هو وأصحابُه صورًا حيةً للبطولة والتضحية في سبيل الله، منها فتح البَهْنَسا، وهي بلدة حصينة منيعة الأسوار استعصى فتحها على المسلمين، فلما طال الحصار ندب أمير الجيش جماعة فدائية تسللوا في ظلام الليل نحو الأسوار العالية بسلالم خشبية فتسلقوها وقتلوا الحراس وفتحوا الأبواب، وكان شرحبيلُ وجماعة

---

(١) ينظر: فتوح الشام (٢/ ٢٢).

(٢) ينظر: فتوح البلدان (١٢٣).

من أمهر المقاتلين قد تسللوا نحو الأبواب، فدخلوا البلدة كالوحوش الضارية فاقتتلوا مع الروم ليلًا في الحارات وبين الأزِقَّةِ قتالًا أشبه بقتال الشوارع، أو حرب العصابات، ثم دخل جيش المسلمين بأكمله المدينة وتم النصر بفضل الله[١].

ومكث شرحبيلُ بمصر زمنًا، وقد أَوْكَلَ عمرو بن العاص له فيها بعضَ المهام، ثم ردَّه الخليفةُ عمرُ بنُ الخطاب إلى الشام وعَيَّنَه أميرًا على الأردن[٢].

حُبُّه لحديثِ رسولِ الله ﷺ

وفي وسط هذه المعارك والأحداث التي خاضها شرحبيلُ بن حسنة لم يَنْسَ النبيَّ ﷺ طرفةَ عين، وكان كلما جلس مع أصحابه، أو جنده تذاكر معهم أحاديث حبيبه ﷺ، وها هو ذا يجلس بين جمع من الصحابة يومًا فيقول لهم بلهجةٍ يُشَمُّ فيها رائحة الشوق: «مَنْ رَجُلٌ يُحَدِّثُنَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ بحديث لَيْسَ فِيهِ نِسْيَانٌ؟، فقَالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ: نَعَم، أَنَا سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: **مَنْ تَوَضَّأَ فَغَسَلَ كَفَّيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ أَنَامِلِهِ، فَإِذَا هُوَ تَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ مَسَامِعِهِ، فَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ وَجْهِهِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ يَدَيْهِ، فَإِذَا مَسَحَ بِرَأْسِهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ، فَإِذَا غَسَلَ قَدَمَيْهِ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ أَنَامِلِهِ، فَإِنْ قَعَدَ عَلَى وُضُوئِهِ فَلَهُ أَجْرُهُ، وَإِنْ قَامَ مُتَفَرِّغًا لصلاتِهِ انْصَرَفَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا**، فَقَالَ لَهُ شُرَحْبِيلُ: يَا عَمْرُو، انْظُرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مَرَّةً، أو مَرَّتَيْنِ، أو ثَلَاثًا لَمْ أَكُنْ لِأُحَدِّثَكُمُوهُ، وَقَالَ ﷺ: **مَنْ شابَ شَيْبَةً فِي سَبِيلِ الله كَانَتْ لَهُ نورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ رَمَى الْعَدُوَّ بِسَهْمٍ فَبَلَغَ- أَصَابَ، أو أَخْطَأَ- فَعِدْلُ رَقَبَةٍ**»[٣].

---

(١) ينظر: فتوح الشام (٢/ ٢٥٧- ٢٨٦)، وحُسن المحاضرة، للسيوطي (١/ ٢٠٨).

(٢) ينظر: فتوح مصر والمغرب (ص٢٥٨)، والكامل في التاريخ (٢/ ٣٧٨).

(٣) ينظر: مستدرك الحاكم (٤٥٥)، والمنتخب من مسند عبد بن حميد (٢٩٨).

ثباتُه أمامَ فتنةِ الطَّاعون

الطَّاعون مرضٌ خبيث إذا وقع بأرض انتشر بين أهلها؛ لذا قال النبيُّ ﷺ عنه: «**إذا سَمِعْتُمْ بِهِ بأرضٍ فلا تَقْدَمُوا عَليهِ، وإذا وَقَعَ بأرضٍ وأَنتُمْ بِها فلا تَخْرُجُوا فِرارًا مِنْهُ**»[١]، وبيَّنَ النبيُّ ﷺ أنَّ من مات به من أمتنا فهو عند الله شهيد، وذلك في قوله ﷺ: «الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»[٢].

وفي أثناء إمارة عمرو بن العاص لبعض الشام كان الطاعون قد فشا فيها، وَدَبَّ الخوف في قلوب الأهالي، فقام عمرو بن العاص يخطب في الناس قائلًا: إِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ رِجْسٌ فَفِرُّوا مِنْهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ شُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ فَغَضِبَ، فَجَاءَ وَهُوَ يَجُرُّ ثَوْبَهُ، فَقَالَ لعمروٍ: كَذَبْتَ، إِنَّهُ رَحْمَةُ رَبِّكُمْ، ودَعْوَةُ نَبِيِّكُمْ، وَمَوْتُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، فَاجْتَمِعُوا لَهُ، وَلَا تَفَرَّقُوا عَنْهُ، فقال عَمرو بْنَ الْعَاصِ: صَدَقْتَ[٣].

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وأخذ شرحبيلُ يُهَدِّئ من رَوْعِ الناس ألَّا يُفتنوا في دينهم، ولكنَّ الله قَدَّرَ أن يصاب بالطاعون هو ومعاذ بن جبل وأبو عبيدة بن الجراح في يوم واحد، ثم ماتوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم واحدًا تِلْوَ الآخر.

ورحل الأميرُ الفاتح شُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَةَ عن دنيا الناس سَنَةَ ثَمَانِ عَشْرَةَ وَهُوَ ابْنُ سَبْعٍ وَسِتِّينَ سَنَةً، وها هي الشهادة التي كان يَحْلُمُ بها ويسعى إليها في ميادين الجهاد ساقها القَدَرُ إليه في صورة هذا الطاعون[٤].

رضي اللهُ عن شُرَحبِيلَ بنِ حَسَنَةَ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٩).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٧٥).
(٣) ينظر: مسند أحمد (١٧٧٥٣)، ومسند البزار (٢٦٧١)، ومستدرك الحاكم (٥٢٠٧).
(٤) ينظر: المستدرك (٥٢٠٤)، ومسند البزار (٢٦٧١)، وأسد الغابة (٢/ ٦١٩)، والإصابة (٣/ ٢٦٦).

عُوَيمُ بنُ سَاعِدَةَ الأنصَاريُّ

نِعمَ الرَّجلُ من أهلِ الجنَّةِ[1]

هناك رجال أنزل الله فيهم قرآنًا، ومدحهم النبيُّ ﷺ وأثنى عليهم بكلام يُكتب بمِدادٍ من ذهب، وصنع الإسلامُ منهم في سماء التاريخ نُجومًا، ولكن للأسف لا يعرف عنهم كثير من المسلمين شيئًا.

ومن جنود الإسلام المَجْهولين هؤلاء بطل قصتنا، وهو واحد من ثُلةٍ طاهرة سمعوا داعيَ الله ينادي قائلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] فنهضوا يُقدمون أرواحهم وأبدانهم وأهليهم وأموالهم وأرضهم وديارهم وكل ما يمتلكونه من حطام الدنيا حتى نصروا الله ورسوله نصرًا مُؤزرًا، فقال الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

والآن هيا بنا نتعرف على بطل قصتنا العظيم.

اسمُه ونسبُه وكنيتُه

هو عُوَيْمُ بنُ سَاعِدَةَ بنِ عَائِشِ بنِ قَيْسِ بْنِ النعمان، وكنيته: أبو عبد الرحمن.

وهو أحد أكابر بني عمرو بن عوف سُكانُ قُباء[2].

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٤/ ١٧٥) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٣٤٩)، ومعرفة الصحابة (٤/ ٢١١٦)، والاستيعاب (٣/ ١٢٤٨)، والسير (١/ ٥٠٣).

من أنصَارِي إلى اللهِ؟

لما ضيَّقت قريشٌ الخناق على دعوة النبيِّ ﷺ في مكة استأذن ربَّه جَلَّوَعَلَا في البحث عن أرض أخرى يؤسس عليها أركان دعوته فأذن له ربه، فلما جاء موسم الحج في السنة الحادية عشر من بعثته خرج ﷺ يَعرض نفسه ودعوته على القبائل عسى أن يجد من يؤويه وينصره حتى يبلغ رسالة ربه، فوجد الكل بين رافضٍ للأمر وخائفٍ من عواقبه، حتى انتهى إلى خيام أهل يثرب فوجد نفرًا من شبابهم يتسامرون منهم بطل قصتنا عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ[1]، فقَالَ لَهُمْ النبيُّ ﷺ: «**مِمَّنْ أَنْتُمْ**؟ قَالُوا: نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: **أَمِنْ مَوَالِي يَهُودَ**؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: **أَفَلَا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمْكُمْ**؟ قَالُوا: بَلَى، فَجَلَسُوا مَعَهُ، فَدَعَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى اللهِ ﷻ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، وَكَانَ مِمَّا صَنَعَ اللهُ لَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ أَنَّ يَهُودَ كَانُوا مَعَهُمْ بِبِلَادِهِمْ، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَعِلْمٍ، وَكَانَتِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ أَهْلَ شِرْكٍ وَأَصْحَابَ أَوْثَانٍ، فَكَانُوا إِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ قَالَتِ الْيَهُودُ: إِنَّ نَبِيًّا مَبْعُوثٌ الْآنَ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ نَتَّبِعُهُ فَنَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ، فَلَمَّا كَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ أُولَئِكَ النَّفَرَ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يَا قَوْمِ، اعْلَمُوا - وَاللهِ- أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الَّذِي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ يَهُودُ؛ فَلَا تَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ لَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى الله ﷻ، وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا وَلَا قَوْمٌ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، وَعَسَى اللهُ ﷻ أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللهُ بِكَ، وَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ فَنَدْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فَإِنْ يَجْمَعْهُمُ اللهُ عَلَيْكَ فَلَا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ، ثم انْصرَفُوا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ رَاجِعِينَ إِلَى

(١) ينظر: المعجم الكبير (٨٤٩)، والطبقات الكبرى (١/ ١٦٩)، ودلائل النبوة، لأبي نعيم (٣٠٦)، والسيرة، لابن كثير (٢/ ١٧٩).

بِلَادِهِمْ قَدْ آمَنُوا وَصَدَّقُوا»(١).

ورجع عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى يثرب بهمة عالية تناطح السَّحاب، وهو يحمل بين جنبيه نور الإيمان الذي أجلى من صدره، بل من يثرب كلها ظلمات الشرك وعَتَامَةَ الجاهلية.

وسرعان ما تسلل هؤلاء الفتية بين بيوتات يثرب وطرقاتها ليحيوا القلوب بعد موتها، ويزيحوا الغشاوة عن عيون أهلها، حتى أسلم معهم العشراتُ من شبابها.

وبعدما تزايدت أعدادهم جلس عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جماعة من خِيرة أهل الأرض- يومئذٍ- يتشاورون في حال هذه الدعوة ومستقبلها بعدما ضاق الخناق على رسول الله ﷺ في مكة، وبعد حديث طويل دار بينهم اتفقت كلمتهم على قرار حاسم سَيُغير مجرى حياة الأمم جميعًا، وهو إيواء النبيِّ ﷺ في بلدتهم ونصرتُه حتى يبلغ رسالة ربه، وبقي هذا الأمر حُلْمًا يتردد في أذهانهم حتى تحول الحُلْمُ إلى حقيقة.

بَيعةُ العَقبةِ الكبرَى

وها هو أحدهم يَروي لنا القصة قائلًا: «مَكَثَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَكَّةَ عَشرَ سِنِينَ، يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ، وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ: **مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ؟**، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، أو مِنْ مِصْرَ فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ، لَا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ لَهُ مِنْ يَثْرِبَ، فَآوَيْنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ، وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ

(١) ينظر: دلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ٤٣٣)، والسيرة النبوية النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (١/ ١٧٤).

إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، ثم ائْتَمَرُوا جَمِيعًا، فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ؟ فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلًا حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، علَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: **تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ، لَا تَخَافُونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي، فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ، وَأَزْوَاجَكُمْ، وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ**»[(١)].

فقاموا إليه سِراعًا يبايعونه، وكأنَّ الواحد منهم يَشُدُّ على يده ﷺ بيمناه، ويحمل له على أُخراه روحه وماله نُصْرةً وفداءً لدين الله.

فهنيئًا لك يا عُويم بن ساعدة، ولكل من بايع هذه البيعة معك، إنها حقًّا لحظات ستظل أقلام التاريخ عاجزة عن وصفها ومدحها حتى ولو كُتبت بمداد من نور على صفحات من ذهب.

إنها بيعة أقامت صرح الإسلام ودولته، وقدَّمت للعالم علومه وحضارته، فَحُقَّ لكل من شارك فيها أن يفتخر بها، ولله در كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذ قال: «لَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَأَشْهَرَ»[(٢)]، وكان رَافِعٌ الزُّرَقِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «مَا يَسُرُّنِي أَنِّي شَهِدْتُ بَدْرًا بِالعَقَبَةِ»[(٣)]، وذلك من عظم قدر تلك البيعة في قلوبهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٤٤٥٦) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٩)، وأحمد (١٥٧٨٩)، واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٩٣).

الهجرةُ والإخاءُ

ولما أمر النبيُّ ﷺ أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بالهجرة نزلوا على أهل قُباء فأحسنوا استقبالهم، وضربوا أروع مثل في إكرامهم حتى هاجر إليهم رسول الله ﷺ، وفي مشهد الإخاء العظيم بين المهاجرين والأنصار آخى النبيُّ ﷺ بين عويم بن ساعدة وعمر بن الخطاب، وقيل: بينه وبين حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنهم جميعًا[(١)].

نِعمَ الرَّجُلُ عُويمُ بنُ سَاعِدةَ

وقبل أن ينتقل النبيُّ ﷺ من قُباء أسس فيها أول مسجد بناه في الإسلام وهو: مسجد قُباء المعروف إلى الآن، وقد أثنى الله على أهل هذا المسجد في قوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، فلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى عُوَيْمِ بْنِ سَاعِدَةَ الأنصاري، فَقَالَ له: «**مَا هَذَا الطُّهُورُ الَّذِي أَثْنَى اللهُ عَلَيْكُمْ بِهِ؟**، فَقَال: يَا نَبِيَّ اللهِ، مَا خَرَجَ مِنَّا رَجُلٌ، وَلَا امْرَأَةٌ مِنَ الْغَائِطِ إِلَّا غَسَلَ دُبُرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **فَفِي هَذَا**»[(٢)]، أي: ففي هذا أثنى الله عليكم.

وقد روى ابنُ سعد بسنده عن الزهري: أن عروة بن الزبير قال: «بَلَغَنَا أَنَّهُ قِيلَ لِرَسُولِ الله: مَنِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُمْ: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **نِعْمَ الْمَرْءُ مِنْهُمْ عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ**. قَالَ عروة: وَلَمْ يَبْلُغْنَا أَنَّهُ ذَكَرَ مِنْهُمْ رَجُلًا غَيْرَ عُوَيْمِ بْنِ سَاعِدَةَ»[(٣)].

وروى- أيضًا- بسنده عن موسى بن يعقوب أنه قال: «وَكَانَ عُوَيْمٌ أَوَّلَ مَنْ غَسَلَ

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٣٥٠)، ومعرفة الصحابة (٤/ ٢١١٦)، وأسد الغابة (٤/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٦٧٢) عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٣٥١)، وينظر: الإصابة، لابن حجر (٤/ ٦٢٠).

مَقْعَدَتَهُ بِالْمَاءِ فِيمَا بَلَغنَا. وَاللهُ أَعْلَمُ»[١].

ولم يكن هذا هو ثناء النبيِّ ﷺ الوحيد على ذلكم الأنصاري الجليل، فقد روى البخاري في تاريخه بسنده عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبيَّ ﷺ قال: «**نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ**»[٢]، وفي رواية ابن سعدٍ عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبيَّ ﷺ قال: «**نِعْمَ الْعَبْدُ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَالرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ**»[٣].

بل وكان كبار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من بعد النبيِّ ﷺ يثنون عليه ويشهدون بصلاحه، فهذا عمر بن الخطاب يَلقى عويم بن ساعدة ومعه مَعْن بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهو في طريقه لمجلس الأنصار بعد موت رسول الله ﷺ، فيحكي لنا عن ذلك، فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قُلْتُ لأَبِي بَكْرٍ: يَا أَبَا بَكْرٍ، انْطَلِقْ بِنَا إِلَى إِخْوَانِنَا هَؤُلاَءِ مِنَ الأَنْصَارِ، فَانْطَلَقْنَا نُرِيدُهُمْ، فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنْهُمْ لَقِيَنَا رَجُلاَنِ مِنْهُمْ صَالِحَانِ»[٤].

جهادُه مع رسولِ الله ﷺ

ومنذ أن أمر الله تعالى نبيه ﷺ بجهاد المشركين وعويم بن ساعدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معه كظله في كل مشاهده، وقد أثنى عليه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذلك فقال: «مَا نُصِبَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رَايَةٌ إِلَّا وَعُوَيْمٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَحْتَ ظِلِّهَا»[٥].

موقفُه مع رأسِ المنافقينَ

كان عبد الله بن سلول سيد يثرب المطاع، فلما تحولتِ السيادة إلى رسول الله ﷺ

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٣٥٠).
(٢) التاريخ الكبير، للبخاري (٤/ ١٧٥).
(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٣/ ٣٥٠).
(٤) أخرجه البخاري (٤٠٢١).
(٥) أخرجه البخاري في التاريخ الأوسط (١/ ٤٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٤٤).

بعد مقدمه المدينة اشتعلت نيران الحقد في قلبه وقرر أن يتحالف مع كل من هو عدو لله ورسوله وبالأخص يهود المدينة، وأصبح هو رأس النفاق.

ولما نقض يهودُ بني قينقاع عهدهم مع رسول الله ﷺ وقتلوا رجلًا من المسلمين خرج إليهم النبيُّ ﷺ بجيشه فحاصرهم وهم في حصونهم، فجاء حليفهم ابنُ سلول بكل حماقة ليردَّ النبيَّ ﷺ عنهم، فقال: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنْ فِي مَوَالِيَّ، فأعرضَ عنه النبيُّ ﷺ، فجذب عدو الله النبيَّ ﷺ من ثوبه، فَعُرِفَ الغضبُ في وجه رسول الله ﷺ وقال له: **وَيْلَك، أَرْسِلْنِي!**، فَقَالَ: لَا أُرْسِلُك حَتَّى تُحْسِنَ فى مواليَّ، فأمر النبيُّ ﷺ بإجلائهم من المدينة، ثم دخل بيته، فأراد رأس المنافقين أن يواصل حماقته ويذهب خلف النبيِّ ﷺ، فلما رأى ذلك عويم بن ساعدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انطلق كالسهم ووقف حارسًا على باب رسول الله ﷺ، ومع أنَّ عويمًا وقومه كانوا قد توَّجوا ابنَ سلولٍ ملكًا عليهم قبل مقدم رسول الله ﷺ إلا أنَّ أواصر الجاهلية قد تحطمت على صخرة الولاء والبراء في قلوب المؤمنين.

فلما أراد ابنُ سلول أن يدخل على رسول الله ﷺ قال له عويمٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لن تدخل حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فدفعه ابنُ سلول بكبر واستعلاء، فَغَلُظَ عَلَيْهِ عُوَيْمٌ حَتَّى جَحَشَ[1] وَجْهَ ابْنِ سلول الْجِدَارُ فَسَالَ الدَّمُ على وجهه، فَتَصَايَحَ اليَهُودَ لما رأوا أكبر حلفائهم يُهان أمامهم، فَقَالُوا له: أَبَا الْحُبَابِ، لَا نُقِيمُ أَبَدًا بِدَارٍ أَصَابَ وَجْهَك فِيهَا هَذَا، فَجَعَلَ ابْنُ سلول يَصِيحُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ يَقُولُ: وَيْحَكُمْ، قِرُّوا، فَجَعَلُوا يَتَصَايَحُونَ: لَا نُقِيمُ أَبَدًا بِدَارٍ أَصَابَ وَجْهَك فِيهَا هَذَا، فخرجوا مخذولين[2].

ولقد كان هذا المشهد البُطولي صفحة من صفحات الولاء والبراء في حياة عويم ابن ساعدة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَطَّرها بدماء رأس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول.

---

(١) أي: أصابه وخَدَشه. ينظر: لسان العرب (٦/ ٢٧٠).

(٢) ينظر: تاريخ الإسلام، للحميدي (٥/ ٣٠)، والمغازي، للواقدي (١/ ١٧٨).

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعد حياة أفناها عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ في نُصرة الله ورسوله ينتهي به الأجل في خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ، أو سِتٍّ وَسِتِّينَ سَنَةً[1]، فحزن عليه أمير المؤمنين عمر حزنًا شديدًا، ثم صلى عليه، وخرج مع الناس في جنازته، ثم وقف على قبره يشهد بصلاحه، ويذكر أمام الناس شيئًا من مآثره، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ، مَا نُصِبَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ رَايَةٌ إِلَّا وَعُوَيْمٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَحْتَ ظِلِّهَا»[2].

ويرتحل عويمُ بنُ ساعدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن عالمنا ليلحق بإخوانه من أهل بدر الذي قال الله تبارك وتعالى لهم: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ**»[3].

رضي اللّهُ عن عُويمِ بنِ ساعدةَ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٣٥١)، والاستيعاب (٣/ ١٢٤٨)، وأسد الغابة (٤/ ٣٠٣)، والسير (١/ ٥٠٤).
(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الأوسط (١/ ٤٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٤٤).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٢٥٩) عن النبيِّ ﷺ.

عبدُ اللّه بنُ أبي بَكرٍ الصِّدِّيق

مِن أبطالِ قصةِ الهجرةِ

إن الترجمة التي بين أيدينا تحوي قبساتٍ من حياة شابٍ من شباب الإسلام، عاش حميدًا، ومات شهيدًا بعد أن ترك في التاريخ بصمتَه.

إنه الشاب المؤمن المهاجر المجاهد عَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

اسمُه ونسبُه

هو عَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرٍ بنِ عُثْمَانَ بْنِ عَامِرِ بْن عَمْرِو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ، التيْمِيُّ، القُرَشِيُّ، وأبوه هو صدِّيق الأمة الغنيُّ عن التعريف، وأمه هي: قُتَيْلَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ أَسْعَدَ العَامِرية، فهو أخو أسماء بنت أبي بكر لأبيها وأمها[(١)].

نَشأتُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لما أشرقت شمسُ الإسلام في مكة كان أبو بكر أولَ من أسلم من الرجال مع رسول الله ﷺ، وقد كان لآل أبي بكر نصيبٌ من هذا السبق، وقد نشأ عبد الله بن أبي بكر منذ نُعومة أظفاره في الإسلام، تترعرع شجرة الإيمان في قلبه يومًا بعد يوم، ولقد ابْتَنَى أبوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَسْجِدًا لهم بِفِنَاءِ دَارِهِم، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ بهم وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً لاَ يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ، فكان لهذا أثرٌ في تكوين شخصية ذلكم الفتى، بالإضافة إلى علاقة أبيه اللصيقة برسول الله ﷺ التي جعلته يَشِبُّ في كَنَفِ الوحي ويتربَّى في حضن النُّبوة، فلَقَلَّ يومٌ كانَ يأتي على النبيِّ ﷺ إلاَّ يأْتي فيهِ بيتَ

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٨/ ٢٤٩)، والاستيعاب (٣/ ٨٧٥)، والإصابة (٤/ ٢٤).

أبي بكرٍ أَحَدَ طَرَفَي النَّهارِ، حتى امْتُلئ الغلامُ إيمانًا وحُبًّا لله ورسوله إلى مُشاشه[(١)].

وفي ظل ما كان يُعانيه المسلمون الأوائل في مكة من اضطهاد وتعذيب كان الغلام الذي ناهزَ الحُلُمَ يَحْلُمُ باللحظة التي يخدم فيها الإسلام، ويضحي من أجل الله ورسوله.

مُحاولةُ اغتيالِ الرسولِ ﷺ

لما أمر رسولُ الله ﷺ أصحابه بالهجرة «تَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ المَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: **عَلَى رِسْلِكَ؛ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي**، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ»[(٢)]، وخرج المستضعفون من مكة أرسالًا يتسللون خُفْيَةً من بطش قريشٍ الغاشم، فلما علم المشركون بخبرهم تحولت مكة إلى حُمَمٍ من الغضب، فنصبوا لهم الكمائن، وألقوا القبض على من تمكنوا منه، واجتمعوا في دار الندوة ليكيدوا للنبيِّ ﷺ، «فَاعْتَرَضَهُمْ إِبْلِيسُ فِي هَيْئَةِ شَيْخٍ جَلِيلٍ، فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الدَّارِ، فَلَمَّا رَأَوْهُ وَاقِفًا عَلَى بَابِهَا قَالُوا: مَنِ الشَّيْخُ؟، قَالَ: شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، سَمِعَ بِالَّذِي اتَّعَدْتُمْ لَهُ، فَحَضَرَ مَعَكُمْ لِيَسْمَعَ مَا تَقُولُونَ، وَعَسَى أَلا يَعْدِمَكُمْ مِنْهُ رَأْيٌ وَنُصْحٌ، قَالُوا: أَجَلْ، فَادْخُلْ، فَدَخَلَ مَعَهُمْ، وَقَدِ اجْتَمَعَ فِيهَا أَشْرَافُ قُرَيْشٍ كُلُّهُمْ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ كَانَ أَمْرُهُ مَا قَدْ كَانَ وَمَا قَدْ رَأَيْتُمْ، وَإِنَّا وَالله مَا نَأْمَنُهُ عَلَى الْوُثُوبِ عَلَيْنَا بِمَنْ قَدِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِنَا، فَأَجْمِعُوا فِيهِ رأيًا، فتشاروا، ثم قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: احْبِسُوهُ فِي الْحَدِيدِ وَأَغْلِقُوا عَلَيْهِ بَابًا، ثم تَرَبَّصُوا بِهِ مَا أَصَابَ أَشْبَاهَهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ قَبْلَهُ حَتَّى يُصِيبَهُ مِنْهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ هَذَا الْمَوْتِ، فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: لا وَالله، مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ، وَالله لَوْ حَبَسْتُمُوهُ لَخَرَجَ أَمْرُهُ مِنْ

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٢١٣٨- ٤٧٦).

(٢) صحيح البخاري (٣٩٠٥).

وَرَاءِ الْبَابِ الَّذِي أَغْلَقْتُمُوهُ دُونَهُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَلأَوْشَكُوا أَنْ يَثِبُوا عَلَيْكُمْ فَيَنْتَزِعُوهُ مِنْ أَيْدِيكُمْ، ثم يُكَاثِرُوكُمْ حَتَّى يَغْلِبُوكُمْ عَلَى أَمْرِكُمْ هَذَا، مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ فَانْظُرُوا فِي غَيْرِهِ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: نُخْرِجُهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا فَنَنْفِيهِ مِنْ بَلَدِنَا، فإذا خرج عنا فوالله مَا نُبَالِي أَيْنَ ذَهَبَ وَلا حَيْثُ وَقَعَ، إذا غاب عنا وَفَرَغْنَا مِنْهُ فَأَصْلَحْنَا أَمْرَنَا، وَأُلْفَتَنَا كَمَا كَانَتْ، قَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: وَاللهِ مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ، أَلَمْ تَرَوْا حُسْنَ حَدِيثِهِ، وَحَلاوَةَ مَنْطِقِهِ، وَغَلَبَتَهُ عَلَى قُلُوبِ الرِّجَالِ بِمَا يَأْتِي بِهِ؟!، وَاللهِ لَوْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ مَا أَمِنْتُ أَنْ يَحِلَّ عَلَى حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ، فَيَغْلِبَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ وَحَدِيثِهِ حَتَّى يُتَابِعُوهُ عَلَيْهِ، ثم يَسِيرُ بِهِمْ إِلَيْكُمْ حَتَّى يَطَأَكُمْ بِهِمْ، فَيَأْخُذَ أَمْرَكُمْ مِنْ أَيْدِيكُمْ، ثم يَفْعَلَ بِكُمْ مَا أَرَادَ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللهِ إِنَّ لِي فِيهِ لَرَأْيًا مَا أَرَاكُمْ وَقَعْتُمْ عَلَيْهِ بَعْدُ، قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا أَبَا الْحَكَمِ؟، قَالَ: أَرَى أَنْ تَأْخُذُوا مِنْ كُلِّ قبيله فَتًى شَابًّا جَلْدًا نَسِيبًا وَسِيطًا فِينَا، ثم نُعْطِي كُلَّ فَتًى مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا، ثم يَعْمِدُونَ إِلَيْهِ، ثم يَضرِبُونَهُ بِهَا ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَيَقْتُلُونَهُ فَنَسْتَرِيحُ، فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ كُلِّهَا، فَلَمْ يَقْدِرْ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ عَلَى حَرْبِ قَوْمِهِمْ جَمِيعًا، وَرَضُوا مِنَّا بِالْعَقْلِ فَعَقَلْنَاهُ لَهُمْ، فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: الْقَوْلُ مَا قَالَ الرَّجُلُ، هَذَا الرَّأْيُ لا رَأْيَ لَكُمْ غَيْرُهُ، فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ مُجْمِعُونَ لَهُ»(١) وفي هذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد ذهب رَسُولُ الله ﷺ مُتَقَنِّعًا إلى بيت أبي بكر فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِيه فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: **أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ**، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ ﷺ: **فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ**، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللهِ، فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٣٧٠)، والصحيح من أحاديث السيرة (١/ ١٤٠).

نَعَمْ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ- بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ- إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، فقَالَ ﷺ: **بِالثَّمَنِ**، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ الله ﷺ رَجُلًا هَادِيًا خِرِّيتًا- وَالخِرِّيتُ: المَاهِرُ بِالهِدَايَةِ- فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاَثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا»[(١)].

فَأَتَى جِبْرِيلُ رسولَ الله ﷺ فَقَالَ: «لا تَبِتْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَى فِرَاشِكَ الَّذِي كُنْتَ تَبِيتُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ اجْتَمَع المُتآمرون عَلَى بَابِهِ ﷺ فتَرَصَّدُوهُ مَتَى يَنَامُ فَيَثِبُونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ الله ﷺ مَكَانَهُمْ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **نَمْ عَلَى فِرَاشِي، وَاتَّشِحْ بِبُرْدِي الْحَضْرَمِيِّ الأَخْضَرِ، فَنَمْ فَإِنَّهُ لا يَخْلُصُ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مِنْهُمْ**، وخرج رسول الله ﷺ، وَقد أَخَذَ اللهُ عَلَى أَبْصَارِهِمْ عَنْهُ فَلَا يَرَوْنَهُ، فَأَخَذَ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ فَجَعَلَ يَنْثُرُها عَلَى رُءُوسِهِمْ، وَهُوَ يَتْلُو قوله الله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ رَجُلٌ الا وقد وَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تُرَابًا، ثم لَحِقَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاَثَ لَيَالٍ»[(٢)].

ولكن قبل أنْ يترك الصِّدِّيقُ مكة أَوْكَلَ لابنه عبد الله مهمةً صعبةً على ضوئها سَيُرتب النبيُّ ﷺ قراراته وهو في الغار، فيا تُرى ما تلك المهمة؟.

وجاءَ دَورُ البطلِ

بل وجاءت اللحظة التي كان يَحْلُمُ بها وينتظرها ذلكم الغلامُ الذي أدرك طَوْرَ الشباب، ومهمتُه التي وُكِّلَ بها تُحدِّثُ عنها أختُه أمُّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فتقول: «ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاَثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣٩٠٥- ٢١٣٨).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٣٩٠٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ٣٧٢)، والصحيح من أحاديث السيرة (١/ ١٤٠).

عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ[١] لَقِنٌ[٢]، فَيَرْحَلُ مِنْ عِنْدِهِمَا سَحَرًا، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلاَ يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ[٣] إِلَّا وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلاَمُ»[٤].

فما أجمل ما وصفت به أمُّ المؤمنين أخاها، فتلك المهارات التي يمتلكها عبد الله أقرَّ النبيُّ ﷺ أبا بكر على اختياره له من أجلها، فهو شاب ذكيٌّ، سريعُ البديهةِ، قويُّ الحافظة، حَسَنُ الفَهم، وقبلَ كلِّ ذلك غُمِسَ في الإيمان غَمْسًا، فلن يبالي أبدًا بحَجمِ المخاطر التي سيتعرض لها، ولن يلتفت لحظةً إلى الصعاب التي سيخوضها في سبيل سلامة النبيِّ ﷺ إلى أن يُبَلِّغَ رسالة ربه جَلَّ وَعَلَا، حتى وإن اعترضَهُ الموتُ نفسُه، فكلُّ المشركين يبحثون عن النبيِّ ﷺ إرادةَ قتلِه، وأولُ بيتٍ ستدور حوله الشكوك هو بيتُ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبالفعل قد داهَمَه المشركون وأفزعوا أهله، ولَطَموا أسماء بنت أبي بكر لَطْمةً منكرةً وهي حاملٌ في شهرها الثامن لما أَبَتْ أن تخبرهم بمكان رسول الله ﷺ[٥].

وفي ظل هذه الظروف المتوترة قام عبد الله بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمهمته على أكمل وجه، فقد كان يُمثل جهاز الاستخبارات الذي ينقل إلى الغار كلَّ معلومة يستطيع أن يرسم بها النبيُّ ﷺ خُطته.

ثم لحِق النبيُّ ﷺ وصاحبُه بالمهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في المدينة، ورجع عبد الله بن أبي بكر إلى أختيه وزوجة أبيه في مكة المشتعلة غضبًا ليهاجر بهم خُفْيةً

---

(١) أي: فطِنٌ مُدركٌ لحاجته بسرعة، كما في مطالع الأنوار (٢/ ٧٢).

(٢) اللَّقِنُ هو: السَّرِيعُ الْفَهْمِ، كما في فتح الباري (٧/ ٢٣٧).

(٣) أَيْ: يُطْلَبُ لَهُمَا فِيهِ الْمَكْرُوهُ، وَهُوَ مِنَ الْكَيْدِ، كما في الفتح (٧/ ٢٣٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥٨٠٧).

(٥) حلية الأولياء (٢/ ٥٦).

إلى الله ورسوله، وها هي مغامرةٌ جديدةٌ سيخوضها الغلام الشاب في سبيل الله.

فواللهِ لقد كابد هذا الجيلُ أمورًا، وخاض مِحَنًا تشيب لها الرؤوس من أجل أن تَنْعَم الأجيالُ التي بعدهم في رحاب الإسلام، فجزاهم الله خيرًا.

قصةُ حُبٍّ وزواجٍ

ولقد أحبَّ الشاب المؤمن عبدُ الله بن أبي بكر فتاةً من المؤمنات المهاجرات، سليلة حَسَبٍ ونَسَبٍ، اسْمُها: عاتِكَةُ، وأبوها هو زَيدُ بنُ عَمرو بنِ نُفيل، الذي قال عنه النبيُّ ﷺ: «**إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ**»[(١)]، وأخوها هو سَعيدُ بنُ زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة.

وقبل أن نَشْرع في أحداث هذه القصة لا بد أنْ نعلم أولًا أنَّ الإسلام لم يُحرِّم الْحُبَّ بين الرجل والمرأة، فما جاء الإسلام ليُمِيتَ المشاعر، أو يُجمِّدَهَا في صدور أتباعه، بل جاء ليهذبها ويجعلها تسير في مسارها الصحيح.

فمَنْ أَحَبَّ فتاةً فليسعَ للزواج منها، ولْيأتِ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، وما أجمل ما قاله النبيُّ ﷺ: «**لَمْ نَرَ لِلْمُتَحَابَّيْنِ مِثْلَ النِّكَاحِ**»[(٢)].

أما عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقد باحَ بسرِّه المكنون لأبيه الحنون، فذهبا إلى أهل الفتاة فرحبوا وفرحوا، وتمَّ الزواج المبارك، وعاش الزوجان قصة حُبٍّ تناقلها أهل السِّيَرِ والتراجم.

وبعد مرور فترة على هذا الزواج أَحَسَّ أبو بكرٍ صاحبُ الهِمَّةِ العالية في دُروب العبادة وصُنوف الطاعات أنَّ ولدَه عبد الله شُغِلَ بهذا الزواج عن كثير من القُرُبات التي كان يحب أنْ يُحْرِز ولدُه السبقَ فيها، فقال له: إنَّ زوجتك قد فتنك وشغلتك

(١) أخرجه أبو يعلى (٩٧٣)، وصحَّحه الألباني في صحيح السيرة (٩٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٤٧)، والحاكم (٢٦٧٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦٢٤).

فطلِّقْها، فنزل الأمر على قلب عبد الله كالصاعقة المُدوية؛ فهو الولد البار الذي لم يخالف أباه ولم يراجعه في أمر قط، وأمسى مَهْمُومًا بين لوعتين، فأنشأ قائلًا:

يَقُولُــونَ طَلِّقْهَــا وَخَــيِّمْ مَكَانَهَــا ... مُقِيمًــا عَلَيْهَــا الْهَــمَّ أَحْــلامَ نَــائِمِ

وَإِنَّ فِرَاقِــي أَهْــلَ بَيْــتٍ أُحِــبُّهُمْ ... عَلَـى كُـرْهٍ مِنِّـي لإِحْـدَى الْعَظَـائِمِ

وليس كل أَبٍ يأمر ولده بطلاق زوجته يجب على الولد أن يفعل، ولكن هذا أبو بكر الصدِّيق صاحب النظر والبصيرة، فمن أجل ذلك آثَرَ الشابُّ المؤمن مرضاة أبيه على ما تميل إليه نفسُه، فطلقها وألحقها بأهلها.

ثمَّ دخل أبوه عليه يومًا يتفقده، فسمعه يقول مُنْعَزِلًا:

أَعَاتِـكُ لا أَنْسَـاكِ مَـا ذَرَّ شَـارِقٌ[1] ... ومَـا لَاحَ نَجمٌ فِـي السَّـمَاءِ مُحلِّـقُ

أَعَاتِــكُ قَلْبِــي كُــلَّ يَــومٍ وليلــةٍ ... إليـكِ بِمَـا تُخْفـي النُّفُـوسُ مُعَلَـقُ

فلَـمْ أَرَ مِثْلِـي طَلَّـقَ الْيَـوْمَ مِثْلَهَـا ... وَلا مِثْلَهَـا فِـي غَيْـرِ جُـرْمٍ يُطَلَّـقُ

لَهَـا خُلُـقٌ جَـزْلٌ وَرَأْيٌ وَمَنْصِـبٌ ... وَحِلْـمٌ وَعَقْـلٌ فِـي الْحَيَـاءِ مُصَـدَّقُ

فرَقَّ أبوه لحاله فأتاه بها، وظلت معه حتى فرَّقَ بينهما الموت[2].

فكانت هذه الوقعة من أبي بكرٍ في حياة ولدِه عبدِ الله بمثابة دَرْسٍ عَمليٍّ تَربويٍّ دفعه دفعًا في وُجُوه الخيرات، وساحات السرايا والغزوات، ولقد كان لعبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَورٌ حَسنٌ في فتح مكة وغزوة حُنين، ثم خرج مع النبيِّ ﷺ لحصار الطائف.

---

(١) أي: كلما أشرقت الشمسُ. ينظر: لسان العرب (١٠/ ١٧٤).

(٢) ينظر: الاستيعاب (٤/١٨٨٧)، وأسد الغابة (٧/ ١٨١)، والإصابة (٤/ ٢٥)، والوافي بالوفيات (٣١٨/١٦).

حِصَارُ الطَّائِفِ

لما هَزمَ الله المشركين في حُنَين فَرَّ عامتُهم إلى الطائف فتحصنوا خلف أسوارها المنيعة، فلحقهم النبيُّ ﷺ بجيشه فحاصرهم، ودعاهم إلى الله بالحسنى، فلم يستجيبوا، وانهالوا على المسلمين رَميًا بالنِّبال والسهام، وكانوا رماةً قَلَّما يخطئون، حتى قال الناس للنبيِّ ﷺ: «يَا رَسُولَ الله أَخْرَقَتْنَا نِبَالُ ثَقِيفٍ، فَادْعُ الله عَلَيْهِمْ، فقَالَ: **اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا**»[١]، ولما اشتد الأمر حَفَّز النبيُّ ﷺ جيشَه فقال: «**مَنْ رَمَى بِسَهْم فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ فَهُوَ لَهُ عِدْلُ مُحَرَّرٍ، وَمَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ الله ﷻ فَلَهُ دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ**»[٢]، فعندئذٍ نهض جماعةٌ من خِيرة رماة المسلمين منهم عبد الله بن أبي بكر ينافحون عن النبيِّ ﷺ والمسلمين، فردوا المشركين إلى جُحُورهم، ولكن أصيب عبد الله بسهم إصابةً غائرة أوقعته على الأرض في دمائه، وكان ذلك في أواخر السنة الثامنة من الهجرة، ولم يأذن الله بفتح الطائف في هذه الأحداث، فرجع المسلمون وحُمِلَ عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى المدينة جريحًا.

وعندَ موتِ رسولِ الله ﷺ

اشترى عبدُ الله بن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حُلَّةً يَمَنيةً لِيُكَفَّنَ فيها رسولُ الله ﷺ[٣]، فعنْ أمِّ المؤمنين عَائِشَةَ قَالَتْ: «أُدْرِجَ رَسُولُ الله ﷺ فِي حُلَّةٍ يَمَنِيَّةٍ كَانَتْ لِعَبْدِ الله بْنِ أَبِي بَكْرٍ، ثم اسْتَخْرَجُوهُ ﷺ مِنْهَا وَلَمْ يُكَفِّنُوهُ فِيها، وَكُفِّنَ فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ بِيضٍ يَمَانِيَةٍ لَيْسَ فِيهَا عِمَامَةٌ وَلَا قَمِيصٌ، أَمَّا الْحُلَّةُ فَإِنَّمَا شُبِّهَ عَلَى النَّاسِ فِيهَا[٤] فَتُرِكَتِ، فَأَخَذَ عَبْدُ الله

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٤٢) عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٤٢٨)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٣٣).

(٣) ينظر: الاستيعاب، لابن عبد البر (٣/ ٨٧٥).

(٤) ولعل سبب الشبهة: أن الحلة مكونة من إزار ورداء، فلا تسمَّى حُلَّةً حتى يكونا ثوبين. ينظر: المفهم، للقرطبي (٢/ ٦٠٠).

الْحُلَّةَ فَقَالَ: لَأُكَفِّنَنَّ نَفْسِي فِي شَيْءٍ مَسَّ جِلْدَ النَّبِيِّ ﷺ»[(١)].

فإن قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «لَأُكَفِّنَنَّ نَفْسِي فِي شَيْءٍ مَسَّ جِلْدَ النَّبِيِّ ﷺ» يُظْهِر لك إلى أي حَدٍ بلغ حُبُّ رسول الله ﷺ وتعظيمه حيًّا وميّتًا في قلب عبد الله بن أبي بكر.

وبقيت الحُلة عند عبد الله الذي لم يَبْرَأ من جُرْحِ الطائف إلى أن نزف الجُرحُ من جديد بعد موت الرسول ﷺ بشهور، فأحسَّ عبد الله بقرب أجله، وأنه سيلحق بالنبيِّ ﷺ في الجنة مع الشهداء، فأمرهم أن يأتوه بالحُلة، فأمسك بها وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ رَضِيَهَا اللهُ ﷻ لِنَبِيِّهِ ﷺ لَكَفَّنَهُ فِيهَا، وَاللهِ لَا أُكَفِّنُ نَفْسي فِي شَيْءٍ مَنَعَهُ اللهُ ﷻ نَبِيَّهُ أَنْ يُكَفَّنَ فِيهِ، فَبَاعَهَا وَتَصَدَّقَ بِثَمَنِهَا»[(٢)].

ومِثْل هذه التصرفات- وإن استهان بها البعض- إلا أنها في الحقيقة عميقة المعاني، تبرهن على صدق محبة ذلكم الشاب لرسول الله ﷺ، وتُبين لك إلى أي مدى كان يَلْزَمُ غَرْزَ رسوله ﷺ في حياته وعند مماته.

وحانَ وقتُ الرحيلِ

ثمَّ ثَار على عبد الله جُرحُه الذي لم يَلتئم، والذي لم يزل يُكابد آلامَه حتى علاه الكربُ، فلزم فراش الموت إلى أن أتاه اليقين وهو في ريْعان شبابه، وذلك في شوال سنةَ إحدى عشرة من الهجرة، في خلافة أبيه الصدِّيق.

وكانت جنازته بعد صلاة الظهر، وقد شهدتها جُموعٌ غفيرٌ، وصلى عليه أبوه، ونزل قبره عمرُ بنُ الخطاب وطلحة بنُ عبيد الله وأخوه عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ليلحدوه.

---

(١) ينظر: مسلم (٤٥، ٤٦)، وأحمد (٢٥٠٤٩)، والترمذي (٩٩٦).
(٢) ينظر: مسلم (٤٥)، وأحمد (٢٥٠٤٩)، والاستيعاب (٣/ ٨٧٥).

وخرج عبد الله بنُ أبي بكر من الدنيا وترك لنا ذكريات تُهَيج القلب كلما ذكره الذاكرون.

وبعد الصبر والرضا بقضاء الله خالطت دموعَ عاتكةَ كلماتٌ رَثَتْ بها زوجَها وحبيبَها ورفيقَ دربِها فقالت رَضِيَٱللَّهُعَنهَا[1]:

رُزِئْتُ بخيرِ الناسِ بعد نبيِّهم — وبعدَ أبي بكرٍ وما كانَ قَصَّرا
فآلَيْتُ لا تنفكُّ عَيني حزينةً — عليكَ ولا ينفكُّ جلديَ أغبرَا
فلله عَيْنَا مَنْ رَأى قطُّ مثلَه — أكرَّ وأَحْمَى في الهِياجِ وأَصْبَرا
إذا أُشْرِعَتْ فيه الأَسِنَّةُ خاضَها — إلى الموتِ حتى يَتركَ النَّقعِ أحْمَرا

أما أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ فقد رجع إلى بيته ينتزع الخُطَى انتزاعًا في صبر واحتساب، فدخل على ابنته عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا فقالت له: «الْحَمْدُ لله الَّذِي رَبَطَ عَلَى قَلْبِكَ، وَعَزَمَ لَكَ عَلَى رُشْدِكَ، فَخَرَجَ أبو بكر، ثم دَخَلَ، فَقَالَ لها: أَيْ بُنَيَّةُ، أَتَخَافُونَ أَنْ تَكُونُوا دَفَنْتُمْ عَبْدَ اللهِ وَهُوَ حَيٌّ؟، فَقَالَتْ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ يَا أَبَتِ، فَقَالَ: أَسْتَعِيذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، أَيْ بُنَيَّةُ إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَلَهُ لِمَّتَانِ: لِمَّةٌ مِنَ الْمَلَكِ وَلِمَّةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ»[2].

بينَ أبي بكرٍ وقَاتِلِ ولدِه

وكان السهمُ الذي أصاب عبدَ الله رَضِيَٱللَّهُعَنهُ يوم الطائف قد احتفظ به أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ في بيته، وكأنه وسام شرفٍ يُذكِّره بولده الشهيد البار، إلى أن التقى أبو بكرٍ يومًا بقاتل ولده فكان من أمره عجبًا يُحدِّثنا به القاسم بنُ محمد بن أبي بكرٍ، فيقول: «فَقَدِمَ عَلَيْهِ

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٢/ ١٢٠)، والاستيعاب (٣/ ٨٧٤)، والإصابة (٤/ ٢٤)، والوافي بالوفيات (١٧/ ٤٩).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦٠٢١) عن القاسم بن محمد بن أبي بكر.

وَفْدُ ثَقِيفٍ، وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ السَّهْمُ عِنْدَهُ، فَأَخْرَجَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ أبو بكرٍ: هَلْ يَعْرِفُ هَذَا السَّهْمَ مِنْكُمْ أَحَدٌ؟، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ عُبَيْدٍ أَخُو بَنِي الْعَجْلَانِ: هَذَا سَهْمٌ أَنَا بَرَيْتُهُ وَرُشْتُهُ وَعَقَّبْتُهُ، وَأَنَا رَمَيْتُ بِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَإِنَّ هَذَا السَّهْمَ الَّذِي قَتَلَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، فَالْحَمْدُ لله الَّذِي أَكْرَمَهُ بِيَدِكَ، وَلَمْ يُهِنْكَ بِيَدِهِ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَعُ لَكُمَا»[(١)].

ما أعظم أبا بكر الصديقَ!، لم يثأر من قاتل ابنِه الماثل بين يديه وهو رئيس دولة الإسلام، حتى ولم يعنِّفْه، ولم يقل له كلمةً تؤذيه، بل فتح أمامه باب الأمل والرجاء، ولَفَتَ انتباهَه إلى نعمة الله على القاتل والمقتول؛ إذ اتخذ اللهُ عبدَ الله شهيدًا بيدِ هذا الرجل، ولم يأخذْه اللهُ كافرًا بيدِ عبد الله، فيا لروعة الإيمان!.

وفي هذا يحضرني قول النبيِّ: «**يَضْحَكُ اللهُ إلى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أحَدُهُما الآخَرَ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ، يُقَاتِلُ هذا في سَبيلِ اللهِ، فيُسْتَشْهَدُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ علَى قَاتِلِهِ، فيُسْلِمُ، فَيُقَاتِلُ في سَبيلِ اللهِ حتى يُسْتَشْهَدُ**»[(٢)]. فاللهم ارْزُقْنا مِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيَّنا مَصَائِبَ الدُّنْيَا.

رضي اللهُ عن عبدِ اللهِ بنِ أبي بكرٍ،
وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦٠٢١)، والبيهقي في الكبرى (١٨١٩١).
(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، وأحمد (٩٩٧٦)، واللفظ له.

أَبُو الدَّحدَاح الأنصَاريُّ

كَم مِن عِذقٍ رَداحٍ في الجنةِ لأَبي الدَّحداحِ(١)

لقد اشتُهرت المدينة المنورة من قبل عصر النبوة وبعده ببساتينها ذات الشجر والنخيل، جميلةِ الأغصان، وارفةِ الظلال، عَذبةِ ماء العيون.

وكان عامة أهلها الأبرار يعملون في الزراعة، ومن يمتلك منهم حائطًا(٢) فهو من الأغنياء فيهم.

ولقد عُرِفَ أنصارُ هذه البلدة بواسع العطاء، فلقد تجاوزوا حدود الكرم والجود إلى إيثارٍ بلا حدود، حتى مدحهم الله تعالى في ذلك قائلًا: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ومن بين هذ الأجواء الطيبة، ومن هاتيكَ البقعةِ الطاهرة خرج بطل قصتنا ليرسم للدنيا صورةً حيةً تُشرق من خلالها شمسُ البذلِ السَّمْح، والعطاءِ الفياض، ويرى المتأملُ فيها كيف تفاعل هذا الأنصاري العظيم مع القرآن الكريم، وكيف تفاعل القرآن معه.

إنه الصحابي الجليل أَبُو الدَّحْدَاحِ الأنْصَاري رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

نبذةٌ عن حياتِه وشخصيتِه

هو ثَابِتُ بْن الدَحْداح، وقيل: ابن الدحداحة بْن نعيم بْن غنم بْن إياس، من حلفاء

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٤٨٢) عن أنس عن النبي ﷺ.

(٢) وهو: الْبُسْتَانُ مِنْ النَّخْلِ إِذَا كَانَ عَلَيْهِ حَائِطٌ، وَهُوَ الْجِدَارُ. ينظر: تاج العروس (١٩/ ٢٢١).

بني عمرو بن عوف، وكنيته: أَبُو الدَّحْدَاحِ الأَنْصَارِي[(١)].

أسلم أَبُو الدَّحْدَاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل مقدم النبيِّ ﷺ المدينة، وكان صاحب نخلٍ وزروع ذات أفنان، وكان له بستان تحيطه الأسوار، به سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ، وتجري تحت ظلاله قنوات الماء العذب، وكان هذا الحائط أحب أمواله إليه، وكان كثيرًا ما يجلس فيه مع أسرته، يأكلون من لذيذ ثماره، ويستظلون بظلاله، ويشربون من ماء فيه طيب.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد حَباه الله عقلًا واعيًا، وفهمًا راقيًا، وخُلقًا نبيلًا، فلم يَرُقْ له فعلُ يهود يثرب مع المرأة أيام حيضها، فقد كانوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُشَارِبُوهَا وَأَخْرَجُوهَا مِنْ الْبَيْتِ[(٢)]، وكاد بعضُ العرب من أهل يثرب أن يسلكوا طريقتهم فاستنكر أَبُو الدَّحْدَاحِ وطائفةٌ من الأنصار ذلك، حتى هاجر النبيُّ ﷺ إليهم، فرآه أَبُو الدَّحْدَاحِ قد جاء بدين يُكَرِّمُ المرأة ويرفع قدرها، فانطلق إلى رسول الله ﷺ يسأله عن حُكم ذلك الفعل المُشين[(٣)]، فأنزل الله لهم جواب ذلك من السماء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فـ«أَمَرَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُؤاكِلُوهُنَّ، وَأَنْ يُشَارِبُوهُنَّ، وَأَنْ يَكُنَّ مَعَهُمْ فِي الْبُيُوتِ، وَأَنْ يَفْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ»[(٤)].

تفاعلُه مع آياتِ القرآن

لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾

---

(١) ينظر: الاستيعاب (١/ ٢٠٣)، وأسد الغابة (١/ ٢٠٣)، والإصابة (١/ ٥٠٣).

(٢) ينظر: ما أخرجه مسلم (٣٠٢)، والترمذي (٢٩٧٧) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٤٠٠)، وتفسير الطبري (٣/ ٧٢٣)، وأسباب النزول، للسيوطي (ص٥٧).

(٤) ينظر: ما أخرجه مسلم (٣٠٢)، والترمذي (٢٩٧٧)، والنسائي (٢٨٨).

[البقرة: ٢٤٥][1] لَقِيَ عند أبي الدحداح قلبًا واعيًا، وعقلًا متدبرًا، وفهمًا عميقًا لحقيقة الدنيا والآخرة، فأخذت الآية تتردد في نفسه حتى استحوذت على كل تفكيره، فترك كل شيءٍ وانطلق يشتد نحو رسول الله ﷺ بروحٍ متفاعلةٍ مع القرآن العظيم ليسأل عن هذه الآية، فصادف مجيئُه رجلين جاءا يختصمان عند رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: «يَا رَسُولَ الله، إِنَّ لِفُلانٍ نَخْلَةً وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا فَمُرْهُ يُعْطِينِي [النخلة] أُقِيمُ بِهَا حَائِطِي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ له: **أَعْطِهِ إِيَّاهَا بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ**، فَأَبَى»[2]، وعندئذٍ تدخل أبو الدحداح الذي كَبُرَ عليه أن يُرَدَّ طلبُ النبيِّ ﷺ، وقد وجد أمامه الفرصة سانحة ليلبي نداء الله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الله يُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟، قَالَ: **نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ**، فَقَالَ: أَرِنِي يَدَكَ يا رسول الله، فَنَاوَلَهُ ﷺ يَدَهُ، فَقَالَ أبو الدحداح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي. وَحائِطُهُ فِيهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ»[3]، ثم ذهب إلى الرجل الذي آثَرَ نخلةً في الدنيا على نعيم الجنة، فقال له: «بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي، فَفَعَلَ، فَأَتَى أَبُو الدَّحْدَاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُول الله إِنِّي ابتعت النَّخْلَةَ بحائطي فاجْعلها لَهُ، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مرارًا: «**كَمْ مِنْ عِذْقٍ رَدَاحٍ فِي الْجَنَّةِ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ**»[4]، والعِذْقُ الرَدَاح هي النخلة العظيمة المليئة بالثمار[5]، فقد باع أبو الدحداح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بستانه في الدنيا الفانية ببستانٍ خيرٍ منه في جنات النعيم.

ثم ذهب أبو الدحداح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَمْشي حَتَّى أَتَى الْحَائِطَ وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيه وَعِيَالُهَا، فَنَادَى: «يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ، قَالَتْ: لَبَّيْكَ، فَقَالَ: اخْرُجِي فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي، فَإِنِّي بِعْتُهُ

---

(١) آية سورة الحديد (١١)، وقيل: آية سورة البقرة (٢٤٥).

(٢) أخرجه أحمد (٧١٥٩)، والحاكم (٢١٩٤)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٩٦٤).

(٣) أخرجه أبو يعلى (٤٩٨٦)، والطبراني في الكبير (٧٦٤)، والبزار (٢٠٣٣)، وينظر: السلسلة الصحيحة (٦/ ١١٣٢)، وصحيح تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٦).

(٤) أخرجه أحمد (٧١٥٩)، والحاكم (٢١٩٤)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٩٦٤).

(٥) ينظر: لسان العرب (٢/ ٤٤٧)، ومشارق الأنوار (١/ ٢٨٦).

بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَتْ: قَدْ رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا الدَّحْدَاحِ، ثم أَقْبَلَتْ عَلَى صِبْيَانِهَا تُخْرِجُ مَا فِي أَفْوَاهِهِمْ وَتُنَفِّضُ مَا فِي أَكْمَامِهِمْ، ثم خرجوا منه جميعًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ»[(١)].

وذكر القرطبيُّ وغيره أن أبا الدحداح أنشأ يقول لزوجته[(٢)]:

هَـــدَاكِ رَبِّـــي سُــــبُلَ الرَّشَـــادِ ... إِلَـــى سَـــبِيلِ الْخَيْـــرِ وَالســـدَادِ
بِينِـــي مِـــنَ الْحَـــائِطِ بِـــالْوِدَادِ ... فَقَـدْ مَضَـى قَرْضًـا إِلَـى التَّنَـادِّ
أَقْرَضْـــتُهُ اللهَ عَلَـــى اعْتِمَـــادِي ... بِـــالطَّوْعِ لَا مَـــنٍّ وَلَا ارْتِـــدَادِ
إِلَّا رَجَـاءَ الضـعْفِ فِـي الْمَعَـادِ ... فَـــارْتَحِلِي بِـــالنَّفْسِ وَالْأَوْلَادِ
وَالْبِـــرُّ لَا شَـــكَّ فَخَيْـــرُ زَادِ ... قَدَّمَـــهُ الْمَـــرْءُ إِلَـــى الْمَعَـــادِ

فأجابته قائلة:

بَشَّـــرَكَ اللهُ بِخَيْـــرٍ وَفَـــرَحْ ... مِثْلُـكَ أَدَّى مَـا لَدَيْـهِ وَنَصَـحْ
قَـــدْ مَتَّـــعَ اللهُ عِيَـــالِي وَمَـــنَحْ ... بِـالْعَجْوَةِ السَّـوْدَاءِ وَالزَّهْـوِ الْـبَلَحْ
وَالْعَبْـدُ يَسْـعَى وَلَـهُ مَـا قَـدْ كَـدَحْ ... طُـولَ الليـالي وعليـه مـا اجْتَـرَحْ

وقيل: إن الله جَلَّ وَعَلَا أنزل في صنيع أبي الدحداح قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧][(٣)].

---

(١) ينظر: مسند أبي يعلى (٤٩٨٦)، ومسند أحمد (٧١٥٩)، ومستدرك الحاكم (٢١٩٤)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٣٨).

(٢) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان (١/ ٢٣٣)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢٣٨).

(٣) ينظر: تفسير البغوي (٥/ ٢٦٣)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ٩٠)، وتفسير ابن عطية (٥/ ٤٩١)، وزاد المسير، لابن الجوزي (٥/ ٤٩١)، وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا إشكال أن تتعدد أسباب النزول. والله أعلم.

يومٌ في حياةِ أبي الدَّحداحِ

رُوِيَ: «أنَّ أبا الدحداح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصبح يومًا صائمًا، فلما كادت الشمسُ أنْ تغرب طلب من أمِّ الدحداح أن تجهز له فطُوره، وقبل أن تقوم من مقامها جاء مسكينٌ يطرق بابهم ويقول: عَشُّوني بما عندكم فإني لم أَطعمِ اليومَ شيئًا، فقال أبو الدحداح لها: قومي فاثرُدي رغيفًا وصُبِّي عليه مرقةً وأطعميه، ففعلتْ ذلك، فما لَبِثوا أنْ جاءت جاريةٌ يتيمةٌ، فقالت: أطعموني فإني ضعيفةٌ لم أَطعَمِ اليوم شيئًا، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا أم الدحداح قومي فاثرُدي رغيفًا وأطعميها؛ فإنَّ هذه- واللهِ- أحقُّ من ذلك المسكين، ففعلتْ وأطعمَتْها، فبينما هم كذلك إذ جاء على الباب سائلٌ أَسيرٌ ينادي: عَشُّوا الغريب في بلادكم، فإني أسيرٌ في أيديكم وقد أجهدني الجوع، فبالذي أعزَّكم وأذلني لمَا أطعمتموني، فقال أبو الدحداح: يا أم الدحداح قومي فاثرُدي رغيفًا وأطعمي الغريب الأسير، فإن هذا أحق من أولئك، ففعلتْ وأطعمَتْه، ثم بحث أبو الدحداح في بيته عن فطور له، وقيل: إن صنيع أبي الدحداح وزوجته في ذلك اليوم مما أنزل الله فيه قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩- ١١]»(١).

شجاعتُه يومَ أُحُدٍ

وفي يوم أُحُد دارت الدائرة على المسلمين لمَّا ترك الرماة مواقعهم، وأوقع المشركون فيهم قتلًا، وأصيب النبيُّ ﷺ بجراحات شديدة، وأُشيع أنه قتل، فخارت معنويات كثير من جيش المسلمين، وهَمَّ البعضُ بالعودة إلى المدينة، وهنا بَرَزَ دَور البطل المجاهد أَبُو الدَّحْدَاحِ الأنْصَاري الذي يَظهر في الوقت المناسب دائمًا، فجعل

---

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٤/ ٥٣٥)، وتفسير ابن عطية (٥/ ٤٠٨)، وزاد المسير (٤/ ٣٧٧).

يصيح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا معشر الأنصار، إليَّ إليَّ، أنا ثابتُ بنُ الدحْداح، إنْ كانَ مُحَمَّد ﷺ قُتِل فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يَمُوت، فقاتِلوا عن دينكم؛ فإنَّ الله مُظْهِرُكُم وناصِرُكم.

فنهض إليه نفر من الأنصار، فجعل يَحْمِلُ بمن معه من المسلمين على المشركين، فصمدوا لكتيبة من أشرس فرسانهم كانت تقتل في المسلمين قتلًا حتى صدوهم عنهم بعدما جُرح أبو الدحداح ومن معه جراحاتٍ منكرةً أَوْدَتْ بحياتهم جميعًا على أرض أُحُد، إلا أبا الدحداح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد وجدوه بعد المعركة في دمائه يلتقط أنفاسَه فحُمِلَ إلى بيته جريحًا[(١)].

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعد فترةٍ عاشها أبو الدحداح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صابرًا محتسبًا وهو يعاني من آلام ما وقع به من طعنات وضربات يوم أحد انتفضت به هذه الجروحُ الغائرةُ لتُلحقَه بركب الشهداء، وليرى وعد الله الذي ينتظره في جنات النعيم[(٢)].

وقد صلى النبيُّ ﷺ على أبي الدحداح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم خرج مع الناس في جنازته التي ضمت جمعًا غفيرًا من المهاجرين والأنصار، فجلس النبيُّ ﷺ عند قبره حتى دُفن، ثم قام فركب فرسه، والناس من حوله، فَتَذَكَّرَ ﷺ مناقبَ أبي الدحداح وصنيعَه يوم تصدَّق ببستانه، فتحركت شفتاه الشريفتان بكلمات تخللت مسامع مَنْ حوله، فقال ﷺ: «**كَمْ مِنْ عِذْقٍ مُدَلًّى لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ**»[(٣)].

---

(١) ينظر: الاستيعاب (١/ ٣٠٢)، وأسد الغابة (١/ ٤٤٠)، والإصابة (٧/ ٩٩).

(٢) نفس المصادر السابقة.

(٣) ينظر: مسلم (٩٦٥)، وأحمد (٢٠٩٤٤)، وابن حبان (٧١٥٧)، وكلمة: عِذق- بكسر العين-: ما عليه الرطب، وبالفتح: النخل، وقد ضبط بهما، وينظر: في ذلك لسان العرب (٢/ ٤٤٧)، ومشارق الأنوار على صحيح الآثار (١/ ٢٨٦).

وفي الختام إني لأقول: هنيئًا لك الشهادة يا أبا الدحداح، ولقد صدق من قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧]، فقد ربح بيعُك، وقُبلت صدقتُك، ووالله لقد رأيناك عِملاقًا في ساحة البذل والعطاء، وفارسًا بطلًا مِغوارًا في ميدان القتال، حتى صدقك الله وعده، فما أروعَكَ وأروع فِعَالَكَ!.

ووالله إنَّ مواقف أمِّ الدحداح لا تقل روعةً ونُبْلًا عن مواقفك؛ فإنها بحق زوجة صالحة، نِعْمَ البطانةُ لزوجها تأمره بالمعروف وتعينه عليه، ولقد وقفْتُ أمامها منبهرًا وهي تزيدُ زوجَها إقدامًا نحو ربه بكلمات قليلة المباني كثيرة المعاني خرجت من لسانٍ صادق لم يتردد ولم يتلعثم وهي تقول: «قَدْ رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا الدَّحْدَاحِ»، ولقد كادت عيني أن تَسيلَ دموعُها وهي تُقْبِلُ عَلَى صِبْيَانِهَا تُخْرِجُ مَا فِي أَفْوَاهِهِمْ وَتُنَفِّضُ مَا فِي أَكْمَامِهِمْ من ثمرات البستان؛ لأنه لم يُصْبِحْ ملكهم.

ثم تُطِل علينا بطاعةٍ لزوجها لا حدود لها طالما كانت في سُبُل الخيرات، فلم تتعكر ولم تغضب عندما أمرها يوم صومهما بإطعام المسكين، ثم اليتيمة، ثم الأسير، بل كانت تسارع معه نحو مرضاة ربِّ العالمين.

ولو جَمَعْتَ- أيها القارئ الكريم- كل هذه المواقف أمام ناظريك لرأيت أن هذا الصحابي الجليل المُسارعُ في سُبل الخيرات كانت خلفه زوجة مؤمنة صادقة تُعينه على ما وصل إليه، وعندئذٍ تتجلى قيمةُ وصية النبيّ ﷺ: «**لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً تُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ**»[(١)].

ووالله مهما كتب القلم في مدحهما سيقصر في حقهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

رضي اللهُ عن أبي الدَّحدَاحِ الأنصاريِّ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤٣٧)، وابن ماجه (١٨٥٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٠٩).

أَبُو سُفيانَ بنُ حَربٍ

من دخلَ دارَ أبي سُفيانَ فهو آمِنٌ

إن سطور هذه الصفحات تُبْرزُ سيرة رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، ظُلم في التاريخ ظُلمًا عظيمًا، وانهالت عليه وعلى آل بيته الافتراءات، حتى ظَنَّ بعض المسلمين أنه لم يسلم أصلًا.

وسبب ذلك: أن صفحات التاريخ قد سطرتها أقلامٌ عديدة، عكست في تسطيرها لأحداثه اتجاهات أصحابها المختلفة، وإن من أعظم هذه الأقلام أثرًا في تشويه وتحريف التاريخ الإسلامي العظيم أقلام الاتجاه الشيعيِّ الرافضيِّ بمختلف طرائقه؛ حيث إن سَبَّ الصحابة وتكفيرهم من أصول معتقداتهم.

كما أن مَنْ يُسَمُّوْنَ أنفسهم بالمُستشرقين، ومَنْ خرج من تحت عَبَاءَتِهم من دعاة التغريب، قد أطلقوا العنان لأقلامهم المُغرِضة لترسم صورَةً قبيحةً لتاريخنا لا أصل لها في الحقيقة، وكأن هذه الأقلام في أيديهم خناجرُ تطعن في خير قروننا.

ولكنه قد فات هؤلاء المُرْجِفينَ أن الله سبحانه قد تعهد بحفظ دينه، وأن الطعن في نقلة هذا الدين ليس من ورائه قصدٌ إلا الطعن في الدين نفسه، فمن أجل ذلك أَلْهَم الله طائفةً من أوليائه الصالحين، والعلماء الربانيين أن يُسَخِّروا طاقاتهم وأوقاتهم ليحفظوا للأمة تاريخ أسلافهم من التحريف والتشويه، قد أَفْنَوا أعمارهم في نقل هذا التاريخ لنا وفق منهج علمي مُنْصِفٍ، يقوم على دقة نقل الرواية؛ ليعلم المتخصص الناظر في سندها ومتنها صحتها من ضعفها.

وإن من الصحابة الكرام الذين هُتِكَت أعْرَاضُهُم وانهالت عليهم الافتراءات

الصحابي الجليل: أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وللأسف الشديد أن بعض الدعاة المُخلصين سلطوا الضوء في خطبهم ومواعظهم على مرحلة كفر أبي سفيان وجاهليته، وغفلوا عن مرحلة إسلامه وجهاده وذكر مناقبه، وذلك عن غير قصد منهم، مما أدَّى إلى أن كثيرًا من المسلمين إذا مرَّ على مسامعه ذِكْرُ أبي سفيان رُسِمَتْ أمام عينيه صورة ذلكم الرجل المشرك الذي كان يقود جيوش الكُفرِ لحرب رسول الله ﷺ.

لذا كان حَرِيًّا بنا أن نُظهر للمسلمين وغيرهم الحقيقة المذهلة التي يرون من خلالها روعة الإيمان الذي إذا خالطت بَشاشَتُهُ القلوبَ يتحول المعاند عابد الأوثان إلى مؤمن عابد من أولياء الرحمن.

اسمُه ونسبُه وكُنيتُه[١]

هو صَخْرُ بْنُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْن قصي بْن كلاب بن مرة بن كعب بْن لُؤي، القرشيُّ، وأمه هي: صفيَّة بنت حَزَن الهلالية، عمة أمِّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث زوج النَّبيُّ ﷺ.

وكان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُكَنَّى بِأَبِي حنظلة، لولده حنظلة الذي قُتِلَ يوم بدر كَافِرًا، ولكنه مشهور بكنيته الأخرى: أبي سفيان.

وقد كانت علاقته بالنبيِّ ﷺ وطيدة، حيث إنه يلتقي مع رسول الله ﷺ في جَدِّه عبد مناف، وأنه صِهْرُ رَسُوْل الله ﷺ، فهو والد أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان (أم حبيبة)، كما أنه ابنُ عمة أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث زوج رسول الله ﷺ.

---

(١) ينظر: الاستيعاب (٢/ ٧١٤)، والسير (٣/ ٤٠٦)، وأسد الغابة (٣/ ٩)، والإصابة (٣/ ٣٣٣).

نبذةٌ عن حياتِه قبلَ الإسلامِ (١)

وُلد أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مكة قبل حادثة الفيل بعشر سنين، في بيت قرشيٍّ عريقِ النسب والمكانة، وكان أبوه صخر بن حرب أولَ من كتب بالعربية في قريش.

وَشَبَّ أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قريش حتى أصبح من ساداتها وأشرافها، واشتغل بالتجارة حتى أصبح من أشهر تجار العرب.

وكانت قريش قد جعلت له راية الرؤساء المعروفة بالعقاب، وَكَانَ لا يحبسها إلا رئيس، فإذا حميتِ الحرب اجتمعت قريش فوضعت تلك الراية بيد الرئيس، وكان يقال: أفضل قريش فِي الجاهلية رأيًا ثلاثة: عتبة بن ربيعة، وأبو جهل، وأبو سفيان.

وكانت صلته ببني عبد المطلب بن هاشم قوية، حيث كان العباس عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صديقه ونديمه في الجاهلية، ولما بينهم من القرابة -أيضًا-.

وقد تزوج أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ العديد من الزوجات، وأنجب منهن العديد من البنين والبنات، فمن زوجاته: أم حبيب التي ولدت له حنظلة، وأم حبيبة، وتزوج من زينب بنت نوفل الكنانية التي ولدت له الأمير المجاهد الشهيد يزيد بن أبي سفيان، أما أقرب زوجاته إليه فهي هند بنت عتبة بن ربيعة ابنة أحد سادات العرب في الجاهلية وأشرافهم، وقد وَلدت له معاوية وعتبة وجويرية وأم حكيم.

شمسُ الإسلامِ تُشرقُ على أرضِ مكةَ

ولكنها لم تشرق بعد في قلب أبي سفيان، بل كان أحد الذين واجهوا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعاصفة من الكفر والتكذيب.

ولكن العجيب أنك إذا قلَّبت صفحات السيرة النبوية منذ بداية نزول الوحي على

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ٦٩)، والاستيعاب (٤/ ١٦٧٧)، وأسد الغابة (٧/ ٣٠٧).

النبيِّ ﷺ إلى غزوة بدر فإنك لا تكاد تجد مَوْقِفًا فرديًّا لأبي سفيان يتطاول فيه على النبيِّ ﷺ، أو يسبُّه، كما كان يفعل أبو جهل، وأبو لهب، وعقبة بن أبي معيط وغيرهم، بل وَرَدَ عن ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ أنه قال: «إِنَّمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**)؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أُوذِيَ وَهُوَ بِمَكَّةَ فَدَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ أَمِنَ، فَقَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: **مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَقَدْ أَمِنَ**»[(١)].

وذلك الحال من أبي سفيان نابعٌ من سَجِيَّة تكمن في أعماق شخصيته، فقد قيل له يومًا: «مَا بَلَغَ بكَ مِنَ الشرَفِ ما تَرَى؟، قال: مَا خَاصَمْتُ رجلًا إلا جَعَلتُ بَيني وبينه للصُّلح مَوضعًا»[(٢)].

ومما يؤيد ذلك: أنَّ النبيَّ ﷺ لما دعا على قريش في مكة فأصابهم القحط لم تجد قريشٌ أحدًا يمكن أن يشفع لهم عند رسول الله ﷺ غير أبي سفيان، وإليك خُلاصَةُ القصة.

جاء في الصحيحين: «أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا قُرَيْشًا إِلَى الْإِسْلَامِ فَكَذَّبُوهُ وَاسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ، فلَمَّا رَأَى مِنَ النَّاسِ إِدْبَارًا دَعَا ﷺ عَلَيْهِمْ فقَالَ: **اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**، فَأَصَابَهُمْ قَحطٌ وَجَهْدٌ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ وَالْجُلُودَ وَالمَيْتَةَ وَالجِيَفَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠ - ١١]، فجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِثْلَ الدُّخَانِ مِنْ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ، وَجَعَلَ يَخْرُجُ مِنْ الْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ، فَدَعَوْا فقالوا: رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ، فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ جِئْتَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللهِ وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ، فاستجاب له رسولُ الله ﷺ فَاسْتَسْقَى لَهُمْ، ودَعَا ربه فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَسُقُوا الْغَيْثَ، وأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ٦٩)، وتاريخ دمشق (٢٣/ ٤٤١)، وتهذيب الكمال (١٣/ ١٣١).
(٢) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٢٣/ ٤٧١).

سَبْعًا، فشَكَا النَّاسُ كَثْرَةَ المَطَرِ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ **اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا**، فَانْحَدَرَتِ السَّحَابَةُ عَنْ رَأْسِهِ، فَسَقَوُا النَّاسُ حَوْلَهُمْ، فَلَمَّا أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ عَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٢-١٦] فَانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ»(١).

ولكننا لا ننفي بذلك أنه كان أحد أفراد المجلس القرشيِّ الوثنيِّ الذي يخطط لوأد دعوة الإسلام في مهدها وصدِّ الناس عنها.

وهكذا أصبحَ قائدَ قريشٍ وسيدَها

لما هاجر النبيُّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة عَدَتْ قريشٌ على أموالهم فاغتصبوها، وجمعوا عليها أموالًا فجعلوا منها قافلة تجارية تذهب إلى الشام، وجعلوا أبا سفيان أميرها.

وبالفعل خرجتِ القافلة، وعند عودتهم جاءت أخبارها إلى المسلمين، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «**هَذَا أَبُو سُفْيَانَ قَافِلًا بِتِجَارَةِ قُرَيْشٍ، فَاخْرُجُوا لَهَا، لَعَلَّ اللهَ ﷻ يُنَفِّلُكُمُوهَا**»(٢).

وقبل أن يتحرك المسلمون أرسل النبيُّ ﷺ رجلين يتحسسان الأمر، وكان أبو سفيان أثناء عودته حذرًا يقظًا، يتلقط أخبار المسلمين، فلما دنا من أرض الحجاز أخذ يسأل الركبان عن النبيِّ ﷺ وأصحابه، حتى لقي قومًا فسألهم: «هَلْ رَأَيْتُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: لا إِلا رَجُلَيْنِ، فقَالَ: أَرُونِي مُنَاخَ رِكَابِهِمَا، فَأَرَوْهُ، فَأَخَذَ الْبَعْرَ فَفَتَّهُ فَإِذَا فِيهِ النَّوَى، فَقَالَ: نَوَاضِحُ يثربَ واللهِ!، فعلم بدهائه أن الرجلين من أهل المدينة، وأنهما عين للمسلمين، فأخذ طريق ساحل البحر، وكتب إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِمَسِيرِ النَّبِيِّ ﷺ»(٣).

---

(١) ينظر: البخاري (١٠٢٠، ٤٤١٦، ٤٤٩٦، ٤٥٤٦، ٤٥٤٧، ٤٨٠٩، ٤٨٢١، ٤٨٢٢)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٩٢٣) بسند صحيح.

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (٢/ ١٨)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٩٢٣).

وبذلك نجا أبو سفيان من لقاء المسلمين، وخرجت قريشٌ لقتال المسلمين في بدر فقتل اللهُ صناديدَهم وزعماءَهم كأبي جهل، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف وغيرهم، فلم تجد قريشٌ أحدًا يتسلَّم زعامتها بعد هلاك هؤلاء إلا أبا سفيان.

وهكذا أصبح أبو سفيان قائد قريش وسيدها المطاع، وأصبح مع ذلك يحمل في صدره إلى جنب عداوة الإسلام ثأرًا لولده حنظلة الذي قُتِلَ يوم بدر كَافِرًا، ويحمل على عاتقه ثأر امرأته هند التي قُتِلَ أبوها وأخوها وعمها في نفس المعركة.

ودخل أبو سفيان بذلك طورًا جديدًا في حياته، أضحى يقود فيه الحرب ضد الإسلام بنفسه، بداية من غزوة السَّوِيقِ في السنة الثانية من الهجرة إلى أن قاد جيش الأحزاب الذي حاصر المدينة سنة خمس من الهجرة.

من مواقفهِ النبيلةِ قبلَ إسلامِه

هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة وهاجر معه من أسلم من آل بيته عليهم رضوان الله، ولكن زينب بنت رسول الله ﷺ لم تستطع أن تهاجر مع أبيها فقد منعها زوجها أبو العاص بن الربيع الذي كان كَافِرًا آنذاك.

ولما وقع أبو العاص في الأَسْرِ مع المشركين يوم بدر أرسلت زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في فدائه، فأطلقه النبيُّ ﷺ بشرط أن يُخلي سبيل زينب، ويسمح لها بالهجرة.

وبالفعل رجع أبو العاص إلى مكة وأمر أخاه أن يَخرج بزينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان النبيُّ ﷺ بعث زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ وَرَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ لهما: «**كُونَا بِبَطْنِ يَأْجِجَ**[(١)] **حَتَّى تَمُرَّ بِكُمَا زَيْنَبُ، فَتَصْحَبَاهَا حَتَّى تَأْتِيَا بِهَا**»[(٢)].

(١) هُوَ مَوْضِع قَرِيب مِنْ التَّنْعِيم، كما في عون المعبود (٦/ ١٢٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٩٢)، والحاكم (٤٣٠٦)، وحسَّنه الألباني والأرناؤوط.

وكان لأبي سفيان وامرأته في رحلة هجرة زينب موقفٌ نبيلٌ يرويه لنا عَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ بقوله: «حُدِّثْتُ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ الله ﷺ قَالَتْ: بَيْنَمَا أَنَا أَتَجَهَّزُ بِمَكَّةَ إِلَى أَبِي تَبِعَتْنِي هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، فَقَالَتْ: يَا بِنْتَ مُحَمَّدٍ، أَلَمْ يَبْلُغْنِي أَنَّكِ تُرِيدِينَ اللُّحُوقَ بِأَبِيكِ؟ فَقُلْتُ: مَا أَرَدْتُ ذَلِكَ، فَقَالَتْ: أَيِ ابْنَةَ عَمٍّ، لَا تَفْعَلِي، إِنْ كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فِي مَتَاعٍ مِمَّا يَرْفُقُ بِكِ فِي سَفَرِكِ وَتَبْلُغِينَ بِهِ إِلَى أَبِيكَ فَإِنَّ عِنْدِي حَاجَتَكِ، قَالَتْ زَيْنَبُ: وَاللهِ مَا أُرَاهَا قَالَتْ ذَلِكَ إِلَّا لِتَفْعَلَ، وَلَكِنْ خِفْتُهَا، فَأَنْكَرْتُ أَنْ أَكُونَ أُرِيدُ ذَلِكَ، فَتَجَهَّزْتُ فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ جَهَازِي قَدِمَ حَمْوِي كِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ أَخُو زَوْجِي، فَقَدَّمَ لِي بَعِيرًا فَرَكِبْتُهُ وَأَخَذَ قَوْسَهُ وكِنَانَتَهُ فَخَرَجَ بِي نَهَارًا يَقُودُهَا، وَهِيَ فِي هَوْدَجٍ لَهَا، فَتَحَدَّثَ بِذَلِكَ رِجَالُ قُرَيْشٍ، فَخَرَجُوا فِي طَلَبِهَا حَتَّى أَدْرَكُوهَا بِذِي طُوًى، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ سَبَقَ إِلَيْهَا هَبَّارُ بْنُ الْأَسْوَدِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَنَافِعُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ الْفِهْرِيُّ لَقَرَابَةٍ مِنْ بَنِي أَبِي عُبَيْدٍ بِإِفْرِيقِيَّةَ يُرَوِّعُهَا هَبَّارٌ بِالرُّمْحِ وَهِيَ فِي هَوْدَجِهَا، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ حَامِلًا فِيمَا يَزْعُمُونَ، فَلَمَّا رِيعَتْ طَرَحْتُ ذَا بَطْنِهَا، فَبَرَكَ حَمْوُهَا وَنَثَلَ كِنَانَتَهُ، ثم قَالَ: لَا يَدْنُو مِنِّي رَجُلٌ إِلَّا وَضَعْتُ فِيهِ سَهْمًا، فَتَلَكَّأَ النَّاسُ عَنْهُ، وَأَتَى أَبُو سُفْيَانَ فِي جِلَّةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، كُفَّ عَنَّا نَبْلَكَ حَتَّى نُكَلِّمَكَ، فَكَفَّ فَأَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَمْ تُصِبْ، خَرَجْتَ بِالْمَرْأَةِ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ عَلَانِيَةً، وَقَدْ عَرَفْتَ مُصِيبَتَنَا وَنَكْبَتَنَا، وَمَا دَخَلَ عَلَيْنَا مِنْ مُحَمَّدٍ، فَيَظُنُّ النَّاسُ وَقَدْ أُخْرِجَ بِابْنَتِهِ إِلَيْهِ عَلَانِيَةً عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ مِنْ بَيْنَ أَظْهُرِنَا أَنَّ ذَلِكَ عَنْ ذُلٍّ أَصَابَنَا عَنْ مُصِيبَتِنَا الَّتِي كَانَتْ، وَإِنَّ ذَلِكَ ضَعْفٌ بِنَا وَوَهَنٌ، وَلَعَمْرِي مَا لَنَا بِحَبْسِهَا عَنْ أَبِيهَا حَاجَةٌ، وَلَكِنِ ارْجِعْ بِالْمَرْأَةِ، حَتَّى إِذَا هَدَأَ الصَّوْتُ وَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّا قَدْ رَدَدْنَاهَا فَسِرْ بِهَا سِرًّا، فَأَلْحِقْهَا بِأَبِيهَا، قَالَ: فَفَعَلَ، فَرَجَعَ فَأَقَامَتْ لَيَالِيًا حَتَّى إِذَا هَدَأَ الصَّوْتُ خَرَجَ بِهَا لَيْلًا حَتَّى سَلَّمَهَا إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَصَاحِبِهِ،

فَقَدِمَا بِهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ»[(١)].

ليُدخلَ اللهُ في رحمتِه من يشاءُ

لو نظرتَ نظرة متأمل في حال أبي سفيان أثناء الحروب التي خاضها ضد المسلمين لرأيتَ عجبًا من عجائب القَدَرِ، وذلك حين ترى أبا سفيان ليس بينه وبين القتل شيء، ثم يكتب اللهُ له في كل مرة النجاة، ولا شك أنها إرادة الله الذي كتب لأبي سفيان أن يموت مُسلمًا، وهذه هي الحكمة التي جَلَّاهَا القرآن في قول الله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح: ٢٥].

ففي السنة الثالثة من الهجرة: في معركة أحد كاد حنظلة بن أبي عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقتل أبا سفيان وقد علاه بسيفه لولا أن مُشرِكًا جاء فقتل حنظلة، فنجا أبو سفيان[(٢)].

وفي السنة الرابعة من الهجرة أرسل النبيُّ ﷺ عمرو بن أمية الضمري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سرية لقتل أبي سفيان، ولكن القدر حال بينهم وبينه[(٣)].

وفي السنة الخامسة من الهجرة: حاصر جيش الأحزاب المدينة بقيادة أبي سفيان، وكاد حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقتل أبا سفيان، وذلك حين قال له النبيُّ ﷺ: «**يَا حُذَيْفَةُ، اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شيئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**، قَالَ حذيفة: فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ، وَالرِّيحُ وَجُنُودُ الله تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ لَا تُقِرُّ لَهُمْ قِدْرًا، وَلَا نَارًا وَلَا بِنَاءً، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ

---

(١) أخرجه الحاكم (٦٨٣٥)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ فِيهِ إِرْسَالٌ بَيْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَزَيْنَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَلَوْلَاهُ لَحَكَمْتُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ. وَقَدْ رُوِيَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ مُخْتَصَرًا.

(٢) ينظر: الاستيعاب (١/ ٣٨٠)، والسير (١/ ٤١١).

(٣) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٧٩)، والبداية والنهاية (٤/ ٨٠).

رَسُولِ اللهِ ﷺ: **وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**، وَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ **لَا تُحْدِثْ شيئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي** لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ»[١].

وفي السنة السادسة للهجرة: خرج النبيُّ ﷺ وأصحابه للعمرة فصدَّتهم قريش بزعامة أبي سفيان عن البيت الحرام، وكاد القتال أن يَنْشَبَ بين الفريقين، ولو اقتتلوا لأريقت دماءٌ كثيرة من الفريقين، فحقن الله دماءهم لحِكَمٍ بيَّنَها اللهُ سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٤ - ٢٥] فكان من حِكَم كفِّ القتال بينهما ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح: ٢٥]، أي: لِيُدْخِلَ في الإسلام بعد ذلك من يشاء من كفار مكة، كما كان الحال مع أبي سفيان وغيره[٢].

ولقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في موضع آخر حين قال الله تعالى - لنبيه ﷺ والمؤمنين -: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧].

فقد رُوِيَ عن أبي هريرة وابن عباس[٣]، وكذلك رُوِيَ عن مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ والزهري[٤]: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي سُفْيَانَ صَخْرِ بْنِ حَرْبٍ.

---

(١) ينظر: مسلم (١٧٧٨)، وأحمد (٢٣٣٣٤).
(٢) ينظر: تفسير الآية (٢٥) من سورة الفتح عند ابن كثير والقرطبي وغيرهما.
(٣) ينظر: الدر المنثور، للسيوطي (٨/ ١٣٠).
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير، للآية (٧) من سورة الممتحنة.

وكأني ببعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وآذانهم تشنفها هذه الآيات يتساءلون: يا ترى مَنْ مِنْ هؤلاء المشركين المعاندين تُشيرُ إليه هذه الآيات؟!.!.. حتى كشف القَدَرُ لهم عن ستوره التي تُخفي عجائبه، وذلك حين رأوا أبا سفيان وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهم في حظيرة الإسلام، يعبدون الله وحده، ويجاهدون من أجل إعلاء كلمته.

رسالةُ النبيِّ ﷺ إلى هرقلَ

بعد صلح الحديبية كانت الهدنة بين المسلمين وقريش حيث اصطلحوا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ بينهم عَشْرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهَا النَّاسُ، وَيَكُفُّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ[1]، فرأى النبيُّ ﷺ أن قد جاء الوقت المناسب لدعوة ملوك الدول العظمى إلى الإسلام.

وبالفعل كتب النبيُّ ﷺ كُتُبًا، وانطلق سفراؤه بها يشقون الصحارَى، ويعبرون البحار، ويقطعون الوديان لتبليغ رسالة رَبِّ الناس إلى الناس، وكان من بين هذه الرسائل: رسالة إلى قيصر الروم هرقل، وَصَلَتْه وهو بإيلياء (القدس).

وفي نفس الوقت تقريبًا التي وصلت فيه الرسالة لهرقل حَطتْ قافلة تجارية قرشية رواحلها بأرض الشام يتزعمها أبو سفيان، وكأنَّ القدر ساقه يقطع به هذه المفاوز ليسمع بأذنيه عجبًا، ويرى بعينيه ما يذهله، حيث دار بينه وبين هرقل حوار حول دعوة رسول الله ﷺ، وقد قص ذلك الحدث أبو سفيان على الناس بعدما أسلم، وها هو ابنُ عباس يحدثنا بما سمع من أبي سفيان فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَتَبَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى قَيْصَرَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَبَعَثَ بِكِتَابِهِ إِلَيْهِ مَعَ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ، وَأَمَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى لِيَدْفَعَهُ إِلَى قَيْصَرَ، وَكَانَ قَيْصرُ لَمَّا كَشَفَ اللهُ عَنْهُ جُنُودَ فَارِسَ مَشَى مِنْ حِمْصَ إِلَى إِيلِيَاءَ- القدس- عَلَى الزَّرَابِيِّ تُبْسَطُ لَهُ شُكْرًا لِمَا أَبْلَاهُ اللهُ، وَكَانَ ابْنُ

(١) كما عند أحمد (١٨٩١٠)، وأبي داود (٢٧٦٦).

النَّاطُور صَاحِبُ إِيلِيَاءَ- أَيْ: أَمِيرُهَا- وَهِرَقْلُ سُقُفًا عَلَى نَصَارَى الشَّامِ، فَأَصْبَحَ هِرَقْلُ يَوْمًا حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ قَدْ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ- قَالَ ابْنُ النَّاطُورِ: وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً- أَيْ: كَاهِنًا- يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ- فَقَالَ لَهُمْ- حِينَ سَأَلُوهُ-: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟، فَقَالُوا: لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ، فَلَا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ، وَاكْتُبْ إِلَى مَدَائِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنْ الْيَهُودِ، فَلَمَّا جَاءَ قَيْصَرَ كِتَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ حِينَ قَرَأَهُ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ، أَمْ لَا، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنْ الْعَرَبِ، فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ، الْتَمِسُوا لِي هَهُنَا أَحَدًا مِنْ قَوْمِهِ لِأَسْأَلَهُمْ عَنْه»[(١)].

هرقلُ يسألُ وأبو سُفيانَ يُجيبُ

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فَأَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ أَنَّهُ كَانَ بِالشَّامِ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدِمُوا تُجَّارًا فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَوَجَدَنَا رَسُولُ قَيْصَرَ بِبَعْضِ الشَّامِ فَانْطَلَقَ بِي وَبِأَصْحَابِي- وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ: فَقَالَ هِرَقْلُ لِصَاحِبِ شُرْطَتِهِ: قَلِّبِ الشَّامَ ظَهْرًا لِبَطْنٍ حَتَّى تَأْتِيَ بِرَجُلٍ مِنْ قَوْمِ هَذَا أَسْأَلُهُ عَنْ شَأْنِهِ، فَوَاللهِ إِنِّي وَأَصْحَابِي بِغَزَّةَ، إِذْ هَجَمَ عَلَيْنَا فَسَاقَنَا جَمِيعًا[(٢)]- حَتَّى قَدِمْنَا إِيلِيَاءَ، فَأُدْخِلْنَا عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسِ مُلْكِهِ وَعَلَيْهِ التَّاجُ، وَإِذَا حَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، فَقَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: سَلْهُمْ: أَيُّهُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ نَسَبًا، قَالَ: مَا قَرَابَةُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؟، فَقُلْتُ: هُوَ ابْنُ

(١) ينظر: صحيح البخاري (٧، ٢٧٨٢)، وصحيح مسلم (١٧٧٣)، ومسند أحمد (٣٣٧٠).
(٢) ينظر: فتح الباري، لابن حجر (١/ ٣٤).

عَمِّي- وَلَيْسَ فِي الرَّكْبِ- يَوْمَئِذٍ- أَحَدٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ غَيْرِي، فَقَالَ قَيْصرُ: أَدْنُوهُ، وَأَمَرَ بِأَصْحَابِي فَجُعِلُوا خَلْفَ ظَهْرِي عِنْدَ كَتِفِي، ثم قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لِأَصْحَابِهِ: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا الرَّجُلَ عَنْ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَإِنْ كَذَبَنِي فكَذِّبُوهُ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَوَاللهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ- يَوْمَئِذٍ- مِنْ أَنْ يَأْثُرَ أَصْحَابِي عَنِّي الْكَذِبَ لَكَذَبْتُهُ حِينَ سَأَلَنِي عَنْهُ، وَلَكِنِّي اسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَأْثُرُوا الْكَذِبَ عَنِّي فَصَدَقْتُهُ، ثم قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: كَيْفَ نَسَبُ هَذَا الرَّجُلِ فِيكُمْ؟، قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَبْلَهُ؟، قُلْتُ: لَا، فَقَالَ: كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ عَلَى الْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟، قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟، قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ، أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟، قُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: فَيَزِيدُونَ، أَمْ يَنْقُصُونَ؟، قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟، قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟، قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ الْآنَ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ، وَنَحْنُ نَخَافُ أَنْ يَغْدِرَ- قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَلَمْ تُمَكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شيئًا أَنْتَقِصُهُ بِهِ، لَا أَخَافُ أَنْ تُؤْثَرَ عَنِّي غَيْرُهَا-، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ، أو قَاتَلَكُمْ؟، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَتْ حَرْبُهُ وَحَرْبُكُمْ؟، قُلْتُ: كَانَتْ دُوَلًا وَسِجَالًا يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةَ، وَنُدَالُ عَلَيْهِ الْأُخْرَى، قَالَ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟، قُلْتُ: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالْعَفَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، فَقَالَ لِتَرْجُمَانِهِ- حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ لَهُ-: قُلْ لَهُ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فِيكُمْ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ ذُو نَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ، تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ؟، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتَمُّ بِقَوْلٍ قَدْ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ

مَلِكٌ، لَقُلْتُ: يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ، وَسَأَلْتُكَ: أَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ، أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟، فَزَعَمْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَزِيدُونَ، أو يَنْقُصُونَ؟، فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ لَا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا يَغْدِرُونَ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ وَقَاتَلَكُمْ؟، فَزَعَمْتَ أَنْ قَدْ فَعَلَ، وَأَنَّ حَرْبَكُمْ وَحَرْبَهُ تَكُونُ دُوَلًا، وَيُدَالُ عَلَيْكُمْ الْمَرَّةَ، وَتُدَالُونَ عَلَيْهِ الْأُخْرَى، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ، تُبْتَلَى، ثم تَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ، وَسَأَلْتُكَ بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَكِنْ لَمْ أَظُنَّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقًّا، فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَلَوْ أَرْجُو أَنْ أَخْلُصَ إِلَيْهِ، لَتَجَشَّمْتُ لُقِيَّهُ[(١)]، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْهِ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: ثم دَعَا هِرَقْلُ بِكِتَابِ رَسُولِ الله ﷺ فَقُرِئَ، فَإِذَا فِيهِ: **بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، أَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ**، وَ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا أَنْ قَضى مَقَالَتَهُ، عَلَتْ أَصْوَاتُ الَّذِينَ حَوْلَهُ مِنْ عُظَمَاءِ الرُّومِ، وَكَثُرَ لَغَطُهُمْ، فلَا أَدْرِي مَاذَا قَالُوا، وَأُمِرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا، فَلَمَّا أَنْ خَرَجْتُ مَعَ

(١) أَيْ: لو أعلم أني أَصِلُ بسهولة إليه لتكَلَّفْتُ لقاءه. بتصرف من فتح الباري (١/ ٣٤).

أَصْحَابِي وَخَلَوْتُ بِهِمْ، قُلْتُ لَهُمْ: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ[(١)]، هَذَا مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ يَخَافُهُ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَوَاللهِ مَا زِلْتُ مُسْتَيْقِنًا بِأَنَّ أَمْرَهُ سَيَظْهَرُ، حَتَّى أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ، قَالَ: ثم كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ- وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ- وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ، يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ، ثم أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثم اطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ؟، وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ؟ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟، فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وَأَيِسَ مِنْ الْإِيمَانِ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، فَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ»[(٢)].

مُصاهرةُ النبيِّ ﷺ لأبي سُفيانَ

وفي الوقت الذي كان أبو سفيان يحارب فيه دين الله هَدَىَ اللهُ ابنته رَمْلَةَ وزوْجَها للإسلام، وفوجئ أبو سفيان أن ابنته وثَمَرَةَ فُؤَادِهِ قد فَرَّتْ بدينها مع زوجها والمسلمين إلى الحبشة، ولا شك أن عاطفة الأُبُوَّةِ خَيَّمَت بأحزانها على قلبه لفراقها.

وهناك في أرض الحبشة عاش المسلمون المهاجرون في خير وأمان، وعاشت رَمْلَة مع زوجها وابنتها حَبِيبَةَ بين خير صُحْبَة، حتى نزل الموت بزوجها، فأصبحت وحيدة مع طفلتها اليتيمة، وهي مع ذلك لا تستطيع أن تعود إلى مكة التي أصبحت

---

(١)، و(ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ) أَرَادَ بِهِ: النَّبِيَّ ﷺ؛ لِأَنَّ أَبَا كَبْشَةَ أَحَدُ أَجْدَادِهِ، وَعَادَةُ الْعَرَبِ إِذَا انْتَقَصَتْ نَسَبَتْ إِلَى جَدٍّ غَامِضٍ، وقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ وَالْخَطَّابِيُّ وَالدَّارَقُطْنِيُّ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ خَالَفَ قُرَيْشًا فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فَعَبَدَ الشِّعْرَى، فَنَسَبُوهُ إِلَيْهِ؛ لِلاشْتِرَاكِ فِي مُطْلَقِ الْمُخَالَفَةِ. ينظر: فتح الباري (١/ ٣٥).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٧، ٢٧٨٢)، وصحيح مسلم (١٧٧٣)، ومسند أحمد (٣٣٧٠).

كالوجه العبوس أمام عينيها.

وكما طار خبر أُمِّ حَبِيبَةَ إلى رسول الله ﷺ في المدينة، طار الخبر- أيضًا- إلى أبي سفيان في مكة ليصنع جُرحًا جديدًا في قلبه إلى جنب جرح فراقها، ولكن سرعان ما التئم هذا الجرح عندما علم أن رسول الله ﷺ أرسل إلى ابنته ليشرفها بالزواج منه، جَبْرًا لكسرها، وتطييبًا لخاطرها، ومكافأةً لها على إيمانها وصبرها وتضحيتها.

وهكذا أصبحت أم حبيبة من أمهات للمؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، وأصبح أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صهرًا لرسول الله ﷺ(١).

قُريشٌ تَغدِرُ وأبو سفيانَ يغضبُ من فِعلِهم

«لما تصالح النبيُّ ﷺ مع قريش في الحديبية كَانَ فِي شَرْطِهِمْ حِينَ كَتَبُوا الْكِتَابَ: أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ، فَتَوَاثَبَتْ خُزَاعَةُ، فَقَالُوا: نَحْنُ مَعَ عَقْدِ رَسُولِ الله ﷺوَعَهْدِهِ، وَتَوَاثَبَتْ بَنُو بَكْرٍ، فَقَالُوا: نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ، فَمَكَثُوا فِي تِلْكَ الْهُدْنَةِ نَحْوَ السَّبْعَةِ، أو الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثم إِنَّ بَنِي بَكْرٍ الَّذِينَ كَانُوا دَخَلُوا فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ وَثَبُوا عَلَى خُزَاعَةَ الَّذِينَ كَانُوا دَخَلُوا فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ وَعَقْدِهِ لَيْلًا بِمَاءٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: الْوَتِيرُ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: مَا يَعْلَمُ بِنَا مُحَمَّدٌ، وَهَذَا اللَّيْلُ وَمَا يَرَانَا أَحَدٌ، فَأَعَانُوهُمْ عَلَيْهِمْ بِالْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ، فَقَاتَلُوهَا مَعَهُمْ لِلضِّغْنِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فركب رجلٌ منهم اسمه: عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فأخبره الْخَبَرَ، وَقَدْ قَالَ أَبْيَاتٍ مِنَ الشِّعْرِ، فَلَمَّا سمعها رَسُولُ الله ﷺ قال: **نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ**، وَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ بِالْجِهَازِ، وَكَتَمَهُمْ مَخْرَجَهُ، وَسَأَلَ الله أَنْ

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٨/ ٦٦)، والسير (٢/ ٢١٩)، والاستيعاب (٤/ ١٨٤٣)، والإصابة (٨/ ١٤٠).

يُعَمِّيَ عَلَى قُرَيْشٍ خَبَرَهُ حَتَّى يَبْغَتَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ»[١].

ولم يستطع ظلام الليل إخفاء تلك الجريمة، أو طمس وجوه بعض المجرمين الذين نقضوا معاهدة الحديبية، ولما تنفس الصبح زلزل الخبر أرجاء مكة، فقام أبو سفيان مُغضَبًا على من أشعلوا بحماقتهم نار الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ.

وفطن أبو سفيان لخطورة الأمر فعزم أن يركب دابته ليسابق بها الريح مُتَّجِهًا نحو المدينة ليشرح للنبيِّ ﷺ أن هذا الفعل ليس نقضًا للصلح، وإنما هو حماقة من البعض فقط؛ وذلك ليجدد العهد مع رسول الله ﷺ، ظَنًّا منه أن النبيَّ ﷺ يمكن أن يتغافل عن حق هذه الدماء البريئة التي أُريقت بغير وجه حق.

ولما وقف أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ فوجئ أن النبيَّ ﷺ أعرض عنه ولم يُجِبْهُ، بل وأظهر له غضبه، فذهب يستعين ببعض كبار الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ليتوسطوا بينه وبين رسول الله ﷺ فأبوا جميعًا.

وأما ما نقلته بعض كتب السيرة: أنه دخل على ابنته أم حبيبة، فأغلظت له القول فهو خبر غير صحيح، وقد ضعَّفه الشيخ الألباني في تخريجه لأحاديث فقه السيرة[٢].

أبُو بكرٍ يتألَّفُ قلبَ أبي سفيانَ

وها هو ذا أبو سفيان في طرقات المدينة ينتزع الخطوة مَهْمُومًا يفكر في عاقبة ما حدث، ولكنه لم يكن يمشي وحده فإن عيون أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ذلكم الداعية الحصيف كانت ترمقه وتلاحقه من بعيد، يبصر بها أبو بكر الأحزان والهموم، وهما يصهران الكبرياء الذي طالما تربع في أركان قلب أبي سفيان، وكأنه رأى في ذلك المشهد فرصة مناسبة لتأليف قلبه رجاءَ أن يُسلم.

---

(١) ينظر: مسند أحمد (١٨٩١٠)، والسنن الكبرى، للبيهقي (١٨٨٥٩).

(٢) ينظر: تخريج أحاديث فقه السيرة (٣٧٣)، وما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية (١٨٨).

وفجأة رأى أبو بكر أقدام أبي سفيان تأخذه نحو جماعة من الصحابة الذين ذاقوا العذاب على يد المشركين في مكة، فانطلق نحوهم خشيةَ أن يفسدوا تدبيره.

فعَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ سَلْمَانُ وَصُهَيْبٌ وبِلَالٌ قُعُودًا فِي أُنَاسٍ، فَمَرَّ بِهِمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، فَقَالُوا: وَاللهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَأْخَذَهَا بَعْدُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهَا؟! فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: **يَا أَبَا بَكْرٍ، لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ!**، فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهْ، لَعَلِّي أَغْضَبْتُكُمْ؟، فَقَالُوا: لَا يَا أَبَا بَكْرٍ، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ»(١).

ولا غرابة في ذلك من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد كان النبيُّ ﷺ من قبله يتألف قلب أبي سفيان بالهدية رجاءَ أن يُسلم، فعَنْ عِكْرِمَةَ- مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ- قال: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَهْدَى إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ تَمْرَ عَجْوَةٍ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَسْتَهْدِيهِ أُدُمًا، مَعَ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ، قَالَ: فَقَدِمَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ فَنَزَلَ عَلَى إِحْدَى امْرَأَتَيْ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمَّا أَصْبَحَتْ قُرَيْشٌ عَدَوا عَلَيْهِ فَأَخَذُوهُ، فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ، أَيُؤْخَذُ مِنْ بَيْتِكِ وَدَارِكِ؟! أَمَا- وَاللهِ- لَوْ كُنْتُ نَزَلْتُ عَلَى فُلَانَةَ لَمَنَعَتْنِي؟، فَأَحْفَظَهَا، فَقَامَتْ دُونَهُ لِأَبِي سُفْيَانَ: لَتَمْنَعَنَّ ضَيْفِي، فَمَنَعَهُ، وَقَبِلَ أَبُو سُفْيَانَ هَدِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَهْدَى إِلَيْهِ أُدُمًا»(٢).

قصةُ إسلامِ أبي سفيانَ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ أَبَا رُهْمٍ كُلْثُومَ بْنَ حُصَيْنٍ الْغِفَارِيَّ، وَخَرَجَ لِعَشْرٍ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، فَصَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَصَامَ النَّاسُ مَعَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْكَدِيدِ مَا بَيْنَ عسفَانَ وَأَمَجَ أَفْطَرَ، ثم مَضَى حَتَّى نَزَلَ مَرَّ الظَّهْرَانِ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مُزَيْنَةَ وَسُلَيْمٍ، وَفِي كُلِّ الْقَبَائِلِ عَدَدٌ

(١) ينظر: صحيح مسلم (٢٥٠٤)، ومسند أحمد (٢٠٦٤٠)، وسنن النسائي (٨٢١٩).
(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٧٦)، وصحَّحه ابن حجر في الإصابة (٣/ ٣٣٣).

وَإِسْلَامٌ، وَأَوْعَبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ والْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، فَلَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ، وَقَدْ عَمِيَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ قُرَيْشٍ، فَلَمْ يَأْتِهِمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَبَرٌ، وَلَا يَدْرُونَ مَا هُوَ فَاعِلٌ، خَرَجَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ، وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ يَتَحَسَّسُونَ وَيَنْتَظِرُونَ هَلْ يَجِدُونَ خَبَرًا، أو يَسْمَعُونَ بِهِ، وَقَدْ كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ ﷺ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ قَالَ الْعَبَّاسُ: وَاصَبَاحَ قُرَيْشٍ، وَاللهِ لَئِنْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ عَنْوَةً قَبْلَ أَنْ يَسْتَأْمِنُوهُ إِنَّهُ لَهَلَاكُ قُرَيْشٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ، قَالَ الْعَبَّاسُ: فَجَلَسْتُ عَلَى بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْبَيْضَاءِ، فَخَرَجْتُ عَلَيْهَا حَتَّى جِئْتُ الْأَرَاكَ، فَقُلْتُ: لَعَلِّي أَلْقَى بَعْضَ الْحَطَّابَةِ، أو صَاحِبَ لَبَنٍ، أو ذَا حَاجَةٍ يَأْتِي مَكَّةَ، فَيُخْبِرُهُمْ بِمَكَانِ رَسُولِ ﷺ لِيَخْرُجُوا إِلَيْهِ فَيَسْتَأْمِنُوهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ عَنْوَةً، قَالَ: فَوَاللهِ، إِنِّي لَأَسِيرُ عَلَيْهَا، وأَلْتَمِسُ مَا خَرَجْتُ لَهُ إِذْ سَمِعْتُ كَلَامَ أَبِي سُفْيَانَ وَبُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ وَهُمَا يَتَرَاجَعَانِ، وَأَبُو سُفْيَانَ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ نِيرَانًا وَلَا عَسْكَرًا، قَالَ: يَقُولُ بُدَيْلٌ: هَذِهِ- وَاللهِ- نِيرَانُ خُزَاعَةَ حَمَشَتْهَا الْحَرْبُ، قَالَ: يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ: خُزَاعَةُ وَاللهِ أَذَلُّ وأَلْأَمُ مِنْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ نِيرَانُهَا وَعَسْكَرُهَا، قَالَ: فَعَرَفْتُ صَوْتَهُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا حَنْظَلَةَ، فَعَرَفَ صَوْتِي، فَقَالَ: أَبُو الْفَضْلِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: مَا لَكَ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، فَقُلْتُ: وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ، هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّاسِ، وَاصَبَاحَ قُرَيْشٍ وَاللهِ، قَالَ: فَمَا الْحِيلَةُ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي؟، قَالَ: قُلْتُ: وَاللهِ لَئِنْ ظَفَرَ بِكَ لَيَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ، فَارْكَبْ مَعِي هَذِهِ الْبَغْلَةَ حَتَّى آتِيَ بِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْتَأْمِنَهُ لَكَ، قَالَ: فَرَكِبَ خَلْفِي وَرَجَعَ صَاحِبَاهُ، فَحَرَّكْتُ بِهِ كُلَّمَا مَرَرْتُ بِنَارٍ مِنْ نِيرَانِ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا: مَنْ هَذَا؟، فَإِذَا رَأَوْا بَغْلَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا: عَمُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ، حَتَّى مَرَرْتُ بِنَارِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ وَقَامَ إِلَيَّ، فَلَمَّا رَأَى أَبَا سُفْيَانَ عَلَى عَجُزِ الْبَغْلَةِ قَالَ: أَبُو سُفْيَانَ عَدُوُّ اللهِ،

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمْكَنَ مِنْكَ بِغَيْرِ عَقْدٍ وَلَا عَهْدٍ، ثم خَرَجَ يَشْتَدُّ نَحْوَ رَسُولِ الله ﷺ، وَرَكَضَتِ الْبَغْلَةُ فَسَبَقَتْهُ بِمَا تَسْبِقُ الدَّابَّةُ الْبَطِيءُ الرَّجُلَ الْبَطِيءَ، فَاقْتَحَمْتُ عَنِ الْبَغْلَةِ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَدَخَلَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، هَذَا أَبُو سُفْيَانَ قَدْ أَمْكَنَ اللهُ مِنْهُ بِغَيْرِ عَقْدٍ وَلَا عَهْدٍ، فَدَعْنِي فَلْأَضْرِبَ عُنُقَهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي أَجَرْتُهُ، ثم جَلَسْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخَذْتُ بِرَأْسِهِ، فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ لَا يُنَاجِيهِ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ دُونِي، فَلَمَّا أَكْثَرَ عُمَرُ فِي شَأْنِهِ قُلْتُ: مَهْلًا يَا عُمَرُ، أَمَا- وَاللهِ- لَوْ كَانَ مِنْ رِجَالِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ مَا قُلْتُ هَذَا، وَلَكِنَّكَ عَرَفْتَ أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، قَالَ: مَهْلًا يَا عَبَّاسُ، فَوَالله لَإِسلَامُكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ كَانَ أَحَبَّ إليَّ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ، وَمَا بِي إِلَّا أَنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ إِسْلَامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **اذْهَبْ بِهِ إِلَى رَحْلِكَ يَا عَبَّاسُ، فَإِذَا أَصْبَحَ فَأْتِنِي بِهِ**، قال: فَذَهَبْتُ بِهِ إِلَى رَحْلِي فَبَاتَ عِنْدِي، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَوْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: **وَيْحَكَ- يَا أَبَا سُفْيَانَ- أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟!**، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ، وَاللهِ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنْ لَوْ كَانَ مَعَ الله غَيْرُهُ لَقَدْ أَغْنَى عَنِّي شَيْئًا، قَالَ: **وَيْحَكَ- يَا أَبَا سُفْيَانَ- أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ الله؟!**، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ، هَذِهِ- وَاللهِ- كَانَ فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ حَتَّى الْآنَ، قَالَ الْعَبَّاسُ: وَيْحَكَ- يَا أَبَا سُفْيَانَ- أَسْلِمْ، وَاشْهَدْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، قَبْلَ أَنْ تُضرَبَ عُنُقُكَ، قَالَ: فَشَهِدَ بِشَهَادَةِ الْحَقِّ وَأَسْلَمَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الْفَخْرَ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا، قَالَ: **نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ**، قال: فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَنْصَرِفَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **يَا عَبَّاسُ، احْبِسْهُ بِمَضِيقِ الْوَادِي عِنْدَ خَطْمِ الْجَبَلِ، حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ الله فَيَرَاهَا**، قَالَ: فَخَرَجْتُ بِهِ حَتَّى

حَبَسْتَهُ حَيْثُ أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَحْبِسَهُ، قَالَ: وَمَرَّتْ بِهِ الْقَبَائِلُ عَلَى رَايَاتِهَا كُلَّمَا مَرَّتْ قَبِيلَةٌ قَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَأَقُولُ: سُلَيْمٌ، فَيَقُولُ: مَا لِي وَلِسُلَيْمٍ؟، قَالَ: ثم تَمُرُّ الْقَبِيلَةُ قَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَأَقُولُ: مُزَيْنَةُ، فَيَقُولُ: مَا لِي وَلِمُزَيْنَةَ؟، حَتَّى تَعَدَّتِ الْقَبَائِلُ لَا تَمُرُّ قَبِيلَةٌ إِلَّا قَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَأَقُولُ: بَنُو فُلَانٍ، فَيَقُولُ: مَا لِي وَلِبَنِي فُلَانٍ، حَتَّى مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْخَضْرَاءِ كَتِيبَةٌ فِيهَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ لَا يَرَى مِنْهُمْ إِلَّا الْحَدَقَ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ، مَنْ هَؤُلَاءِ يَا عَبَّاسُ؟ قُلْتُ: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، قَالَ: مَا لِأَحَدٍ بِهَؤُلَاءِ قِبَلٌ وَلَا طَاقَةٌ، وَاللهِ يَا أَبَا الْفَضْلِ، لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الْغَدَاةَ عَظِيمًا، قُلْتُ: يَا أَبَا سُفْيَانَ، إِنَّهَا النُّبُوَّةُ!، قَالَ: فَنَعَمْ إِذًا، قُلْتُ: النَّجَاء إِلَى قَوْمِكَ، قَالَ: فَخَرَجَ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، هَذَا مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَكُمْ بِمَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ، فَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ امْرَأَتُهُ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ، فَأَخَذَتْ بِشَارِبِهِ، فَقَالَتْ: اقْتُلُوا الدَّسَمَ الْأَحْمَسَ، فَبِئْسَ مِنْ طَلِيعَةِ قَوْمٍ، قَالَ: وَيْحَكُمْ، لَا تَغُرَّنَّكُمْ هَذِهِ مِنْ أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ مَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ، فَهُوَ آمِنٌ، قَالُوا: وَيْلَكَ وَمَا تُغْنِي عَنَّا دَارُكَ، قَالَ: وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، قال: فَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى دُورِهِمْ وَإِلَى الْمَسْجِدِ»(١).

وهكذا ثبتَ الإيمانُ في قلبِه

لقد صَرَّحَ الشيطانُ بعداوته لبني آدم، وأنه سيسعى بكل ما أوتي من قوة ليصدهم عن طريق الله ربِّ العالمين، وذلك حين قال لربه جَلَّ وَعَلَا: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٢٦٤)، والبيهقي في الدلائل (١٧٨٨)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٣٤١).

وأخبرنا نبينا ﷺ: أن أول طريق يريد الشيطان قطعه على العبد هو طريق الإسلام، وذلك في قوله ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ؟!**»[(١)].

ويا ترى هل هذا الشيطان سيترك رجلًا كأبي سفيان يُسلم بسهولة بعد أن كان من أعظم أوليائه؟!.

الجواب: بالتأكيد لا؛ فقد بات الشيطانُ مع أبي سفيان أولَ ليلةٍ من إسلامه يراوده، ويلقي الشكوك والشبهات في نفسه، ويقول له ما أخبر به النبيُّ ﷺ: «**تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ؟!**»، ويغريه بزعامته للعرب التي ستضيع، حتى أصبح أبو سفيان والصراع بين الحق والباطل بداخله قد بلغ منتهاه، ولكن ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ويُثَبِّتُ قلبه بالآيات والبراهين.

فهيا بنا ننظر ما الذي حدث مع أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول ما أسلم.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «رَأَى أَبُو سُفْيَانَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَمْشِي وَالنَّاسُ يَطَئُونَ عَقِبَهُ، فَقَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ: لَوْ عَاوَدْتُ هَذَا الرَّجُلَ الْقِتَالَ، قال أَبُو سُفْيَانَ: فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى ضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي، فَقَالَ: **إِذًا يُخْزِيَكَ اللهُ**، فَقَالَ: أَتُوبُ إِلَى اللهِ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ مِمَّا تَفَوَّهْتُ بِهِ، مَا هُوَ إِلَّا شَيْءٌ حَدَّثْتُ بِهِ نَفْسِي»[(٢)] فكان ما حدث لأبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آية ثبَّتت الإيمانَ في قلبه، حيث كان هذا الكلام يردده في نفسه الشيطانُ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ الذي يوسوس في صدور الناس، فلما اطَّلع عليه النبيُّ ﷺ قُطع الشكُّ عنده، وأيقن أن محمدًا ﷺ يوحى إليه من ربه.

وما حدث مع أبي سفيان في أول إسلامه لا غرابة فيه، فقد حدث مع بعض الناس

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٥٨)، والنسائي (٣١٣٤)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٩٧٩).
(٢) ينظر: دلائل النبوة، للبيهقي (١٨٦٠)، والطبقات الكبرى (١/ ٦٧)، والإصابة، لابن حجر (٣/ ٣٣٣).

مثله حتى شُرِحَت صدُورُهم للإسلام، وها هو أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحدثنا عن ذلك فيقول: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»[(١)]، بل وقد كان بعضُ الناس يأتون النبيَّ ﷺ فيشتكون مما يُلقي الشيطانُ من وسوسة وشكوك في صدورهم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مِنْ شَأْنِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ: **أَوَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**، قَالُوا: نَعَمْ، فقَالَ ﷺ: **اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ**- وفي رواية: **ذَاكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ- الْحَمْدُ لله الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**»[(٢)]، وفي لفظ: «**الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَقْدِرْ مِنْكُمْ إِلَّا عَلَى الْوَسْوَسَةِ**»[(٣)].

أَيْ: أن اِسْتِعْظَامَكُمْ الْكَلَامَ بِهِ هُوَ صَرِيحُ الْإِيمَان؛ فَإِنَّ اِسْتِعْظَامَ هَذَا، وَشِدَّةَ الْخَوْفِ مِنْهُ، وَمِنْ النُّطْقِ بِهِ، فَضْلًا عَنْ اِعْتِقَاده، إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ اِسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ اِسْتِكْمَالًا مُحَقَّقًا، وَانْتَفَتْ عَنْهُ الرِّيبَةُ وَالشُّكُوك[(٤)].

إسلامُ هندَ زَوجِ أبي سفيانَ

وها هي هندُ بنتُ عتبة زوجُ أبي سفيان التي كان الثأرُ لأبيها وأخيها وعمها قد زادها عن الإسلام إعراضًا كتبَ الله لها الهداية، وشرح صدرها للإسلام.

ولعلها نَجت من القتل يومَ أُحدٍ ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح: ٢٥]؛ ولذلك «لما رأى الزبيرُ بنُ العوامِ أبا دُجانة يوم أحد قَدْ حَمَلَ السَّيْفَ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِ هِنْدَ بِنْتِ عُتْبَةَ، ثم عَدَلَ السَّيْفَ عَنْهَا ولم يقتلها، قَالَ الزُّبَيْرُ: فَقُلْت: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٢).

(٢) ينظر: صحيح مسلم (١٣٢- ١٣٣)، وسنن أبي داود (٥١١٢).

(٣) مسند أحمد (٣١٦١).

(٤) ينظر: شرح النووي لصحيح مسلم (١/ ٢٥١).

(٥) الطبقات الكبرى (٣/ ٤٢٠)، والسيرة، لابن هشام (٦٥٧).

وها هي هندُ تجلس يوم فتح مكة في بيتها حزينةً منكسرةً، تعتريها حالةٌ من الدهشة والذهول، فزوجها أبو سفيان قد أسلم، وابنها معاوية قد أسلم، فكأني بها تنظر لأصنامها المتناثرة في بيتها وتقول: أين كان عقلي حين كنت أعبد هذه الأحجار التي لا تبصر ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع؟!.

ولمَّا هدأت الأَرجلُ والأصواتُ في الطُرقات، خرجت تنظر إلى مكة الجديدة فرأت بعينيها ما زادها دهشةً وذهولًا، وما جعل العَبَراتِ تَخرج من مآقيها تسيل على خَديها، فقد رأت الأصنامَ التي كانت تحيط بالكعبة قد هُدِّمَتْ وكُسِّرت، وآثارَ الجاهلية قد أُزيلت، ورأتِ النَّبِيَّ ﷺ وأصحابَه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حول الكعبة بين طائفٍ، أو راكعٍ، أو ساجدٍ، وشعرت بأن أصوات تكبيرهم وتهليلهم تزلزل أركان قلبها، وهنا كانت نقطةُ التحول في حياتها، فما تمالكت نفسها، وهي تقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

فرجعت إلى أبي سفيان، فقالت: إني أريد أنْ أبايع محمدًا ﷺ، فقال: قد رأيتك تكفرين!، فقالت: إي والله، والله ما رأيتُ الله تعالى عُبِد حقَّ عبادته في هذا المسجد قبل الليلة، واللهِ إن باتوا إلا مصلين قيامًا وركوعًا وسجودًا[(١)].

فَبايِعهُنَّ وَاستَغفِرْ لهنَّ اللهَ

وقبل أن تأتي نساءُ قريشٍ لمبايعة النبيِّ ﷺ كان الله قد أنزل عليه قولَه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

(١) ينظر: حياة الصحابة (١/ ٣٠٤)، والتبصرة (١/ ٤٩٨).

أي: فإذا أقررنَ بهذه الشروط فبايعهن على الإسلام، وادعُ الله أن يغفر لهن ما مضى من ذنوبهن، فإن الله غفور رحيم.

وجاءت هندُ مع المؤمنات ليبايعهُنَّ النَّبيُّ ﷺ ويستغفرَ لَهُنَّ اللهَ تعالى، فلما اجتمعنَ أمامه قال ﷺ لهن: «**أُبَايِعُكُنَّ عَلَى أَنْ لا تُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسرِقْنَ، وَلَا تَزْنِينَ**، فقَالَتْ هندٌ: أَوَ تَزْنِي الْحُرَّةُ؟! فقال ﷺ: **وَلَا تَقْتُلْنَ أَوْلادَكُنَّ، وَلَا تَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُنَّ وَأَرْجُلِكُنَّ، وَلَا تَعْصِينَ فِي مَعْرُوفٍ**[١] فبايَعْنَ النَّبِيَّ ﷺ واستغفَرَ لَهُنَّ الله».

خَوفُها من الحرامِ بعدَ إسلامِها

عَنْ عَائِشَةَ أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «جَاءَتْ هِنْدٌ بِنْتُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُول الله، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مُمْسِكٌ، وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي، إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ أَنْ آخُذَ مِنْ مَالِهِ مَا يَكْفِينِي وَبَنِيَّ بِغَيْرِ إِذْنِهِ؟، فقال لها ﷺ: **خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ**»[٢].

حبُّ النبيِّ ﷺ لآلِ بيتِ أبي سفيانَ بعدَ إسلامِهم

وما إن أسلمت هندُ إلا وقد أطفأ الله نيران الحقد والكراهية في قلبها، ومَحَا منه معالمَ الشرك والجاهلية، وأبدل مكان ذلك كله حُبَّ الله ورسوله.

فعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «جَاءَتْ هِنْدٌ بِنْتُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ أُمُّ مُعَاوِيَةَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُول اللهِ، وَاللهِ مَا كَانَ مِمَّا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَهْلُ خِبَاءٍ[٣] أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ يَذِلُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ، ثم مَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ أَهْلُ خِبَاءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ

(١) ينظر: مسند أحمد (٢٧٠٦٢)، ومسند أبي يعلى (٤٧٥٤).

(٢) ينظر: البخاري (٥٣٦٤، ٥٣٧٠)، ومسلم (١٧١٤).

(٣) تقصد: آل بيتٍ.

يَعِزُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **وَأَيْضًا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ**»[(١)].

وهكذا كان قولُ النبيِّ ﷺ لهند دليلٌ على حُبِّهِ ﷺ لآل بيتِ أبي سفيان بعد إسلامهم.

أبو سفيانَ يهدمُ الأصنامَ

وما إن أسلم أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا وقد وجد نفسه تشتاق إلى استدراك ما فاتها من خير، فذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له: «يَا نَبِيَّ اللهِ، مُعَاوِيَةُ تَجْعَلُهُ كَاتِبًا بَيْنَ يَدَيْكَ، فقَالَ ﷺ: **نَعَمْ**، قَالَ: وَتُؤَمِّرُنِي حَتَّى أُقَاتِلَ الْكُفَّارَ، كَمَا كُنْتُ أُقَاتِلُ الْمُسْلِمِينَ، فقَالَ ﷺ: **نَعَمْ**»[(٢)].

فاستجاب له النَّبِيُّ ﷺ فجعل ابنَهُ من كَتَبَةِ الوَحي الشريف، ودعا ﷺ له، فقال: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْ مُعَاوِيَةَ الْكِتَابَ، وَالْحِسَابَ، وَقِهِ الْعَذَابَ**»[(٣)]، ودعا له مرةً أخرى، فقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا وَاهْدِ بِهِ**»[(٤)]؛ وذلك ليكون كل حرف من كتاب الله خَطَّته يدُ مُعَاوِيةَ في ميزان حسنات أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

واستجاب- أيضًا- النَّبِيُّ ﷺ لأبي سفيان في طلبه لنفسه فأَمَّرَه على سَرِيَةٍ لهدم أحدِ أعظم أصنام العرب وهو مناة، الذي ذكره القرآن في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠]، فذهب إليها أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهدمها بيده[(٥)].

ولكأني به رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أثناء هدمه لمناة يَنبضُ قلبُه بشكر الله، وتتحرك شفتاه بحمده

---

(١) ينظر: البخاري (٣٨٢٥)، ومسلم (١٧١٤).

(٢) ينظر: صحيح مسلم (٢٥٠١).

(٣) أخرجه أحمد (١٧١٩٢)، وابن حبان (٧٢١٠)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٢٢٧).

(٤) أخرجه أحمد (١٧٨٩٥)، والترمذي (٣٨٤٢)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٩٦٩).

(٥) ينظر: السيرة، لابن هشام (٩٣)، والإصابة، لابن حجر (٥/ ٢٢٨).

سبحانه على ما أنعم به عليه من بعد الكفر بالإسلام، ولكأني بدموعه تَنهَمرُ على خده قد أخضَلَت لِحيَتَه تَبُلُ الثَرَى من تحته حُزنًا على ما ضاع من عمره في عبادة تلك الأصنام، وفرحًا بهداية الله تعالى له.

صُورٌ من جهادِه في سبيلِ اللهِ

وها هو ذا أبو سفيان الذي كان يقود جيوش الكفر لحرب رسول الله ﷺ يقفُ يُجاهد في سبيل الله تعالى تحت راية رسوله ﷺ، وقد شهد مع النبيِّ ﷺ عددًا من المشاهد، منها:

أولًا: جهادُه يومَ حُنينٍ:

وهي أول مشاهده مع رسول الله ﷺ، وقد نصر الله فيها المسلمين، وكان للنبيِّ ﷺ مع أبي سفيان فيها موقف كريم، وذلك حين «أَعْطَاهُ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ وَأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً وَزَنَهَا لَهُ بِلَالٌ، فَلَمَّا أَعْطَاهُ وَأَعْطَى ابْنَيْهِ يَزِيدَ وَمُعَاوِيَةَ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ للنبيِّ ﷺ: وَاللهِ إِنَّكَ لَكَرِيمٌ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، لَقَدْ حَارَبْتُكَ فَنِعْمَ الْمُحَارِبُ كُنْتَ، ثم سَالَمْتُكَ فَنِعْمَ الْمُسَالِمُ أَنْتَ، فَجَزَاكَ الله خَيْرًا»[1].

ثانيًا: حصارُ الطائفِ ووعدٌ له بالجنةِ:

وتحرك المسلمون من حُنَين إلى الطائف، وقد تَحَصَّنَ مَنْ فيها داخل حصونها المنيعة، فحاصرهم المسلمون، فانهالت سهامُ المشركين عليهم كالمطر، فَأُصيب عددٌ من جنود المسلمين منهم أبو سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقد «رَمَاه سَعِيدُ بْنُ عُبَيْدٍ الثقفي بِسَهْمٍ فَأَصَابَ إحدى عَيْنَيه، فَأُتِيَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، هَذِهِ عَيْنِي قَدْ أُصِيبَتْ فِي سَبِيلِ الله، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: **إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللهَ فَرَدَّ عَلَيْكَ عَيْنَكَ،**

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ٨٦)، ومعرفة الصحابة (٣/ ١٥٠٩)، وأسد الغابة (٣/ ٩)، والاستيعاب (٢/ ٧١٤).

وَإِنْ شِئْتَ فَعَيْنٌ فِي الْجَنَّةِ؟، فقال: عينٌ في الجَنة»[(١)].

وفي أواخر حياة النبيِّ ﷺ كان قد وَلَّى أبا سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على نَجران، وقد قُبِضَ النبيُّ ﷺ وهو واليًا عليها[(٢)]، وفي هذا قال الحافظ العراقي[(٣)]:

كــذلك قــد وَلَّــى أبــا سُــفيانَا ... صَـخرَ بـنَ حَـربٍ بعـدُ ذا نَجرانَـا

ثالثًا: كانَ أولَ مَن قاتلَ المُرتدينَ:

وفي أثناء ولايته على نجران خرج كَذابُ اليمن (الأسود العَنسي) الذي ادعى النبوة، وكان يُلَقب بذي الخِمار؛ لأنه كان يخرج على الناس مُتقَنِّعًا، وكانت بعض قبائل العرب قد ارتدت وانحازت إليه، فأمر النبيُّ ﷺ في أواخر حياته بقتاله، فلقيه أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقاتله، فكان بذلك أول من قاتل المرتدين.

فقد أخرج ابْنُ مرْدَوَيْه عَنِ ابْن شهَابٍ عَن أبي سَلمَة بن عبد الرَّحْمَن عَن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أول من قَاتل أهل الرِّدَّة على إِقَامَة دين الله أَبُو سُفْيَان بن حَرْب»[(٤)].

وقد أخرج ابنُ أبي حاتم عن الزهري أنه قال: «إن رَسُول الله ﷺ اسْتعْمل أَبَا سُفْيَان بن حَرْب على بعض اليمن فَلَمَّا قُبض رَسُول الله ﷺ أقبل فلقي ذَا الْخمار مُرْتَدًّا فقاتله فَكَانَ أول من قَاتل فِي الرِّدَّة وجاهد عَن الدِّين»[(٥)].

رابعًا: موقفُه العظيمُ في معركةِ اليرموكِ:

ولما تولى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخلافة عَزَمَ على فتح الشام ونشر الإسلام فيها، فوجه

---

(١) ينظر: الإصابة (٥/ ٢٣٠)، والسير (٣/ ٤٠٦)، وأسد الغابة (٣/ ٣٣٣)، ومعرفة الصحابة (٣/ ١٣٠٢).
(٢) ينظر: الاستيعاب (٢/ ٧١٤)، والبداية والنهاية (٥/ ٢٩٢).
(٣) بيت رقم (٩٨٥) من ألفية العراقي.
(٤) ينظر: الدر المنثور، للسيوطي (٨/ ١٣٠).
(٥) تفسير ابن أبي حاتم (١٨٨٦٣).

إليها أربعة جيوش، منها: جيش بقيادة يَزيدَ بن أبي سفيان متوجِّهًا نحو دمشق لفتحها، وقد خرج أبو سفيان وزوجته هند ليجاهدا في سبيل الله تحت راية ابنه يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ولما فوجئ المسلمون بأعداد الروم الهائلة أمر أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الجيوش الأربعة أن تجتمع تحت راية واحدة، وأرسل إليهم خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مَدَدٍ ليقود الجيوش في هذا الفتح العظيم.

وجاء يوم معركة اليرموك العظيمة، التي كانت أعداد الروم فيها خمسة أضعاف المسلمين تقريبًا، فقسم خالدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المهام بين أمراء الأجناد، وقد جعل لأبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مهمة تحميس الجيوش، وبث روح التفاني فيها.

ووقف أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطب في المسلمين قبل المعركة، وصدى صوتِه يُدوي في أنحاء اليرموك، يشعل الحماسة في قلوب المجاهدين، وهو يقول: «اللهَ اللهَ، إِنَّكُمْ أَنْصَارُ الإِسْلاَمِ وَدَارَةُ العَرَبِ، وَهَؤُلاَءِ أَنْصَارُ الشِّرْكِ وَدَارَةُ الرُّوْمِ، اللَّهُمَّ هَذَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِكَ، اللَّهُمَّ أَنْزِلْ نَصْرَكَ»[(١)].

ثم وقف أمام ابنه يَزيدَ أحد قادة الميسرة فوعظه قائلًا: «يا بُني، عليك بتقوى الله والصبر؛ فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفًا بالقتال، فكيف بك وبأشباهك الذين وُلُّوا أمورَ المسلمين، أولئك أحق الناس بالجهاد والنصيحة، فاتَّقِ الله يا بني، والزم في أمرك، ولا يكونن أحد من إخوانك أرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدو الإسلام منك، فقال يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أفعل إن شاء الله»[(٢)].

ودارت رحى المعركة، وأبلى المسلمون بلاءً حسنًا إلا أن خللًا حدث في صفوف المسلمين جعل الدائرة للروم عليهم، وهنا ظهرت في المشهد هندُ بنتُ عتبة التي

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٠٦)، والبداية والنهاية (٧/ ٨).

(٢) تاريخ دمشق (٢/ ١٥٥).

خرجت من بين صفوف النساء تنادي في المسلمين قائلة: إلى أين تنهزمون؟!. أتفرون من الله ومن جنته وهو مطَّلع عليكم؟، ثم نظرت إلى زوجها أبي سفيان منهزمًا فضربت وجه حُصانه بعمودها، وقالت له: إلى أين يا صخر بن حرب، ارجع إلى القتال، وابذل مهجتك حتى تُمَحِّصَ ما سلف من تحريضك على رسول الله ﷺ، قال الزبير بن العوام: فلما سمعت كلام هند لأبي سفيان ذكرتُ صوتها يوم أحد ونحن بين يدي رسول الله ﷺ، قال: فعطف أبو سفيان عندما سمع كلام هند، وعطف المسلمون[(١)].

وهكذا أحيا كلام هند قلب أبي سفيان، فوقف على مرتفع ينادى بأعلى صوته: يَا نَصْرَ الله اقْتَرِبْ، يَا نَصْرَ الله اقْتَرِبْ.

فعن الْمُسَيِّبِ بْن حَزْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «فُقِدَتِ الأَصْوَاتُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ إِلا رَجُلٌ وَاحِدٌ يَقُولُ: يَا نَصْرَ الله اقْتَرِبْ، وَالْمُسْلِمُونَ يَقْتَتِلُونَ هُمْ وَالرُّومُ، فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ أَبُو سُفْيَانَ تَحْتَ رَايَةِ ابْنِهِ يَزِيدَ»[(٢)].

وفي أثناء جهاده ونضاله في اليرموك أصابه سهمٌ فَفَقَأَ عينَه السليمة، لتصبح كأختها التي فُقِأَت في حصار الطائف[(٣)].

ثم نصر الله المسلمين، وكانت تلك المعركة بوابةً لدخول الإسلام إلى الشام ومصر وغير ذلك من البلدان، وكل هذا- إن شاء الله- في ميزان حسنات أبي سفيان ومن شهدوا معه هذا الفتح العظيم.

ثم قضى أبو سفيان بقية حياته أعمى، بعد أن قدَّمَ عينيه في سبيل إعلاءً لكلمة لا إله إلا الله؛ ليفوز- إن شاء الله- بوعد الله لمن ابْتُلِي بذهاب بصره، فقد قَالَ رَسُولُ الله

---

(١) ينظر: فتوح الشام (١/ ١٢٦- ١٢٨).
(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٩١)، وصحَّحه ابن حجر في الإصابة (٥/ ٢٣٠).
(٣) ينظر: الاستيعاب (٤/ ١٦٨٠)، والسير (٢/ ١٠٦)، والإصابة (٥/ ٢٣٠).

ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ**[١] **فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ**»[٢]، وفي رواية: «**لَمْ يَكُنْ لَهُ جَزَاءٌ عِنْدِي إِلَّا الْجَنَّةُ**»[٣].

شَهادةٌ بحُسنِ إسلامِه

عن عبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ أُحدٍ: **اللَّهُمَّ العَنْ أَبَا سُفْيَانَ، اللَّهُمَّ العَنِ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ العَنْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ**، قَالَ ابنُ عمر: فَنَزَلَتْ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨] فتَابَ الله عَلَيْهِمْ فَأَسْلَمُوا، فَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ»[٤].

بل وأصبح اسمُ أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُذكَرُ بخير في بيت رسول الله ﷺ، ويُدعى له بطول العُمر، فقد دخل النبيُّ ﷺ على زوجته أم حبيبة، فسمعها تدعو الله قائلةً: «اللهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ الله ﷺ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **قَدْ سَأَلْتِ اللهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شيئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أو يُؤَخِّرَ شيئًا عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، أو عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ**»[٥].

صُورةٌ من تواضعِه بعدَ إسلامِه

عن مُجَاهِدٌ قَالَ: «سَارَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ إِلَى عُمَرَ يَسْتَعْدِيهِ عَلَى أَبِي سُفْيَانَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ ظَلَمَنِي حَدِّي بِمَكَّةَ، فَقَالَ عُمَرُ: فَأَنَا أَعْلَمُ بِذَلِكَ

---

(١) بحَبِيبتَيْهِ: يعني: بعَيْنَيْهِ.
(٢) ينظر: البخاري (٥٦٥٣).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٠٠).
(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٠٤)، وصحَّحه الألباني.
(٥) أخرجه مسلم (٣٦٦٢).

الْحَدِّ، وَلَرُبَّمَا لَعِبْتُ أَنَا وَأَنْتَ عَلَيْهِ وَنَحْنُ غِلْمَانٌ، فَإِذَا قَدِمْتَ مَكَّةَ فَأْتِنِي، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمَ عُمَرُ مَكَّةَ أَتَاهُ الْمَخْزُومِيُّ، وَجِيءَ بِأَبِي سُفْيَانَ، فَانْطَلَقَ عُمَرُ مَعَهُ إِلَى ذَلِكَ الْحَدِّ، فَقَالَ: غَيِّرْ يَا أَبَا سُفْيَانَ، فَخُذْ هَذَا الْحَجَرَ مِنْ هَهُنَا، فَضَعْهُ هَهُنَا، فَقَالَ: وَاللهِ لَا تَفْعَلَنَّ، قَالَ: وَاللهِ لَأَفْعَلَنَّ، قَالَ: فَعَلَاهُ عُمَرُ بِالدِّرَّةِ، ثم قَالَ: خُذْ لَا أُمَّ لَكَ، قَالَ: فَأَخَذَهُ أَبُو سُفْيَانَ فَوَضَعَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَمَرَهُ عُمَرُ، قَالَ: فَكَأَنَّ عُمَرُ دَخَلَهُ مِمَّا صَنَعَ بِأَبِي سُفْيَانَ شَيْءٌ، فَاسْتَقْبَلَ الْبَيْتَ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ إِذْ لَمْ تُمِتْنِي حَتَّى غَلَبْتَ أَبَا سُفْيَانَ عَلَى هَوَاهُ، وَذَلَّلْتَهُ لِي بِالْإِسْلَامِ، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ الْبَيْتَ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ إِذْ لَمْ تُمِتْنِي حَتَّى أَدْخَلْتَ قَلْبِي مِنَ الْإِسْلَامِ مَا ذَلَّلْتَنِي بِهِ لِعُمَرَ»[١].

صَبرُه على موتِ ولدِه يَزيدَ

وبعد فتوح الشام وَلَّى عمرُ بن الخطاب يزيدَ بن أبي سفيان فلسطين وناحيتها، ثم انتشر الطاعون في الشام فمات فيه أميرُها أبو عبيدة، فخلفه معاذ بن جبل فمات بالطاعون- أيضًا- فوَلَّى عمرُ إمارةَ الشام ليزيد بن أبي سفيان، فكتب اللهُ له الشهادة فمات بالطاعون مثل مَن قبله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[٢].

وجاء الخبر فنزل على قلب أبي سفيان كالصاعقة، ولكننا لا نشك أن قلب رجل عَشِقَ الجهاد في سبيل الله حتى فُقِدت عيناه فيه يعلمُ فضلَ الصبر على قَدَرِ الله، والرضا بقضائه؛ ليفوز ببشرى القرآن للصابرين في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧]، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ وَلَدُ**

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٧٩٤)، والفاكهي في أخبار مكة (٢٠٧٧).
(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ١٠٣)، والاستيعاب (٤/ ١٥٧٥)، والسير (١/ ٢٣٨).

العَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟، فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ: بَيْتَ الحَمْدِ»[1].

وقد كان يزيدُ بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الصالحين بشهادة الصالحين، فقد كان يُسَمونه: (يزيد الخير)، وكان أَبُو بَكْرٍ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول له: «يَا يَزِيدُ، إِنَّكَ شَابٌّ تُذْكَرُ بِخَيْرٍ قَدْ رُئِيَ مِنْكَ»[2]، وقد أخبر النبيُّ ﷺ: أنَّ صَبْرَ الأب على موت الابن الصالح يُثقل ميزانه يوم القيامة في قوله ﷺ: «**بَخٍ بَخٍ، لَخَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ وَالِدَاهُ**»[3].

وكأنَّ كل هذه الآثار بشاراتٌ لأبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالجنة.

وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسنَى

قال الله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد: ١٠].

تُخبِرُ هذه الآية: أن الصحابة الكرام الذين أنفقوا وقاتلوا في سبيل الله قبل الفتح أعظم درجة عند الله من الذين تأخر إسلامهم إلى بعد الفتح، ثم أنفقوا وقاتلوا، ولكنهم مع تفاوت درجاتهم، واختلاف منازلهم عند الله إلا أن الله تعالى قد وعدهم جميعًا بالحُسنى، أي: بالجنة.

ولعل في ذلك إشارةً جديدةً لأبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه- إن شاء الله- من أهل الجنة،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٢١)، وأحمد (٣٩٤٨)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٤٠٨).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ٩٨)، والتاريخ الكبير (٨/ ٣١٧)، والسير (١/ ٣٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٦٦٢)، وابن حبان (٨٣٣)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٢٠٤).

فقد أنفق وجاهد مع رسول الله ﷺ، ثم مع خلفائه من بعده، وقَدَّم عينيه في سبيل الله.

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعد رحلة طويلة من الشرك إلى التوحيد، ومن الظلمات إلى النور، ومن العناد إلى الجهاد، ينام أبو سفيان بن حرب صاحب رسول الله ﷺ وصِهرُه على فراش الموت في خلافة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن كَبِرَتْ سِنُّه، وذهب بصرُه.

ومات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المدينة، وصلَّى عليه أمير المؤمنين عثمان بن عفان[١]، ودفن بالبقيع، وهو ينتظر- إن شاء الله- شفاعة النبيِّ ﷺ؛ إذ قال: «**مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ؛ فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا**»[٢].

وفي الختام أقول: إن مما ألجأني إلى الإطالة في الحديث عن سيرة أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وذكر مناقبه: أن ألسنة المُرجفين، وأقلامَ المُغرضين لم تزل تَنهشُ في عِرضه حتى الآن، ولقد أفزعني عتاب الله لأُناس سمعوا الإفك ولم يردُّوه.

فقال سبحانه لهم: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، ورَجَوتُ أن أفوز بقول النبيِّ ﷺ: «**مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٣].

وحَسْبُ أبا سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن أوذوا في أعراضهم من أصحاب النبيِّ ﷺ قولُ أم المؤمنين عائشة حين سألها ابنُ أختها عروة بنُ الزبير، فقال: «إِنِّي أَسْمَعُ نَاسًا يَتَنَاوَلُونَ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ

---

(١) ينظر: معرفة الصحابة (٣/ ١٥٠٩)، والاستيعاب (٢/ ٧١٤)، وأسد الغابة (٣/ ٩).
(٢) أخرجه أحمد (٥٨١٨)، والترمذي (٣٩١٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٩٢٨).
(٣) أخرجه أحمد (٢٧٥٨٣)، والترمذي (١٩٣١)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٦٢).

اللهُ ﷻ يُجْرِي لَهُمْ أُجُورَهُمْ، فَلَمَّا قَبَضَهُمُ اللهُ ﷻ أَحَبَّ أَنْ يُجْرِيَ ذَلِكَ الْأَجْرَ لَهُمْ»[1].

وفي رواية قَالَتْ له: «يَا ابْنَ أُخْتِي، أُمِرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَبُّوهُمْ»[2].

رضي اللهُ عن أبي سفيانَ بنِ حربٍ، وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) أخرجه الآجري في الشريعة (١٩٩٩).

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٢٢).

أبو الهَيثم بنُ التَّيِّهانِ الأنصاريُّ

المُحاربُ ذُو السَّيفينِ

قال رسول الله ﷺ: «**النَّاسُ مَعَادِنٌ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا فَقِهُوا**»[(١)]، ولا تظهر معادن الرجال إلا في المواقف التي تشهد لهم برجولتهم؛ لذا فقد صدق من قال: الرجال مواقف.

وإني من خلال تلك الصفحات أقدم لكم صحابيًّا جليلًا، وبطلًا عظيمًا، ممن صنعوا تاريخ الإسلام، ولو استطاع التاريخ أن يتكلم لقال عنه بمليء فيه: رجلٌ في كل موقف.

إنه الصحابيُّ الزاهد العابد المجاهد أبو الهيثم بنُ التَّيْهَانِ الأنصاريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَن أبو الهَيثمِ بنُ التَّيهانِ؟

هو مالك بن التَّيهان، الخزرجيُّ، الأنصاريُّ، كنيته: أَبُو الهَيْثَم، وهو من سادات بني عبد الأشهل، وأمه هي: ليلى بِنْت عتيك بْن عَمْرو، الخزرجية[(٢)].

كان أبو الهيثم فَارِسًا مغوَارًا، ومحاربًا صُلبًا، وكان يُلَقَّبُ بذي السَّيْفَيْنِ؛ لأنه كان يَتَقَلَّدُ سيفين في الحرب يقاتل بهما، وهذا دليل على مهارته القتالية[(٣)].

وَكَانَ أَبُو الْهَيْثَمِ يَكْرَهُ الْأَصْنَامَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَيُؤَفِّفُ بِهَا، وَيَقُولُ بِالتَّوْحِيدِ هُوَ وَأَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ، وقد كانت اليهود تقول لهم: إِنَّ نَبِيًّا مَبْعُوثٌ الْآنَ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ[(٤)]،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٣)، ومسلم (٣٨٣).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٣٤١)، والإصابة (٧/ ٥٦٣)، والسير (١/ ١٩١).

(٣) ينظر: الاستيعاب (٢/ ٤٧٧).

(٤) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٣٤١)، والمستدرك (٥٢٤٩)، والسير (١/ ١٩٢).

فكان يترقب بكل كيانه هذا النور الإلهي الذي يضيء الأرض بعد ظلماتها، ويحيي القلوب بعد موتها، ويجمع الناس بعد شتاتها، حتى ساقه القَدَرُ إلى رسول الله ﷺ.

موعِدٌ مع السعادةِ

ففي مكة اصطفى الله تعالى نبيه ﷺ، وأمره بتبليغ الرسالة، فواجه عاصفة من التكذيب والصد والاستهزاء، وضيقت قريش الخناق على دعوة التوحيد بشتى الوسائل وبكل ما أوتيت من قوة، بالتكذيب تارةً وبالتعذيب تارةً وبالحصار تارةً، حتى عزم النبيُّ ﷺ على البحث عن أنصارٍ لهذا الدين يحملونه بقلوبهم، وينصرونه بأرواحهم، ويضحون من أجله بأموالهم وأنفسهم، وقد استأذن ﷺ ربه في ذلك، «فلَمَّا أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ»[(١)] خرج ﷺ وهو يحمل في صدره نفس الهُموم التي كان يحملها من قبله نَبيُّ الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما كذَّبَه قومه، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وطاف النبيُّ ﷺ على القبائل في موسم الحج يَقُولُ: «**مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ؟** فلَا يَجِدُ أَحَدًا يَنْصُرُهُ وَيُؤْوِيهِ»[(٢)]، حتى ساق القَدَرُ قدميه الشريفتين نحو العقبة، وذلك في السنة الحادية عشر من بعثته ﷺ في أوسط ليالي أيامِ التشريق، فوجد هناك نفرًا من أهل يثربَ، منهم أبو الهيثم بن التيهان الذي سيصنع منه هذا اللقاء نَجْمًا في سماء التاريخ[(٣)].

فقال لهم النبيُّ ﷺ: «**مِمَّنْ أَنْتُمْ؟** قَالُوا: نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: **أَمِنْ مَوَالِي يَهُودَ؟**

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٧٢٨) عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحسَّنه ابن حجر في الفتح (١٥/ ٧١).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٤٩٦- ١٤٤٩٤)، وصحَّحه الألباني.

(٣) ينظر: المستدرك (٥٢٤٩)، والطبقات الكبرى (١/ ١٧٠)، والسير (١/ ٢٤٢)، ومعرفة الصحابة (٥/ ٢٤٤٨).

قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: **أَفَلَا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمْكُمْ؟** قَالُوا: بَلَى، فَجَلَسُوا مَعَهُ، فَدَعَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى اللهِ ﷻ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، وَكَانَ مِمَّا صَنَعَ اللهُ لَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ: أَنَّ يَهُودَ كَانُوا مَعَهُمْ بِبِلَادِهِمْ، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَعِلْمٍ، وَكَانَتِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ أَهْلَ شِرْكٍ وَأَصْحَابَ أَوْثَانٍ، فَكَانُوا إِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ، قَالَتِ الْيَهُودُ: إِنَّ نَبِيًّا مَبْعُوثٌ الْآنَ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ نَتَّبِعُهُ فَنَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ، فَلَمَّا كَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُولَئِكَ النَّفَرَ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يَا قَوْمِ اعْلَمُوا - وَاللهِ - أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الَّذِي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ يَهُودُ فَلَا تَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ لَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ، وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا وَلَا قَوْمٌ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، وَعَسَى اللهُ ﷻ أَنْ يَجْمَعَهُمُ بِكَ، وَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ فَنَدْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فَإِنْ يَجْمَعْهُمُ اللهُ عَلَيْكَ فَلَا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ، ثم انْصَرَفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ قَدْ آمَنُوا وَصَدَّقُوا»[(١)].

ورجع هؤلاء النفر إلى يثرب بعد انتهاء موسم الحج بقلوبٍ جديدة، قُلُوبٍ طهَّرها التوحيد من دنس الشرك ورجس الأوثان، وأزاح عنها ظلمات الجاهلية بنوره، وبدأ أَبُو الْهَيْثَمِ وأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يتسللون بدعوة التوحيد سِرًّا بين قومهم، حتى أسلم معهم عدد من أهل يثرب، وبعد مرور عام جاء موسم الحج فعزم أبو الهيثم وبعض من أسلم أن يخرجوا بين قوافل الحجيج إلى مكة، ولكن كانت وجهتهم الحقيقية هي لقاء رسول الله ﷺ.

بيعةُ العقبةِ الأُولى

ولما وصلت قوافل الحجيج مكةَ تواصَلَ أبو الهيثم وأصحابُه سِرًّا مع رسول الله ﷺ، وواعدوه شعب العقبة في نفس ليلة اللقاء الأول، وكانوا اثني عشر رجلًا، وبعد

(١) ينظر: دلائل النبوة، للبيهقي (٦٨٩)، والسيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (١/ ١٧٤).

حوار دار بينهم وبين رسول الله ﷺ قال لهم: «**تعالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شيئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شيئًا فَسَتَرَهُ اللهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ**»(١).

فكأنَّ النبيَّ ﷺ حين قبض على أيديهم وهم يبايعونه قد ضرب أولَ مِعْوَل هدم في جدار العناد الغشوم الذي صنعته قريش لتَحُول به بين الناس وبين رسالة الإسلام.

ورجع أبو الهيثم مع أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى يثرب وكأنهم من شدة الفرح يطيرون بلا جناح، ثم بعث النبيُّ ﷺ وراءهم مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليُقْرِئَهم القرآن، ويُفَقِّهَهُم في الدين، ويصلي بهم، ويدعو الناس معهم إلى الله وحده لا شريك له، حتى لم يبقَ دار في يثرب إلا وفيها من يُظهر الإسلام.

دورُهُ في تغييرِ مجرَى التَّاريخِ

ولما فشا الإسلام في يثرب اجتمع سبعون رجلًا من خِيَرة أهل الأرض يومَئذٍ، منهم: البطل المجاهد: أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ، فقالوا: «حَتَّى مَتى نَتْرُك رَسُولُ الله ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ»(٢)، وطالت جلسة المشاورة السِرِّية حتى خرجوا منها وقد عزموا على أخذ قرار حاسم سيغير مَجْرَى التاريخ، ألا وهو إيواء النبيِّ ﷺ في بلدتهم ونصرته؛ ليقيم دولة الإسلام على أرضها، وينطلق الإسلام منها في الأقطار والأمصار؛ ليَبْلُغَ دينُ الله ما بلَغ الليل والنهار، كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ، وبهذا القرار

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٣٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦٣).

الخطير يُعلنها أبو الهيثم وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لله ورسوله أمام الدنيا ومَنْ فيها بصوت يخترق المسامع، وبقلب لا يخشى في الله لومة لائم قائلين: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣].

وظلَّ هؤلاء الأبطال يكتمون في صدورهم ما اتفقوا عليه حتى جاء موسم الحج في السنة الثالثة عشر من بعثته ﷺ، فخرجوا مع حجيج قومهم، يحملون في قلوبهم إيمانًا رَاسِخًا رسوخ الجبال الشوامخ، فلما أناخت بهم ركائبهم في مكة أرسلوا إلى النبيِّ ﷺ ليخبروه خبرهم، وليواعدوه شعب العقبة في أوسط ليالي أيامِ التشريق، لتكون في تلك الليلة.

بيعةُ العقبةِ الكبرَى

وها هو كعبُ بنُ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحَدُ أبطال تلك الليلة المباركة يقص علينا أحداثها، فيقول: «فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ الله ﷺ، نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا[١]، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ، وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلًا، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ أُمُّ عُمَارَةَ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلِمَةَ، وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ، قَالَ: فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ الله ﷺ، حَتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ- يَوْمَئِذٍ- عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ- يَوْمَئِذٍ- عَلَى دين قَوْمِهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ، وَيَتَوَثَّقُ لَهُ، فَلَمَّا جَلَسْنَا كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوَّلَ مُتكَلِّمٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ- قَال: وَكَانَتِ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ:

---

(١) القطا: نوع من الحمام.

الْخَزْرَجَ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا- إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، قَالَ: فَقُلْنَا: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ الله، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ، قَالَ: فتكَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ، فَتَلَا القرآن وَدَعَا إِلَى الله ﷻ وَرَغَّبَ فِي الْإِسْلَامِ، ثم قَالَ: أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، قَالَ كعب: فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ، ثم قَالَ: نَعَمْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ الله، فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ، وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ[١]، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، قَالَ: فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ- وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ الله ﷺ- أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالًا، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا- يَعْنِي: الْعُهُودَ- فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثم أَظْهَرَكَ اللهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟ قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ، ثم قَالَ: **بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ[٢] أَنَا مِنْكُمْ، وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ**، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ**، فَأَخْرَجوا مِنْهم اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا مِنْهُمْ تِسْعَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوْسِ- وكان أبو الهيثم أحد النقباء-، فَلَمَّا بَايَعَنَا رَسُولُ الله ﷺ صَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأْسِ الْعَقَبَةِ بِأَبْعَدِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ: يَا أَهْلَ الْجُبَاجِبِ[٣] هَلْ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ وَالصُّبَاة مَعَهُ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ؟، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **هَذَا أَزَبُّ الْعَقَبَةِ، اسْمَعْ أَيْ عَدُوَّ الله، أَمَا وَاللهِ، لَأَفْرُغَنَّ لَكَ**، ثم قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **ارْفَعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ**، فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا، قَالَ: فَقَالَ

(١) الحلقة: الدروع والسلاح.

(٢) المعنى: دَمي ودَمُكم شيءٌ واحد، وينظر: النهاية في غريب الأثر (٥/ ٥٧٣).

(٣) أي: المنازل.

رَسُولُ الله ﷺ: **لَمْ أُؤْمَرْ بِذَلِكَ**، قَالَ كعبٌ: فَرَجَعْنَا فَنِمْنَا حَتَّى أَصْبَحْنَا، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا غَدَتْ عَلَيْنَا جُلَّةُ قُرَيْشٍ حَتَّى جَاءُونَا فِي مَنَازِلِنَا، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا، وَالله إِنَّهُ مَا مِنَ الْعَرَبِ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيْنَا أَنْ تَنْشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنْكُمْ، قَالَ: فَانْبَعَثَ مَنْ هُنَالِكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا، يَحْلِفُونَ لَهُمْ بِاللهِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ، وَمَا عَلِمْنَاهُ، وَقَدْ صَدَقُوا لَمْ يَعْلَمُوا مَا كَانَ مِنَّا، قَالَ: فَبَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ، وَقَامَ الْقَوْمُ وَفِيهِمُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَعَلَيْهِ نَعْلَانِ جَدِيدَانِ، فَقُلْتُ كَلِمَةً كَأَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُشْرِكَ الْقَوْمَ بِهَا فِيمَا قَالُوا: مَا تَسْتَطِيعُ يَا أَبَا جَابِرٍ، وَأَنْتَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا أَنْ تَتَّخِذَ نَعْلَيْنِ مِثْلَ نَعْلَيْ هَذَا الْفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ، فَسَمِعَهَا الْحَارِثُ فَخَلَعَهُمَا، ثم رَمَى بِهِمَا إِلَيَّ، فَقَالَ: وَاللهِ لَتَنْتَعِلَنَّهُمَا قَالَ: يَقُولُ أَبُو جَابِرٍ: أَحْفَظْتَ وَاللهِ الْفَتَى، فَارْدُدْ عَلَيْهِ نَعْلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا أَرُدُّهُمَا، فَأْلٌ- وَاللهِ- صَالِحٌ، وَاللهِ لَئِنْ صَدَقَ الْفَأْلُ لَأَسْلُبَنَّهُ»[(١)].

وفي رواية: «أَقْبَلَ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيْهَانِ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ؟ فَقَدْ آمَنْتُمْ بِهِ وَصَدَّقْتُمُوهُ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ فِي بَلَدِ الله الْحَرَامِ، وَمَسْقَطِ رَأْسِهِ وَمَوْلِدِهِ وَعَشِيرَتِهِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنْ كُنْتُمْ خَاذِلِيهِ، أو مُسْلِمِيهِ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ لِبَلَاءٍ نَزَلَ بِكُمْ فَالْآنَ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ سَتَرْمِيكُمْ فِيهِ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، فَإِنْ طَابَتْ أَنْفُسُكُمْ عَنِ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ فِي ذَاتِ الله فَمَا لَكُمْ عِنْدَ الله مِنَ الثَّوَابِ خَيْرٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ، فَأَجَابَ الْقَوْمُ جَمِيعًا: لَا، بَلْ نَحْنُ مَعَهُ بِالْوَفَاءِ وَالصِّدْقِ، ثم أَقْبَلَ أَبُو الْهَيْثَمِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، لَعَلَّكَ إِذَا حَارَبْنَا النَّاسَ فِيكَ، وَقَطَعْنَا مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْجِوَارِ وَالْحِلْفِ وَالْأَرْحَامِ، وَحَمَلَتْنَا الْحَرْبُ عَلَى

(١) أخرجه أحمد (١٥٨٣٦)، وابن حبان (٧٠١١)، وحسَّنه الألباني والأرناؤوط.

سَبِيسَانِهَا، وَكَشَفَتْ لَنَا عَنْ قِنَاعِهَا لَحِقْتَ بِبَلَدِكَ، وَتَرَكْتَنَا، وَقَدْ حَارَبْنَا النَّاسَ فِيكَ؟ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ، ثم قَالَ: **الدَّمُ الدَّمُ، الْهَدْمُ الْهَدْمُ**، فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ: خَلِّ بَيْنَنَا يَا أَبَا الْهَيْثَمِ حَتَّى نُبَايِعَ رَسُولَ الله ﷺ، فَسَبَقَهُمْ أَبُو الْهَيْثَمِ إِلَى بَيْعَتِهِ، فقال: فَكَيْفَ نُبَايِعُكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: **بَايِعُونِي عَلَى مَا بَايَعَتْ عَلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُوسَى** عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَبَايَعَ أَبُو الْهَيْثَمِ أَوَّلُهُمْ، فَقَالَ: أُبَايِعُكَ يَا رَسُولَ الله، عَلَى مَا بَايَعَ عَلَيْهِ الِاثْنَا عَشَرَ نَقِيبًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان أَبُو الْهَيْثَمِ يقول: أَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعَ»[1].

قُلْتُ: وهذا القول منه لا يتعارض مع الروايات التي تخبر: أن أول من بايع كان أسعد بن زرارة، أو البراء بن معرور؛ وذلك لأنهما كانا أول من بايع في العقبة الكبرى بوجه عام، أما أبو الهيثم فكان أول من بايع من النقباء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

جهادُه في سبيلِ الله

كان أبو الهيثم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَارِسًا مغوَارًا، ومحاربًا صُلبًا، وكان يُلَقَّبُ بذي السَّيْفَيْنِ؛ لأنه كان يَتَقَلَّدُ سيفين في الحرب يقاتل بهما، وهذا دليل على مهارته القتالية[2].

وقد شَهِدَ أبو الهيثم مع النبيِّ ﷺ بَدْرًا وأُحُدًا والخندقَ والحديبيةَ وتَبُوكَ، ولَمْ يَفُتْهُ مَشْهَدٌ مع رسول الله ﷺ.

فهو أَحَدُ الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

ومن الذين وعدهم الله تعالى على لسان رسوله ﷺ بالجنة والنجاة من النار؛ إذ قال: «**لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ رَجُلٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ**»[3].

---

(١) ينظر: معرفة الصحابة، لأبي نعيم (٥٩٧٨، ٥٩٧٩).
(٢) ينظر: الاستيعاب (٢/ ٤٧٧).
(٣) أخرجه أحمد (١٥٢٩٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢١٦٠).

وقد كان أبو الهيثم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]؛ وذلك لأنه أحد الأنصار الذين أخبر النبيُّ ﷺ: أنهم قد قضوا نحبهم حين قال ﷺ: «**إِنَّ الْأَنْصَارَ قَدْ قَضَوَا الَّذِي عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي عَلَيْكُمْ، فَأَحْسِنُوا إِلَى مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**»(١).

ولما هاجت رياح الفتنة بعد موت رسول الله ﷺ وقف أبو الهيثم مع أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خلافته أمام عاصفة الرِّدَّة كالعقبة الكَؤُود حتى قُضِيَ عليها والحمد لله، ومات الصِّدِّيقُ وهو عنه راضٍ، ثم استكمل مسيرة الجهاد في خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى مات فيها.

إكرامُه لرسولِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فِي سَاعَةٍ لَا يَخْرُجُ فِيهَا، وَلَا يَلْقَاهُ فِيهَا أَحَدٌ، فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟!** قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: **وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومَا فَانْطَلِقُوا بِنَا إِلَى مَنْزِلِ أَبِي الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ الْأَنْصَارِيِّ، فَلَعَلَّنَا نَجِدُ عِنْدَهُ شيئًا يُطْعِمُنَا**. وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ النَّخْلِ وَالشَّاءِ، فَقَامَا مَعَهُ، فَانْطَلَقُوا إِلَى مَنْزِلِ أَبِي الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ الْأَنْصَارِيِّ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُم الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: **أَيْنَ زَوْجُكِ؟** قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ خَدَمٌ، فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ جَاءَ أَبُو الْهَيْثَمِ يَحْمِلُ قِرْبَةً فَوَضَعَهَا، ثم أَقْبَلَ عَلَيْهِم، فَقَالَ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، مَا زَارَ النَّاسَ أَحَدٌ قَطُّ مِثْلُ مَنْ زَارَنِي، ثم جَاءَ يَلْتَزِمُ النَّبِيَّ ﷺ وَيُفَدِّيهِ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ، ثم انْطَلَقَ بِهِمْ إِلَى

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧٢٦٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩١٦).

حَدِيقَتِهِ، فَبَسَطَ لَهُمْ بِسَاطًا فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثم قَالَ: الْحَمْدُ لله، مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، ثم انْطَلَقَ إِلَى نَخْلَةٍ، فَجَاءَ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ فَوَضَعَهُ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **أَفَلَا تَنَقَّيْتَ لَنَا مِنْ رُطَبِهِ؟** فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ تَخْتَارُوا مِنْ رُطَبِهِ وَبُسْرِهِ، فَأَكَلُوا، وَشَرِبُوا مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، وَانْطَلَقَ أَبُو الْهَيْثَمِ لِيَصْنَعَ لَهُمْ طَعَامًا، وَأَخَذَ الشَّفْرَةَ، ثم جَالَ فِي الْغَنَمِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: **إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ، لَا تَذْبَحَنَّ ذَاتَ دَرٍّ**، فَذَبَحَ لَهُمْ عَنَاقًا، أو جَدْيًا وَسَلَخَهَا، وَقَالَ لِامْرَأَتِهِ فَطَبَخَتْ وَخَبَزَتْ، وَجَعَلَ يَقْطَعُ فِي الْقِدْرِ مِنَ اللَّحْمِ، فَأَوْقَدَ تَحْتَهَا حَتَّى بَلَغَ اللَّحْمُ وَالْخُبْزُ فَثَرَدَ، ثم غَرَفَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَرَقِ وَاللَّحْمِ، فَأَتَاهُمْ بِهَا فَأَكَلُوا، ثم قَامَ إِلَى الْقِرْبَةِ وَقَدْ سَفَعَتْهَا الرِّيحُ فَبَرَدَ الماء، فَصَبَّ فِي الْإِنَاءِ، ثم نَاوَلَ رَسُولَ الله ﷺ فَشَرِبَ، ثم نَاوَلَ أَبَا بَكْرٍ فَشَرِبَ، ثم نَاوَلَ عُمَرَ فَشَرِبَ، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ- لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ-: **الْحَمْدُ لله خَرَجْنَا لَمْ يُخْرِجْنَا إِلَّا الْجُوعُ، ثم رَجَعْنَا وَقَدْ أَصَبْنَا هَذَا، ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطَبٌ طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ، هَذَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**، فَأَخَذَ عُمَرُ الْعِذْقَ فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ حَتَّى تَنَاثَرَ الْبُسْرُ قِبَلَ رَسُولِ الله ﷺ، ثم قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَئِنَّا لَمَسْئُولُونَ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: **خِرْقَةٍ كَفَّ بِهَا الرَّجُلُ عَوْرَتَهُ، أو كِسرَةٍ سَدَّ بِهَا جَوْعَتَهُ، أو جُحْرٍ يَتَدَخَّلُ فِيهِ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ**»[١].

وعَنِ الْهَيْثَمِ بْنِ النَّضْرِ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَدَمْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَلَزِمْتُ بَابَهُ فِي قَوْمٍ مَحَاوِيجَ، فَكُنْتُ آتِيهِ بِالْمَاءِ مِنْ جَاسِمِ بِئْرِ أَبِي الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيِّهَانِ، وَكَانَ مَاؤُهَا طَيِّبًا، ولقد دخل يومًا صائفًا ومعه أبو بكر على أبى الهيثم، فقال ﷺ له: **هل من ماء**

---

(١) ينظر: مسلم (٢٠٣٨)، وأحمد (١٤٦٧٨- ٢٠٧٨٧)، والترمذي (٢٣٦٧)، وابن ماجه (٣١٨١- ٣١٨٠)، ومسند أبي يعلى (٧٨).

بارد؟ فأتاه بشجب فيه ماء كأنه الثلج، فصب منه على لبن عنز له، وسقاه، ثم قال له: إنَّ لنا عريشًا باردًا فَقِلْ فيه يا رسول الله عندنا، ونضحه بالماء، فدخله وأبو بكر، وأتى أبو الهيثم بألوان من الرطب عجوة وابن طاب، وأمهات جراذين، ثم جاءهم بعد ذلك بجفنة مملوءة ثريدًا، فأكل رسولُ الله ﷺ وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأكلنا، فلما حضرت الصلاة صلى بنا رسولُ الله ﷺ في بيت أبي الهيثم، وزوجة أبي الهيثم خلفنا، ثم سلَّم وعاد إلى العريش فصلى فيه ركعتين بعد الظهر»[(١)].

فهاتان صورتان جميلتان من صور إكرام أبي الهيثم لرسول الله ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

موقفٌ يعجزُ القلمُ عن وصفِه

ولما كان أبو الهيثم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كثير الإكرام لرسول الله ﷺ أراد النبيُّ ﷺ أن يكافئه، فهو الذي قال: «**مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»[(٢)]، وقد لَفَتَ انتباه النبيِّ ﷺ أن أبا الهيثم يقضي حوائجه بنفسه، فسأله قائلًا: «**هَلْ لَكَ خَادِمٌ؟**، قَالَ: لَا، فقَالَ ﷺ له: **فَإِذَا أَتَانَا سَبْيٌ فَأْتِنَا**، فَأُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ بِرَأسَيْنِ لَيْسَ مَعَهُمَا ثَالِثٌ، فَأَتَاهُ أَبُو الْهَيْثَمِ، فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **اخْتَرْ مِنْهُمَا**، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ الله اخْتَرْ لِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِنَّ الْمُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ، خُذْ هَذَا؛ فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يُصَلِّي، وَاسْتَوْصِ بِهِ خَيْرًا**، فَانْطَلَقَ أَبُو الْهَيْثَمِ إِلَى امْرَأَتِهِ فَأَخْبَرَهَا بِقَوْلِ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ له امْرَأَتُهُ: مَا أَنْتَ بِبَالِغٍ مَا قَالَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ إِلَّا أَنْ تَعْتِقَهُ، قَالَ: فَهُوَ عَتِيقٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **إِنَّ الله لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا وَلَا خَلِيفَةً إِلَّا وَلَهُ بِطَانَتَانِ**[(٣)] **بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ،**

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٣٤٩)، وإمتاع الأسماع، للمقريزي (٧/ ٣٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥٧٤٣)، وأبو داود (١٦٧٢)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٥٤).

(٣) الْبِطَانَةُ: الصَّاحِبُ والْوَلِيجَةُ، وَهُوَ الَّذِي يُعَرِّفُهُ الرَّجُلُ أَسْرَارَهُ ثِقَةً بِهِ، شُبِّهَ بِبِطَانَةِ الثَّوْبِ. ينظر: تحفة الأحوذي (٦/ ١٥٦).

وَبِطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا[١] **وَمَنْ يُوقَ بِطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وُقِيَ»**[٢].

ما أروع صنيعَكَ يا أبا الهيثم، وما أروع صنيعَ امرأتك، فوالله إني ظَلَلْتُ أَيَّامًا كلما أردتُ أن أكتب تعليقًا على هذا الموقف أجد القلم يابسًا، وكلما أردتُ أن أحرك لساني مادحًا أجد اللسان مكتوفًا أمام عظمة ورُقي هذا الصنيع، وما لُمْتُ نَفْسِي في ذلك، فهو بحق موقف يَعْجَزُ الْقَلَمُ عَنْ وَصْفِه، ويَعْجَزُ اللسانُ عن مَدْحِه.

موقفُه العظيمُ يومَ السَّقيفةِ

لما مات رسولُ الله ﷺ أظلمتِ الدنيا، ونزل خبرُ موته على قلوب أصحابه الأبرار كالصاعقة المدوية التي تزلزل الشُّمَّ الرواسي، وهاجت رياح الفتنة، واشْرَأَبَّ النِّفَاقُ، وارتدت بعضُ قبائل العرب، وقالت العَجَمُ: قد مات هذا الرجل الذي كانت العرب تُنصَر به، وظن أعداء الإسلام أن الفرصة سانحة للقضاء عليه[٣].

ولكن هيهات لهؤلاء المتكالبين، ألا يعلمون أن الله تعالى ناصر دينه وحافظه؟!، ألا يعلمون أن محمدًا ﷺ قد أعدَّ جيلًا لحمل الرسالة من بعده فريدًا لم تعرف البشرية جيلًا مثله، قد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ومدحهم في قرآنه؟!، فوالله لو وَقَفَتْ أمامهم الجبال العوالي لتصد دعوتهم لأزاحوها من طريقهم.

ولما أصبح المسلمون ليس لهم إمام بموت رسول الله ﷺ اجتمع الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في سقيفة بني ساعدة يتشاورون في أمر اختيار خليفة رسول الله ﷺ.

وكعادة مجالس المشورة اختلفتِ الآراء، وتعددتِ الأطروحات، واقترح البعضُ أنْ يكون من المهاجرين أميرٌ، ومن الأنصار أميرٌ، ولكن في مثل هذه المواقف المصيرية من

---

(١) أَيْ: لَا تُقَصِّرُ فِي إِفْسَادِ أَمْرِهِ. ينظر: تحفة الأحوذي (٦/ ١٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٦٧)، وأبو داود (٥١٢٨)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٦٤١).

(٣) ينظر: حياة الصحابة (٢/ ٢٧٩).

حياة الأُمَّة يُقَيِّضَ اللهُ لحفظ دينه رجالًا من أهل البصيرة والْحَسْمِ، يُجْرِي الْحَقَّ عَلَى ألسنتهم، ويجمع بهم عِقد المسلمين ألَّا ينفرط، وكان من هؤلاء الذين جمع الله بهم كلمة المسلمين يوم السقيفة: بطل قصتنا أبو الهيثم بن التيهان الأنصاري الذي تكلم فقال: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَنْصِتُوا وَاسْمَعُوا مَقَالَتِي، وَتَفَهَّمُوا مَا أُلْقِيهِ إِلَيْكُمْ، اعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ شَمِتَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِمَوْتِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ ظَهَرَتْ حَسِيكَةُ- أي: عداوةُ- أَهْلِ الرِّدَّةِ، وَعَظَّمَ الْمَصَائِبَ عَلَيْنَا: أَنَّ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ خَرَجَ بِأَرْضِ الْيَمَامَةِ بِرَعْدٍ وَبَرْقٍ، وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَانَ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ فِي حَيَاةِ نبينا ﷺ، وَالآنَ قَدْ بَلَغَنِي: أَنَّ طُلَيْحَةَ بْنَ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيَّ- أيضًا- قَدِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ بِبِلادِ نَجْدٍ، وَأَنَا- وَاللهِ- خَائِفٌ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ أَنْ تَرْتَدَّ عَنْ دِينِ الإِسْلامِ، فَإِنْ لَمْ يَقُمْ بِهَذَا الأَمْرِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، أو رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَهُوَ- وَاللهِ- الْهَلاكُ والبوار، ثم أنشأ أبو الهيثم يقول[1]:

أَلا قَـدْ أَرَى أَنَّ الْفَتَـى لَـمْ يَخْلُـدِ ... وَأَنَّ الْمَنَايَـا لِلرِّجَـالِ بِمَرْصَـدِ

لَقَـدْ جُـدِّعَتْ آذَانُنَـا وَأُنُوفُنَـا ... غَـدَاةَ فُجِعْنَـا بِـالنَّبِيِّ مُحَمَّـدِ

تَكَلَّـمَ أَهْـلُ الْكُفْـرِ مِـنْ بَعْـدِ ذِلَّـةٍ ... لِغَيْبَـةِ هَـادٍ كَـانَ فِينَـا وَمُهْتَـدِ

نَصَـارَى يَقُولُـونَ الفِـرَى وَمُنَـافِقٌ ... وَكُـلُّ كَفُـورٍ شَـامِتٍ مُتَهَـوِّدِ

ثَلاثَـةُ أَصْـنَافٍ مِـنَ النَّـاسِ كُلُّهُـمْ ... يَـرُوحُ عَلَيْنَـا بِالسِّـنَانِ وَيَغْتَـدِي

وَأَرْعَـدَ كَـذَّابَ الْيَمَامَـةِ جَهْـدَهُ ... وَأَكْلَـبَ فِينَـا بِاللِّسَـانِ وَبِالْيَـدِ

وَدَانَـاهُ فِيمَـا قَـالَ غَيْـرَ مُقَصِّـرٍ ... أَخُو الْجَهْلِ حَقًّا طَلْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدِ

فَـإِنْ يَـكُ هَـذَا الْيَـوْمَ مِـنْهُمْ شَـمَاتَةٌ ... فَـلا تَـأْمَنُوا مَـا يُحْـدِثُ اللهُ فِـي غَـدِ

---

(١) ينظر: الإصابة (٧/ ٣٦٦)، والاكتفاء (٢/ ٦٧)، والردة، للواقدي (ص٣٠).

وَمَا نَحْنُ إِنْ لَمْ يَجْمَعِ اللهُ أَمْرَنَا ... بِخَيْرِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا بَعْدَ أَحْمَدِ
بِأَمْنَعِ مَنْ شَاءَ بِقَفْرٍ مَطِيرَةٍ ... وَفَقْعَةِ قَاعٍ أو ضِبَاعٍ بِفَدْفَدِ
وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَقُومَ بِأَمْرِنَا ... عَلِيٌّ أو الصِّدِّيقُ أو عُمَرُ مِنْ غَدِ
أولئك خيار الْحَيِّ فِهْرَ بْنَ مَالِكٍ ... وأنصار هذا الدين من كلِّ معتدِ

فكان لكلام أبي الهيثم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقْعٌ في نفوس الحاضرين، وقد تكلم مثله بعض الأنصار بكلام حكيم كزيدِ بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره، حتى قالت الأنصار للمهاجرين كلمتهم الخالدة: «نَحْنُ الْوُزَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الْأُمَرَاء»[(١)]، فقُضِيَ الأَمْرُ بفضل الله، واجتمعت كلمة الصحابة الأبرار على أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليكون خليفة المسلمين بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعد حياة طويلة من البذل والعطاء والدعوة والجهاد في سبيل الله ينتهي أبو الهيثم بن التيهان من سفره الطويل، ويصل به قطار الحياة الدنيا إلى نهاية أجله، فيقف به في آخر محطات عمره على عتبات الآخرة، وذلك سنة عشرين من الهجرة في خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فينام على فراش الموت، ثم تخرج روحه إلى بارئها، ويخرج هو معها من بوابة الدنيا وقد فتحت له الآخرة أبوابها؛ ليلقى الأحبةَ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبَه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقد صلى على جنازته أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالمدينة، ودُفِنَ بِالْبَقِيعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)].

وبعدما تَصَفَّحْتُ سيرة أبي الهيثم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وطُفتُ في بستان حياته، فاستنشقت فيه عبيرَ الإيمان، وشممت فيه رائحة الرجولة، وجَدْتُ نَفْسي بحق بين يدي شخصية

---

(١) أخرجه أحمد (١٨)، والألباني في السلسلة الصحيحة (١١٥٦).
(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٤٤٨)، والمستدرك (٥٢٥٠، ٥٢٥١)، والسير (١/ ١٩١).

إسلامية عظيمة، فكلما وقفت أمام لقاءاته الثلاثة برسول الله ﷺ في العقبة يرتجف قلبي وأنا أرى مِثَالًا في التضحية والبذل والفداء، وإذا قَلَّبْتُ الصفحات فنظرت إليه وهو في ميادين الجهاد يقاتل بسيفين في سبيل الله رأيت مِثَالًا في البطولة والجهاد، وفي ضيافته لرسول الله ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رأيت مِثَالًا في الكرم والجود والعطاء، ولمَّا سأل النبيُّ ﷺ امرأتَهُ: «**أَيْنَ زَوْجُكِ**؟ فقَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنْ الْمَاءِ»، رأيت مِثَالًا في رعاية الرجل لبيته، وإكرامه لزوجته، وصيانته لها، مما يُظهر لنا معنى قوامة الرجل في بيته، وفي عتقه للخادم رأيت مثالًا رَاقِيًا في تعظيم أمر رسول الله ﷺ، ولما وقفت مع موقفه يوم السقيفة واختيار الخليفة، رأيتُ فيه عَقْلًا رَاجِحًا، وإِخْلَاصًا عَمِيقًا، وحكمةً غير مصطنعة، ولما انتهيت إلى وفاته وجَدْتُ نَفْسِي والدمْعُ يجري أقول له: واللهِ إني قد أحببتك من أعماق قلبي يا أبا الهيثم، ورجوتُ أن يجمعني الله بك في أعلى عليين، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

رضي اللهُ عن أبي الهيثم،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



طَلقُ بنُ عليٍّ اليماميُّ

الذي حوَّلَ الكنيسةَ مسجدًا

إن حديثنا في هذه الصفحات عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، ليس مشهورًا بين الناس، لكنه من أول لقاء بينه وبين النبيِّ ﷺ قد وضع بصمته في خدمة دين الله جَلَّ وَعَلَا. إن موعدنا مع الصحابي الجليل: طَلْقِ بْنِ عَلِيٍّ اليَمَامِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

اسمُه ونسبُه ونشأتُه

هو طَلْقُ بْنُ عَلِيٍّ بن المُنذر، الحَنَفيُّ، اليَمَامِيُّ[1].

نشأ طَلْقٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في بَني حنيفة، وهم قوم يسكنون بأرض في جزيرة العرب يقال لها: اليمامة، والمتعمق في قراءة سيرته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سيلمح مَيله للعبادة والتنسك، فقد كان يدين بدين النصرانية، وكان لهم في بلدتهم كنيسة هو من أهم رُوَّادها والقائمين على شؤونها، وظل على هذا حتى سمع بالنبيِّ محمد ﷺ.

قصةُ إسلامِه

كان طلق بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقرأ في الإنجيل ويعرف فيه صفة رسول الله ﷺ ويعلم أنه قد أظلَّ زمانُه، وقد أخبرنا ربنا سبحانه: أن بيان ذلك مكتوب في التوراة والإنجيل كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ

---

(١) ينظر: معرفة الصحابة (٣/ ١٥٦٨)، ومعجم الصحابة، للبغوي (٣/ ٤٤٠)، وتهذيب الكمال (١٣/ ٤٥٥).

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، بل وقد أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن صفات أصحاب نبيه ﷺ في التوراة والإنجيل، كما في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

فلما سمع طلْقٌ ببعثة النبيِّ ﷺ وهجرته إلى المدينة خرج من أرض اليمامة في جماعة من قومه كلهم على النصرانية قاصدين المدينة لرؤية رسول الله ﷺ والسماع منه، وما إنْ لَقوه ﷺ وتلا عليهم ما أنزل عليه، وعرفوه بصفته التي في كتبهم حتى أسلموا لله الواحد وآمنوا لرسوله ﷺ؛ ليفوز طلق بن علي ومن معه بقول النبيِّ ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وآمَنَ بِي فَلَهُ أَجْرَانِ»(١)، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص: ٥٢- ٥٤]، ومن هنا بدأت رحلة السعادة في حياة طلق بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

دورُه في بناءِ المَسجدِ النبويِّ

عن طَلْق بنِ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَبْنُونَ الْمَسْجِدَ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يُعْجِبْهُ عَمَلُهُمْ(٢)، فَأَخَذْتُ الْمِسْحَاةَ، فَخَلَطْتُ بِهَا الطِّينَ، فَكَأَنَّهُ أَعْجَبَهُ

(١) أخرجه البخاري (٥٠٨٣)، واللفظ له، ومسلم (٢٤١).
(٢) قلتُ: وذلك لعدم خبرتهم بطرق البناء، لا لتقصيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

أَخْذِي الْمِسْحَاة وَعَمَلِي، فَقَالَ ﷺ: **«دَعُوا الْحَنَفِيَّ وَالطِّينَ؛ فَإِنَّهُ أَضْبَطُكُمْ لِلطِّينِ»**(١)، وفي رواية قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «بَنَيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ، فَكَانَ يَقُولُ: **قَدِّمُوا الْيَمَامِي مِنَ الطِّينِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَحْسَنِكُمْ لَهُ مَسًّا، وَأَشَدُّكُمْ مَنْكِبًا**»(٢).

فكأنَّ القَدَرَ ساق طلق بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من أرض اليمامة إلى المدينة في هذا التوقيت ليكون له نصيبٌ عظيمٌ في بناء المسجد النبوي الذي ستُشد إليه الرحال فيما بعد من جميع أقطار الدنيا إلى يوم القيامة.

ولك أن تتخيل الأجر العظيم الذي سيحصل عليه طلق بن علي وكل من ساهم في بناء هذا المسجد، فقد قال النبيُّ ﷺ: «**صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ**»(٣)، وقال ﷺ: «**مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا لَمْ يَأْتِ إِلَّا لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ، أو يُعَلِّمُهُ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله**»(٤)، فكل الصلوات التي تقام فيه والخطب وحلق العلم والمواعظ، وكل أذان وإقامة، وكل عمل صالح يُعملُ في هذا المسجد سيكون- إن شاء الله- تعالى في صحائف حسنات طلق بن علي ومن ساهم معه في بنائه فرضي الله عنهم أجمعين.

النَّبيُّ ﷺ يرقيهِ حتى يبرأَ

وفي أثناء انشغال طلق بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بتجهيز الطين ليلصق البنَّاؤون الحجارة به ببعضها لدغه عقرب فتألم ألمًا شديدًا، فرأى- عندئذٍ- آية من آيات النُّبوة يحدثنا عنها فيقول رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كُنْتُ أَخلطُ الطينَ بالمدينة فلدغتني عقرب فأتاني رسولُ الله ﷺ

(١) أخرجه أحمد (٣٩/ ٤٦٥)، وحسَّنه الأرناؤوط.
(٢) أخرجه أحمد (٣٩/ ٤٦٥)، وابن حبان (١١٢٢)، وصحَّحه الألباني في التعليقات الحسان (١١١٩).
(٣) أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤)
(٤) أخرجه أحمد (٩٤٠٩)، وابن ماجه (٢٢٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦١٨٤).

فَرَقاني وَمَسَحَ يَدَيْهِ عَلَيَّ حَتَّى بَرَأْتُ»[1].

وكأنَّ هذا الذي حدث لطلْق بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أول إسلامه آية من آيات النبوة أراها اللهُ إياه، حيث كان من قوم نصارى يعلمون أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يشفي المرضى- بإذن الله تعالى-؛ وذلك ليثبت فؤاده على الإسلام، ولينقل خبر هذا الحدث لغيره كدليل على نُبوة محمد ﷺ عند دعوة قومه إلى الإسلام.

حرصُه على طلبِ العلمِ ونشرِهِ

وبقي طلق بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مدة مكثه في المدينة يرافق النبيَّ ﷺ كظله، يسمع كلماته ويرمق تحركاته؛ لينتفع بذلك، وليبلغ عن رسول الله ﷺ ما أُوحِيَ إليه، فكان إذا سمع شيئًا من القرآن وعاه في صدره، كأنما نُقش فيه نقشًا، فكان أول من قرأ سورة الدخان في أرض اليمامة حتى تعلمها الناس منه[2]، وكان حريصًا على حضور مجالس النبيِّ ﷺ فلم يَفُتْه تقريبًا مجلس تكلم فيه رسولُ الله ﷺ في هذه المدة، وكان يجلس كأنَّ على رأسه الطير، ينظر بعين واعية، ويستمع بأُذُن صاغية؛ لينهل من معين السُّنة الصافي، ويُدَوِّنُ في ذاكرته بحرص كل ما يَسمع ويرى، حتى جَمع من أقوال النبيّ ﷺ وأفعاله علمًا انتفع به، ونفع به الأمة من بعده، وهذه:

جُملةٌ من الأحاديثِ التي رواهَا

١- عَنْ طَلْقِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى صَلَاةِ عَبْدٍ لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ بَيْنَ رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ**»[3].

---

(١) ينظر: مسند أحمد (١٦٢٩٨)، والمعجم الكبير (٨٢٦٢)، ومسند الشاميين (٢٠٥٢)، وصحيح أبي داود (١٧٦).

(٢) ينظر: معجم الصحابة، لابن قانع (٢/ ٤٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٠٧٩٩)، وصحَّحه الأرناؤوط والألباني.

٢- وعَنْه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رَسُولَ الله ﷺ قال: «**إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ، فَلْتَأْتِهِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُّورِ**»[(١)].

٣- وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبيَّ ﷺ قال- عن الخَمر-: «**لَا تَشْرَبْهُ، وَلَا تُسْقِهِ أَخَاكَ الْمُسْلِمَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**- أو: **فَوَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ**- **لَا يَشرَبُهُ رَجُلٌ ابْتِغَاءَ لَذَّةِ سُكْرِهِ، فَيَسْقِيهِ اللهُ الْخَمْرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(٢)].

٤- وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيلَ فِي الْأُفُقِ، وَلَكِنَّهُ الْمُعْتَرِضُ الْأَحْمَرُ**»[(٣)].

طَلقٌ يُحوِّلُ الكنيسةَ مسجدًا

وقبل أن يترك طلقٌ وأصحابُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ المدينة ويرجعوا إلى قومهم باليمامة أخبر طلقٌ النبيَّ ﷺ أنهم كانت لهم كنيسة يتعبدون فيها في بلدتهم، فأمرهم النبيُّ ﷺ أن يتخذوها مسجدًا، فعن طلق بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّ بأرضنا بيعَة[(٤)] لنا، واستوهبناه من فضل طَهُوره فَدَعَا بِمَاء فَتَوَضَّأ مِنْهُ ومضمض، ثم صَبَّ لَنَا فِي إِدَاوَةٍ، ثم قَالَ ﷺ: **اذْهَبُوا بِهَذَا الْمَاءِ، فَإِذَا قَدِمْتُمْ بَلَدَكُمْ، فَاكْسِرُوا بِيعَتَكُمْ، ثم انْضَحُوا مَكَانَهَا مِنْ هَذَا الْمَاءِ، وَاتَّخِذُوا مَكَانَهَا مَسْجِدًا**، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، الْبَلَدُ بَعِيدٌ وَالْحُرَّ شَدِيدٌ وَالْمَاءُ يَنْشَفُ، قَالَ ﷺ: **فَأَمِدُّوهُ مِنَ الْمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ إلا طِيبًا**، قال طلقٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَخَرَجْنَا فَتَشَاحَحْنَا عَلَى حَمْلِ الإِدَاوَةِ أَيُّنَا يَحْمِلُهَا، فَجَعَلَهَا رَسُولُ ﷺ نَوبًا بَيْنَنا، لِكُلِّ رَجُلٍ مِنَّا يَوْمًا وَلَيْلَةً، فَخَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا

---

(١) أخرجه الترمذي (١١٦٠)، والنسائي (٨٩٧١)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٢٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣٩/ ٤٦٦)، والطبراني في الكبير (٨٢٥٩)، وصحَّحه الأرناؤوط.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٣٣٤)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢٠٣١).

(٤) البيعة هي: الكنيسة.

بَلَدَنَا فَكَسَرْنَا بِيْعَتَنَا، ثم نَضَحْنَا مَكَانَهَا وَاتَّخَذْنَاهَا مَسْجِدًا، فَنَادَيْنَا فِيهِ بِالْأَذَانِ، قَالَ: وَالرَّاهِبُ رَجُلٌ مِنْ طَيِّءٍ فَلَمَّا سَمِعَ الْأَذَانَ قَالَ: دَعْوَةُ حَقٍّ، ثم اسْتَقْبَلَ تَلْعَةً مِنْ تِلَاعِنَا[(١)] فَلَمْ نَرَهُ بَعْدُ»[(٢)].

وكان الذي رفع هذا الأذان هو بطل قصتنا طلق بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأصبح بعد ذلك هو مؤذن هذا المسجد؛ ليكون أول من رفع الأذان على أرض اليمامة[(٣)].

وهكذا كانت بصمة طلق بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيئته واضحة بعد عودته من عند رسول الله ﷺ، فقد حَوَّلَ الكنيسة مسجدًا، وكان أولَ مَن رفع الأذان فيها، وبرَزَ دَوره في تعليم قومه ما حفظ من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

عبادتُه وفقهُه

عَنْ قَيْسِ بْنِ طَلْقِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «زَارَنَا أَبِي طَلْقُ بْنُ عَلِيٍّ فِي يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ، وأمسى عندنا وأفْطَرَ، ثم قَامَ بِنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَأَوْتَرَ بِنَا، ثم انْحَدَرَ إِلَى مَسْجِدِهِ فَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ حَتَّى إذا بَقِيَ الْوِتْرُ، قَدَّمَ رَجُلًا، فَقَالَ لَهُ: أَوْتِرْ بِهِمْ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **لَا وِتْرَانِ فِي لَيْلَةٍ**»[(٤)].

هذا الموقف الذي يحكيه قَيسٌ عن أبيه طلق بن علي يعكس لنا صفحة من صفحات عبادته وفقهه ومسارعته نحو اغتنام النفحات الربَّانية، فقد رأيناه من خلالها يزور أسرة ولده في شهر رمضان، ويتناول معهم طعام الإفطار، ثم يجمعهم بعدَ صلاة

---

(١) هي: مَجَارِي الْمَاء مِنْ أَعْلَى الْأَرْض إِلَى بُطُون الْأَوْدِيَة، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ الْأَضْدَاد، يَقَع عَلَى مَا اِنْحَدَرَ مِنْ الْأَرْض، وَمَا اِرْتَفَعَ مِنْهَا. ينظر: عون المعبود (٥/ ٣٦٥).

(٢) ينظر: أحمد (١٦٣٣٦)، وابن حبان (١١٢٣)، والنسائي (٧٠١)، والسلسلة الصحيحة (٢٥٨٢).

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ٣٤٠).

(٤) ينظر: أحمد (١٦٣٣٩)، والنسائي (١٦٧٩)، والترمذي (٤٧٠)، وصحيح الجامع (٧٥٦٧).

العشاء خلفه على صلاة التراويح، ثم يُوتر بهم.

ومما يُبيِّن مدى حرصه على اغتنام ليل رمضان الذي في قيامه الغفران والعتق من النيران أنَّا وجدناه لم يكتفِ بصلاة التراويح أول الليل، بل ذهب إلى مسجده الذي يصلي بالناس فيه- ولعله هو الكنيسة التي حوَّلها إلى مسجد- ليقوم بقية الليل بأصحابه ابتغاءَ أن يكون من الفائزين.

ثم يختم صلاته بتعليم الناس درسًا عمليًّا يشاهدون من خلاله صورةً حيةً لتطبيق قول النبي ﷺ: «**لَا وِتْرَانِ فِي لَيْلَةٍ**»، فيصبح درسًا لا يُنسى تتناقله الأجيال عنه.

وحانَ وقتُ الرحيلِ

نعم إن صُحبة طلق بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرسول الله ﷺ لم تكن طويلة، لكنه عاش تحت ظل الإسلام مُدةً ليست بالقصيرة، بذل كل جهده فيها لنشر الإسلام بين قومه وتعليمهم أحكامه وآدابه حتى حان وقت رحيله من دار البلاء إلى دار الجزاء.

وإني لم أقف على تاريخ موته في المصادر العديدة التي بين يَدَيَّ، ولكن الذي يظهر من استقراء سيرته في كتب التراجم، وما رُوي عنه في كتب الحديث: أنه عاش زمنًا بعد رسول الله ﷺ.

رضي اللهُ عن طلقِ بنِ عليٍّ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



حنظلةُ بنُ الرَّبيع

ائتمُّوا بِهذَا، وَأشباهِهِ[1]

إنَّ صاحب هذه الترجمة أحد أبطال الإسلام، اسمه: حنظلة، فخَلَط كثيرٌ من الناس بينه وبين شهيد أُحُد حنظلة بن أبي عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي غسلته الملائكة، فظنوا أنهما شخصٌ واحد، ولكن الحقيقة أن بطل قصتنا حنظلة آخر، فيا ترى:

مَن حنظلةُ بنُ الرَّبيعِ؟

هو حَنْظَلَةُ بنُ الرَّبيعِ بنِ صَيْفِي بنِ رَبَاح، الأُسَيْدِيُّ، التَميميُّ، وعمه أكثَم بن صَيْفي الذي كان يلقب بحكيم العرب في الجاهلية.

وكان حنظلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُتْقنًا للقراءة والكتابة في زمن كانت العرب فيه غارقة في الأُمِّيَّة؛ لذلك كان بنو قومه يلقِّبونه بـ(حنظلة الكاتب)، فلما أسلم حنظلة أصبح أحد الذين يكتبون الوحي والرسائل لرسول الله ﷺ.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن اعتزلوا الفتنة، وكان من عُبَّادِ الصَّحَابَةِ، وقيل: إنه قال: «يا رسول الله، لليهود يوم، وللنصارى يوم، فلو كان يوم لنا، فنزلت سورة الجُمُعة»[2].

والآن تعالوا نُقلب معًا بعض صفحات حياته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لنتعرف عليه أكثر.

صُورٌ من جهادِه مع رسولِ الله ﷺ

شهد حنظلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع النبيِّ ﷺ العديد من المشاهد، وها هو ذا يَقُص علينا

---

(١) هكذا قال النبيُّ ﷺ عن حنظلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسيأتي تخريجه.

(٢) ينظر: أسد الغابة (٣/ ٨٤- ٥٠)، والاستيعاب (١/ ٣٧٩)، والتاريخ الكبير (٣/ ٣٦)، وتاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٤٠٥)، والوافي بالوفيات (١٣/ ١٢٧).

موقفًا في بعضها، فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا، وَعَلَى مُقَدِّمَتِهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَمَرَرْنَا عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ مِمَّا أَصَابَتِ الْمُقَدِّمَةُ، قَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا النَّاسُ، حَتَّى لَحِقَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَانْفَرَجُوا عَنْهَا، فَوَقَفَ عَلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: **مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ**، ثم قَالَ- لحنظلة-: **انْطَلِقْ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يأمرك: أَنْ لَا تقتل ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا**»[(١)].

ثم شهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع النبيِّ ﷺ فتح مكة، ثم غزوة حُنَين، ثم خرج مع النبيِّ ﷺ إلى الطائف فحاصروها، فانهالت على المسلمين سهامُ أهل الطائف ونبالهم، وكانوا قومًا رماةً، فأصابوا الكثير من المسلمين، حتى قال الناسُ: «يَا رَسُولَ الله، أَخْرَقَتْنَا نِبَالُ ثَقِيفٍ؛ فَادْعُ الله عَلَيْهِمْ، فقَالَ ﷺ: **اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا**»[(٢)].

فأمَر النبيُّ ﷺ حنظلةَ بنَ الربيع بالذهاب إليهم ليعرض عليهم ما جاء النبيُّ ﷺ من أجله، وليرْصُدَ للنبيِّ ﷺ أحوالهم، فانطلق إليهم، فغدروا به، وكادوا أن يقتلوه، ولْنَتْرك جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحَدثنا بالقصة، فيقول: «لقد بَعَث رسولُ الله ﷺ يومَ الطائف حنظلةَ بنَ الرَّبيع إلى أهل الطائف يكلمهم، فغدروا به فاحتملوه ليدخلوه حصنهم، فقال رسولُ الله ﷺ: **مَنْ لهؤلاء وله مثل أجر غزاتنا هذه؟**، فلم يَقم إلا العباسُ بنُ عبد المطلب حتى أدركه في أيديهم قد كادوا أن يُدخلوه الحصن، فاحتضنه العباسُ، وكان رجلًا شديدًا، فاختطفه من أيديهم، وأمطروا على العباس الحجارة من الحصن، فجعل النبيُّ ﷺ يدعو له حتى انتهى به إلى النبيِّ ﷺ»[(٣)].

---

(١) ينظر: المسند (١٦٠٣٥)، وصحيح موارد الظمآن (١٣٦٧)، وصحيح أبي داود (٢٣٩٥)، وسنن ابن ماجه (٢٨٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٤٢) عن جابر، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١١/ ٣٤١).

ائتَمُّوا بهذا، وأشباهه

كان النبيُّ ﷺ كثيرًا ما يَرْمُق الناسَ وهم يصلون، ينظر نظرة المُعلم الذي إنْ رأى خطأً، أو خَللًا قوَّمَه، كما قال للمُسيء في صلاته: «**ارجِعْ فصَلِّ، فإنَك لم تُصَل**»[(١)]، وكان ﷺ يمدح مَنْ تعجبه صلاته، كما قال لأبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»[(٢)]، وسمع قراءة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصلاة فقال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**»[(٣)]، ومِن هؤلاء العُبَّادِ الذين رأى النبيُّ ﷺ صلاتهم فَأُعْجِبَ بها: بطل قصتنا حنظلة بن الربيع حتى قال ﷺ عنه لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «**ائْتَمُّوا بِهَذَا، وَأَشْبَاهِهِ**»[(٤)].

فعن قَيْس بنِ زُهَير قال: «انْطَلَقْنَا مَعَ حَنْظَلَةَ بْنِ الرَّبِيعِ إِلَى مَسْجِدِ فرَاتِ بْنِ حَيَّانَ فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَقَالَ لَهُ: تَقَدَّمْ، فَقَالَ لَهُ: مَا كُنْتُ لِأَتَقَدَّمُكَ وَأَنْتَ أَكْبَرُ مِنِّي سِنًّا، وَأَقْدَمُ هِجْرَةً، وَالْمَسْجِدُ مَسْجِدُكَ، فَقَالَ فُرَاتٌ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِيكَ شيئًا لَا أَتَقَدَّمُكَ أَبَدًا، فقَالَ حنظلة: أَشْهِدْتَهُ يَوْمَ أَتَيْتُهُ بالطَّائِفِ فبَعَثَنِي عَيْنًا؟، قَالَ: نَعَمْ، قال قيس بن زهير: فَتَقَدَّمَ حَنْظَلَةُ فَصَلَّى بِهِمْ، فَقَالَ فُرَاتٌ: يَا بَنِي عَجْلَانَ، إِنَّمَا قَدَّمْتُ هَذَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَهُ عَيْنًا إِلَى الطَّائِفِ، فَجَاءَ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ ﷺ: **صَدَقْتَ ارْجِعْ إِلَى مَنْزِلِكَ فَإِنَّكَ قَدْ سهرت اللَّيْلَةَ**، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ لَنَا: **ائْتَمُّوا بهَذَا، وَأَشْبَاهِهِ**»[(٥)].

وكيف لا يُحسن حنظلة الصلاة وهو الذي يروي للأمة قولَ النبيِّ ﷺ: «**مَنْ حَافَظَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٦١).

(٣) أخرجه أحمد (٣٥)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢٣٠١).

(٤) سيأتي تخريجه.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٣٣)، وقال الهيثمي - في المجمع (٢/ ٦٥)-: رِجَالُهُ مُوَثَّقُونَ.

عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ؛ عَلَى وُضُوئِهَا، وَمَوَاقِيتِهَا، وَرُكُوعِهَا، وَسُجُودِهَا، يَرَاهَا حَقًّا لله عَلَيْهِ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»(١).

يا حنظلةُ، ساعةً وساعةً

عن حنظلة بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَوَعَظَنَا، فَذَكَرَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، ثم جِئْتُ إِلَى الْبَيْتِ فَضَاحَكْتُ الصِّبْيَانَ، وَلَاعَبْتُ الْمَرْأَةَ، فَخَرَجْتُ فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟، فَقُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا أَبَا بَكْرٍ، قَالَ: سُبْحَانَ الله مَا تَقُولُ؟! فَقُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وأنا قَدْ فَعَلْتُ مِثْلَ مَا تَذْكُرُ، فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، انْطَلِقْ بِنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، قال حنظلة: فَانْطَلَقْنَا حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **وَمَا ذَاكَ؟!** فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَتْ قُلُوبُكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ عَلَى الْحَالِ الَّتِي تَقُومُونَ بِهَا مِنْ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَأَظَلَّتْكُمْ بِأَجْنِحَتِهَا، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، سَاعَةً وَسَاعَةً، سَاعَةً وَسَاعَةً»**(٢).

جهادُه في الفتوحاتِ الإسلاميةِ

وبعد وفاة الرسول ﷺ وقف حنظلة بن الربيع مع أبي بكر وقفة الرجال في مواجهة الرِّدَة، فقد كان حنظلة معروفًا في القتال بشدة بَأسه، ثم خرج مع خالد بن

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٤٥)، وصحَّحه محققو الرسالة.

(٢) ينظر: مسلم (٢٧٥٠)، وأحمد (١٩٠٦٧)، والترمذي (٢٥١٤)، وابن ماجه (٤٣٢٩).

الوليد فشهد معه حروبه في العراق، ثم شهد معه فتوحاتِه بالشام، وكان له فيهما صولات وجولات، ثم وجهه خالد بن الوليد بالأخماس إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنهم جميعًا.

وفي خلافة عمر بن الخطاب خرج حنظلة في جيش سعد بن أبي وقاص لفتح بلاد فارس، وفوجئ سَعدُ بجحافل الفرس قد خرجت في أعداد هائلة، فكَتَبَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ إِلَى عُمَرَ يَسْتَمِدُّه، فَكَتَبَ عمرُ إِلَيْهِ قائلًا: «أَتَسْتَمِدُّنِي وَأَنْتَ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ وَمَعَكَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ، وَحَنْظَلَةُ بْنُ الرَبِيع؟!»، فشهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتح القادسية والمدائن وغيرهما، وأبلى في ذلك بلاءً حسنًا[١].

هكذا يكونُ الوفاءُ

قد بلغ حُبُّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعضُهم بعضًا أنْ وصفهم اللهُ تعالى قائلًا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وها هو حنظلة بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضرب لنا مثلًا رائعًا في هذه المعاني، وذلك حين سكن الكوفة بعد فتح العراق وفارس، وعاش بها زمنًا إلى خلافة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولما قُتِلَ أميرُ المؤمنين عثمان حدثت فتنة عظيمة فاعتزلها حنظلة، ثم بلغه أنّ بعض الغَوغاء من أهل الكوفة يسبُّون عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد موته، فعزم حنظلة على أن لا يقيم بالكوفة، وأخذ آلَ بيته وارتحل منها وَلاءً ووَفاءً لعثمان، وكان الناس قد تأثروا به في الكوفة، فلما سألوه عن سبب رحيله عنهم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا نُقِيمُ بِبَلَدٍ يُشْتَمُ فِيهِ عُثْمَانُ»[٢]، ونزل بمدينة قَرْقِيسِيَا[٣] وهي إحدى مدن الشام التي شَهِدَ حنظلة فتحها، فما أجمل الوفاء.

---

(١) ينظر: المعجم الكبير (٦٧٢)، وتاريخ دمشق (٧/ ٢٨١)، والأعلام، للزركلي (٢/ ٢٨٦).
(٢) ينظر: التاريخ الكبير، للبخاري (٢/ ٣٦)، وتاريخ دمشق، لابن عساكر (١٥/ ٣٢٦).
(٣) هي: مدينة على نهر الفرات بالقرب من مدينة دير الزور السورية. ينظر: معجم البلدان (٤/ ٣٢٨).

فراقٌ ورثاءٌ

وبعد حياة طويلة أفناها حنظلة بن الربيع الكاتب في طاعة الله رَسَتْ به سفينة الحياة على شاطئ مدينة قَرْقِيسِيَا، لينام على فراش الموت بها سنة خمسين من الهجرة في زمن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم جميعًا، وتصعد روحه الطاهرة إلى بارئها، وتحزن امرأته ورفيقة دربه عليه حزنًا شديدًا، وبقي دمع عينها عليه لا يَرْقَأ زمنًا، فلامتها إحدى جاراتها اسمُها: دَعْدٌ، وقالت لها: إن هذا يحبط أجرك، فأنشدت قائلة[1]:

تَعَجَّبَتْ دَعْدٌ لمحزونةٍ تبـ ـكي على ذِي شَيْبَةٍ شاحبِ
إنْ تسأليني اليومَ ما شَفَّنِي أخبِرْكِ قولًا ليس بالْكَاذبِ
إنَّ سَوَادَ العَين أَوْدَى به حزْنٌ عَلَى حَنْظَلَةَ الْكاتِبِ

رضي اللهُ عن حنظلةَ بنِ الربيع،
وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) ينظر: الاستيعاب (١/ ٣٨٠)، وأسد الغابة (٢/ ٨٤)، وتاريخ دمشق (١٥/ ٣٢٩)، والوافي بالوفيات (١٣/ ١٢٧).

عَمرُو بنُ عَبَسةَ السُّلمِيُّ

لقد رأيتُنِي وأنا رُبعُ الإسلامِ[1]

لم تكن العرب جميعًا قبل الإسلام على قلب رجل واحد في عبادة الأوثان، بل كان منهم من دان بدين أهل الكتاب، ومنهم من أَبَتْ فطرته أن تنحدر إلى مستوى عبادة الحجر والشجر، فارتقت عقولهم عن هذه التفاهات، ورَغِبوا عن آلهة قومهم، وطافوا في رُبُوْع الأرض بحثًا عن الحقيقة، وكان أحد هؤلاء بطل قصتنا: عَمْرُو بْن عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهيا بنا نقلب معًا صفحات التاريخ الإسلامي العظيم، ونسلط الضوء على سيرة هذا الصحابي الجليل.

اسمُه ونسبُه وكنيتُه

هو عَمْرُو بنُ عَبَسَةَ بنِ خَالِدِ بنِ حُذَيْفَةَ، السُّلَمِيُّ، وكنيته: أَبُو نَجِيْحٍ السُّلَمِيُّ، وقيل: أَبُو شُعَيْب، وأمه: بَجْلة بِنْتُ هناة بْن مَالِك، الأزدية، ويقال: إنه كان أخا أبي ذرٍّ لأمِّه، واسمها: رملة بنت الوقيعة الغفارية.

قال عنه الذهبي في ترجمته: الإِمَامُ الأَمِيْرُ، أَبُو نَجِيْحٍ السُّلَمِيُّ البَجَلِيُّ، أَحَدُ السَّابِقِيْنَ، وَمَنْ كَانَ يُقَالُ: هُوَ رُبُعُ الإِسْلاَمِ[2].

---

(١) قالها عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسيأتي تخريجها.

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٥٦)، وأسد الغابة (٤/ ٢٣٩)، والإصابة (٤/ ٥٤٥)، والمستدرك (٦٥٨٢).

حالُه قبلَ الإسلامِ

ها هو ذا يصف حاله مع الوثنية قبل الإسلام، فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أُلْقِيَ فِي رُوعِي وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ: أَنَّ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ بَاطِلٌ، وأَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، يَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ، والْحِجَارَةَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، فرَغِبْتُ عَنْ آلِهَةِ قَوْمِي، وَرَأَيْتُ أَنَّهَا آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ، وَأَنَّ النَّاسَ فِي جَاهِلِيَّةٍ، فَلَقِيتُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ أَفْضَلِ الدِّينِ، فَقُلْتُ له: إِنِّي امْرُؤٌ مِمَّنْ يَعْبُدُ الْحِجَارَةَ فَيَنْزِلُ الْحَيُّ لَيْسَ معهم إله فيخرج الرَّجُلُ مِنْهُمْ فَيَأْتِي بِأَرْبَعَةِ أَحْجَارٍ فَيَنْصِبُ ثَلاثَةً لِقِدْرِهِ وَيَجْعَلُ أَحْسَنَهَا إِلَهًا يَعْبُدُهُ، ثم لَعَلَّهُ يَجِدُ مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَرْتَحِلَ فَيَتْرُكُهُ وَيَأْخُذُ غَيْرَهُ إِذَا نَزَلَ مَنْزِلًا سِوَاهُ، فَرَأَيْتُ أَنَّهُ إِلَهٌ بَاطِلٌ لا يَنْفَعُ وَلا يَضُرُّ فَدُلَّنِي عَلَى خَيْرٍ مِنْ هَذَا، فَقَالَ: يَخْرُجُ رَجُلٌ بِمَكَّةَ وَيَرْغَبُ عَنْ آلِهَةِ قَوْمِهِ وَيَدْعُو إِلَى غَيْرِهَا، وَهُوَ يَأْتِي بِأَفْضَلِ الدِّينِ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِهِ فَاتَّبِعْهُ، فَلَمْ يَكُنْ لِي هِمَّةٌ إِلَّا مَكَّةَ فَآتِيهَا، فَأَسْأَلُ: هَلْ حَدَثَ فِيهَا أَمْرٌ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَأَنْصَرِفُ إِلَى أَهْلِي، وَأَهْلِي مِنَ الطَّرِيقِ غَيْرُ بَعِيدٍ، فَأَعْتَرِضُ الرُّكْبَانَ خَارِجِينَ مِنْ مَكَّةَ فَأَسْأَلُهُمْ: هَلْ حَدَثَ فِيهَا خَبَرٌ، أو أَمْرٌ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، وَإِنِّي لَقَائِمٌ عَلَى الطَّرِيقِ إِذْ مَرَّ بِي رَاكِبٌ، فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟ قَالَ: مِنْ مَكَّةَ، فَقُلْتُ: هَلْ حَدَثَ فِيهَا خَبَرٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، رَجُلٌ رَغِبَ عَنْ آلِهَةِ قَوْمِهِ وَدَعَا إِلَى غَيْرِهَا، قُلْتُ: صَاحِبِي الَّذِي أُرِيدُ، فَسَمِعَنِي رَجُلٌ وَأَنَا أَتَكَلَّمُ بِذَاكَ، فَقَالَ: يَا عَمْرُو بِمَكَّةَ رَجُلٌ يَقُولُ كَمَا تَقُولُ، فَرَكِبْتُ رَاحِلَتِي حَتَّى قَدِمْتُ مَكَّةَ»[(١)].

وهكذا تَجَشَّمَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ الصِّعَابَ، وقد جعل الصدق سفينته التي يُبْحِرُ بها بحثًا عن الحقيقة حتى رَسَتْ به على شاطئ النجاة؛ ليلتقي هناك برسول الله ﷺ وتبدأ:

(١) ينظر: صحيح مسلم (٨٣٢)، ومسند أحمد (١٧٠١٩)، والمعجم الأوسط (٢٧٦٤)، ومسند الشاميين، للطبراني (٨٠٦).

قصةُ إسلامِه

قال عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَرَكِبْتُ رَاحِلَتِي حَتَّى قَدِمْتُ مَكَّةَ فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ مُسْتَخْفِيًا، وَوَجَدْتُ قُرَيْشًا عَلَيْهِ حِرَاصًا، جُرَآءَ عَلَيْهِ، فسألت عَنْهُ فَأُخْبِرْتُ: أَنَّهُ مُخْتَفٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا بِاللَّيْلِ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُمْتُ فَتَلَطَّفْتُ لَهُ بَيْنَ الْكَعْبَةِ وَأَسْتَارِهَا، فَمَا عَلِمْتُ إِلَّا بِصَوْتِهِ يُهَلِّلُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، فسلمتُ عليه، ثم قُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: **أَنَا نَبِيٌّ**، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: **رَسُولُ الله**، فقُلْتُ: آلله أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: **نَعَمْ**، قُلْتُ: وبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قال: **أَرْسَلَنِي بِأَنْ تُوصَلَ الْأَرْحَامُ، وَتُحْقَنَ الدِّمَاءُ، وَتُؤَمَّنَ السُّبُلُ، وَتُكْسَرَ الْأَوْثَانُ، وَأَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ**، فقُلْتُ: نِعْمَ مَا أَرْسَلَكَ بِهِ، وَإِنِّي أُشْهِدُكَ أَنِّي قَدْ آمَنْتُ بِكَ، وَصَدَّقْتُ قَوْلَكَ، ابْسُطْ يَدَكَ أُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَدَهُ، فَبَايَعْتُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ تَبِعَكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ: **حُرٌّ، وَعَبْدٌ**، قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ، ولَقَدْ رَأَيْتُنِي وَأَنَا رُبُعُ الْإِسْلَامِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي مُتَّبِعُكَ، أَفَأَمْكُثُ مَعَكَ؟ أَمْ تَأْمُرُنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي؟ أَمْ مَا تَرَى؟، فقال: **قَدْ تَرَى كَرَاهِيَةَ النَّاسِ لِمَا جِئْتُ بِهِ، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ، فَامْكُثْ فِي أَهْلِكَ، حَتَّى يُمَكِّنَ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **لِرَسُولِهِ، فَإِذَا سَمِعْتَ أَنِّي قَدْ خَرَجْتُ مَخْرَجِي فَالْحَقْ بِي**- وفي رواية-: **فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي**، قال عمرو: فَرَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي وَقَدْ أَسْلَمْتُ»(١).

وهكذا أسلم عمرو بنُ عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يصدَّهُ عن الحق ما رآه من ضعف موقف الإسلام حينئذٍ، ولم تُثْنِهِ عن الإيمان شدة الكفار على الموحدين، ومن هنا طُويت صفحات الجاهلية في حياته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن يبدو لنا أن عمرو بن عبسة التقى

(١) ينظر: مسلم (٨٣٢)، وأحمد (١٧٠١٩، ١٧٠٢٨)، ومسند الشاميين (٨٦٣)، والآحاد والمثاني (١٣٢٩).

بالنبيِّ ﷺ بعد الجهر بالدعوة، وذلك يظهر من قوله: «وَوَجَدْتُ قُرَيْشًا عَلَيْهِ حِرَاصًا، جُرَآءَ عَلَيْهِ»، وهذه الحالة لم تكن في فترة الدعوة السرية؛ فإن قُرَيْشًا لم تجترأ على النبيِّ ﷺ إلا بعدما أعلن دعوة التوحيد، ولكن عمرو بن عبسة كان يظن أنه لقي النبيَّ ﷺ في أول أيام النبوة، كما صرح بذلك في بعض الروايات قائلًا: «أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِي أَوَّلِ مَا بُعِثَ»[١]، وقد فهم ذلك من طريقة جوابه ﷺ عليه حين سأله قائلًا: «يَا رَسُولَ الله، مَنْ تَبِعَكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ؟ فقَالَ: **حُرٌّ، وَعَبْدٌ**، قَالَ عمرو: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ»، فظن عمرو عندئذٍ أنه لا يوجد على الأرض مسلمون غيرَ النبيِّ ﷺ وأبي بكر وبلال، وأنه بذلك أصبح رابعهم؛ لذلك قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولَقَدْ رَأَيْتُنِي وَأَنَا رُبْعُ الْإِسْلَامِ»، وقد تعجب الصحابيُّ الجليل أبو أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من هذه المقولة، فقال له: «يَا عَمْرُو بْنَ عَبَسَةَ، بِأَيِّ شَيْءٍ تَدَّعِي أَنَّكَ رُبُعُ الْإِسْلَامِ؟!»[٢]، فقص عليه عمرو قصته مع رسول الله ﷺ، وما كان يدري عمرو أنه قد أسلم قبله عدد كبير كانوا يلتقون سِرًّا برسول الله ﷺ في دار الأرقم، وقد استخدم النبيُّ ﷺ أسلوب التعريض[٣] في حديثه مع عمرو بن عبسة في قوله له ﷺ: «**حُرٌّ، وَعَبْدٌ**» لأن هذه المرحلة في حياة الدعوة كانت تحتاج إلى هذه الدرجة العالية من الحيطة؛ فقد كانت من أشد مراحل المحنة والفتنة في حياة المسلمين السابقين، فلم يكن من الفطنة وقتها التصريح بأسماء المسلمين الذين يخفون إسلامهم من بطش قريش، وقد روى البيهقي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إِنَّ فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةٌ عَنِ الْكَذِبِ**»[٤].

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (٢٦٠)، والحاكم (٥٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٠١٩).

(٣) التعريض هو: التورية بالشيء عن الشيء. ينظر: لسان العرب (٧/ ١٦٥).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى موصولًا (٣٠٨٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٥٧) عن عمران ابن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا، وقال الألباني - في صحيح الأدب المفرد (٦٦٢)-: صحيح موقوفًا.

هجرتُه إلى اللهِ ورسولهِ

ورجع عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى قومه ممتثلًا لأمر رسول الله ﷺ يعبد الله وحده بعيدًا عن أعين الناس، قابضًا على دينه، صابرًا عليه، حَتَّى أَذِنَ اللهُ تعالى لرسوله ﷺ بالهجرة، فعزم عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على اللحاق برسول الله ﷺ، وكأني به وهو يمتطي فرسه الذي تشق أقدامُه رمال الصحراء نحو المدينة يتردد في نفسه سؤال: هل سيتذكرني النبيُّ ﷺ بعد مرور تلك السنوات، أم لا؟.

ولعلك- أخي القارئ- تتلهف مثلي لمعرفة جواب هذا السؤال، فهيا بنا نستمع لعمرو بْن عَبَسَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو يحكي لنا قصة هجرته ولقائه برسول الله ﷺ.

قال عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «فَرَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي وَقَدْ أَسْلَمْتُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الْأَخْبَارَ، وَأَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةَ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الْمَكِّيُّ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ؟ فَقَالُوا: النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ، وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ: فَرَكِبْتُ رَاحِلَتِي حَتَّى قَدِمْتُ عَلَيْهِ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: نَعَمْ، **أَنْتَ الرَّجُلُ السُّلَمِيُّ الَّذِي أَتَيْتَنِي بِمَكَّةَ**، فَقُلْتَ لِي كَذَا وَكَذَا، وَقُلْتُ لك إِنِّي كَذَا وَكَذَا»[(١)].

فما أجمل تلك الكلمات من رسول الله ﷺ وهي تتخلل مسامع عمرو بن عبسة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فتنزل على صدره بردًا وسلامًا، حيث يخبره النبيُّ ﷺ: أنه يذكره ولم ينسه، بل ولم ينسَ الحوار الجميل الذي دار بينهما في مكة، فكأني بقلبه يطير في السماء فرحًا بما سمع.

---

(١) ينظر: صحيح مسلم (٨٣٢)، ومسند أحمد (١٧٠١٩)، ومسند الشاميين، للطبراني (٨٦٣)، والآحاد والمثاني (١٣٢٩).

وقد بدأت من ساعتها مرحلة جديدة في حياة عمرو بن عبسة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أصبح فيها أحد ساكني مدينة الإيمان، يعيش في رحاب صحبة رسول الله ﷺ، يصلي خلفه، وينهل من علمه، ويجاهد معه في سبيل الله.

حُبُّه لطلبِ العلمِ

وشرح الله صدر عمرو بن عبسة للعلم وطلبه، فكان يرافق النبيَّ ﷺ كظله في مجالس العلم، ولكن نفسه التواقة لتحصيل المزيد لم تكتفِ بذلك، فقد كان يبحث عن فرصة يغتنمها ينفرد فيها برسول الله ﷺ ليخصه بعلم يحمله عنه، وليجيبه على بعض الأسئلة التي تدور في خَلَدِه، فلم يزل كذلك حتى هيأ الله تعالى له الفرصة، وها هو ذا يحدثنا عن ذلك فيقول رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «فَجَعَلْتُ أَتَحَيَّنُ خَلْوَتَهُ ﷺ، فَلَمَّا خَلَا اغْتَنَمْتُ ذَلِكَ الْمَجْلِسَ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ الدَّهْرَ أَفْرَغَ مِنْهُ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، فقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، عَلِّمْنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ وَأَجْهَلُه.

قَالَ: **سَلْ عَمَّا شِئْتَ**.

فقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَا الْإِسْلَامُ؟

قَالَ: **طِيبُ الْكَلَامِ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ**.

قُلْتُ: أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟

قَالَ: **مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**.

قُلْتُ: مَا الْإِيمَانُ؟

قَالَ: **الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ**.

فقلْتُ: أَيُّ الْإِيمَانِ أَفْضَلُ؟

قَالَ: **خُلُقٌ حَسَنٌ**.

قُلْتُ: أَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ؟

قَالَ: **أَنْ تَهْجُرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ ﷻ.**

فَقُلْتُ: أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟

قَالَ: **مَنْ أُهَرِيقَ دَمُهُ وَعُقِرَ جَوَادُهُ.**

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي عَنْ الصَّلَاةِ، أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ؟

قَالَ: **طُولُ الْقُنُوتِ.**

فقلت: هَلْ مِنْ سَاعَةٍ أَقْرَبُ مِنْ الْأُخْرَى؟

قَالَ: **نَعَمْ، إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الرَّبُّ ﷻ مِنْ الْعَبْدِ جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرَ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ ﷻ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ مَكْتُوبَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الصُّبْحَ، ثم أَقْصِرْ عَنْ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِذَا طَلَعَتْ فَلَا تُصَلِّ حَتَّى تَرْتَفِعَ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَهِيَ سَاعَةُ صَلَاةِ الْكُفَّارِ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، فَإِذَا ارْتَفَعَتْ قِيدَ رُمْحٍ، أو رُمْحَيْنِ، فَصَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى تَعْتَدِلَ الشَّمْسُ اعْتِدَالَ الرُّمْحِ بِنِصْفِ النَّهَارِ، ثم أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ، فَإِذَا أَفَاءَ الْفَيْءُ فَصَلِّ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ، فَإِذَا صَلَّيْتَ الْعَصرَ، فَأَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ؛ فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَهِيَ سَاعَةُ صَلَاةُ الْكُفَّارِ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ.**

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْوُضُوءِ.

قَالَ: **مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ، فَيَتَمَضْمَضُ، وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثم إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثم يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثم يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثم يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى،**

فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لله إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[١].

ولقد وَعَى عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هذه الأجوبة النبوية، ونَقَشَهَا الإخلاص على صفحة قلبه نقشًا، حتى تناقلتها عنه الأجيال، ولم يزل الناس يتعلمونها إلى يومنا هذا.

وبقي عمرو عبسة هكذا حتى حمل عن رسول الله ﷺ علمًا كثيرًا جعل له مكانة وثقة بين أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم، فقد حدَّث عنه من الصحابة: ابنُ مسعود، وأبو أمامة الباهلي، وسهل بن سعد وغيرهم، ومن التابعين: جبير بن نفير، وأبو إدريس الخولاني، وسليم بن عامر وغيرهم رضي الله عنهم جميعًا[٢].

جهادُه في عصرِ النبوةِ

قيل: إنه شهد بدرًا، وقيل: لم يشهدها[٣]، ولكنه قد شهد مع النبيِّ ﷺ عددًا من المشاهد، منها: فتح مكة وغزوة حنين وحصار الطائف وتبوك، وكان عمرو راميًا يكاد سهمه لا يخطئ، وها هو ذا يحدثنا عن موقف له في حصار الطائف، فيقول رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «حَاصَرْنَا مَعَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ حِصْنَ الطَّائِفِ، فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ، وَمَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَهُ دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ،** فَبَلَغْتُ يَوْمَئِذٍ سِتَّةَ عَشَرَ سَهْمًا»[٤].

جهاده في عهد الخلافة الراشدة

وقد خرج عمرو بن عبسة مجاهدًا في سبيل الله ضمن الجيوش التي وجهها أبو

---

(١) ينظر: صحيح مسلم (٨٣٢)، ومسند أحمد (١٧٠١٦، ١٧٠١٩).
(٢) ينظر: معرفة الصحابة، لأبي نعيم (٤/ ١٩٨٣).
(٣) ينظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٥٦)، والإصابة (٤/ ٥٤٥).
(٤) ينظر: مسند أحمد (١٧٠٢٢)، وسنن أبي داود (٣٩٦٥)، والسلسلة الصحيحة (١٧٥٦).

بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لفتح الشام، وقد شهد معركة اليرموك، وكان أحد أمرائها[(١)].

وقد أُسْنِدَتْ إليه بعضُ المهام في عهد الخلافة الراشدة، منها:

- أن جعله أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَسْؤُوْلًا عن مخازن الحبوب والطعام بالشام[(٢)].

- وجعله أميرًا على الأهراء[(٣)].

- وكان مَسْؤُوْلًا عن جمع الصدقات في الدولة الإسلامية، فقد كان يقال له: صَاحِب الْعَقْلِ، أو صاحب عَقْلِ الصَّدَقَةِ[(٤)].

جهادُه في عهدِ الدولةِ الأُمويةِ

عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: «كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبَيْنَ الرُّومِ عَهْدٌ، وَكَانَ يَسِيرُ نَحْوَ بِلَادِهِمْ وَهُوَ يُرِيدُ إِذَا انْقَضَى الْعَقْدُ أَنْ يُغِيرَ عَلَيْهِمْ فَإِذَا شَيْخٌ عَلَى دَابَّةٍ يُنَادِي فِي نَاحِيَةِ النَّاسَ يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، وَفَاءٌ لَا غَدْرٌ، فَنَظَرُوا فَإِذَا عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ **مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحُلَّنَّ عَهْدًا وَلَا يَشُدَّنَّهُ حَتَّى يَمْضيَ أَمَدُهُ، أو يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ**، قَالَ سُلَيْم: فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ بِالنَّاسِ»[(٥)].

وفي هذا الموقف تظهر لنا سعة علم عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأقوال الرسول ﷺ وثقة الناس بعلمه وفهمه ومكانته بين الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وتبرز قوته في الحق حيث لم يخشَ في الله لومة لائم، وهو ينصح إمام المسلمين ويعلمه حُكْمًا من أحكام

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٥٧)، وتاريخ دمشق (٤٦/ ٢٤٩).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٥/ ٥٨)، والاستيعاب (٢/ ٦٥)، والإصابة (٢/ ١٠٦).

(٣) ينظر: تاريخ الطبري (٤/ ٦٥).

(٤) ينظر: مسند أحمد (١٧٠١٩)، وكشف المشكل، لابن الجوزي (٤/ ١٩٧).

(٥) ينظر: المسند (١٧٠٢٥، ١٧٠٥٦، ١٩٤٥٥)، وسنن أبي داود (٢٧٥٨)، والترمذي (١٥٨٠).

الجهاد في الإسلام، كما يظهر لنا تواضع أمير المؤمنين معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومدى استجابته لأمر النبيِّ ﷺ، كما تظهر لنا قوة دولة الإسلام في تلك العصور.

من كراماتِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن عمران بن الحارث عن مولى لكعب قال: «انطلقنا مع عمرو بن عبسة والمقداد بن الأسود ومسافع بن حبيب الهذلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان مع كل رجل منا رعية، فإذا كان يوم عمرو بن عبسة أردنا أن نخرج فيأبى، فخرج يومًا برعائه فانطلقتُ نصف النهار، فإذا السحابة قد أظلته ما منها عنه، فصلى فأيقظتُه، فقال لي: إنَّ هذا شيء أُتينا به، لئن علمتُ أنك أخبرتَ به لا يكون بيني وبينك خير، فوالله ما أخبرتُ به حتى مات»[1].

زهدُه في الدنيا

وبعدما استقر عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالشام بعد فتحها، وأصبح أميرًا على الأهراء، ومَسْؤُوْلًا عن مخازن الحبوب والطعام بالشام، وقد جُعِلَت مفاتيح خزائن الأرض بيده زهدت نفسُه في الدنيا ومتاعها، وتاقت إلى الآخرة ونعيمها، فكاد أن يترك ماله وسلطانه ويخلو بربه عابدًا حتى يأتيه الموت وهو على ذلك، فقد قال- لبعض المقربين له يومًا-: «لَوْلَا أَنْ يَضَعَ النَّاسُ أَمْرِي عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهِ أَنْ يُقَالَ صَنَعَ أَبُو نَجِيحٍ لَأَلْحَقْتُ مَالِي سُبُلَهُ، ثم لَلَحِقْتُ بِجَبَلِكُمْ هَذَا- يَعْنِي: بَيْسَانَ- فَدَخَلْتُ غَارًا مِنْهُ، ثم عَبَدْتُ الله ﷻ حَتَّى يَأْتِيَنِي أَمْرُهُ»[2].

ولكنه منعه عن ذلك علمه؛ فقد نهى النبيُّ ﷺ عن ذلك؛ إذ قال: «**لَا تَكُونُوا كَرَهْبَانِيَّةِ النَّصَارَى**»[3].

---

(١) ينظر: تاريخ دمشق (٤٦/ ٦٢٧)، وتهذيب الكمال (١٤/ ٢٧٥).

(٢) ينظر: الزهد، لأبي داود (٣٦٢، ٣٦٣).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٣٢٣٥)، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٨٢).

أحاديثُ رواهَا عمرُو بنُ عَبسةَ

وقد روى عمرو بن عبسة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ للأمة عن رسول الله ﷺ جملة من الأحاديث في الأحكام والفضائل والآداب، وإليك شيئًا منها:

- عَنْ عمرو بْنِ عَبَسَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا تَسْتَقِلُّ الشَّمْسُ فَيَبْقَى شَيْءٌ مِنْ خَلْقِ الله إِلَّا سَبَّحَ اللهَ، إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الشَّيَاطِينِ، وَأَغْبِيَاءِ بَنِي آدَمَ**»(١).

- وعَنْه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ بَنَى اللهُ** ﷻ **لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**»(٢).

- وعَنْه أن رَسُولَ الله ﷺ قال: «**أَيُّمَا رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ رَجُلًا مُسْلِمًا فَإِنَّ الله** ﷻ **جَاعِلٌ وِقَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ عَظْمًا مِنْ عِظَامِ مُحَرَّرِهِ مِنَ النَّارِ، وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ أَعْتَقَتِ امْرَأَةً مُسْلِمَةً فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ وِقَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهَا عَظْمًا مِنْ عِظَامِ مُحَرَّرِهَا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٣).

- وعَنْه أن رَسُولَ الله ﷺ قال: «**مَنْ وُلِدَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ فِي الْإِسْلَامِ، فَمَاتُوا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ أَدْخَلَهُ اللهُ** ﷻ **الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ**»(٤).

- وعَنْه أن رَسُولَ الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يَبِيتُ عَلَى طُهْرٍ، ثم يَتَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَيَذْكُرُ وَيَسْأَلُ الله** ﷻ **خَيْرًا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا آتَاهُ اللهُ** ﷻ **إِيَّاهُ**»(٥).

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٩٦٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٩٩).
(٢) أخرجه أحمد (١٩٤٤٠)، والنسائي (٦٦٨)، وصحَّحه الألباني.
(٣) أخرجه أبو داود (٣٩٦٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٧٥٦).
(٤) أخرجه أحمد (١٩٤٣٧، ١٩٤٣٩)، وصحَّحه محققو الرسالة، وينظر: السلسلة الصحيحة (١٧٥٦).
(٥) أخرجه أحمد (١٧٠٢١)، وصحَّحه محققو طبعة الرسالة.

- وعَنْه أن رَسُولَ الله ﷺ قال: «مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي سَبِيلِ الله كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(١)].

- وعَنْه أن رَسُولُ الله ﷺ قال: «إِنَّ الله ﷻ يَقُولُ: قَدْ حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ مِنْ أَجْلِي، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَصَافُّونَ مِنْ أَجْلِي، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَزَاوَرُونَ مِنْ أَجْلِي، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَبَاذَلُونَ مِنْ أَجْلِي، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَنَاصَرُونَ مِنْ أَجْلِي»[(٢)].

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعد حياة طويلة قضاها عمرو بن عبسة بين العلم والعبادة والدعوة الجهاد ينام على فراش الموت بأرض الشام في مدينة حمص، ثم تخرج روحه إلى بارئها، ويصلي عليه المسلمون، وقد دُفن بحمص إلى جنب من مات هناك من الصحابة الكرام الذين كانوا مفاتيح الفتح الإسلامي لهذه البلاد، ولعل وفاته كانت بعد سنة ستين من الهجرة. والله أعلم[(٣)].

رضي اللهُ عن عمرو بنِ عَبسةَ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) أخرجه أحمد (١٧٠٢٢)، والترمذي (١٦٣٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٢٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٠٢١)، والطبراني في الأوسط (٤٤٣٩)، وصحَّحه الأرناؤوط.

(٣) ينظر: السير (٢/ ٥٠)، وتاريخ دمشق (٤٦/ ٢٤٩).

أَبُو رَافع المِصريُّ

مولى رسولِ الله ﷺ

كثير من الناس يُدفعون نحو السعادة دفعًا رغم أنوفهم، ومن خلال هذه السطور ستتعرف على رجل من هؤلاء.

إنه رجل من أهل مصر، وقع في الرِقِّ وتقلب في أحواله، حتى وقف به قطار الحياة في أرض الحجاز، حيث خبأ القَدَرُ له هناك موعدًا مع السعادة، في أعظم لقاء في حياته، وهو لقاؤه برسول الله ﷺ.

إنه الصحابيُّ الجليل: أبو رافع المصري مولى رسول الله ﷺ.

من أبو رافعٍ؟

هو رجل من قِبْطِ مصر، قيل: اسمه إبراهيم، وقيل: اسمه أَسْلَم، وقع في الرِّقِّ فكان مملوكًا للعباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عمِّ النبيِّ ﷺ، ثم وَهَبَه العباس للنبيِّ ﷺ بعد إسلامه، فأعتقه رسولُ الله ﷺ[1].

قصةُ إسلامِه

لقد سمعنا في القصص والروايات عن الحُبِّ من أول نظرة، فكنت أتعجب من ذلك حتى دخلت بوجداني بستان الصحابة، فرأيت في بعض صوره الخلابة: أن الكثير منهم قد وقع حُبُّ رسول الله ﷺ في قلوبهم من أول نظرة، فهذا على سبيل المثال عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان حبرًا يهوديًّا يقول: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ

---

(١) المستدرك (٦٥٣٦)، والسير (٢/ ١٦)، والتاريخ الكبير، للبخاري (٢/ ٣٣).

انْجَفَلَ[١] النَّاسُ إِلَيْهِ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ»[٢].

وهذا حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تقع عينه على النبيِّ ﷺ فيقول له[٣]:

وأجمـل منـك لـم تـرَ قـطُّ عَينـي وأكـرمُ منـك لـم تَلِـدِ النِّسـاءُ

خُلقـتَ مُبـرَّءًا مـن كـلِّ عيـبٍ كأنـك قـد خُلقـتَ كمـا تشـاءُ

وأما بطل قصتنا أبو رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد ساقه القَدَرُ نحو السعادة حين أرسلته قريش برسالة إلى النبيِّ ﷺ قبل غزوة بدر، فما أنْ دخل المدينة ووقعت عينُه على رسول الله ﷺ حتى ألقى الله محبته في قلبه، ولنترك لأبي رافعٍ المجالَ ليحدِّثنا بنفسه عن هذا اللقاء فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بَعَثَتْنِي قُرَيْشٌ بِكِتَابٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُلْقِيَ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي – وَاللهِ- لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ**[٤] **وَلَا أَحْبِسُ الْبُرُدَ**[٥] **وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِكَ الَّذِي فِي نَفْسِكَ الْآنَ فَارْجِعْ**، قَالَ أبو رافع: فَذَهَبْتُ، ثم أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَسْلَمْتُ»[٦].

وهكذا وجد أبو رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قلبه عند أول لقاء له برسول الله ﷺ ما وجد ابنُ سلام وحسانُ وغيرهما، ثم تأثر بخُلُقِ رسول الله ﷺ الرفيع، فشرح الله صدره للإسلام، وأشرق قلبه بنور الإيمان.

---

(١) أي: ذهبوا إليه مسرعين.

(٢) ينظر: الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤)، وأحمد (١٨٥٥)، والسلسلة الصحيحة (٥٦٩).

(٣) ديوان حسان بن ثابت (ص١٠).

(٤) أي: لا أنقض العهد.

(٥) جمع بريد، وهو: الرسول.

(٦) ينظر: أحمد (٢٣٩٠٨)، وأبو داود (٢٧٥٨)، والنسائي (٨٦٧٤)، وابن حبان (٤٨٧٧)، والسلسلة الصحيحة (٢٤٦٣).

ثم رجع أبو رافع إلى بيت سيده العباس في مكة، وكان العباس قد أسلم قبل بدر مستخفيًا، وكذلك زوجته أم الفضل، فبقي معهم في مكة يخفي إسلامه.

فرحةُ النَّصرِ تكشفُ سرَّ أبي رافعٍ

وجاءت غزوة بدر الكبرى، فنصر الله فيها المسلمين، وهَزَمَ المشركين شرَّ هزيمة، وقَتَلَ صناديدَهم، وأُسِرَ سبعون من أشرافهم، فنزل الخبر في مكة كالصاعقة المدوية على قلوب المشركين، وفرحًا وسرورًا في نفوس المسلمين المستضعفين، ولكن شدة الفرح فضحت إسلامَ أبي رافعٍ الخفي، وهيا بنا نستمع إليه وهو يحدِّثنا عن هذا:

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنْتُ غُلَامًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكُنْتُ قَدْ أَسْلَمْتُ، وَأَسْلَمَتْ أُمُّ الْفَضْلِ، وَأَسْلَمَ الْعَبَّاسُ، وَكَانَ يَكْتُمُ إِسْلَامَهُ مَخَافَةَ قَوْمِهِ، وَكَانَ أَبُو لَهَبٍ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْ بَدْرٍ، وَبَعَثَ مَكَانَهُ الْعَاصَ بْنَ هِشَامٍ، وَكَانَ لَهُ عَلَيْهِ دَيْنٌ، فَقَالَ لَهُ: اكْفِنِي هَذَا الْغَزْوَ، وَأَتْرُكُ لَكَ مَا عَلَيْكَ، فَفَعَلَ.

فَلَمَّا جَاءَ الْخَبَرُ، وَكَبَتَ اللهُ أَبَا لَهَبٍ، وَكُنْتُ رَجُلًا ضَعِيفًا أَنْحِتُ الْأَقْدَاحَ فِي حُجْرَةِ زَمْزَمَ، فَوَالله إِنِّي لَجَالِسٌ فِيهَا أَنْحِتُ أَقْدَاحِي وَعِنْدِي أُمُّ الْفَضْلِ جَالِسَةً وَقَدْ سَرَّنا مَا جَاءَنَا إِذْ أَقْبَلَ أَبُو لَهَبٍ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ حَتَّى جَلَسَ إِلَى طُنُبِ الْحُجْرَةِ وَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى ظَهْرِي، فَقَالَ النَّاسُ: هَذَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: هَلُمَّ إِلَيَّ يَا ابْنَ أَخِي، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ حَتَّى جَلَسَ عِنْدَهُ، فَجَاءَ النَّاسُ، فَقَامُوا عَلَيْهِمَا، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، كَيْفَ كَانَ أَمْرُ النَّاسِ؟

فَقَالَ: لَا شَيْءَ، فَوَالله إِنْ لَقِينَاهُمْ فَمَنَحْنَاهُمْ أَكْتَافَنَا يَقْتُلُونَنَا كَيْفَ شَاءُوا، وَيَأْسِرُونَنَا كَيْفَ شَاءُوا، وَايْمُ اللهِ مَا لُمْتُ النَّاسَ، قَالَ: وَلِمَ؟

قَالَ: رَأَيْتُ رِجَالًا بِيضًا عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ لَا وَاللهِ مَا تَلِيقُ شَيْئًا، وَلَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ، قَالَ أبو رَافع: فَرَفَعْتُ طُنُبَ الْحُجْرَةِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ، فَرَفَعَ أَبُو لَهَبٍ يَدَهُ،

فَضَرَبَ وَجْهِي وَثَاوَرْتُهُ، فَاحْتَمَلَنِي فَضَرَبَ بِي الْأَرْضَ حَتَّى بَرَكَ عَلَى صَدْرِي، فَقَامَتْ أُمُّ الْفَضْلِ فَاحْتَجَزَتْ، وَرَفَعَتْ عَمُودًا مِنْ عُمُدِ الْحُجْرَةِ فَضرَبَتْهُ بِهِ، فَعَلَّقَتْ فِي رَأْسِهِ شَجَّةً مُنْكَرَةً، وَقَالَتْ: يَا عَدُوَّ اللهِ، اسْتَضْعَفْتَهُ، إِنْ رَأَيْتَ سَيِّدَهُ غَائِبًا عَنْهُ، فَقَامَ عَنِّي مُوَلِّيًا ذَلِيلًا»[١].

اللهُ ينتقمُ لأوليَائِه

قال اللهُ ﷻ - في الحديث القدسي-: «**مَنْ عادَى لي وليًّا فقدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ**»[٢]، فهيا بنا نستمع لأبي رافع وهو يحدِّثنا كيف انتقم له اللهُ ﷻ من أبي لهب:

قَالَ أَبُو رَافِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَرَفَعْتُ طُنُبَ الْحُجْرَةِ وَقُلْتُ: تِلْكَ - وَاللهِ - الْمَلَائِكَةُ، فَرَفَعَ أَبُو لَهَبٍ يَدَهُ، فَضرَبَ بِهَا وَجْهِي ضَرْبَةً شَدِيدَةً، وَثَاوَرْتُهُ فَاحْتَمَلَنِي فَضرَبَ بِي الْأَرْضَ، ثم بَرَكَ عَلَيَّ يَضْرِبُنِي وَكُنْتُ رَجُلًا ضَعِيفًا، فَقَامَتْ أُمُّ الْفَضْلِ فَاحْتَجَزَتْ، وَرَفَعَتْ عَمُودًا مِنْ عُمُدِ الْحُجْرَةِ فَضرَبَتْهُ بِهِ، فَعَلَّقَتْ فِي رَأْسِهِ شَجَّةً مُنْكَرَةً، وَقَالَتْ: يَا عَدُوَّ اللهِ، اسْتَضْعَفْتَهُ إِنْ رَأَيْتَ سَيِّدَهُ غَائِبًا عَنْهُ، فَقَامَ مُوَلِّيًا ذَلِيلًا، فَوَاللهِ مَا عَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا سَبْعَ لَيَالٍ حَتَّى رَمَاهُ اللهُ بِالْعَدَسةِ[٣] فَقتَلَهُ، فَلَقَدْ تَرَكَهُ بَنُوهُ لَيْلَتَيْنِ، أو ثَلَاثَةً مَا يَدْفِنُونهُ حَتَّى أَنْتَنَ فِي بَيْتِهِ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَتَّقِي الْعَدَسَةَ كَمَا يَتَّقِي النَّاسُ الطَّاعُونَ، حَتَّى قَالَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لِابْنَيْهِ: أَلَا تَسْتَحِيَانِ، إِنَّ أَبَاكُمَا قَدْ أَنْتَنَ فِي بَيْتِهِ؟ فَقَالَا: إِنَّا نَخْشَى هَذِهِ الْقُرْحَةَ، فَقَالَ: انْطَلِقَا فَأَنَا مَعَكُمَا.

قَالَ أبو رافع: فَوَاللهِ مَا غَسَّلُوهُ إِلَّا قَذْفًا بِالْمَاءِ عَلَيْهِ مِنْ بَعِيدٍ، ثم احْتَمَلُوهُ فَقَذَفُوهُ فِي أَعْلَى مَكَّةَ إِلَى جِدَارٍ، وَقَذَفُوا عَلَيْهِ الْحِجَارَةَ»[٤].

---

(١) ينظر: مستدرك الحاكم (٥٤٠٣)، ومسند البزار (٣٨٦٦)، والمعجم الكبير، للطبراني (٩١٢).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).
(٣) العدسة: داء يظهر في الإنسان كالقرحة. ينظر: الطب النبوي، لأبي نعيم (٤٩٢).
(٤) ينظر: مستدرك الحاكم (٥٤٠٣)، ومسند البزار (٣٨٦٦)، والمعجم الكبير (٩١٢).

هجرتُه لله ورسولِه

وبعد غزوة بدر الكبرى وَهَبَ العباسُ أبا رافعٍ لرسول الله ﷺ، فهاجر مسْرعًا إلى المدينة، وأقام بها مع النبيِّ ﷺ، فأعتقه النبيُّ ﷺ، وزَوَّجَهُ مِن مَولاته سَلمَى فولدت له عُبيد الله الذي أصبح كاتبًا لعلي بن أبي طالب في خلافته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم[1].

ما الذي أبكَى أبَا رافعٍ؟

وها هو ذا أبو رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَعْتِقُه النبيُّ ﷺ من الرِّقِّ ويَمْنَحُهُ الحرية التي يَحْلُم بها كلُّ العبيد في تلك العصور، ولكنَّ العجيب أنَّ أبا رافع لما جاءه خبر عتقه أجهش بالبكاء، فيا تُرى ما الذى أبكاه؟!.

يخبرنا أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول: «إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **إِذَا أَطَاعَ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَسَيِّدَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ**، فَلَمَّا أُعْتِقَ أَبُو رَافِعٍ بَكَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ- يَا أَبَا رَافِع-؟! قَالَ: كَانَ لِي أَجْرَانِ، فَذَهَبَ أَحَدُهُمَا»[2].

وهكذا كان حال هذا الجيل الرائع ومن سلَكَ نهجهم يحزن الواحد منهم لدرجة البكاء على الحسنة تفوته، والأمثلة في ذلك لا تُعد ولا تحصى.

وهكذَا أصبحَ من آلِ بيتِ النبيِّ ﷺ

وبعدما أعتق النبيُّ ﷺ أبا رافع أصبح يُقال له: أبو رافع مولى رسول الله ﷺ[3]، وبعد بكائه على ذهاب أحد الأجرين عنه يَلقى النبيَّ ﷺ فيبشره ببشارة هي خير له من الدنيا وما فيها.

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٤/ ٥٥)، وأسد الغابة (١/ ٣١٥)، والإصابة (٧/ ١١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٨٥٣٧)، وأبو يعلى (٦٤٢٧)، وصحَّحه الأرناؤوط.

(٣) المولى لفظ له عدة معانٍ، منها: العبد إذا أعتق.

فعن أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ رَجُلًا مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ عَلَى الصَّدَقَة، فَقَالَ لأبي رافع: اصْحَبْنِي كَيْمَا تُصِيب مِنْهَا، فقال له: لَا، حَتَّى آتِيَ رَسُولَ الله ﷺ فَأَسْأَلَهُ، قال أبو رافع: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: **يَا أَبَا رَافِعٍ، إِنَّ الصَّدَقَةَ حَرَامٌ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، وإِنَّ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**»(١).

أي: إنك يا أبا رافع أصبحت من آل محمد ﷺ، وإن الصدقة لا تحل لمحمد وآله عليهم صلوات الله وسلامه.

فكأنَّ هذه الكلمات هي اليد الحانية التي مسحت دموع أبي رافع، فهنيئًا له.

خَيرُ الناسِ أبُو رافعٍ

جلس أصحاب الرسول ﷺ معه يومًا فسألوه عن خير الناس، فقالوا: «يَا رَسُولَ الله، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ ﷺ: **ذُو الْقَلْبِ الْمَخْمُومِ، وَاللِّسَانِ الصَّادِقِ**، فقالوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟، قَالَ ﷺ: **هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، الذي لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**، فقَالُوا: فَمَنْ يَلِيهِ يَا رَسُولَ الله؟، قَالَ ﷺ: **الَّذِي يَشْنَأُ**(٢) **الدُّنْيَا، وَيُحِبُّ الْآخِرَةَ**، فقَالُوا: مَا نَعْرِفُ هَذَا فِينَا إِلَّا أَبَا رَافِعٍ مَوْلَى رَسُولِ الله ﷺ»(٣).

فهذه الشهادة من أصحاب رسول الله ﷺ وفي حضوره وسَامُ شَرَفٍ على صدر أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أُناس قال لهم النبيُّ ﷺ: «**مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النارُ، أَنْتُمْ شُهدَاءُ الله فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الْأَرْضِ**»(٤).

---

(١) ينظر: أحمد (٢٣٨٦٣)، والترمذي (٦٥٧)، والسلسلة الصحيحة (١٦١٣).

(٢) أي: يبغض.

(٣) ينظر: ابن ماجه (٤٢١٦)، وشعب الإيمان (٦١٨١)، والسلسلة الصحيحة (٩٤٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

من مواقفه الطريفةِ مع النبيِّ ﷺ

يَروي أبو رافع رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: أنَّ شاةً أُهدِيَتْ له أيام حصار المشركين للمسلمين في معركة الخندق، فجعلها في القِدْرِ، فدخل عليه النبيُّ ﷺ فقال له: ما هذا يا أبا رافع؟، فقال: شَاةٌ أُهْدِيَتْ لَنَا يَا رَسُولَ الله، فَطَبَخْتُهَا فِي الْقِدْرِ، فقال ﷺ: «**نَاوِلْنِي الذِّرَاعَ يَا أَبَا رَافِعٍ**- وكان ﷺ يعجبه الذراع-، قال أبو رافع: فناولته، ثم قال: **نَاوِلْنِي الذِّرَاعَ يَا أَبَا رَافِعٍ**، قال: فناولته، ثم قال: **نَاوِلْنِي الذِّرَاعَ يَا أَبَا رَافِعٍ**، قال: فقلت يا رسول الله: وكم للشاة من ذراع؟، إنما للشاة ذراعان، فقال ﷺ: **والذي نفسي بيده لو سَكَتَّ لأعطيتني أَذْرُعًا مَا دَعَوْتُ بِهِ**»[1].

ألستَ تُحِبُّ ما أُحِبُّ؟

لما اعتمر النبيُّ ﷺ والمسلمون عمرةَ القضاء في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة تزوَّج النبيُّ ﷺ ميمونةَ بنتَ الحارث رَضِيَٱللَّهُعَنهَا بعد تَحَلُّله من إحرامه، ولكنه ﷺ لم يَبْنِ بها، وميمونة هي أخت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب رَضِيَٱللَّهُعَنهُم، تلكم الأسرة المؤمنة التي عاش أبو رافع بين ظهرانيها زمنًا، فلما خرج النبيُّ ﷺ من مكة راجعًا المدينة أراد أن يرسل أحدًا يأتيه بميمونة ليبنيَ بها، فوقع اختياره على أبي رافع رَضِيَٱللَّهُعَنهُ الذي كان أحد أفراد سرية جهزها النبيُّ ﷺ للجهاد في سبيل الله، وهذا الاختيار وسامُ شَرَفٍ جديدٍ يضعه النبيُّ ﷺ على صدر أبي رافع؛ ليعلم الجميع أنه مَوضع ثقةٍ عند رسول الله ﷺ، ولنتركه رَضِيَٱللَّهُعَنهُ يحدثنا بالقصة، فيقول رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: «كُنْتُ فِي بَعْثٍ مَرَّةً، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: **اذْهَبْ فَائْتِنِي بِمَيْمُونَةَ**، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله، إِنِّي فِي الْبَعْثِ[2]، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **أَلَسْتَ تُحِبُّ مَا أُحِبُّ؟**، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله،

---

(١) ينظر: أحمد (١٠٧١٧، ٢٣٩١٠، ٢٧١٩٥)، وابن حبان (٦٤٨٤)، والدارمي (٤٥)، والمعجم الكبير (٨٤٢).

(٢) أي: في الجيش المبعوث.

قَالَ: **فاذْهَبْ فَائْتِنِي بِهَا**، قال: فَذَهَبْتُ فَجِئْتُهُ بِهَا»[(١)].

فكان أبو رافع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يفتخر بهذا، ويقول: «تَزَوَّجَ رَسُولُ الله ﷺ مَيْمُونَةَ وَهُوَ حَلَالٌ[(٢)]، وَبَنَى بِهَا وَهُوَ حَلَالٌ، وَكُنْتُ أَنَا الرَّسُولَ فِيمَا بَيْنَهُمَا»[(٣)].

جهادُه في سبيلِ الله

كانت أُحُد هي أول غزواته مع رسول الله ﷺ، ثم شهد معه المشاهد كلها، وكان ممن شهد الحديبية وبايع تحت الشجرة؛ ليفوز بقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، ثم شهد فتح خيبر مع النبيِّ ﷺ وها هو يحدثنا عن شيء من بطولات الصحابة في ذلك الفتح، فيقول رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «خَرَجْنَا مَعَ عَلِيٍّ بن أبي طالب حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِرَايَتِهِ- يعني: إلى حصون خيبر-، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْحِصْنِ خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهُ فَقَاتَلَهُمْ، فَضَرَبَهُ رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ، فَطَرَحَ تُرْسَهُ مِنْ يَدِهِ، فَتَنَاوَلَ عَلِيٌّ بَابًا كَانَ عِنْدَ الْحِصْنِ، فَتَرَّسَ بِهِ نَفْسَهُ، فَلَمْ يَزَلْ فِي يَدِهِ وَهُوَ يُقَاتِلُ، حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، ثم أَلْقَاهُ مِنْ يَدِهِ حِينَ فَرَغَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي نَفَرٍ مَعِي سَبْعَةٌ أَنَا ثَامِنُهُمْ نَجْهَدُ عَلَى أَنْ نَقْلِبَ ذَلِكَ الْبَابَ، فَمَا نَقْلِبُهُ»[(٤)].

وبعد وفاة الرسول ﷺ استكمل أبو رافع رحلة الجهاد في سبيل الله، فقد خرج في خلافة أبي بكر الصديق مع جيوش المسلمين لفتح الشام، ثم خرج في خلافة عمر بن الخطاب في جيش عمرو بن العاص لفتح القدس، ثم يأتيه الخبر: أن عمرو بن العاص يراود أمير المؤمنين عن فتح مصر، فتتوق نفسه لموطنه الأصلي، حيث ملاعب الصبا

(١) أخرجه أحمد (٢٧١٨٥)، وابن خزيمة (٢٥٢٨)، وقال الأعظمي: إسناده صحيح.

(٢) أي: بعد تحلله من إحرامه.

(٣) أحمد (٢٧١٩٧)، والترمذي (٨٤١)، وحسَّنه الأرناؤوط.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٣٨٥٨).

والذكريات الجميلة، ويَحْلُم بنفسه يَحمل مصباح الهدى لأهله وقومه، وبالفعل خرج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جيش الفتح الإسلامي لمصر، فجزاهم الله عنا خيرًا(١).

من يُطعِ الرسولَ فقد أطاعَ اللهَ

من أهم علامات الإيمان: أن يُقدم العبدُ أمرَ الله ورسوله على ما تهواه النفس، فقد قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وها هي بين أيدينا صورة حية تظهر امتثال أبي رافع لأمر رسول الله ﷺ؛ حيث كان له بيتان ملاصقان لبيت سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فعرضهما أبو رافع للبيع فجاءه رجل يريد أن يشتريهما بخمسمائة دينار، ولكن أبا رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تذكر وصية رسول الله ﷺ حين قال: «**الْجَارُ أَحَقُّ بِسَقَبِهِ**»(٢).

فيا ترى ماذا سيفعل؟ يخبرنا عن ذلك عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ فيقولَ: «كُنْتُ مَعَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَالْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، فَجَاءَ أَبُو رَافِعٍ مَوْلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ أبي وقاص: اشْتَرِ مِنِّي بَيْتَيَّ اللَّذَيْنِ فِي دَارِكَ، فَقَالَ سَعْدٌ: وَاللهِ لاَ أَزِيدُك عَلَى أَرْبَعِمِائَةٍ، إِمَّا مُقَطَّعَةٍ، وَإِمَّا مُنَجَّمَةٍ، فقَالَ أَبُو رَافِعٍ: سبحان اللهِ، واللهِ لَقَدْ أُعْطِيتُ بِهَا خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ نَقْدًا فَمَنَعْتُهُما، وَلَوْلَا أَنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **الجَارُ أَحَقُّ بِسَقَبِهِ** مَا أَعْطَيْتُكَهَما بِأَرْبَعِمِائة، وَأَنَا أُعْطَى بِهَا خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ، قال عمرو: فَأَعْطَاه إِيَّاهُما»(٣).

وواللهِ إنها لعلامة الإيمان في قلبك الطاهر يا أبا رافع، فلقد جُبِلَتِ النفوسُ على

---

(١) ينظر: معرفة الصحابة، لأبي نعيم (١/ ٢٠٧).
(٢) قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي حَدِيثِهِ: وَالسَّقَبُ الْقُرْبُ. ينظر: المسند (٢٣٨٧١).
(٣) ينظر: البخاري (٢٢٥٨، ٦٩٧٧)، وابن حبان (٥١٨١)، والسنن الصغرى، للبيهقي (٢١٤٠)، ومعرفة السنن والآثار (١٢٠٠٨).

حبِّ المال، ولكنْ هكذا العبد الذي تخلل حبُّ الله ورسوله شِغافَ قلبه ما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار ما يُرضي الله، حتى وإن مالت النفسُ إلى غيره.

فقهُهُ وعلمهُ بالسُّنَّةِ

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ قَالَ: «مَرَّ أَبُو رَافِعٍ- مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ- بِالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يُصَلِّي قَائِمًا، وَقَدْ غَرَزَ ضَفْرَهُ فِي قَفَاهُ[1] فَحَلَّهَا أَبُو رَافِعٍ[2]، فَالْتَفَتَ الْحَسَنُ إِلَيْهِ مُغْضَبًا، فَقَالَ أَبُو رَافِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَقْبِلْ عَلَى صَلَاتِكَ، وَلَا تَغْضَبْ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **ذَلِكَ كِفْلُ الشَّيْطَانِ**»[3][4].

وقد نلمح في ذلك- أيضًا- جُرْأته في نصح المسلمين، حيث لم يتحرج أن يَحلَّ ضفيرة الحَسَن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أثناء صلاته، وما أروع ثباتَه بالحُجة عند غضب المنصوح.

مَكانتُه بين التابعينَ

وكان التابعون يعرفون له قدره وعلمه، ويسألونه عن سُنَّة رسول الله ﷺ، فقد سأله التابعي الفاضل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن استفتاح النبيِّ ﷺ في الصلاة، فها هو ذا يقول لنا: «دَفَعَ إِلَيَّ أَبو رَافِعٍ- مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ-كِتَابًا فِيهِ اسْتِفْتَاحُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الصَّلَاةَ، فَقَالَ: كَانَ ﷺ إِذَا كَبَّرَ قَالَ: **وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ، ظَلَمْتُ**

---

(١) أي: جعل شعره ضفيرة؛ لطوله.

(٢) أي: حل الضفيرة؛ وذلك للنهي عن صلاة الرجل وشعره بهذه الهيئة، وفي ذلك أحاديث صحيحة عن النبي ﷺ.

(٣) يعني هنا: موضع قعود الشَّيْطَانِ، يعني: في مَغْرَزِ ضَفِرِهِ. وينظر: معالم السنن، للخطابي (١/ ١٨١).

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٨٧٧)، وأبو داود (٦٤٦)، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٦٥٣).

نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي؛ فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا؛ إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَهْدِي لِصَالِحِهَا، وَلَا يَصرِفُ سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، لَا مَنْجَا وَلَا مَلْجَأَ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[١].

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعد حياة طويلة عاشها أبو رافع في سبيل الله تعالى يقف به قطار العمر على أعتاب منازل الآخرة، فينام على فراش الموت بالكوفة في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتخرج روحه إلى بارئها سنة ست وثلاثين من الهجرة، وقيل: سنة أربعين، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد أوصى أميرَ المؤمنين عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ببنيه من بعده، فكان عَليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتعهدهم ويرعاهم، ويُزَكِّي أَمْوَالَهم، وَهُمْ أَيْتَامٌ[٢].

رضي اللّهُ عن أبي رافع،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) أخرجه الطبراني في الدعاء (٤٩٨)، وينظر: صفة صلاة النبي ﷺ، للألباني (ص٨٠).

(٢) ينظر: الوافي بالوفيات (٩/ ٣٣)، وأسد الغابة (١/ ١٥٦)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ١٦).

أَبُو ثعلَبةَ الخُشَنِيُّ

ما رأينا أصدقَ حديثًا من أبي ثعلبةَ[١]

من خلال تلك السطور سنعيش بقلوبنا مع قصة رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ، لا يعرفه كثير من الناس، فهو أحد الأولياء الأتقياء الأخفياء، عاش بالله مؤمنًا، وفي سبيله مُجاهدًا، حتى مات ساجدًا.

إنه الصحابي الجليل: أبو ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من أَبُو ثعلَبةَ الخُشَنِيُّ؟

هو رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ، مختلف في اسمه، لكنه معروف بكنيته: أبو ثعلبة، والخُشَنِيُّ نسبة إلي بَني خُشَيْن، وهم بَطنٌ من قضاعة باليمن[٢]، فيكفيه فخرًا مدح النبيِّ ﷺ لليمانيين من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ إذ قال ﷺ: «**أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَلْيَنُ قُلُوبًا، وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً، الْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، وَالْفِقْهُ يَمَانٍ**»[٣].

وكان أبو ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من عُبَّادِ الصَّحَابَةِ، وكان النبيُّ ﷺ يُحبُّه ويُوصِي به على وجه الخصوص، وكان وَاعِظًا مُفَوَّهًا مُؤَثِّرًا، ومع ذلك كانت فيه دُعَابَةٌ جميلة، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معروفًا بين الناس بحُسن الخُلق وصدق الحديث، حتى قال عنه التابعي الجليل نَاشِرَةُ بْنُ سُمَيٍّ الْيَزَنِيِّ: مَا رَأَيْنَا أَصْدَقَ حَدِيثًا مِنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الخُشَنيِّ[٤].

---

(١) نقله ابن حجر في الإصابة عن التابعي الجليل نَاشِرَةَ بْنِ سُمَيٍّ الْيَزَنِيِّ.

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٢٩١)، والتاريخ الكبير (٢/ ٢٥٠)، ومعرفة الصحابة (٢/ ٦١٩).

(٣) ينظر: صحيح البخاري (٤٣٩٠)، ومسند أحمد (٧٢٠٢، ٧٤٣٢).

(٤) ينظر: مسند أبي يعلى (٨٧٣)، والمعجم الكبير (٩١)، وسنن الدارقطني (٣٩٨٧)، وحلية الأولياء (٢/ ٢٩)، والإصابة، لابن حجر (٧/ ٥١).

وكيف لا يتحلى أبو ثَعْلَبَةَ بمكارم الأخلاق وهو الذي يروي عن النبيِّ ﷺ قوله: «**إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرْثَارُونَ، الْمُتَفَيْهِقُونَ، الْمُتَشَدِّقُونَ**»[(١)].

سؤالُه عن الحلالِ والحرامِ

وما إنْ أسلم أبو ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا وأصبح من أَوَّلِيَاتِ اهتماماته: معرفة ما أحلَّ اللهُ لعباده وما حرَّم عليهم حتى يعبد الله على بصيرة، فانطلق إلى النبيِّ ﷺ ليسأله عن الحلال والحرام، فيا ترى ماذا كان جواب النبيِّ ﷺ على سؤاله؟

فعن أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَخْبِرْنِي بِمَا يَحِلُّ لِي، وَيَحْرُمُ عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ**»[(٢)].

فأراد أن يستزيد من العلم فأعاد السؤال على النبيِّ ﷺ فأجابه قائلًا: «**لَا تَأْكُلِ الْحِمَارَ الْأَهْلِيَّ، وَلَا كُلَّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ**»[(٣)].

وقال أبو ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا رسول الله، إِنَّا نُجَاوِرُ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَهُمْ يَطْبُخُونَ فِي قُدُورِهِمُ الْخِنْزِيرَ، وَيَشْرَبُونَ فِي آنِيَتِهِمُ الْخَمْرَ، أَفَنَأْكُلُ فِي آنِيَتِهِمْ؟، فَقَالَ ﷺ: **إِنْ وَجَدْتُمْ غَيْرَ آنِيَتِهِمْ فَلَا تَأْكُلُوا فِيهَا، وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَاغْسِلُوهَا بِالْمَاءِ، ثم كُلُوا فِيهَا وَاشْرَبُوا**»[(٤)].

وقال: «يا رسول الله أَفْتِنَا فِي آنِيَةِ الْمَجُوسِ إِذَا اضْطُرِرْنَا إِلَيْهَا، فقَالَ ﷺ: **إِذَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهَا فَاغْسِلُوهَا بِالْمَاءِ وَاطْبُخُوا فِيهَا**»[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٣٢)، وابن حبان (٤٨٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٧٩١).
(٢) أخرجه أحمد (١٧٧٧٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٨١).
(٣) أخرجه الطبراني في الشاميين (٧٨١)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٧٥).
(٤) ينظر: صحيح البخاري (٥١٦١)، وسنن أبي داود (٣٨٣٩).
(٥) ينظر: مسند أحمد (٦٧٢٥)، وسنن النسائي (٤٢٩٦)، وسنن أبي داود (٢٨٥٧).

وقال: «يَا رَسُولَ الله، إِنَّ لِي كِلَابًا مُكَلَّبَةً[1] فَأَفْتِنِي فِي صَيْدِهَا، فَقَالَ ﷺ: **إِنْ كَانَ لَكَ كِلَابٌ مُكَلَّبَةٌ، فَكُلْ مِمَّا أَمْسَكَتْ عَلَيْكَ**، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، ذَكِيٌّ[2] وَغَيْرُ ذَكِيٍّ؟، فقَالَ ﷺ: **ذَكِيٌّ وَغَيْرُ ذَكِيٍّ**، قَالَ: وَإِنْ قَتَلْنَ؟ فقَالَ ﷺ: **وَإِنْ قَتَلْنَ**.

فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ الله، أَفْتِنِي فِي قَوْسِي، فقَالَ ﷺ: **كُلْ مَا أَمْسَكَتْ عَلَيْكَ قَوْسُكَ**، قَالَ: ذَكِيٌّ وَغَيْرُ ذَكِيٍّ؟ فقَالَ ﷺ: **ذَكِيٌّ وَغَيْرُ ذَكِيٍّ**، قَالَ: وَإِنْ تَغَيَّبَ عَنِّي؟، فقَالَ ﷺ: **وَإِنْ تَغَيَّبَ عَنْكَ**»[3].

هكذا تكونُ الطاعةُ للهِ ورسولِه

كان النبيُّ ﷺ قد أخبر: أنَّ الله تعالى حرَّم لبس الذهب على ذكور المسلمين، وكان بعضُ الصحابة لم يبلغهم هذا التحريم، منهم: أبو ثعلبة الخشني، فرآه النبيُّ ﷺ وفي أصبعه خاتمًا من ذهب، فيا ترى ماذا فعل النبيُّ ﷺ؟ وما ردُّ فِعْلِ أبي ثعلبة؟

يقول أبو ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَأَى رَسُولُ الله ﷺ فِي يَدِي خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَقْرَعُهُ بِقَضِيبٍ كَانَ فِي يَدِهِ، فَلَمَّا غَفَلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِّي أَخَذْتُ الْخَاتَمَ، فَرَمَيْتُ بِهِ، فَنَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ فَلَمْ يَرَهُ فِي إِصْبَعِي، فَقَالَ: **أَيْنَ خَاتَمُكَ؟**، قُلْتُ: أَلْقَيْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **مَا أَرَانَا إِلَّا قَدْ أَوْجَعْنَاكَ وَأَغْرَمْنَاكَ**»[4].

---

(١) أي: مُعلَّمة وهي التي تستخدم في الصيد.

(٢) يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِالذَّكِيِّ: مَا أَمْسَكَ عَلَيْهِ فَأَدْرَكَهُ قَبْلَ زُهُوقِ نَفْسِهِ، فَذَكَّاهُ فِي الْحَلْقِ وَاللَّبَّة، وَغَيْرُ الذَّكِيِّ: مَا زَهَقَتْ نَفْسُهُ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ. وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِالذَّكِيِّ مَا جَرَحَهُ الْكَلْبُ بِسِنِّهِ، أو مَخَالِبِهِ، فَسَالَ دَمُه، وَغَيْرُ الذَّكِيِّ: مَا لَمْ يَجْرَحْهُ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيمَا قَتَلَهُ الْكَلْبُ وَلَمْ يُدْمِهِ، فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى تَحْرِيمِه؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا قَتَلَهُ الْكَلْبُ بِالضَّغْطِ وَالِاعْتِمَادِ، فَيَكُونُ فِي مَعْنَى الْمَوْقُوذَة، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ فِي أَحَد قَوْلَيْهِ، وينظر: عون المعبود (٦/ ٣١٩).

(٣) ينظر: مسند أحمد (٦٧٢٥)، وأبو داود (٢٨٥٧)، والنسائي (٤٢٩٦).

(٤) ينظر: مسند أحمد (١٧٢٩٧- ١٧٧٤٩)، والنسائي (٥١٩٠)، وصحيح موارد الظمآن (١٤٧٠).

فها هو ذا أبو ثعلبة المؤمن الفقيه يلمح في عين رسول الله ﷺ وفي فعله كراهة ما يلبس في أصبعه، مع أنَّ النبيَّ ﷺ لم يُصَرِّح له بالنهي عن لبس مثل هذا للرجال، ولكن المؤمن اللبيب بالإشارة يفهم.

ومن صُوَرِ الجمال في فعل أبي ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه لم ينزعه من يده ويضعه في جيبه، بل ألقاه على الأرض ليُبَرْهن على صدق استجابته لله ورسوله، وإذعانًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

والأعجب من هذا: أنَّ حال أبي ثعلبة في الطاعة وسرعة الاستجابة لأمر الله ورسوله كان سِمَةً عامة في جيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فإنَّ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحكي لنا عن رجل من الصحابة رآه النبيُّ ﷺ- أيضًا- يلبس خاتمًا من ذهب «فَنَزَعَهُ ﷺ فَطَرَحَهُ، وَقَالَ ﷺ: **يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ؟**، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَمَا ذَهَبَ رَسُولُ الله ﷺ: خُذْ خَاتِمَكَ فَانْتَفِعْ بِهِ، فَقَالَ: **لَا وَاللهِ لَا آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ الله ﷺ**»[1].

ثقتُه في موعودِ الله

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وكان النبيُّ ﷺ قد أخبر أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أنَّ الله تعالى سيفتح عليهم الشام، وستصبح أرض إسلام، فجاء أبو ثعلبة الخُشَنيُّ المُوقِنُ بوعد الله ورسوله يَطلب من

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٩٠).

النبيِّ ﷺ طلبًا عجيبًا فيه دلالة على أنَّ إيمان هذا الرجل بكلام رسول الله ﷺ قد بلغ في قلبه ذروته، فيا ترى ما هذا الطلب العجيب؟

يَحْكي أبو ثعلبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لنا فيقول: «أتيت النبيَّ ﷺ فقلت: يَا رَسُولَ الله، اكْتُبْ لِي بِأَرْضِ كَذَا وَكَذَا- لِأَرْضٍ بِالشَّامِ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهَا النبيُّ ﷺ حِينَئِذٍ-، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى مَا يَقُولُ هَذَا؟!**، فَقَالَ أَبُو ثَعْلَبَةَ: وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ لَتظْهَرُنَّ عَلَيْهَا، قَالَ: فَكَتَبَ لَهُ بِهَا»[(١)]، وفي رواية: «وَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ لَتُفْتَحَنَّ عَلَيْكَ، قَالَ: فَكَتَبَ لَهُ بِهَا»[(٢)].

وبعد فتح الشام مُنِحَ أبو ثعلبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الأرض التي كتبها له النبيُّ ﷺ، وقيل: إنه بقي فيها من ذريته إلى الآن.

يموتُ لَه ولدانِ فَيُبشِّرُه النبيُّ ﷺ بالجنةِ

قال أبو ثعلبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «تُوُفِّيَ لِي وَلَدَانُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، تُوُفِّيَ لِي وَلَدَانُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **مَنْ مَاتَ لَهُ وَلَدَانِ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ**.

قال أبو ثعلبة: فَلَقِيَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ، فَقَالَ: أَنْتَ الَّذِي حَدَّثَكَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الْوَلَدَيْنِ؟، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: لِئَنْ يَكُونَ حَدَّثَنِي بِهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا غُلِّقَتْ عَنْهُ فِلَسْطِينُ»[(٣)].

عِلمُه بتفسيرِ القرآنِ

عاش أبو ثعلبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ملازمًا للحبيب ﷺ كظله، ينهل من علمه، ويستفتيه في الحلال والحرام، حتى جمع منه علمًا كثيرًا، فعرف الصحابة له فضله، وبَرَزَ بين التابعين قَدْرُه، فكانوا يسألونه ويستفتونه، وإليك شيئًا من علمه بالتفسير.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٣٧)، وصحَّحه الأرناؤوط.

(٢) الأموال، لابن زنجويه (١٠١٥).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٠)، وقال الهيثمي- في مجمع الزوائد (٣/ ٩)-: رِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

فعَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ قَالَ: «أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الآيَةِ؟، قَالَ: أَيَّةُ آيَةٍ؟، قُلْتُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥] قَالَ: أَمَا- وَاللهِ- لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا النبيَّ ﷺ فَقَالَ: **بَلْ ائْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ المُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ العَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ القَبْضِ عَلَى الجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ**.

قَالَ عَبْدُ الله بْنُ المُبَارَكِ: وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنَّا، أو مِنْهُمْ؟، قَالَ: **بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنْكُمْ**»[(١)].

جهادُه في عصرِ النُّبوةِ

شهد أبو ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منذ أن أسلم الكثير من مشاهد الجهاد مع رسول الله ﷺ، وكان من الذين بايعوا النبيَّ ﷺ تحت الشجرة بيعة الرضوان في الحديبية[(٢)]، فكانت المكافأة له ولأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾ [الفتح: ١٨].

وفي قول النبيِّ ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»[(٣)].

وبعد صلح الحديبية أرسله النبيُّ ﷺ لدعوة قومه، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، ثم رجع المدينة ليبشر النبيَّ ﷺ فوجده يتجهز لغزوة خيبر فخرج معه وشهد فتحها، بل ويخبرنا ببعض الأحكام الشرعية التي أخبر بها النبيُّ ﷺ في خيبر، فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣١٠)، وابن ماجه (٤٠١٤)، وأبو داود (٣٤١٤)، وحسَّنه الأرناؤوط.

(٢) ينظر: معرفة الصحابة (٢/ ٦١٩)، والسير (٢/ ٥٦٧)، وأسد الغابة (٦/ ٤٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٤٧٧٨)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢١٦٠).

«غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَيْبَرَ وَالنَّاسُ جِيَاعٌ، فَأَصَبْنَا بِهَا حُمُرًا مِنْ حُمُرِ الْإِنْسِ، فَذَبَحْنَاهَا، فَأُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَمَرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، فَنَادَى فِي النَّاسِ: **أَنَّ لُحُومَ حُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ لَا تَحِلُّ لِمَنْ شَهِدَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ**، قَالَ: وَوَجَدْنَا فِي جَنَانِهَا بَصَلًا وَثُومًا، وَالنَّاسُ جِيَاعٌ، فَجَهِدُوا فَرَاحُوا، فَإِذَا رِيحُ الْمَسْجِدِ بَصَلٌ وَثُومٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ الْخَبِيثَةِ فَلَا يَقْرَبْنَا**، وَقَالَ: **لَا تَحِلُّ النُّهْبَى**»[١].

ثم اعتمر أبو ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع النبيِّ ﷺ عمرة القضاء، ثم شهد فتح مكة، وبقية المشاهد، وحج معه النبيُّ ﷺ حجة الوداع، ومات رسولُ الله ﷺ وهو عنه راضٍ.

جهادُه فِي الفتوحاتِ الإسلاميةِ

وبعد موت رسول الله ﷺ بقي أبو ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينتظر فتح الشام كما وعد الله ورسوله، ويحلم براية لا إله إلا الله ترفرف على أرضها.

وحين جاءه الخبرُ بخروج جيوش المسلمين لفتح الشام خرج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخُدُّ الأَرْضَ خَدًّا ليكون أحد هؤلاء الفاتحين الخالدين الذين حَرَّرُوا الشام وأهلها من ظلم الروم وشركهم، وحملوا إليهم مشاعل الهُدى ليَخرجوا من الظلمات إلى النور.

وقد ذكر ابنُ عساكر في تاريخ دمشق: «أنَّ حُمَيْدًا المُزَنِيَّ قال: إنَّ أولَ صَلاةٍ صَلاها المسلمون بحمص في كنيسة يُوحَنَّا، صَلَّى بهم أبو ثعلبة الخُشنيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ»[٢].

وقد أرسل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خلافته جيشًا لفتح القسطنطينية بقيادة ابنه يَزيد، وكان أبو ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد المجاهدين في هذا الجيش، وكان هذا أول جيش إسلامي يخرج لفتح القسطنطينية؛ ليفوز ببشارة النبيِّ ﷺ له؛ إذ قال: «**أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي**

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٤١)، وصحَّحه محققو طبعة الرسالة.

(٢) تاريخ دمشق (٦٦/ ٩٠).

يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ- القسطنطينية- مَغْفُورٌ لَهُمْ»[١].

ووقف أبو ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُبشر جيشَ المسلمين بما سمع من رسول الله ﷺ عن فتح القسطنطينية، فيقول جبير بن نفير- أحد أفراد الجيش-: «سَمِعْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ صَاحِبَ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ وَهُوَ بِالْفُسْطَاطِ فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ، وَكَانَ مُعَاوِيَةُ أَغْزَى النَّاسَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَقَالَ: **وَالله لَا تَعْجِزُ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ نِصْفِ يَوْمٍ إِذَا رَأَيْتَ الشَّامَ مَائِدَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ فَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ»**[٢].

حسنُ الخاتمةِ

وبعد حياة طويلة عاشها أبو ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عابدًا مُجاهدًا تقيًّا وَرِعًا، يَحين وقت الرحيل.

فلما كَبِرَت سِنُّه، وشَعَرَ بقرب أجله شدَّ مِئزره، وأحيا ليله، ولزم مُصلاه ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وساعيًا نحو حُسْنِ الخاتمة، فأعطاه الله ما سعى إليه، فقد رَوى ابنُ أبي عاصم بسنده عن أبي الزاهرية أنه قال: سمعت أبا ثعلبة الخُشنيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا يَخْنُقَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا أَرَاكُمْ تُخْنَقُونَ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُصَلِّي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ قُبِضَ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَأَتِ ابْنَتُهُ أَنَّ أَبَاهَا مَاتَ فَاسْتَيْقَظَتْ فَزِعَةً فَنَادَتْ أُمَّهَا: أَيْنَ أَبِي؟، قَالَتْ فِي مُصَلَّاهُ، فَنَادَتْهُ فَلَمْ يُجِبْهَا، فَأَتَتْهُ فَوَجَدْتُهُ سَاجِدًا، فَحَرَّكَتْهُ فَوَقَعَ لِجَنْبِهِ مَيِّتًا»[٣].

بَخٍ بَخٍ لك يا أبا ثعلبة، كأنها مُكافأة نهاية الخدمة، ويا لها من مُكافأة، يقبضك ربك إليه وأنت بين يديه مناجيًا، تَموت ساجدًا وستبعث يوم القيامة- إن شاء الله- ساجدًا، فبهذا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٧٦٩)، والحاكم (٨٤٢٥)، وصحَّحه الأرناؤوط.

(٣) ينظر: الآحاد والمثاني (٢٦٢٨)، وحلية الأولياء (٢/ ٣٠).

أخبر حبيبك وصاحبك ﷺ فقال: «**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ**»[(١)].

وهكذا العبد الصالح إذا أراد الله به خيرًا يوفقه لخاتمة السعادة التي يختم بها لأوليائه الصالحين؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟، قَالَ: **يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ، ثم يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ**»[(٢)].

وكانت وفاته رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالشَّام سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ من الهجرة[(٣)].

رضي اللّهُ عن أبي ثعلبةَ الخُشَنيِّ،
وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (١١٨٠٤)، والترمذي (٢١٤٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٤).

(٣) ينظر: معرفة الصحابة (٢/ ٦٩١)، والسير (٢/ ٥٦٨)، وأسد الغابة (٦/ ٤٣)، وتاريخ دمشق (٦٦/ ١٠٤).

أبو خَيثَمَةَ الأنصَاريُّ

كُن أَبَا خيثمةَ[1]

إنَّ مِداد القلم في هذه السطور يتحدث عن صفحات مطوية من حياة أحدِ أنصار خير الْبَرِيَّةِ ﷺ، إنه الصحابي الجليل: أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهيا بنا نُقَلب هذه الصفحات لنتعرف على سيرة هذا الأنصاري المجاهد الذي أنزل الله من أجله قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة.

اسمُه ونسبُه وكنيتُه

هو مَالِك بن قَيْس بن ثَعْلَبة بن العَجْلان، الخزرجيُّ، الأنصاريُّ.

مشهور بكنيته: أَبُي خَيْثَمَةَ[2].

غَضبهُ لرسولِ الله ﷺ

لما كانت زينب بنت رسول الله ﷺ في طريق هجرتها من مكة إلى المدينة بعد غزوة بدر تعرَّض لها جماعة من قريش فرَوَّعوها وكانت حاملًا فسقط حملها من خوفها، ثم نجَّاها الله تعالى منهم ووصلت إلى أبيها ﷺ[3].

فغضب النبيُّ ﷺ لِمَا حدث لها، وغضب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لغضب رسول الله ﷺ، ومن بين هؤلاء الغاضبين لله ورسوله: أبو خيثمة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرج

(١) قالها النبيُّ ﷺ، وسيأتي تخريجه.

(٢) ينظر: أسد الغابة (٤١/ ٥)، والإصابة (٥/ ٥٥٣)، والاستيعاب (٤/ ١٦٤١).

(٣) ينظر: مستدرك الحاكم (٦٨٣٥)، والمعجم الكبير، للطبراني (١٠٥٠).

غضبه في صورة أبيات شعرية تناقلها الناس عنه، فقد قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(١)]:

أَتَـانِي الَّـذِي لَا يَقْـدُرُ النَّـاسُ قَـدْرَهُ ... لِزَيْنَـبَ فِـيهِمْ مِـنْ عُقُـوقٍ وَمَـأْثَمِ
وَإِخْرَاجُهَـا لَـمْ يُخْـزَ فِيهَـا مُحَمَّـدٌ ... عَلَـى مَـأْقِطٍ وَبَيْنَنَـا عِطْـرُ مَنْشَـمِ
وَأَمْسَى أَبُو سُفْيَانَ مِنْ حِلْفِ ضَمْضَمٍ ... وَمِـنْ حَرْبِنَـا فِـي رَغْـمِ أَنْـفٍ وَمَنْـدَمِ
قَرَنَّـا ابْنَـهُ عَمْـرًا وَمَـوْلَى يَمِينِـهِ ... بِذِي حَلَقٍ جَلْدِ الصَّلَاصِلِ مُحْكَمِ
أَقْسَـمْتُ لَا تَنْفَـكُّ مِنَّـا كَتَائِـبٌ ... سُـرَاةُ خَمِـيسٍ فِـي لُهَـامٍ مُسَـوَّمِ
نَـزُوعُ قُـرَيْشَ الْكُفْـرَ حَتَّـى نَعُلَّهَـا ... بِخَاطِمَـةٍ فَـوْقَ الْأُنُـوفِ بِمِيسَـمِ
نُنَـزِّلُهُمْ أَكْنَـافَ نَجْـدٍ وَنَخْلَـةٍ ... وَإِنْ يُتْهِمُـوا بِالْخَيْـلِ وَالرَّجْـلِ نُتْهِمُ
يَـدَ الـدَّهْرِ حَتَّـى لَا يُعَـوَّجَ سِـرْبُنَا ... وَنُلْحِقُهُـمْ آثَـارَ عَـادٍ وَجُـرْهُمِ
وَيَنْـدَمَ قَـوْمٌ لَـمْ يُطِيعُـوا مُحَمَّـدًا ... عَلَـى أَمْـرِهِمْ وَأَيُّ حِـينِ تَنَـدُّمِ
فَـأَبْلِغْ أَبَـا سُـفْيَانَ إِمَّـا لَقِيتُـهُ ... لَئِنْ أَنْتَ لَمْ تُخْلِصْ سُجُودًا وَتُسْلِمْ
فَأَبْشِـرْ بِخِـزْيٍ فِـي الْحَيَـاةِ مُعَجَّـلٍ ... وَسِـرْبَالِ نَـارٍ خَالِـدًا فِـي جَهَـنَّمَ

دَوره في معركةِ أُحُدٍ

مع أن معركة أُحُد هي أولُ مشاهده مع رسول الله ﷺ إلا إنه كان صاحب بصمة فيها، فإن النبيَّ ﷺ لما عزم على الخروج لملاقاة المشركين عند جبل أحد أمر المسلمين أن يجتمعوا عند المسجد ليلًا، فلما كان وقت السحر استعد النبيُّ ﷺ للتحرك بجيش المسلمين، فأراد أن يسلك إلى أحُدٍ طريقًا مختصرًا وخَفيًّا على أعدائه،

(١) ينظر: السيرة النبوية، لابن هشام (ص٥٥١)، والسيرة النبوية، لابن كثير (٢/ ٥١٩).

فقال ﷺ لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «**مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى الْقَوْمِ مِنْ كَثَبٍ**- أَيْ: مِنْ قُرْبٍ- **مِنْ طَرِيقٍ لَا يَمُرُّ بِنَا عَلَيْهِمْ**؟، فَقَالَ أَبُو خَيْثَمَةَ الأنصاريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، فَنَفَذَ بِهِ فِي حَرَّةِ بَنِي حَارِثَةَ، وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ، حَتَّى سَلَكَ فِي مَالٍ لِمِرْبَعِ بْنِ قَيْظِيٍّ، وَكَانَ رَجُلًا مُنَافِقًا ضَرِيرَ الْبَصَرِ، فَلَمَّا سَمِعَ حِسَّ رَسُولِ الله ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَامَ يَحْثِي فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ، وَيَقُولُ: إِنْ كُنْتَ رَسُولَ الله فَإِنِّي لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ حَائِطِي، وأَخَذَ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ فِي يَدِهِ، ثم قَالَ: وَاللهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَا أُصِيبُ بِهَا غَيْرَكَ يَا مُحَمَّدُ لَضَرَبْتُ بِهَا وَجْهَكَ، فَابْتَدَرَهُ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **لَا تَقْتُلُوهُ، فَهَذَا الْأَعْمَى أَعْمَى الْقَلْبِ، أَعْمَى الْبَصَرِ**، وَقَدْ بَدَرَ إِلَيْهِ سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ، أَخُو بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَبْلَ نَهْيِ رَسُولِ الله ﷺ عَنْهُ، فَضَرَبَهُ بِالْقَوْسِ فِي رَأْسِهِ، فَشَجَّهُ»[(١)].

وبهذا استطاع أبو خيثمة الأنصاريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يَمُر بجيش المسلمين من طريق مختصر، وفي نفس الوقت يَخفى على الأعداء، فلربما يصنع الأعداء كمينًا في الطريق الذي يتوقعون مرور جيش المسلمين منه إلى المعركة، فتكون في ذلك هلكتهم.

وأبلى أبو خيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم أحد بَلَاءً حَسَنًا، ثم شهد مع رسول الله ﷺ بقية مشاهده، فقد شهد معه الخندق، والحديبية، وغزوة خيبر، وفتح مكة، وحنين، وتبوك.

إِنَّ اللهَ يدافعُ عن الذينَ آمنُوا

كانت غزوة تبوك لها ظروف خاصة تختلف عن أي غزوة مضت، فقد كان عدد المسلمين فيها كبيرًا، ولم يجد النبيُّ ﷺ ما يحملهم عليه، فقد كان الظَهْرُ قليلًا، والمسافة بعيدةً، والْحَرُّ شديدًا، ولم تكن هناك ميزانية لتسليح الجيش، فحث النبيُّ ﷺ المجتمع الإسلامي على الصدقة لتجهيز الجيش المتوجه للقاء الروم في تبوك،

---

(١) ينظر: السيرة، لابن هشام (ص٦٥٣)، ومغازي الواقدي (١/ ٢١٧).

الذي سماه النبيُّ ﷺ بجيش العُسْرَةِ، ورغَّبهم في ذلك قائلًا: «**مَنْ يُجَهِّزُ جَيْشَ الْعُسْرَةِ غَفَرَ اللهُ لَهُ**»[(١)]، وفي رواية: «**فَلَهُ الْجَنَّةُ**»[(٢)].

فقام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتصدقون ويساهمون في تجهيز هذا الجيش كُلٌّ بحسب طاقته وإمكاناته، ولكنهم لم يسلموا من ألسنة المنافقين، «فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: مُرَاءٍ، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا، فَأنزل الله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]»[(٣)].

وكان الذي تصدق بصاع فلمزه المنافقون أبا خيثمة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما صَرَّحَ بذلك كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ إذ قال: «... فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ، وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ»[(٤)].

فأنزل الله تعالى قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة يدافع فيه عن أوليائه الصالحين، ويُبرئ ساحتهم، ويخبر بصدق نيتهم.

كُن أبا خيثمةَ

و«خرج رَسُولُ الله ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَا لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ كَثِيرٌ، وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابُ حَافِظٍ، فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى لَهُ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَغزَا رَسُولُ الله ﷺ

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣٦٠٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٥).
(٣) ينظر: البخاري (١٤١٥، ٤٦٦٨).
(٤) أخرجه مسلم (٢٧٦٩).

تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ، فَتَجَهَّزَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ»[(١)]، «ولَمَّا سَارَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى تَبُوكَ جَعَلَ لَا يَزَالُ يَتَخَلَّفُ الرَّجُلُ فَيَقُولُونَ: يَا رَسُولَ الله، تَخَلَّفَ فُلَانٌ، فَيَقُولُ ﷺ: **دعُوهُ، إِنْ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللهُ بِكُمْ، وَإِنْ يَكُ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاحَكُمُ اللهُ مِنْهُ**»[(٢)].

وتباطأ أبو خيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأوقعه الشيطانُ في فخ التسويف، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِه حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ، حتى إذا سار رسول الله ﷺ أَيَّامًا رجع أبو خَيْثَمَةَ إِلَى أَهْلِهِ فِي يَوْمٍ حَارٍّ، فَوَجَدَ امْرَأَتَيْه فِي عَرِيشَيْنِ لهما في حائط، قَدْ رَشَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَرِيشَهَا، وَبَرَّدَتْ لَهُ فِيهِ مَاءً، وَهَيَّأَتْ لَهُ فِيهِ طَعَامًا، فَلَمَّا دَخَلَ قَامَ عَلَى بَابِ الْعَرِيشَيْنِ فَنَظَرَ إِلَى امْرَأَتَيْهِ وَمَا صَنَعَتَا لَهُ، فَقَالَ: رَسُولُ الله ﷺ فِي الضح وَالرِّيحِ وَالْحَرِّ، وَأَبُو خَيْثَمَةَ فِي ظِلٍّ بَارِدٍ وَمَاءٍ بَارِدٍ وَطَعَامٍ مُهَيَّأٍ وَامْرَأَةٍ حَسْنَاءَ فِي مَالِهِ مُقِيمٌ؟!. مَا هَذَا بِالنَّصَفِ، ثم قَالَ: لَا وَاللهِ لَا أُدْخُلُ عَرِيشَ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا حَتَّى أَلْحَقَ بِرَسُولِ الله ﷺ، فَهَيِّئَا لِي زَادًا، ففَعَلَتَا، ثم قَدَّمَ نَاضِحَهُ فَارْتَحَلَهُ، ثم خَرَجَ فِي طَلَبِ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى أَدْرَكَهُ بِتَبُوكَ حِينَ نَزَلَهَا، وَقَدْ كَانَ أَدْرَكَ أَبَا خَيْثَمَةَ عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ الْجُمَحِيُّ فِي الطَّرِيقِ يَطْلُبُ رَسُولَ الله ﷺ فَتَرَافَقَا حَتَّى إِذَا دَنَوَا مِنْ تَبُوكَ، فقَالَ أَبُو خَيْثَمَةَ لِعُمَيْرِ بْنِ وَهْبٍ: إِنَّ لِي ذَنْبًا فَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي حَتَّى آتِيَ رَسُولَ الله ﷺ، ففَعَلَ، فَسَارَ أبو خيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ نَازِلٌ بِتَبُوكَ، قَالَ النَّاسُ: هَذَا رَاكِبٌ عَلَى الطَّرِيقِ مُقْبِلٌ، فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رسول الله ﷺ رَجُلًا مُبَيِّضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ**، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، هُوَ وَاللهِ أَبُو خَيْثَمَةَ

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٦٩).

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (١٩٧٠)، والحاكم في المستدرك (٤٣٧٣)، وصحَّحه عن ابن مسعود، وحسَّنه ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٥٠).

الْأَنْصَارِيُّ، فَلَمَّا أَنَاخَ أَقْبَلَ فَسَلَّمَ عَلَى رسول الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِﷺ: **أَوْلَى لَكَ أَبَا خَيْثَمَةَ**[١]، فأتاه أبو خيثمة وهو يبكي، فقال له رسولُ الله ﷺ: **ما خَلَّفَكَ يا أبا خيثمة؟!** قال: كدتُ يا نبيَّ الله أنْ أهلِكَ بتخلفي عنك، تزينتْ لي الدنيا، وتزين لي مالي في عيني، وكدتُ أن أختاره على الجهاد، فعزم الله عليَّ بالخروج، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ خَيْرًا، واستغفر له، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ»[٢].

وعلى إثْر هذه الأحداث أنزل الله تعالى قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، فكأني بها تنزل بَرْدًا وَسَلَامًا على قلب أبي خيثمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وَأنشد أَبُو خَيْثَمَةَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا فقال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٣]:

لَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ فِي الدِّينِ نَافَقُوا ... أَتَيْتُ الَّتِي كَانَتْ أَعَفَّ وَأَكْرَمَا

وَبَايَعْتُ بِالْيُمْنَى يَدِي لِمُحَمَّدٍ ... فَلَمْ أَكْتَسِبْ إِثْمًا وَلَمْ أَغْشَ مُحَرَّمَا

تَرَكْتُ خَضِيبًا فِي الْعَرِيشِ وَصِرْمَةً ... صفايا كِرَامًا بُسرُهَا قَدْ تَحَمَّمَا[٤]

وَكُنْتُ إِذَا شَكَّ الْمُنَافِقُ أَسْمَحَتْ ... إِلَى الدِّينِ نَفْسِي شَطْرَهُ حَيْثُ يَمَّمَا[٥]

---

(١) أي: دَنَوْتَ مِنَ الهَلَكَة. ينظر: لسان العرب (١٥/ ٤١١).

(٢) ينظر: صحيح مسلم (٢٧٦٩)، والمعجم الكبير، للطبراني (٥٤١٩)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٥/ ١٦٧)، وشرف المصطفى (٤/ ٨٩)، والسيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (٤/ ١٠٩).

(٣) للشعر وشرح ألفاظه، ينظر: السيرة، لابن هشام (ص١٠٢٧)، والبداية والنهاية (٥/ ٨).

(٤) الخضيب: المخضوبة، والصرمة: جمَاعَة النخل. وصفايا: كَثِيرَة الْحمل، وَأَصله فِي الْإِبِل، يُقَال: نَاقَة صفي، إِذا كَانَت غزيرة الدَّرِّ، وَجَمعهَا صفايا. والبسر: التَّمْر قبل أَن يطيب. وتحمَّما، أَي: أَخذ فِي الإرطاب فاسودَّ.

(٥) أسمحت: انقادت. وشطره: نَحوه وقصده.

وهكذا انتصر أبو خيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في معركته على نفسه وشيطانه قبل أن يخرج ليجاهد مع النبيِّ ﷺ بالسيف؛ فإنه لمَّا أرادت نفسه أن تَعْلُق بشباك الغفلة التي نصبها له الشيطان عزم هو أن يسلك سبيل المتقين الذين ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ودفعه حبُّه لرسول الله ﷺ أن يترك الدنيا التي تزينت أمام عينيه، ويخرج وحده على دابته يشق الصحراء في صيفٍ مَوْجَةُ حَرِّه تَلْفَحُ الوجوه؛ ليحلق به ﷺ وبجند الله تعالى الذين قطعوا هذه المسافة لإعلاء كلمة: لا إله إلا الله، وفي هذا تَذَكَّرْتُ قولَ رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثم قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثم قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ الْمَالُ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أو وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ**»[١].

ونلمح في قصة أبي خيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن العبد المؤمن الصادق ربما يعتريه الفتورُ أحيانًا، وتراوده نفسه عن القعود عن الطاعة، ويُلْقِي عليه شيطانه شِباكَ الغفلة، لكنه سرعان ما ينتبه، ويُفِيق من غفلته، ويَقْوى عزمه، وتنشط نفسه، فيمضي مع السالكين على صِرَاطٍ مُسْتَقِيم.

ونلمح- أيضًا- في قول النبيِّ ﷺ «**أَوْلَى لَكَ أَبَا خَيْثَمَةَ**» عتابًا لطيفًا مِنْ أَرَقِّ

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٥٨)، والنسائي (٣١٣٤)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٩٧٩).

وأَلْطَف مُعلِّمٍ عرفته البشرية، عِتَابًا يحمل في طياته الرحمة، ويحفظ المُعاتَبَ مِن النُّفُورِ، ويدفعه بقوة نحو البُعد عن مواطن الهلكة فيما بَعد.

وقد جمع الشاعر أحمد محرم قصة أبي خيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أبيات قائلًا[(١)]:

لــك اللهُ أقبِــلْ أبـا خيثمـهْ ... فللــه صُــنْعُكَ مـا أكرمَـهْ
قعــدتَ فلمَّـا كرهــتَ القُعــودَ ... نَفــرتَ حَثِيثًـا إلــى المَلحَمَــهْ
دخلــتَ العــريشَ علـى زوجتيـك ... فسُــبْحَانَ رَبِّــكَ مـا أعظمَــهْ
نعــيمٌ يَــرُوقُ وظِــلٌ يشــوقُ ... وَعَــيْشٌ يَســرُّكَ أن تغنمَــهْ
فــذكَّرَك اللهُ حَــرَّ الجهــادِ ... وألْهَــمَ قلبــك مـا أَلْهَمَــهْ
فقلــتَ أيمضــي الرَّسُــولُ الكــريمُ ... يُكابــد في الله مــا جَشَّــمَهْ؟
وَأَبْقَــى هنـا في هَــوَى زوجتَــيَّ ... وحُــبِّ العــريش كــذي المَلأَمَـهْ؟
وَسِــرْتَ فأدركتَــه في تبــوكٍ ... وللجــيش مــن حَولــه هَمْهَمَــهْ
يقولــون مَــنْ ذا؟ ومـا خَطْبـه؟ ... ألا إنَّــه أبــو خيثمــهْ
ألــم يــكُ في المَعشــرِ القاعــدينَ؟ ... فمـاذا عَــراهُ؟ ومـا أقدمَـهْ؟
هــو اللهُ يهــدي نفــوسَ العبـادِ ... ويرزقهــا الْبِــرَّ والمرحمــهْ

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وقد عَمَّرَ أبو خيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد رسول الله ﷺ إلى زمن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وبعد حياة طويلة في سبيل الله يحين وقت رحيله من الدنيا إلى أول منازل

(١) نقلًا من فرسان النهار، للعفاني (٦/ ٢٩٩) بتصرف يسير جدًّا.

الآخرة، فينام أبو خيثمة على فراش الموت، وتخرج روحه لتلحق- إن شاء الله- بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، في جنات النعيم، وحسن أولئك رفيقًا[١].

رضي اللهُ عن أبي خيثمةَ الأنصاريِّ،
وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) ينظر: تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٦٥٧)، والإصابة، لابن حجر (٧/ ٩٣).

أبُو لُبابةَ بنُ عبدِ المُنذِر

الأنصاريُّ البدريُّ

معنا في هذه الصفحات سيرة رجل من أنصار الله ورسوله، معدود في أهل بدر مع أنه لم يشهدها، فيا تُرى: من هو؟ وما قصته؟

بطاقةُ تعريفٍ

هو أَبُو لُبَابَةَ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ بْنِ زُبَيْرِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أُمَيَّةَ، العَوْفِيُّ، الْأَوْسِيُّ، الأنصاريُّ، اختُلف في اسمه، فقيل: بَشِيرٌ، وقيل: رِفَاعَة، وقيل: مروان، ولكنه مشهور بكنيته.

تزوج أَبُو لُبَابَة من نُسَيْبَة بِنْت فَضَالَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، فولدت له لُبَابَة التي يُكْنَى بها، والتي تَزَوَّجَهَا فيما بعد زَيْدُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنهم جميعًا.

ثم تزوج أَبُو لُبَابَة من الخنْسَاء بِنْت خِذامٍ الأنصارية، وكان بينهما قصة حُبٍّ مشهورة، وولدت له السائب بن أبي لبابة رضي الله عنهم جميعًا.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له بَيْتَانِ: بَيْتٌ فِي قُبَاءٍ، وَبَيْتٌ في المدينة بالقرب من يهود بني قريظة الذين كانوا حلفاءَه في الجاهلية[1].

إسلامُه وبيعتُه

ولما فاح عَبيرُ الإسلام في مكة وَبَلَغَ أَثَرُه أرضَ يثربَ اسْتَنْشَقَه أَبُو لُبَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى باتَ يَسْرِي بداخله كسريان الدم في عروقه.

---

(١) ينظر: الإصابة (٧/ ٢٨٩)، والاستيعاب (٢/ ٥٠٠)، وأسد الغابة (٦/ ٢٦٠).

وقد كان النبيُّ ﷺ في هذه الفترة «يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ، وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ: **مَنْ يُؤْوِينِي؟، مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي؟، وَلَهُ الْجَنَّةُ**، فلَا يَجِدُ أَحَدًا يَنْصُرُهُ وَيُؤْوِيهِ»[1]، فدفع الأسفُ على حال النبيِّ ﷺ سبعين رجلًا من شباب يثرب- من بينهم: بطل قصتنا: أَبُو لُبَابَة- أن يَعقدوا اجتماعًا عاجلًا يناقشون فيه ما ينبغي عليهم فعله تجاه رسول الله ﷺ، وطالت جلسة النقاش والمشاورة حتى خرجوا منها وقد عزموا على أخذ قرار حاسم سيغير مجرى التاريخ، ويكون نقطة تحول في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ البشرية جمعاء، ألا وهو إيواء النبيِّ ﷺ في بلدتهم، ونصرته حتى يبَلِّغَ رسالة ربه في الأقطار والأمصار، ويَبْلُغَ الإسلامُ ما بلُغَ الليل والنهار، كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.

وها هو ذا جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أحد شهود العيان لهذه الوقعة يروي لنا القصة قائلًا: «فَأْتَمَرْنَا، وَاجْتَمَعْنَا سَبْعُونَ رَجُلًا مِنَّا، فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ الله ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ ويخافُ؟!، فَرَحَلْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله عَلَامَ نُبَايِعُكَ؟، قَالَ: **تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسرِ وَالْيُسرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لَا تَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ يَثْرِبَ، فَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ**. قال: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ»[2].

ثم «قَالَ لهم رَسُولُ الله ﷺ: **أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ،**

---

(١) أحمد (١٤٦٩٦)، وابن حبان (٧٠١٢)، والسلسلة الصحيحة (٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٦٩٦)، وابن حبان (٧٠١٢)، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٣).

فَأَخْرَجُوا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، مِنْهُمْ: تِسْعَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوْسِ»[١].

وَكان أَبُو لُبَابَة بْن عَبْد المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن انتُخِبَ ليكون أحد نقباء الأوس الثلاثة، فجزى الله أصحاب هذه البيعة عن المسلمين خيرًا[٢].

مكانتُه عندَ رسولِ الله ﷺ

ولما خرج النبيُّ ﷺ في غزوة بدر الكبرى استخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليصلي بالناس، وكان عدد الدوابِّ التي تحمل جيش المسلمين قليلة، فَقَسَّمَ النبيُّ ﷺ الناس كُل ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ، وعندئذٍ ظهرت مكانة أبي لبابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند رسول الله ﷺ حيث شرَّفه بأن جعله يتعاقب معه على بعير واحد، وفي أثناء المسير كان لأبي لبابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِعْل نبيل ظهر من خلاله، وهو:

أَدبهُ مع رسولِ الله ﷺ

فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ، وَكَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا زَمِيلَيْ رَسُولِ الله ﷺ، فَإِذَا كَانَ عُقْبَةُ رَسُولِ الله ﷺ قَالَا لَهُ: ارْكَبْ يَا رَسُولَ الله، وَنَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ، فَيَقُولُ: **مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا**»[٣].

وفي هذا المشهد الجميل رَسَم لنا أَبُو لُبَابَةَ مع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا صورةً بديعةً نرى من خلالها أدب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع رسول الله ﷺ وتعظيمهم لمقامه، إلى جَنْبِ صُوَر البطولة والجهاد، كما نرى فيه- أيضًا- النبيَّ ﷺ وهو يعلم البشرية

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٩٨) عن كعب بن مالك، وحسَّنه الألباني والأرناؤوط.

(٢) ينظر: الاستيعاب (٢/ ٥٠٠)، وأسد الغابة (٦/ ٢٦٠)، وتاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١٩٦).

(٣) ينظر: مسند أحمد (٣٩٦٥، ٤٠٠٩)، والنسائي (٨٨٠٧)، والسلسلة الصحيحة (٢٢٥٧).

جمعاء كيف يكون التواضع!.

وظلَّ أبو لبابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مُلَازِمًا لرسول الله ﷺ حتى وصل الجيش منطقة يقال لها الرَّوْحَاء، وهناك فعل النَّبِيُّ ﷺ فِعْلًا تَبْرُزُ من خلاله:

ثقةُ النبيِّ ﷺ بأَبِي لُبابةَ

رَدَّ النبيُّ ﷺ أبا لُبَابَةَ من الرَّوْحَاءِ ليستخلفه مكانه على المدينة(١)، فيا له من شرف عظيم لأبي لبابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يجعله النَّبِيُّ ﷺ منه بمنزلة هارون من موسى حين قال له: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ولما رجع النبيُّ ﷺ من بدر ضَرَبَ لأَبِي لُبَابَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بسَهمٍ كمن شَهِدَ بدرًا(٢)، فهو كأهل بَدْرٍ تمامًا؛ لأنه رجع امتثالًا لأمر رسول الله ﷺ، وقد كان يتعامل بين الناس معاملة أهل بدر، بل وقد كان الْبَعْضُ يسميه أَبُو لُبَابَةَ البَدْرِيُّ(٣).

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي استخلف فيها النَّبِيُّ ﷺ أبا لبابة على المدينة مكانه، فقد استخلفه ﷺ عليها عند خروجه لإجلاء يهود بني قينقاع عن المدينة، وعند خروجه ﷺ في غزوة السَّوِيقِ(٤).

ولم تنحصر ثقةُ النبيِّ ﷺ بأَبِي لُبَابَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في استخلافه مكانه على المدينة فقط، بل كان يُوَلِّيه بعض المهام في المعارك والغزوات، فقد كان يحمل راية بني عمرو بن عوف في جيش الإسلام الذي فتح مكة مع رسول الله ﷺ(٥).

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٣٤٨)، وأسد الغابة (١/ ٥٩٨).

(٢) ينظر: مستدرك الحاكم (٦٦٥٧)، والكبرى، للبيهقي (١٧٩٨٧)، والمعجم الكبير (٤٤٩٤).

(٣) ينظر: صحيح البخاري (٤٠١٦)، ومسند أحمد (١٥٥٤٧).

(٤) ينظر: الاستيعاب (٤/ ١٧٤٠)، والطبقات الكبرى (٢/ ٢٢).

(٥) ينظر: الاستيعاب (٤/ ١٧٤٠).

قصَّةُ حبٍّ وزواجٍ

قد أَحَبَّ أبو لبابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ امرأةً من جيرانه من أهل قُباء اسمها: خَنْسَاء بِنْت خِذَام الأَنْصَارِيَّة، وإن الإسلام لم يُحرِّم الْحُبَّ بين الرجل والمرأة، وما جاء الإسلام ليُمِيتُ المشاعر، أو يُجمِّدَهَا في صدور أتباعه، بل جاء ليهذبها ويجعلها تسير في مسارها الصحيح.

فمَنْ أَحَبَّ فتاةً فليَسْعَ للزواج منها، ولْيأتِ البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا، ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المعارج: ٣١].

وها هو ذا أَبُو لُبَابَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يتقدم لخطبة الخنساء، وفي نفس التوقيت يتَوَالَى الخُطَّاب على أبيها، فَحَنَّتْ الخَنْسَاءُ إِلَى أَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، أما أبوها فَزَوَّجَهَا رَجُلًا مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَكَرِهَتِ الخنساءُ ذَلِكَ، وأَبَتْ إِلَّا أَنْ تَحُطَّ إِلَى أَبِي لُبَابَةَ، وَأَبَى أَبُوهَا إِلَّا أَنْ يُلْزِمَهَا الْعَوْفِيَّ، حَتَّى ارْتَفَعَ أَمْرُهُمَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَأَتَتِ الخَنْسَاءُ النَّبِيَّ ﷺ فَاشْتَكَتْ إِلَيْهِ قائلة: يا رسول الله، زَوَّجَنِي أَبِي وَأَنَا كَارِهَةٌ رَجُلًا مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَلَمْ يُشْعِرْنِي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **الْأَمْرُ إِلَيْكِ**، قَالَتْ: فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، فَأَرسلَ رَسُولُ الله ﷺ إلى أبيهَا، فقال له: **هِيَ أَوْلَى بِأَمْرِهَا، فَأَلْحِقْهَا بِهَوَاهَا**، وقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لها: **لَا نِكَاحَ لَهُ، انْكِحِي مَنْ شِئْتِ**، فَتَزَوَّجَتْ أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، فَوَلَدَتْ لَهُ السَّائِبَ بْنَ أَبِي لُبَابَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ»[١].

ولم تكن هذه هي الحالة الفريدة في عصر النبوة التي جمع فيها النبيُّ ﷺ شَمْلَ مُتَحَابَّيْنِ، فقد جَاءه رجلٌ، فقال: «يا رسول الله، عندنا يَتيمة خَطَبَها رجلان: مُوسِرٌ وَمُعْسِرٌ، وهي تَهوَى الْمُعْسِرَ، ونحن نَهوَى الْمُوسِرَ، فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **لَمْ نَرَ لِلْمُتَحَابَّيْنِ مِثْلَ النِّكَاحِ**»[٢].

---

(١) ينظر: البخاري (٥١٣٨)، وأحمد (٢٦٧٩٠، ٢٦٧٨٨)، والكبرى، للبيهقي (١٣٦٨٦)، وسنن الدارقطني (٣٥٥٣).

(٢) ينظر: سنن ابن ماجه (١٨٤٧)، ومسند الفاروق (١/ ٣٩٨)، والسلسلة الصحيحة (٦٢٤).

توبةٌ وندمٌ

وفي السنة الخامسة من الهجرة نقض يهود بني قريظة العهد مع رسول الله ﷺ وتمالَئُوا مع جيش الأحزاب، فهزم الله الأحزاب، وكفى الله المؤمنين قتالهم، ثم أمَرَ اللهُ نبيه ﷺ أن يتوجه إلى بني قريظة لينفذ فيهم حكم الله تعالى، «فَأَتَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ فَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا اشْتَدَّ حَصْرُهُمْ، وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ، قِيلَ لَهُمْ: انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِﷺ»[1]، فَصرَخُوا بِأَبِي لُبَابَةَ يستغيثون به، وكانوا حُلَفَاءَ الْأَوْسِ، فَقَالَ أَبُو لُبَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا آتِيهِمْ حَتَّى يَأْذَنَ لِي رَسُولُ الله ﷺ، ثم بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أنِ ابْعَثْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ نَسْتَشِيرُهُ فِي أَمْرِنَا، فَقَالَ رسول الله ﷺ له: **قَدْ أَذِنْتُ لَكَ**، فَأَتَاهُمْ أَبُو لُبَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامَ إِلَيْهِ الرِّجَالُ، وَجَهَشَ إِلَيْهِ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ يَبْكُونَ فِي وَجْهِهِ، فَرَقَّ لَهُمْ، فقَالُوا لَهُ: يَا أَبَا لُبَابَةَ مَاذَا تَرَى؟ وَمَاذَا تَأْمُرُنَا؟ فَإِنَّهُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِالْقِتَالِ، أَتَرَى أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَأَشَارَ أَبُو لُبَابَةَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ، وَأَمَرَّ عَلَيْهِ أَصَابِعَهُ يُرِيهِمْ أَنَّهُ الذَّبْحُ، ثم انتبه أبو لبابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لفعله، وانْتابته حالةٌ يحدثنا بها فيقول: فو الله مَا زَالَتْ قَدَمَايَ تَرْجُفَانِ حِينَ عَرَفْتُ أَنِّي قَدْ خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ.

فَلَمَّا انْصَرَفَ أَبُو لُبَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُقِطَ فِي يَدِهِ، وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ، فَقَالَ: وَالله لَا أَنْظُرُ فِي وَجْهِ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى أُحْدِثَ لله عَزَّ وَجَلَّ تَوْبَةً نَصُوحًا يَعْلَمُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ نَفْسِي.

ثُمَّ انْطَلَقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى وَجْهِهِ وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ الله ﷺ، فَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَرَبَطَ يَدَيْهِ إِلَى جِذْعٍ مِنْ جُذُوعِ الْمَسْجِدِ، وَعَاهَدَ اللهَ أَنْ لَا يَطَأَ بَنِي قُرَيْظَةَ أَبَدًا، وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا أَبْرَحُ مَكَانِي هَذَا حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ مِمَّا صَنَعْتُ، وَلَا يَرَانِي فِي بَلَدٍ خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيهِ.

(١) ينظر: أحمد (٢٥٠٩٧)، وابن حبان (٧٠٢٨)، والسلسلة الصحيحة (٦٧).

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ تأخرعَلَيْهِ أَبُو لُبَابَةَ: **أَمَا فَرَغَ أَبُو لُبَابَةَ مِنْ حُلَفَائِهِ؟**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدِ انْصَرَفَ مِنْ عِنْدِ الْحِصْنِ، وَمَا نَدْرِي أَيْنَ سَلَكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **وَقَدْ حَدَثَ لِأَبِي لُبَابَةَ أَمْرٌ، مَا كَانَ عَلَيْهِ؟**، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ عِنْدِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ رَأَيْتُ أَبَا لُبَابَةَ ارْتَبَطَ بِحَبْلٍ إِلَى جِذْعٍ مِنْ جُذُوعِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **لَقَدْ أَصَابَتْهُ بَعْدِي فِتْنَةٌ، وَلَوْ جَاءَنِي لَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَإِذْ فَعَلَ هَذَا فَلَنْ أُحَرِّكَهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيهِ مَا يَشَاءُ**»[(١)].

وظل أبو لبابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْبُوطًا في المسجد أَيَّامًا، وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة، أو إذا أراد أن يذهب لقضاء حاجته[(٢)].

وبقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على حاله هذا نَادِمًا، مع أنه تصرف مع بني قريظة بحُسْنِ نية ولم ينتبه إلى أنه بذلك قد أفشى سِرًّا عسكريًّا لأعداء الإسلام، وما كان ينبغي له هذا، ومع أنه لو رجع إلى النبيِّ ﷺ لَعَذَرَه واستغفر له؛ لِمَا له من رصيدٍ طيِّبٍ عنده ﷺ، فهو من أصحاب العقبة وبدر وأحد والخندق، وكان النبيُّ ﷺ يستخلفه مكانه على المدينة، إلا أنَّ التوبة الصادقة التي ظهرت عليه- في صورة ندم عجيب جعله يربط نفسه في المسجد أَيَّامًا ولا يبالي- أَنْسَتْه كلَّ ما قدم من خير، وحَوَّلَتْ إشارته بيده لبني قريظة إلى شَبَحٍ مُخِيفٍ يَتَرَاءَى له أمام عينيه، حتى أنزل الله تعالى توبته عَلَى رَسُولِه ﷺ وهو في بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وها هي تحدثنا عن ذلك، فتقول: «سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ مِنَ السَّحَرِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ: مَا يُضْحِكُكَ؟ أَضْحَكَ اللهُ سِنَّكَ، فَقَالَ: **تِيبَ عَلَى أَبِي لُبَابَةَ**، فَقُلْتُ: أَلَا أُبَشِّرُهُ يَا رَسُولَ اللهِ بِذَاكَ؟، فَقَالَ: **بَلَى إِنْ شِئْتِ**، فَقُمْتُ عَلَى بَابِ حُجْرَتِي فَقُلْتُ- وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْنَا الْحِجَابُ-: يَا أَبَا لُبَابَةَ، أَبْشِرْ، فَقَدْ تَابَ

---

(١) ينظر: الدلائل، للبيهقي (١٣٧٠- ١ ٣٧٢)، والسيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (٣/ ٩٤).
(٢) ينظر: الاستيعاب، لابن عبد البر (٤/ ١٧٤٠).

اللهُ عَلَيْكَ، فَثَارَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيُطْلِقُوهُ، فَقَالَ: لَا وَاللهِ حَتَّى يَكُونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُنِي بِيَدِهِ، فَلَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ ﷺ خَارِجًا إِلَى صَلَاةِ الصُّبْحِ أَطْلَقَهُ»[(١)].

فقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي: أَنْ أَهْجُرَ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أَصَبْتُ فِيهَا الذَّنْبَ وَأُسَاكِنَكَ، وَإِنِّي أَنْخَلِعُ مِنْ مَالِي كُلِّهِ صَدَقَةً للهِ وَلِرَسُولِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا أَبَا لُبَابَةَ، يُجْزِئُ عَنْكَ الثُّلُثُ، قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَتَصَدَّقْتُ بِالثُّلُثِ»[(٢)].

وقد قيل: إنَّ الله أنزل في حادثة أبي لبابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع قريظة قرآنًا تتعلم منه الأمة إلى يوم القيامة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧][(٣)].

مكانتُه العلميةُ بينَ الصحابةِ والتابعينَ

قد كانت لأبي لبابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مواقف مع بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تبين مكانته العلمية لديهم، ومن أشهرها: ما في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ عَلَى المِنْبَرِ يَقُولُ: **اقْتُلُوا الحَيَّاتِ، وَاقْتُلُوا ذَا الطُّفْيَتَيْنِ وَالأَبْتَرَ**[(٤)]**، فَإِنَّهُمَا يَطْمِسَانِ البَصَرَ، وَيَسْتَسْقِطَانِ الْحَبَالَى**، قال: فَلَبِثْتُ لَا أَتْرُكُ حَيَّةً أَرَاهَا إِلَّا قَتَلْتُهَا، فَبَيْنَا أَنَا أُطَارِدُ حَيَّةً يَوْمًا مِنْ ذَوَاتِ الْبُيُوتِ، مَرَّ بِي زَيْدُ بْنُ الْخَطَّابِ، وأَبُو لُبَابَةَ بْنُ عَبدِ الْمُنْذِرِ البَدْرِيُّ، فَنَادَانِي أَبُو لُبَابَةَ، فَقَالَ: مَهْلًا يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَقْتُلْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمَرَ بِقَتْلِهِنَّ، فقَالَ: إِنَّهُ نَهَى بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ ذَوَاتِ

---

(١) ينظر: دلائل النبوة، للبيهقي (١٣٧٣)، والسنن الكبرى، للبيهقي (١٣٥٢٩).

(٢) ينظر: أحمد (١٥٧٥٠)، والحاكم (٦٦٥٨)، وسنن أبي داود (٣٣١٩).

(٣) ينظر: أسباب النزول، للسيوطي (ص١٧٢)، وأسباب النزول، للواحدي (١٨٤)، وعليه أكثر المفسرين.

(٤) جِنْسٌ مِنْ الْحَيَّاتِ يَكُونُ عَلَى ظَهْرِهِ خَطَّانِ أَبْيَضَانِ، والأَبْتَر: الْحَيَّةُ الْقَصِيرَةُ، أو الْقَصِيرَةُ الذَّنَب، أو مَقْطُوعَةُ الذَّنَبِ. ينظر: فتح الباري (١٠/ ٨٢).

الْبُيُوتِ، وَهِيَ الْعَوَامِرُ، وَأُمِرَ بِقَتْلِ الْأَبْتَرِ، وَذِي الطُّفْيَتَيْنِ؛ فَإِنَّهُمَا اللَّذَانِ يَخْطِفَانِ الْبَصَرَ، وَيَطْرَحَانِ مَا فِي بُطُونِ النِّسَاءِ»(١).

وقد كان طلاب العلم من التابعين يأتون أبا لبابة في بيته ليحدثهم بما سمع من رسول الله ﷺ، فعَنْ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ الْوَرْدِ قَالَ: «سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ يَقُولُ: قَالَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ أَبِي يَزِيدَ: مَرَّ بِنَا أَبُو لُبَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَاتَّبَعْنَاهُ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، فَإِذَا رَجُلٌ رَثُّ الْبَيْتِ، رَثُّ الْهَيْئَةِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**، فَقُلْتُ لِابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، أَرَأَيْتَ إِذَا لَمْ يَكُنْ حَسَنَ الصَّوْتِ؟ قَالَ: يُحَسِّنُهُ مَا اسْتَطَاعَ»(٢).

وفي قوله عن أبي لبابة «فَإِذَا رَجُلٌ رَثُّ الْبَيْتِ، رَثُّ الْهَيْئَةِ» بَيَانٌ لتواضع مسكنه وتواضع ملبسه، وهذا لا يتعارض مع حُسْن السَّمْتِ الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم، فإنك ربما ترى إنسانًا يَلْبَسُ ثِيَابًا متواضعة ومع ذلك تراه حَسَنَ الهيئة، وهكذا كان هَدْيُ النُّبُوَّةِ، فقد قال رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الْهَدْيَ الصَّالِحَ، وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ، وَالِاقْتِصَادَ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»(٣).

مِن آياتِ النبوةِ في حياةِ أبي لُبابةَ

لما ولدت لُبَابَةُ بِنْتُ أبي لبابة عبدَ الرحمن بنَ زيد بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كاد أبو لبابة أن يطير فرحًا بحفيده، وأخذه في كنفه، وقد لَفتَ صِغَرُ حَجمِ المولود انتباهَ أبي لبابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فذهب به إلى النبيِّ ﷺ، فلما رآه رسولُ الله ﷺ قال: «ما هذا معك يا ابا لبابة؟»، فقال: ابنُ ابنتي يا رسول الله، ما رأيتُ مولودًا قط أصغرَ خِلْقَةً منه، فحنكه

(١) ينظر: البخاري (٣٢٩٨)، ومسلم (٢٢٣٣).
(٢) أخرجه أبو داود (١٤٧١)، والبيهقي في الكبرى (٢٢٥٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٥١).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٦١)، وأحمد (٢٦٩٨)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٩٩٣).

رسولُ الله ﷺ، ومسح على رأسه، ودعا فيه بالبركة، فما رُئيَ عبدَ الرحمن بنَ زيد مع قوم في صفٍّ إلا برعهم طولًا»[1].

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعد حياة طويلة عاشها أَبُو لُبَابَةَ رضي الله عنه في صحبة رسول الله ﷺ وخلفائه رضي الله عنهم يقف به قطار العمر في محطته الأخيرة، فينام على فراش الموت، ثم يرتحل من الدنيا إلى أول منازل الآخرة؛ ليلحق بمن سبقه من الأنصار والمهاجرة.

وكانت وفاته في خلافة عثمان، وقيل في خلافة عليٍّ، وقيل: في زمن معاوية رضي الله عنهم جميعًا[2].

رضي اللهُ عن أبي لبابةَ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) ينظر: تاريخ دمشق (١٤/ ٢٥٨)، والاستيعاب (٢/ ٨٣٣)، وتهذيب الأسماء (٦/ ١٨٠).

(٢) ينظر: الإصابة (٧/ ٢٨٩)، وأسد الغابة (٦/ ٢٦٠)، وتاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١٩٦).

أبُو أُمامةَ البَاهِليّ

آخرُ من ماتَ من الصحابةِ بالشامِ

جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: «يَا رَسُولَ الله، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ: **مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»[(١)]، وها نحن على موعد مع صحابي جليل طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ. إنه الصحابي العابد الزاهد المجاهد أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اسمُه ونَسَبُه وكنيته وإسلامُه

هو صُدَيُّ بْنُ عَجْلَانَ بْنِ وَهْبِ، الْبَاهِلِيُّ، وكنيته: أَبُو أُمَامَةَ[(٢)].

ولم تُسْعِفنا المصادر بذكر قصة إسلام أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أو متى أسلم، أو متى كان أول لقاء بينه وبين رسول الله ﷺ، ولكن الذي يظهر من استقراء سيرته في كتب التراجم ورواياته في كتب الحديث: أنه كان رجلًا شابًّا قويَّ البُنيان أثناء صحبته لرسول الله ﷺ، فقد أخبر: أنه شهد مع النبيِّ ﷺ حجة الوداع فقال له رجل: «فَمِثْلُ مَنْ أَنْتَ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَنَا- يَا ابْنَ أَخِي- يَوْمَئِذٍ ابْنُ ثَلَاثِينَ سَنَةً، أُزَاحِمُ الْبَعِيرَ أُدَحْرِجُهُ قُرْبًا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ»[(٣)]، وقد أخرج الطبراني ما يدلُّ على أنه شهد غزوة أُحُد، ولكن بسند ضعيف[(٤)].

ومع ذلك فقد أذهلنا أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِبَصْمَتِهِ في نشر دين الله تعالى، والجهاد في

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٥١٨)، والترمذي (٢٣٣٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٧).

(٢) ينظر: التاريخ الكبير، للبخاري (٤/ ٣٢٦)، والاستيعاب (٢/ ٧٣٦)، ومعرفة الصحابة (٣/ ١٥٣٦)، والسير (٣/ ٣٦٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٢٥٨)، والحاكم (١٤٣٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٨٦٧).

(٤) ذكره ابن حجر في الإصابة (٣/ ٣٤٠).

سبيله، والتبليغ عن رسوله ﷺ، فمَنْ يَطوف في بستان سيرته سيراه بين يدي رسول الله ﷺ مُتعلمًا مُتأدبًا، وعلى المنابر وفي الحلقات خطيبًا وواعظًا ومُعلمًا، وفي ميادين الجهاد مقاتلًا، وبين طرفي النهار صائمًا، فترتسم أمام عيني الناظر شمولية المسارعة إلى مرضاة الله في حياة أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قبيلةٌ بَاهِلة تُسْلِمُ على يَدَيه

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ إِلَى قَوْمِي بَاهِلَةَ أَدْعُوهُمْ إِلَى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَعْرِضُ عَلَيْهِمْ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ، فَأَتَيْتُهُمْ وَقَدْ سَقُوا إِبِلَهُمْ، وَأَحْلَبُوهَا وَشَرِبُوا، فَلَمَّا رَأَوْنِي قَالُوا: مَرْحَبًا بِالصُّدَيِّ بْنِ عَجْلانَ، ثم قَالُوا: بَلَغَنَا: أَنَّكَ صَبَوْتَ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، قُلْتُ: لَا، وَلَكِنْ آمَنْتُ بِالله وَبِرَسُولِهِ، وَبَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْكُمْ أَعْرِضُ عَلَيْكُمُ الْإِسْلَامَ وَشَرَائِعَهُ.

قال: فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ جَاءُوا بِقَصْعَةٍ دَمٍ فَوَضَعُوهَا وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهَا يَأْكُلُوهَا، فَقَالُوا: هَلُمَّ يَا صُدَيُّ، فَقُلْتُ: وَيْحَكُمْ، إِنَّمَا أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ مَنْ يُحَرِّمُ هَذَا عَلَيْكُمْ بِمَا أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ، قَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟، قُلْتُ: نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]، فَجَعَلْتُ أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَيَأْبُونَ، فَكَذَّبُونِي وَزَبَرُونِي(١).

فَقُلْتُ لَهُمْ: ايْتُونِي بِشَيْءٍ مِنْ مَاءٍ؛ فَإِنِّي شَدِيدُ الْعَطَشِ، قَالُوا: لَا، وَلَكِنْ نَدَعُكَ تَمُوتُ عَطَشًا، قَالَ: فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا جَائِعٌ ظَمْآنُ قَدْ نَزَلَ بِي جَهْدٌ شَدِيدٌ، فَاعْتَمَمْتُ وَضَرَبْتُ رَأْسِي فِي الْعِمَامَةِ وَنِمْتُ فِي الرَّمْضَاءِ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ.

---

(١) أي: نهروني. ينظر: لسان العرب (٤/ ٣١٥).

فَأَتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي بِقَدَحِ زُجَاجٍ لَمْ يَرَ النَّاسُ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَفِيهِ شَرَابٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَرَ النَّاسُ أَلَذَّ مِنْهُ، فَأَمْكَنَنِي مِنْهَا، فَشَرِبْتُ وَرَوَيْتُ، وَعَظُمَ بَطْنِي، فَحَيْثُ فَرَغْتُ مِنْ شَرَابِي اسْتَيْقَظْتُ، وَلَا وَاللهِ مَا عَطِشْتُ وَلَا عَرَفْتُ عَطَشًا بَعْدَ تِلْكَ الشَّرْبَةِ.

فَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: أَتَاكُمْ رَجُلٌ مِنْ مِنْ خِيَارِكُمْ وَأَشْرَافِكُمْ فَرَدَدْتُمُوهُ، فَاذْهَبُوا إِلَيْهِ فَأَطْعِمُوهُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مَا يَشْتَهِي.

قال: فَأَتَوْنِي بِطَعَامٍ، فقُلْتُ: لَا حَاجَةَ لِي فِي طَعَامِكُمْ وَشَرَابِكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَطْعَمَنِي وَسَقَانِي، فانظروا إِلَى الْحَالِ الَّتِي أَنَا عَلَيْهَا، فَأَرَيْتُهُمْ بَطْنِي، فَنَظَرُوا فَأَسْلَمُوا عَنْ آخِرِهِمْ»[١].

من وصَايا النَّبيِّ ﷺ لأبي أُمَامةَ

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «رَآنِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أُحَرِّكُ شَفَتَيَّ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ يَا أَبَا أُمَامَةَ؟، قُلْتُ: أَذْكُرُ اللهَ رَبِّي، فقَالَ ﷺ: **أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ** - أو: **أَفْضَلَ** - **مِنْ ذِكْرِكَ اللَّيْلَ مَعَ النَّهَارِ، وَالنَّهَارَ مَعَ اللَّيْلِ؟ أَنْ تَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَقُولُ: الْحَمْدُ للهِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَأَعْظِمْ ذَلِكَ، ثم قَالَ: تُعَلِّمُهُنَّ عَقِبَكَ مِنْ بَعْدَكَ**»[٢].

وعاش أَبُو أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مع هذا الذِّكر الجامع فاستعذب العبادة، وشرح الله لها صدره، فذهب إلى النبيِّ ﷺ ليدلَّه على باب آخر من أبواب الخير، فعَنْ رَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ أَنَّ أبا أمامة قال: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فقال ﷺ: **عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ**، قَالَ رَجَاءٌ بْنُ حَيْوَةَ: فَمَا رُئِيَ

---

(١) ينظر: مستدرك الحاكم (٦٧٠٥)، والمعجم الكبير، للطبراني (٩٩٠٨)، والسلسلة الصحيحة (٢٧٠٦).

(٢) ينظر: مسند أحمد (٢٢١٤٤)، وابن حبان (٨٣٠)، والمعجم الكبير (٧٩٣٠)، وصحيح الجامع (٢٦١٥).

أَبُو أُمَامَةَ، وَلَا امْرَأَتُهُ، وَلَا خَادِمُهُ إِلَّا صُيَّامًا، فَكَانَ إِذَا رُئِيَ فِي دَارِهِمْ دُخَانٌ بِالنَّهَارِ، قِيلَ: اعْتَرَاهُمْ ضَيْفٌ نَزَلَ بِهِمْ»(١).

وأصبحت نفسُ أبي أمامة الذاكر الصوَّام تَتُوق لكل ما يقربها إلى الله تعالى، ولأنه يعلم أن أعلم الناس بطرق الوصول إلى الله هو رسوله ﷺ انطلق إليه ليسأله عن عمل آخر يقطع به الطريق سريعًا إلى الله، وها هو أبو أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثم أَتَيْتُهُ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمَرْتَنَا بِالصِّيَامِ، فَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ بَارَكَ اللهُ لَنَا فِيهِ، فَأَخْبِرْنَا بِعَمَلٍ آخَرَ نَسْتَقِيمُ عَلَيْهِ وَنَعْمَلُهُ، فقال ﷺ: **عَلَيْكَ بِالسُّجُودِ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ لله سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَ اللهُ لَكَ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً**»(٢).

وهكذا تأثر أبو أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بوصايا النبيِّ ﷺ له، فكان إذا طلع الفجر حَلَّقَتْ روحُه عن الدنيا بعيدًا في رحاب الصائمين، وإذا تَنَفَّسَ الصبحُ يَلْهَجُ لسانُه مع الذاكرين، وإذا جَنَّ الليلُ خَرَّ بين يدي ربه في الساجدين، فما أطيب هذا العيش، وما أجمل لحظات تلكم الحياة، إنها لَذَّةٌ لا يعرفها إلا من ذاقها.

حُبُّه للشهادةِ في سبيلِ الله

إن شخصيةً كأبي أُمَامَة تسعى بقلبها وجَوارحها نحو كل ما يقربها من الله تعالى إذا مَرَّ على مسامعها قول ربها: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩- ١٧٠]، أو غير ذلك مما أعدَّه الله للشهداء من نعيم، لا شك أن هذه الشخصية ستحلُمُ بالشهادة وتَتُوق إليها.

---

(١) ينظر: أحمد (٢٢١٤٠، ٣٢١٤٩)، والنسائي (٢٢٢٠)، والحاكم (١٥٣٣)، والسلسلة الصحيحة (١٩٣٧).

(٢) ينظر: مسند أحمد (٢٢١٤٠)، والمعجم الكبير، للطبراني (٨١٠)، والسلسلة الصحيحة، للألباني (١٩٣٧).

وبالفعل عاش أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحْلُمُ بذلك، فكان كلما علم أن النبيَّ ﷺ يُجهز جيشًا لغزوة يكون من أوائل جند الله فيه، ثم ينطلق إلى النبيِّ ﷺ يسأله أن يدعو الله له بالشهادة، فها هو ذا يقول: «أَنْشَأَ رَسُولُ الله ﷺ جَيْشًا، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، ادْعُ الله لِي بِالشَّهَادَةِ، قَالَ: **اللَّهُمَّ سَلِّمْهُمْ وَغَنِّمْهُمْ**، فَغَزَوْنَا فَسَلِمْنَا وَغَنِمْنَا، ثم أَنْشَأَ رَسُولُ الله ﷺ غَزْوًا ثَانِيًا، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، ادْعُ الله لِي بِالشَّهَادَةِ، فَقَالَ: **اللَّهُمَّ سَلِّمْهُمْ وَغَنِّمْهُمْ**، فَسَلَّمْنَا وَغَنِمْنَا، ثم أَنْشَأَ غَزْوًا ثَالِثًا، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي أَتَيْتُكَ مَرَّتَيْنِ قَبْلَ مَرَّتِي هَذِهِ، فَسَأَلْتُكَ أَنْ تَدْعُوَ اللهَ لِي بِالشَّهَادَةِ، فَدَعَوْتَ اللهَ أَنْ يُسَلِّمَنَا وَيُغَنِّمَنَا فَسَلِمْنَا وَغَنِمْنَا، يَا رَسُولَ الله فَادْعُ الله لِي بِالشَّهَادَةِ، فَقَالَ: **اللَّهُمَّ سَلِّمْهُمْ وَغَنِّمْهُمْ**، قَالَ: فَسَلِمْنَا وَغَنِمْنَا»(١).

وكأنَّ النبيَّ ﷺ ينظر بالوحي إلى ما وراء ستور الغيب فيرى أنَّ الله تعالى لم يكتب لأبي أمامة أن يُقتل أثناء قتاله في سبيل الله، وهذا ليس نقصًا في أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولكنها حِكمةُ الله، وحاله في هذا كحال كثير من الصحابة العظماء الذين أفنوا حياتهم في الجهاد، ولم يُرْزَقوا الشهادة، ومع ذلك فقد فتح النبيُّ ﷺ باب الأمل لكل من أراد أن يُدرك منزلة الشهداء، وإن مات على فراشه، وذلك في قوله ﷺ: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ**»(٢).

أنت منِّي، وأنا منكَ

وإن لم يُسْتَشْهَدْ أبو أُمَامَةَ في مواطن الجهاد التي شهدها فَحَسْبُهُ أنه أحد المؤمنين الذين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقد خرج أبو أمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع النبيِّ ﷺ وأصحابه في السنة السادسة من

(١) ينظر: أحمد (٢٢١٤٠)، وابن حبان (٣٤٢٥)، وصحيح موارد الظمآن، للألباني (٧٦٩).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٩).

الهجرة قاصدين مكة للعمرة، فاعترضتهم قريش ومنعتهم دخول مكة، فأرسل إليهم النبيُّ ﷺ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليفاوضهم ويخبرهم: أن النبيَّ ﷺ لم يَجِئ لقتال، وإنما جاء للعمرة، فأُشيع بين المسلمين أن قريشًا قتلت عثمان، فجلس النبيُّ ﷺ تحت شجرة وبسط يده ليبايعه أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على قتال قريش(١)، وكان من المسارعين لتلك البيعة البطل المقدام أبو أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونزل في هذه البيعة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، فبشَّرهم النبيُّ ﷺ فقال: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»(٢)، فكان أبُو أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول للنبيِّ ﷺ: «يا رسول الله، أنا مِمَّن بايعك تحت الشَّجرة، فقال له النبيُّ ﷺ: **أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ**»(٣)، فهنيئًا لك يا أبا أمامة.

النبيُّ ﷺ يَدعو لأبي أُمامةَ وأصحابه

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى عَصًا، فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ قُمْنَا، فَقَالَ: **لَا تَفْعَلُوا كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ فَارِسَ بِعُظَمَائِهَا**، قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، لَوْ دَعَوْتَ الله لَنَا، قَالَ: **اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، وَارْضَ عَنَّا، وَتَقَبَّلْ مِنَّا، وَأَدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَنَجِّنَا مِنَ النَّارِ، وَأَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ**، قَالَ: فَكَأَنَّمَا أَحْبَبْنَا أَنْ يَزِيدَنَا، فَقَالَ: **أَوَلَيْسَ قَدْ جَمَعْتُ لَكُمُ الْأَمْرَ؟!**»(٤).

---

(١) حديث إشاعة مقتل عثمان أخرجه أحمد (١٨٩١٠)، وحسَّنه الأرناؤوط.
(٢) أخرجه أحمد (١٤٨٢٠)، والترمذي (٢٨٦٠)، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢١٦٠).
(٣) ينظر: الإصابة، لابن حجر (٣/ ٣٤١)، وتاريخ دمشق، لابن عساكر (٣٤/ ٦١).
(٤) أخرجه أحمد (٢٢١٨١)، وابن ماجه (٣٨٣٦)، واللفظ له.

حب النبيِّ ﷺ لأبي أُمَامَةَ

من الطبيعي أن يُحبَّ المؤمنُ رسولَ الله ﷺ، بل لا يكتمل الإيمان إلا بذلك، فقد قال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(١)، وفي رواية: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ، وَأَهْلِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(٢).

ولكن ماذا لو أحبك رسولُ الله ﷺ وأظهر لك مودَّتَه؟ فحَريٌّ بك- حينئذٍ- أن يَطير قلبُك من بين جنبيك فرحًا.

فهيا بنا نستمع لأبي أمامة رَضِوَٱللَّهُعَنهُ وهو يخبرنا بعلامة حُبِّ النبيِّ ﷺ له، وهو يقول: «أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: **يَا أَبَا أُمَامَةَ، إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَلِينُ لَهُ قَلْبِي**»(٣)، فهنيئًا ليدٍ أمسكتها يدُ رسول الله ﷺ، وطوبى لأُذُنٍ سمعت هذا من فمه ﷺ، وقد جاء في رواية أخرى بلفظ: «**يَا أَبَا أُمَامَةَ، إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَلِينُ لِي قَلْبُهُ**»(٤)، فيا سعادة قلبٍ لانَ لرسول الله ﷺ، ويا هناء عبدٍ لان له قلبُ رسول الله ﷺ، وهكذا العبد المؤمن كما أخبر رسول الله ﷺ: «**يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ**»(٥).

صفحاتٌ من بطولاتِه في فتوحاتِ الإسلامِ

وبعد موت رسول الله ﷺ عَزَمَ الرومُ على قتال المسلمين، فَوَجَّهَ الخليفةُ أبو بكر الصديق رَضِوَٱللَّهُعَنهُ جيوشَه نحو الشام لقتالهم، وكان أَحَدُ هذه الجيوش الزاحفة جيشًا

---

(١) أخرجه البخاري (١٥).
(٢) أخرجه مسلم (٤٤).
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٦٥٥)، وينظر: السلسلة الصحيحة (٣٤٧٠).
(٤) أخرجه أحمد (٢٢٢٩٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٤٧٠).
(٥) ينظر: أحمد (٩١٨٧)، والحاكم (٥٩)، والصحيحة (٤٢٦).

يقوده يزيد بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أَهَمِّ أمراء هذا الجيش.

وكانت أعداد الروم هائلة، وجيوشهم في بلاد الشام متناثرة، وكان أول قتال في هذه المعارك على أرض فلسطين بقيادة أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث اجْتَمَعَت بعضُ جيوش الروم ببلدة يقال لها: الْعَرَبَة مِنْ أَرْضِ فِلَسْطِينَ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ أَبَا أُمَامَةَ الْبَاهِلِيَّ فَهَزَمَهُمْ، فَكَانَ هذا أَوَّلَ قِتَالٍ بِالشَّامِ بَعْدَ سَرِيَّةِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم أَتَوُا الدَّائِنَ فَهَزَمَهُمْ أَبُو أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هناك- أيضًا- وقتلَ بعض عظمائهم[1].

وبعد انتصار المسلمين في معركة اليرموك تحرك الجيشُ الإسلاميُّ الفاتحُ بقيادة أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- آنذاك- لفتح دمشق، فنزلوا بمكان يقال له: مَرْج الصُّفَّرِ، فأرسل أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سريةً استكشافية عددها ثلاثة نفر فقط من رجال المهمات والعمليات الخاصة يقودها البطل أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فانطلقوا متسللين نحو أسوار دمشق، وأمر أبو أمامة صاحبيه أن يختبئا في مكانين مختلفين ببعض الطريق، وكانت خطته أن يتسلل وحده نحو أبواب الحصن، فإن كُشِفَ أمْرُه ولاحقه الروم قام صاحباه من المخابئ يرمونهم بالسهام، فيظنون أنه كَمِينٌ لهم فيرجعون عن أبي أمامة.

فيا تُرى ماذا صنعَ أبُو أُمامةَ؟

يُحدثنا عن ذلك بنفسه فيقول: «... وسرت أَنَا وَحْدِي حَتَّى جِئْتُ بَابَ الْبَلَدِ وَهُوَ مُغْلَقٌ فِي اللَّيْلِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ أَحَدٌ، فَنَزَلْتُ وَغَرَزْتُ رُمْحِي بِالْأَرْضِ وَنَزَعْتُ لِجَامَ فَرَسِي، وَعَلَّقْتُ عَلَيْهِ مِخْلَاتَهُ وَنِمْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ قُمْتُ فَتَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ الْفَجْرَ، فَإِذَا بَابُ الْمَدِينَةِ يُقَعْقِعُ فَلَمَّا فُتِحَ حَمَلْتُ عَلَى الْبَوَّابِ فَطَعَنْتُهُ بِالرُّمْحِ فَقَتَلْتُهُ، ثم رَجَعْتُ وَالطَّلَبُ وَرَائِي، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي فِي الطَّرِيقِ مِنْ أَصْحَابِي ظَنُّوا

(١) ينظر: تاريخ الطبري (٣/ ٤٠٦)، والكامل في التاريخ، لابن الأثير (٢/ ٢٥٠).

أَنَّهُ كَمِينٌ، فَرَجَعُوا عَنِّي، ثم سِرْنَا حَتَّى أَخَذْنَا الْآخَرَ، وَجِئْتُ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا رَأَيْتُ، فَأَقَامَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَنْتَظِرُ كِتَابَ عُمَرَ فِيمَا يَعْتَمِدُهُ مِنْ أَمْرِ دِمَشْقَ، فَجَاءَهُ الْكِتَابُ يَأْمُرُهُ بِالْمَسِيرِ إِلَيْهَا، فَسَارُوا إِلَيْهَا حَتَّى أَحَاطُوا بِهَا[١]، ثم فتحها الله جَلَّ وَعَلَا.

ثُمَّ تحوَّلَ أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع جيش المسلمين لفتح القدس وضَمِّ المسجد الأقصى إلى رحاب الإسلام، ثم تَوَجَّهَ مع عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لفتح مصر، فكان أحدَ من حملوا نور الإسلام ليضيء أرضها، ويسطعَ في قلوب أهلها، وقد سكن أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مصر زَمَنًا، ثم تَحول منها إلى الشام ليستقر بها وَيَبُثَّ علومَ الشريعة فيها[٢].

أثرُهُ الدَّعويُّ بعدَ مَوتِ النبيِّ ﷺ

وعاش أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منذ أن أسلم ملازمًا للنبيِّ ﷺ كظله، حتى أَخَذَ عنه علمًا كثيرًا، وبعد موت رسول الله ﷺ حَمَلَ أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على عاتقه أمانة التبليغ عن رسول الله ﷺ عملًا بقوله ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[٣]، حتى قالوا عنه -من شدة حرصه على ذلك-: «كَانَ أَبُو أُمَامَةَ يُحَدِّثُ الْحَدِيثَ كَالرَّجُلِ الَّذِي عَلَيْهِ يُؤَدِّي مَا سَمِعَ»[٤]، فكان يَعْقِدُ المجالس ليُحَدِّث فيها بما سمعه، أو رآه، أو بَلَغَه عن رسول الله ﷺ، وكان يُحَمِّلُ السامعين أمانة التبليغ من بعده، فيقول لهم: «إِنَّ هَذِهِ الْمَجَالِسَ مِنْ بَلاغِ الله إِيَّاكُمْ، وَحُجَته عليكم، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قد بَلَّغَ مَا أُرْسِلَ بِهِ إِلَيْنَا، وأَمَرَنا أَنْ نُبَلغكم ذلك عنه، ألا وقد فَعَلنا، فَبَلِّغُوا عَنَّا أَحْسَنَ مَا تَسْمَعُونَ»[٥].

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ١٦)، وتاريخ دمشق (٣٤/ ٥٨).
(٢) ينظر: الاستيعاب (٢/ ٧٣٦)، والسير (٣/ ٣٦١)، وأسد الغابة (٦/ ١٤)، وتاريخ دمشق (٣٤/ ٥٨).
(٣) أخرجه البخاري (٣٤٦١).
(٤) الطبقات الكبرى (٧/ ٣٨٩).
(٥) ينظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٣٨٨)، ومعرفة الصحابة (٣/ ١٥٣٧)، وأسد الغابة (٣/ ١٥).

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لتلامذته: «حَبِّبُوا اللهَ إِلَى النَّاسِ يُحِبَّكُمُ اللهُ»[(١)].

وكان أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا حَدَّثَ بشيء عن رسول الله ﷺ أصبح أول العاملين به، ولقد رأينا مثال ذلك في حاله مع حديث الصيام، وكان مما يُحَدِّثُ به عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالله، مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ»[(٢)]، فكان أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخرج من بيته ليُسَلم على من لَقيَه عملًا بهذا الحديث، حتى قال مُحَمَّد بْن زِيَادٍ الْأَلْهَانِيُّ: «كُنْتُ آخُذُ بِيَدِ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلا يَمُرُّ بأحدٍ إلاَّ سَلَّمَ عليه، فَمَا عَلِمْتُ أَحَدًا سَبَقَهُ بِالسَّلَامِ، فإذا انتهى إلى باب داره التفَتَ إليَّ، ثم قال: أَيْ ابن أخي، أمرنا نبينا ﷺ أنْ نُفْشيَ السلام»[(٣)].

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا تَبدو أمامه فُرصة سانِحة لتبليغ ما سمعه من رسول الله ﷺ إلا اغتنمها، ومن أمثلة ذلك: ما أخبر به خَالدُ بْنُ مَعْدَانَ إذ قال: «شَهِدْتُ وَلِيمَةً فِي مَنْزِلِ عَبْدِ الْأَعْلَى وَمَعَنَا أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا أَنْ فَرَغْنَا مِنَ الطَّعَامِ قَامَ فَقَالَ: مَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ خَطِيبًا، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ عِنْدَ فَرَاغِهِ مِنَ الطَّعَامِ يَقُولُ: **الْحَمْدُ لله كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مُوَدَّعٍ، وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ**»[(٤)]، ولم تقتصر دعوةُ أبي أمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على تبليغ الحديث النبوي فقط، بل كان واعظًا بليغًا تلينُ بموعظته القلوب، وسأقطف لك الآن زهرة من بستانه تستنشق بقلبك عبيرها.

قال سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: «خَرَجْنَا فِي جِنَازَةٍ عَلَى بَابِ دِمَشْقَ وَمَعَنَا أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ، فَلَمَّا صُلِّيَ عَلَى الْجِنَازَةِ وَأَخَذُوا فِي دَفْنِهَا قَالَ أَبُو أُمَامَةَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ قَدْ

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٤/ ٧٣)، وصحَّحه الألباني في الضعيفة (١٢١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٢٤٦)، وأبو داود (٥١٩٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٣٨٢).

(٣) ينظر: المعجم الكبير (٧٥١٨)، وشعب الإيمان (٨٤١٩)، وتاريخ دمشق (٣٤/ ٥٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٤٥٦)، وصحَّحه، وكذلك الحاكم (٧١٩١)، واللفظ له.

أَصْبَحْتُمْ وَأَمْسَيْتُمْ فِي مَنْزِلٍ تَقْتَسِمُونَ فِيهِ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَتُوشِكُونَ أَنْ تَظْعَنُوا مِنْهُ إِلَى الْمَنْزِلِ الْآخَرِ، وَهُوَ هَذَا- يُشِيرُ إِلَى الْقَبْرِ- بَيْتُ الْوَحْدَةِ، وَبَيْتُ الظُّلْمَةِ، وَبَيْتُ الدُّودِ، وَبَيْتُ الضِّيقِ إِلَّا مَا وَسَّعَ اللهُ، ثم تُنْقَلُونَ مِنْهُ إِلَى مَوَاطِنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّكُمْ لَفِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ حَتَّى يَغْشَى النَّاسَ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ فَتَبْيَضُّ وُجُوهٌ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، ثم تَنْتَقِلُونَ مِنْهُ إِلَى مَنْزِلٍ آخَرَ، فَيَغْشَى النَّاسَ ظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ، ثم يُقْسَمُ النُّورُ، فَيُعْطَى الْمُؤْمِنُ نُورًا، وَيُتْرَكُ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ، فَلَا يُعْطَيَانِ شَيْئًا، وَهُوَ الْمَثَلُ الَّذِي ضَرَبَ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وَلَا يَسْتَضِيءُ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ بِنُورِ الْمُؤْمِنِ، كَمَا لَا يَسْتَضِيءُ الْأَعْمَى بِبَصَرِ الْبَصِيرِ، يَقُولُ الْمُنَافِقُ لِلَّذِينَ آمَنُوا: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]، وَهِيَ خُدْعَةُ اللهِ الَّتِي خُدِعَ بِهَا الْمُنَافِقُ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي قَسَمَ فِيهِ النُّورَ، فَلَا يَجِدُونَ شَيْئًا، فَيَنْصَرِفُونَ إِلَيْهِمْ، ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ نُصَلِّي صَلَاتَكُمْ، وَنَغْزُو مَغَازِيَكُمْ؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٤- ١٥]»[(١)].

ولقد حَبَا الله أبا أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجَاحةً في عقله، وقوةً في حافظته، ورَزانةً في مَنْطِقِه، وأسلوبًا أخَّاذًا في عرضه للحديث وبيانه، مما جعل له مكانة بين أجيال التابعين جعلتهم يُقْبلون عليه، ويعرفون له قَدْرَه حتى بعدما بلغ من الكِبَرِ عِتِيًّا، فهذا أَحَدُ تلامذته سُلَيْمَانُ ابْنُ حَبِيبٍ يقول: «خرجتُ غازيًا، فلما مَررتُ بحمص دخلت إلى سوقها أشتري ما لا

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١٠١٥).

غَنَاءَ بالمسافر عنه، فلما نظرت إلى باب المسجد قلتُ: لو أنِّي دخلتُ فركعتُ ركعتين، فلما دخلتُ نظرتُ إلى ثابت بن معبد وابن أبي زكرياء ومكحول، فلما رأيتهم أتيتهم فجلستُ إليهم فتحدَّثنا شيئًا، ثم قال مكحول: لو قمنا إِلَى أَبِي أمامة صاحبِ رَسُول الله ﷺ فأدينا من حقه، وسمعنا منه، قال: فقمنا جميعًا حتى أتيناه، فسلمنا عليه، فرد السلام، فإذا شيخ قد رقَّ وكَبِرَ، فإذا عقله ومنطقه أجلد مما نرى من منظره، فَقَالَ مَكْحُولٌ- لَمَّا خَرَجْنَا-: لَقَدْ دَخَلْنَا عَلَى شَيْخٍ مُجْتَمِعِ الْعَقْلِ»[(١)].

قال سليمانُ: «فَرَأَى فِي سُيُوفِنَا شيئًا مِنْ حِلْيَةِ فِضَّةٍ فَغَضِبَ، وَقَالَ: لَقَدْ فَتَحَ الْفُتُوحَ قَوْمٌ مَا كَانَ حِلْيَةُ سُيُوفِهِمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَكِنِ الْآنُكُ[(٢)] وَالْحَدِيدُ وَالْعَلَابِيُّ»[(٣)(٤)].

ومن فقهه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه لما رآهم من أجناد جيش المسلمين الفاتح حدَّثهم عن رسول الله ﷺ بما ينفعهم ويناسب ما هم فيه، فعن سُلَيْمَانَ بْن حَبِيبٍ: «أنَّ أبا أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدَّثَهم أنَّ رسول الله ﷺ قال: **ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى الله** ﷻ: **رَجُلٌ خَرَجَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ الله، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى الله حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أو يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ، أو غَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ رَاحَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى الله حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخلَهُ الْجنَّةَ، أو يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجرٍ، أو غَنِيمَةٍ، وَرَجلٌ دَخلَ بَيْتَهُ بِسلَامٍ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى الله**»[(٥)].

من كراماتِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ قَالَ: حَدَّثَتْنِي مَوْلَاةُ أَبِي أُمَامَةَ قَالَتْ: «كَانَ أَبُو أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحِبُّ الصَّدَقَةَ وَيَجْمَعُ لَهَا وَمَا يَرُدُّ سَائِلًا وَلَوْ بِبَصَلَةٍ، أو بِتَمْرَةٍ، أو بشيْءٍ

---

(١) ينظر: أسد الغابة (٣/ ١٥)، وتاريخ دمشق (٢٤/ ٦٨)، وتاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١٠٢٢).

(٢) الآنُكُ هو: الرصاص، كما في النهاية (١/ ١٨٢).

(٣) الْعَلَابِيُّ: قال أبو الحسن القطان: هو: العَصَب، كما في رواية ابن ماجه (٢٨٠٧).

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٠٩)، وابن ماجه (٢٨٠٧)، واللفظ له.

(٥) أخرجه أبو داود (٢٤٩٤)، وابن حبان (٤٩٩)، وصحَّحه الألباني والأرناؤوط.

مِمَّا يُؤْكَلُ، فَأَتَاهُ سَائِلٌ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَدِ افْتَقَرَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَمَا عِنْدَهُ إِلَّا ثَلَاثَةُ دَنَانِيرَ فَسَأَلَهُ فَأَعْطَاهُ دِينَارًا، ثم أَتَاهُ سَائِلٌ فَأَعْطَاهُ دِينَارًا، ثم أَتَاهُ سَائِلٌ فَأَعْطَاهُ دِينَارًا قَالَتْ: فَغَضِبْتُ وَقُلْتُ: لَمْ تَتْرُكْ لَنَا شَيْئًا، قَالَتْ: فَوَضَعَ رَأْسَهُ لِلْقَائِلَةِ، فَلَمَّا نُودِيَ لِلظُّهْرِ أَيْقَظْتُهُ فَتَوَضَّأَ، ثم رَاحَ إِلَى مَسْجِدِهِ، فَرَقَقْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ صَائِمًا، فَتَقَرَّضْتُ وَجَعَلْتُ لَهُ عَشَاءً وَأَسْرَجْتُ لَهُ سِرَاجًا، وَجِئْتُ إِلَى فِرَاشِهِ لِأُمَهِّدَ لَهُ، فَإِذَا بِذَهَبٍ فَعَدَدْتُهَا فَإِذَا ثَلَاثُمِائَةِ دِينَارٍ، فقُلْتُ: مَا صَنَعَ الَّذِي صَنَعَ إِلَّا وَقَدْ وَثِقَ بِمَا خَلَفَ، فَأَقْبَلَ بَعْدَ الْعِشَاءِ، فَلَمَّا رَأَى الْمَائِدَةَ وَرَأَى السِّرَاجَ تَبَسَّمَ، وَقَالَ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ عِنْدِهِ، قَالَتْ: فَقُمْتُ عَلَى رَأْسِهِ حَتَّى تَعَشَّى، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ خَلَّفْتَ هَذِهِ النَّفَقَةَ سَبِيلَ مَضْيَعَةٍ، وَلَمْ تُخْبِرْنِي فَأَرْفَعْهَا، قَالَ: وَأَيُّ نَفَقَةٍ؟ مَا خَلَّفْتُ شَيْئًا، قَالَتْ: فَرَفَعْتُ الْفِرَاشَ، فَلَمَّا أَنْ رَآهُ فَرِحَ وَاشْتَدَّ تَعَجُّبُهُ، قَالَتْ: فَقُمْتُ فَقَطَعْتُ زُنَّارِي وَأَسْلَمْتُ. قَالَ ابْنُ جَابِرٍ: فَأَدْرَكْتُهَا فِي مَسْجِدِ حِمْصَ وَهِيَ تُعَلِّمُ النِّسَاءَ الْقُرْآنَ وَالسُّنَنَ وَالْفَرَائِضَ، وَتُفَقِّهُهُنَّ فِي الدِّينِ»[(١)].

لهُم البُشرَى في الحياةِ الدُّنيَا

سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عن قول الله تعالى - عن أوليائه -: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤]، فقال ﷺ: «**هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ، أو تُرَى لَهُ**»[(٢)].

فانظر إلى هذه البشارة الجميلة التي يحملها أحد تلامذة أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له.

عنْ سُلَيْم بْنِ عَامِرٍ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ، إِنِّي رَأَيْتُ فِي مَنَامِي أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْكَ كُلَّمَا دَخَلْتَ، وَكُلَّمَا خَرَجْتَ، وَكُلَّمَا قُمْتَ، وَكُلَّمَا جَلَسْتَ، قَالَ أَبُو أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللَّهُمَّ غفرًا دَعُونَا عَنْكُمْ، وَأَنْتُمْ لَوْ شِئْتُمْ صَلَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَلَائِكَةُ، ثم قَرَأَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ١٢٩)، وينظر: تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ٣١٥).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٢٧٥)، وابن ماجه (٣٨٩٨)، وصحَّحه الألباني والأرناؤوط.

وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣]»[(١)].

وحانَ وقتُ الرحيل

وبعد حياة طويلة عاشها أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ظل الإسلام رَحَلَ عن الدنيا، وترك فيها بَصْمَةً بارزةً معروفةً إلى يوم الناس هذا، فكلما رأيتَ مسلمًا من مصر، أو سوريا، أو الأردن، أو لبنان، أو فلسطين، أو سمعتَ الأذان مرفوعًا على مآذن تلك البقاع، تذكرتَ أن أبا أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان أحد مَنْ حملوا نورَ الإسلام إلى أهل هذه البلاد، فضلًا عن أنك لا تكاد تفتح كتابًا إسلاميًّا إلا وجدتَ فيه حديثًا يرويه أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقيل: إن وفاته كانت سنة إحدى وثمانين من الهجرة، ولكنَّ أكثرَ أهل العلم على أنه مات سنة سِتٍّ وثمانين[(٢)].

وقد ذكر ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه مات وله من العُمر مائة وستُّ سنين[(٣)]، وهذا هو الراجح فقد ثَبَتَ أنه حجَّ مع النبيِّ ﷺ حجة الوداع وهو ابن ثلاثين سنة[(٤)]، وكانت حجة الوداع سنة عشرٍ من الهجرة، والراجح: أنه مات بعدها بستٍّ وسبعين سنة، فيكون سِنُّه آنذاك كما ذكر ابنُ حَجَرٍ في الإصابة.

فقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المُعَمِّرين، لكنه أفنى حياته في طاعة الله، عالمًا ومُعلمًا وعابدًا ومُجاهدًا حتى أتاه اليقين، وخير الناس من طال عُمره، وحَسُنَ عملُه.

وكان موته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالشام في مدينة حمص، وقد ارتجت أرجاؤها لموته، وصلى

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٥٦٥)، والبيهقي في الدلائل (٣٠٠٧)، وصحَّحه ابن حجر في الإصابة (٣/ ٣٤١).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٧٣٦)، والسير (٤/ ٣٥٩)، والثقات (٣/ ١٩٥)، والوافي بالوفيات (١٦/ ١١٧).

(٣) ينظر: الإصابة (٣/ ٣٤٠).

(٤) ينظر: المسند (٢٢٢٥٨)، والمستدرك (١٤٣٦)، والسلسلة الصحيحة (٨٦٧).

عليه المسلمون، ثم دُفن بها، وهو آخر من مات من الصحابة بالشام[(١)].

وفي الختام: أقدم اعتذاري للصحابي العظيم أبي أمامة الباهلي على تقصيري في حقه، فقد وضعتُ في هذه الترجمة قَطَراتٍ معدوداتٍ اكتفيتُ بها من بحر سيرته العميق الواسع؛ وذلك خشية الإطالة.

رضي اللّهُ عن أبي أُمَامَةَ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) ينظر: الاستيعاب (٢/ ٧٣٦)، ومعرفة الصحابة (٣/ ١٥٣٦)، وتاريخ دمشق (٣٤/ ٥٩).

الوَليدُ بنُ الوليدِ بن المُغِيرةِ

الفدائيُّ المهاجرُ

إنَّ مِداد القلم يرسم على هذه السطور كلماتٍ تحوي في طياتها سيرة رجلٍ من العظماء، لم يَذِعْ صيتُهُ في الأنحاء، ولم تُسَلَّطْ على حياته الأضواء؛ فقد طغتْ شهرة أبيه وأخيه على شهرته، فضاعت وسط الزحام سيرتُه.

إنه الصحابيُّ الفدائيُّ المهاجر: الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اسمُه ونسبُه

هو الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، المَخْزُوميُّ، القُرَشيُّ.

وأبوه هو: الْوَلِيدُ بنُ الْمُغِيرَةِ المشرك المعروف، واختُلف في اسم أمه، فقيل: أُميمة بنتُ الوَليد بن غُشي، وقيل: آمنة، أو عاتكة بنتُ حَرْمَلة.

وأخوه لأبيه هو الصحابي الجليل، والفارس النبيل خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأمُّ خالد هي العصماء بنت الحارث أختُ لبابة بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب عم النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وابنُ عمه هو فرعون هذه الأمة ورأس الكفر في زمانه عمرو بن هشام بن المغيرة الذي أطلق عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أبا جهل[١].

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٤/ ١٢١)، والاستيعاب (٤/ ١٥٥٨)، والإصابة (٦/ ٤٨٤)، ومعرفة الصحابة (٣/ ٩٣٥).

نبذةٌ عن نشأتِه

نشأ الوليد في أحضان بيت من أعرق بيوت قريش نسبًا وشرفًا، وهم: بنو مَخْزوم، وكان أبوه سيد مكة في زمانه، ومن أكثر الناس مالًا وأعزهم ولدًا وهي حقيقةٌ شهد بها القرآنُ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر: ١١-١٢](١).

وعلى هذا شَبَّ الوليدُ يتمتع بثراء أبيه الفاحش، ويعيش بين شباب مكة حياة المترفين، إلى جنب ما يتعلمه أبناءُ النبلاء العرب من الأخلاق الحميدة والشجاعة والفروسية.

شمسُ الإسلامِ تُشرِقُ على أرضِ مكةَ

ولما أشرقت شمسُ الإسلام على أرض مكة واجهت قريشٌ النبيَّ ﷺ بعاصفة من الكفر والتكذيب، وناصَبَهُ كُبَراءُ بني مخزوم العداء كِبْرًا واستعلاءً، وقد فضح حقيقتهم أبو جهل حين قال: «وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ مَا يَقُولُ حَقٌّ، وَلَكِنَّ بَنِي قُصَيٍّ قَالُوا: فِينَا الْحِجَابَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، فَقَالُوا: فِينَا النَّدْوَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثم قَالُوا: فِينَا اللِّوَاءُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، قَالُوا: فِينَا السِّقَايَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثم أَطْعَمُوا وَأَطْعَمْنَا حَتَّى إِذَا تَحَاكَّتِ الرُّكَبُ، قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ، وَاللهِ لَا أَفْعَلُ»(٢).

وقالوا للنبيِّ ﷺ: أما وجد الله غيرك لينزل عليه هذا القرآن، فلو أراد الله ذلك لنزله على الوليد بن المغيرة عظيم مكة، أو على عروة بن مسعود الثقفي عظيم الطائف، وهذا ما سجَّله القرآنُ عنهم في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠-٣٢](٣).

---

(١) ينظر: ما أخرجه الحاكم (٣٨٧٢) بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٨٢٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح السيرة (١٦٢).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٠٦)، والبغوي (٤/ ٥١٠).

ثم أرسلوا إلى النبيِّ ﷺ كبيرَهم الوليدَ بن المغيرة ليناظره، فلما سمع كلام رسول الله ﷺ وتلا عليه القرآن العظيم وكان رجلًا فصيحًا بليغًا شاعرًا، فتذوق حلاوة الكلمات، ورقَّ قلبه حتى كاد أن يُسلم إلا أن الشيطان أبا جهل فتنه وحاد به عن الطريق، وها هو ابن عباس يقص علينا ما كان من أمر زوج خالته الوليد بن المغيرة، فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا، قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ؛ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتُعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ، قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ، أو أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ، قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ؟، فَوَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمُ بِرَجَزِهِ وَلَا بِقَصِيدِهِ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شيئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ، قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ، فقَالَ الوليد: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ [المدثر: ١١-٢٧]»[1].

وكأني ببطل قصتنا: الوليد بن الوليد وهو في حَيْرةٍ عند رؤيته لأبيه وهو يُؤثرُ الباطل على الحق المُبين الذي رآه وسمعه.

(١) أخرجه الحاكم (٣٨٧٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح السيرة (١٥٩).

وكأني بسؤال يتردد بداخله وهو في صَمْتٍ عميق: كيف لأُناس بالأمس القريب باتوا يقولون: محمدٌ أصدقُ الناسِ وأبرُّهُم، ويلقبونه بالأمين، قد أصبحوا اليومَ يقولون عنه: ساحرٌ كذاب؟!، إنه تناقضٌ عجيب!.

وظل الوليدُ على هذا الحال، تعلوه الحَيرةُ، وتراوده التساؤلات، وهو يرى المسلمين تتزايد أعدادهم، وأقرب الناس إليه يؤمنون بمحمد ﷺ ويتَّبعونه، فهذه ابنةُ عمه هند بنتُ أبي أمية بن المغيرة (أم سلمة) وزوجُها قد أسلما، وعلم بإسلامهما، كما علم بإسلام ابن عمه سلمة بن هشام بن المغيرة، وبإسلام صاحب عمره عياش بن أبي ربيعة، وكذلك بإسلام عمرَ بن الخطاب وأخيه زيد، وكانت أمهُما ابنة عمه، وغيرهم.

وكان الوليد كلما مالَ قلبُه نحو الإسلام وجد أمامه جدارًا صُلبًا منيعًا يَصُدُّه ويمنعه متمثلًا في أبيه وأخيه وعشيرته.

ثم هلك أبوه كافرًا، وهاجر النبيُّ ﷺ والمسلمون إلى المدينة، وأقاموا على أرضها دولة الإسلام، حتى جاءت:

غزوةُ بدرٍ الكُبرَى

وقد خرج الوليدُ فيها بين صفوف المشركين لقتال المسلمين، ولم يخرجْ أخوه خالدٌ؛ لأنه بَقِي في عدد من قريش يحرسون مكة من أي غارة.

وقد نصر الله المسلمين على المشركين، وهُزِمت قريشٌ هزيمة ساحقة، ووقع الوليدُ في الأسر مع عدد من المشركين.

ومِن هنا كَانت البدايةُ

نعم- واللهِ- من هنا كانت البدايةُ حين رأى الوليدُ الإسلامَ بصورته الحقيقية متجسدًا في رحمة النبيِّ ﷺ والمسلمين بالأسرى المشركين الذين أذاقوهم في مكة ألوان العذاب، وأخرجوهم من أرضهم وأموالهم، ثم جاءوا لقتالهم، وبعد ذلك يرون

منهم رحمةً وإحسانًا عندما تَمُرُّ كلماتُ النبيِّ ﷺ الرقراقةُ على مسامع الجميع وهو يقول: «**اسْتَوْصُوا بِالْأُسَارَى خَيْرًا**»(١)، فلم يَرَوا تعذيبًا ولا إهانةً ولا توبيخًا، بل حملهم المسلمون على دوابهم ومَشَوا هم على أقدامهم، وإذا حان وقت الطعام آثروهم على أنفسهم عملًا بوصية رسول الله ﷺ(٢)، ثم يَسمعُ النبيَّ ﷺ وهو يتلو عليهم ما أنزله الله تعالى من القرآن في شأنهم في قوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ**﴾ [الأنفال: ٧٠]، فما أروعَها من صورة حَيَّةٍ مُبْهِرةٍ رسَمها النبيُّ ﷺ وأصحابُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لتُعبِّرَ وحدها عن دعوة الحق التي جاء بها الإسلام العظيم.

فذهبتْ عن الوليد الحَيْرَةُ التي كانت تراوده، وخَمَدَتْ نيرانُ الصراع التي كانت بداخله، وكأني به- عندئذٍ- يفتح بيده بوابة قلبه ليدخل الإسلامُ فيجلس فيه متربعًا بلا منازع، ولكنه بقي طيلة مدة أسْره كاتمًا إسلامَه.

وهنا يفهم الإنسان معنى قول النبيِّ ﷺ: «**عجِبَ ربُّنا من قوم يُقادُونَ إلى الجنَّة في السَّلاسِلِ**»(٣)؛ ولذلك لما قرأ أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قول الله تعالى: ﴿**كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠] قال: «خَيرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ»(٤).

خالدٌ يَفدِي الوليدَ

خرج خالد بن الوليد وأخوه هشام لفداء أخيهما الوليد، وكان هشام أخو الوليد

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩٧٧)، وحسَّنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٨٦).
(٢) ينظر: المغازي (١/ ١٩٩)، وتاريخ دمشق (٩/ ٦٧).
(٣) أخرجه البخاري (٣٠١٠)، وأحمد (٨٠١٣)، واللفظ له.
(٤) أخرجه البخاري (٤٢٨١).

لأبيه وأمه، وأبى المسلمون فداء الوليد إلا بِشِكَّةِ أبيهم الهالك الوليد بن المغيرة، وَكَانَتِ الشِّكَّةُ دِرْعًا فَضْفَاضَةً وَسَيْفًا وَبَيْضَةً، فأبى خالدٌ؛ لأنها مأثرة أبيهم، وأَخْذُها منهم سَوْءَةٌ لهم بين العرب، فقال له هشام: ألأنه ليس ابن أمك؟، واللهِ لو طلبوا فيه كذا وكذا لفعلتُ، فرجعا، ثم جاءوهم بما طلبوا، وكأنَّ الحسرة نارٌ تأكلهم.

فلما تم فداء الوليد وخرج مع أخويه رجع مُسرعًا إلى النبيِّ ﷺ فوقف بين يديه وقال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ: هَلَّا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُفْتَدَى، وَتُخْرِجَ مَأْثُرَةَ أَبِينَا مِنْ أَيْدِينَا؟، فَقَالَ له: مَا كُنْتُ لِأُسْلِمَ حَتَّى أُفْتَدَى بِمِثْلِ مَا افْتَدَى بِهِ قَوْمِي، وَلا تَقُولُ قُرَيْشٌ: إِنَّمَا اتَّبَعَ مُحَمَّدًا فِرَارًا مِنَ الْفِدَى»(١).

مِن أَسرٍ إلى أَسرٍ

وكان من دهاء خالد: أنه أعطى أخاه الوليد الأمان حتى رجع معه إلى مكة، وهناك نصب له فَخًّا فقبض عليه وسَجَنَهُ كما فُعِلَ بسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة وأبي بصير وأبي جندل وغيرهم ممن أسلم(٢).

وهكذا بعدما خرج الوليدُ من أسر المسلمين وقع في أسر المشركين، وهناك رأى الفارق بينهما واضحًا جليًّا، فقد أوثقوه وقيدوه بالسلاسل الحديدية وأهانوه وأجاعوه وعطَّشوه، وظنوا أن بشاعة تصرفهم سترده عن دينه، ولكنهم لم يعلموا أن الإيمان إذا خالطت بشاشتُه القلوب، وذاقت حلاوتَه النفوسُ أصبحتِ الدنيا بما فيها لا تساوي عند صاحبه جناح بعوضة.

هجرتُه إلى اللهِ ورسولهِ

وتحمل الوليدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تلك المُعاناةَ في سبيل الله حتى جعل الله له فرجًا ومخرجًا؛

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٤/ ٩٨).
(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٤/ ٩٨)، والسير (١/ ٣١٩)، وأسد الغابة (٥/ ٤٣٣).

فقد جاء أخوه هشام بن الوليد، فوجده في حالة يُرثى لها، فقال للقائمين عليه بنَبْرةٍ يعلوها الغضب: احذروا على نفسه، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلًا، فلما انصرف قالوا: مَنْ يُغَرَّر بهذا الخبيث، فوالله لئن أصيب في أيدينا لقُتِل أشرفُنا رجلًا، ففَكوا قيده ووثاقه وتركوه، وكان ذلك مما دفع الله به عنهم.

ثم انتهز الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقت غفلة من القوم فتسلل مستخفيًا، ثم ركب دابةً فانطلق بها في سرعة البرق نحو المدينة فرارًا إلى الله ورسوله حتى لحق برسول الله ﷺ مهاجرًا[١].

ولم يلتفت الوليدُ إلى ما خلَّفَه وراء ظهره من ثروة طائلة ورثها عن أبيه، ولم تثْنِه مكانته الرفيعة في قريش عن اللحاق بركب المؤمنين.

وعاش الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حياته الجديدة في المدينة، يرافق النبيَّ ﷺ فيها كظله، ويستأنس بصحبة المؤمنين، ولم يشعر بالغربة طرفةَ عين، ومما أعانه على ذلك: أنه نزل وسط رهط من أقاربه مثل: عمر وأخيه زيد بن الخطاب، وكذلك كان يكثر الزيارة لابنة عمه أم سلمة وزوجها أبي سلمة رضي الله عنهم جميعًا، فقد كان لهؤلاء الأثر البالغ في صنع جَوٍّ له تملؤه السعادة، وتظلل عليه سحائب الإيمان.

الوَليدُ في الأَسرِ مِن جَديدٍ

وكان النبيُّ ﷺ دائمًا مشغولًا بحال المسلمين المستضعفين المعتقلين في سجون مكة، فسأل النبيُّ ﷺ الوليدَ عن صاحبيه سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، فقال الوليدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد تركتهما- يا رسول الله- في ضيق وشدة، وهما في وثاقٍ، رِجْلُ أحدهما مع رِجْلِ صاحبه، فقال النبيُّ ﷺ- بصوت حزين-: **مَنْ لي بعياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام؟**، فقال الوليدُ: أنا لك بهما يا رسول الله، فلما رأى النبيُّ ﷺ

(١) ينظر: السيرة، لابن هشام (١/ ٣٢١)، والروض الأنف (٣/ ١١٨).

عزمه وإصراره أمَرَه أن ينزل في مكة على رجل من المسلمين قد أخفى إسلامه، فيختبئ عنده حتى إذا حانتِ الفرصة انطلق نحو صاحبيه ليخلصهما من الأسر.

وبالفعل انطلق الوليدُ نحو مكة بقلب ثابت لا تزعزعه المخاوف من بطش المشركين، فقد أصبح يحمل بين جنبيه قلبًا جديدًا لا يعرف الخوف إلا من الله رب العالمين، ولكن الله قالها- في قرآنه لعباده-: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمد: ٣١]، وإن الله بعلمه وحكمته يعطي البلاء للعبد على قدْر منسوب الإيمان في قلبه، وقد بَيَّنَ ذلك النبيُّ ﷺ في قوله: «**يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ زِيدَ فِي بَلَائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ، حَتَّى يَمْشِي عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»(١)، وقد ابتُلي الوليدُ مرة أخرى، فقد قُبِضَ عليه في مكة ووقع في الأسر من جديد.

اللهمَّ أنجِ الوليدَ بنَ الوليدَ

ولما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ حزن حزنًا شديدًا، وكان يدعو في صلاته قائلًا: «**اللهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**»(٢).

وبقي الوليدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحَبْس إلى أن استجاب الله لدعوة نبيه ﷺ، فقد استطاع الوليد أن يغري أحد سجانيه بالمال على أن يوفر له ناقة يهرب عليها، فلما هرب من محبسه تسلل في جنح الليل نحو محبس سلمة وعياش، وكانا محبوسين في غرفة لا سقف لها؛ ليحرقهم حرُّ الصيف ويقرصهم بردُ الشتاء، فتَسَوَّرَ عليهما، فأخذ مروةً(٣)

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٨١)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٩٣)، ومسلم (٢٩٥).

(٣) أي: حَجَرًا.

فوضعها تحت سلسلة الحديد التي وُثِّقَتْ بها أقدامُهما فضربها بسيف كان معه فكسرها، فكانوا يقولون لهذا السيف: (ذو المروة).

وخرج الثلاثةُ يستخفون تحت ستور الظلام نحو الناقة التي خبَّأها الرجلُ للوليد، فلما وجدوا الطريق خاليًا انطلقوا مسرعين، وقد أحسَّ الوليدُ بتعب في قدميه اللتين أجهدتهما شدة الوثاق، فأنشد قائلًا:

يَا قَدَمَيَّ أَلْحِقَانِي بِالقَوْمِ ... وَلا تَعِدَانِي كَسَلًا بَعْدَ اليَوْمِ

ولما اكتشف المشركون هروبهم أرسلوا في طلبهم نفرًا من قريش، فلم يدركوهم، والحمد لله، وقد أصيب إِصْبَعٌ في قدم الوليد إصابةً مُنْكَرة وسالت منه الدماء، فخاطبه الوليدُ قائلًا:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ ... وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ

ثم كانت وِجْهَةُ الوليد وصاحبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى جيش أبي بصير عند سِيف البحر[1].

إلى جيشِ أبي بَصِيرٍ

ويا تُرى مَنْ أبو بَصير؟ وما قصة جيشه؟

أبو بصير هو رجل من المسلمين المستضعفين الذين تم اعتقالهم في مكة منعًا من الهجرة إلى الله ورسوله، فذاق في سجونها ويلات العذاب حتى تمكن من الهرب إلى المدينة بعد صلح الحديبية في أواخر السنة السادسة من الهجرة، وقد أرسلت قريشٌ في طلبه رجلين، ففوجئ أبو بصير بأن النبيَّ ﷺ يأمره بالعودة معهما؛ وذلك لأن وثيقة الصلح بين دولة الإسلام في المدينة وقريش في مكة تَنُصُّ على أن يَرُد النبيُّ ﷺ إليهم

---

(١) ينظر: المعجم الكبير (٤١٠)، والإصابة (٦/ ٤٨٤)، والسيرة، لابن هشام (١/ ٧٤٦)، وإمتاع الأسماع (١/ ٣٠٣).

كل من فرَّ إليه من مكة، وإن كان مسلمًا، فانقاد أبو بصير لأمر رسول الله ﷺ ورجع معهما وهو يرى عن بُعْدٍ الفتنة في الدين التي تنتظره على أرض مكة، فعزم على أن لا يجعل نفسه في أيدي المشركين كالريشة في مهب الريح، فلما بلغوا ذا الحليفة قَالَ أَبُو بَصِيرٍ- لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ-: «وَاللهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلاَنُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ، فَقَالَ: أَجَلْ- وَاللهِ- إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ، ثم جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ فقتله، وَفَرَّ الآخَرُ حَتَّى أَتَى المَدِينَةَ، فَدَخَلَ المَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ رَآهُ: **لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا**، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ- وَاللهِ- صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ الله، قَدْ- وَاللهِ- أَوْفَى اللهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثم أَنْجَانِي اللهُ مِنْهُمْ، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **وَيْلُ امِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ**، فأخبر أبو بصير النبيَّ ﷺ أنه ذاهب إلى منطقة يقال لها سِيف البحر، وهي منطقة مرور قوافل قريش التجارية إلى الشام، وأصبح لا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَ معه عدد لا بأس به حتى انضم إليهم الوليدُ بنُ الوليد وصاحباه، فَوَاللهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللهِ وَالرَّحِمِ أن يرْسَلَ إلى أبي بصير وأصحابه، وأن يُدخلهم تحت حكمه»[(١)].

ورجع الوليدُ ومن معه جميعًا إلى المدينة إلا أبا بصير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقد مات قبل أن يصل.

الوليدُ يشتكي للنبيِّ ﷺ من الأرَقِ

كان الوليدُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في أول لياليه بالمدينة مُصابًا بالْأَرَقِ الذي يُذهبُ النومَ من عينيه ليلًا، فانطلق إلى النبيِّ ﷺ ليشكوَ له ذلك، فعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حَبَّانَ قَالَ:

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٢٧٣١).

«إِنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ شَكَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ الْأَرَقَ- حَدِيثُ النَّفْسِ بِاللَّيْلِ- فقال: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي أَجِدُ وَحْشَةً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: **إِذَا آوَيْتَ إِلَى فِرَاشِك، فَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ، وَعِقَابِهِ، وَمَنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَحْضُرُونَ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَضُرَّكَ، وَحَرِيٌّ أَنْ لَا يَقْرَبَكَ**»(١).

الوليدُ يدعو خالدًا للإسلامِ

كان الوليدُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حريصًا على دعوة مَنْ لم يُسلم من أهله، ومن بينهم: أخوه خالد؛ لِما يعلم من شجاعته وبأسه ورجاحة عقله، وكأنه ببصيرة المؤمن ينظر إلى المستقبل من وراء ستار الغيب ليرى في إسلام خالدٍ فتحًا ونصرًا عظيمًا، ولم يحمله ما فعله فيه خالدٌ من تعذيبٍ وصدٍّ عن سبيل الله على أن يتمنى هلاكه، وهكذا قلبُ المؤمن الحق يسعى دائمًا في الإحسان إلى من أساء إليه، ويَتُوق للعفو عمَّن ظلمه.
وجاء شهر ذي القعدة من السنة السابعة فخرج النبيُّ ﷺ وأصحابه قاصدين مكة للعمرة، وخرج الوليدُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في هذا الركب العظيم، لا للعمرة فقط، بل وليحمل الخير لأخيه خالد.

وكأني بعين الوليد عندما دخل مكة تبحث وسط الزحام عن أخيه المُعاند، ولما قضى الوليدُ عمرته التمس خالدًا فلم يجده، فكتب له رسالة بخط يده وتركها له مع رجل من أهل مكة، وكانت رسالة عجيبة، فقد كانت تحوي كلماتٍ معدوداتٍ إلا أن القلم قد سطَّرَها بمداد الحُب والإخلاص، فكانت كالروح التي نُفِخت في قلب خالدٍ ليحيى من جديد، ويبصرَ بعد العمى.

ولنترك خالدًا يحدثنا عمَّا فعلته فيه رسالة الوليد، فعن خالدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كَانَ

---

(١) ينظر: مسند أحمد (٢٣٨٣٩)، والأسماء والصفات، للبيهقي (٤٠٦).

أَخِي الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ قَدْ دَخَلَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْقَضِيَّةِ، فَطَلَبَنِي فَلَمْ يَجِدْنِي، وَكَتَبَ إِلَيَّ كِتَابًا فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ أَعْجَبَ مِنْ ذَهَابِ رَأْيِكَ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَعَقْلُكَ عَقْلُكَ، وَمِثْلُ الْإِسْلَامِ لا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ؟، وقَدْ سَأَلَنِي رَسُولُ الله ﷺ عَنْكَ فَقَالَ: **أَيْنَ خَالِدٌ؟** فَقُلْتُ: يَأْتِي اللهُ بِهِ، فَقَالَ: **مَا مِثْلُهُ جَهِلَ الْإِسْلَامَ، وَلَوْ كَانَ جَعَلَ نِكَايَتَهُ وَجِدَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَقَدَّمْنَاهُ عَلَى غَيْرِهِ**، فَاسْتَدْرِكْ يَا أَخِي مَا قَدْ فَاتَكَ، وَقَدْ فَاتَتْكَ مَوَاطِنُ صَالِحَةٌ.

فَلَمَّا جَاءَنِي كِتَابُهُ نَشَطْتُ لِلْخُرُوجِ وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ وَسَرَّنِي مَقَالَةُ رَسُولِ الله ﷺ، وَأَرَى فِي النَّوْمِ كَأَنِّي فِي بِلَادٍ ضَيِّقَةٍ جَدْبَةٍ، فَخَرَجْتُ إِلَى بِلَادٍ خَضْرَاءَ وَاسِعَةٍ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ قُلْتُ: لَأَذْكُرَنَّهَا لِأَبِي بَكْرٍ، فَذَكَرْتُهَا فَقَالَ: هُوَ مَخْرَجُكَ الَّذِي هَدَاكَ اللهُ لِلْإِسْلَامِ، وَالضِّيقُ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ الشِّرْكُ»[١].

فرحَةُ الوليدِ بإسلامِ خالدٍ

وبعدما قرأ خالدٌ رسالة الوليد عزم على الإسلام والهجرة إلى الله ورسوله، فقدم المدينة ومعه عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة قد أسلموا جميعًا، فاستقبلهم المسلمون استقبالًا حافلًا، وكما كانت عينُ الوليدِ في مكة تبحث عن خالد جاءت عينُ خالد تبحث في المدينة عن الوليد، وفجأةً برز الوليدُ الذي جاء يشتد فرحًا من بين الزحام أمام خالد، وسأتركك أيها القارئ تتصور لحظة اللقاء بينهما.

قال خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَلَقِيَنِي أَخِي، فَقَالَ: أَسْرِعْ؛ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أُخْبِرَ بِكَ فَسُرَّ بِقُدُومِكَ، وَهُوَ يَنْتَظِرُكُمْ، فَأَسْرَعْنَا الْمَشْيَ فَاطَّلَعْتُ عَلَيْهِ فَمَا زَالَ يَتَبَسَّمُ إِلَيَّ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (١٦٩٧)، وينظر: تاريخ الإسلام، للذهبي (١/ ٢٩٣)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٧٢).

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلًا رَجَوْتُ أَنْ لَا يُسْلِمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ**، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ رَأَيْتَ مَا كُنْتُ أَشْهَدُ مِنْ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ عَلَيْكَ مُعَانِدًا عَنِ الْحَقِّ، فَادْعُ اللهَ يَغْفِرْهَا لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **الْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ**، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: **اللهُمَّ اغْفِرْ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ كُلَّ مَا أَوْضَعَ فِيهِ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِكَ**، قَالَ خَالِدٌ: وَتَقَدَّمَ عَمْرٌو وَعُثْمَانُ فَبَايَعَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانَ قُدُومُنَا فِي صَفَرٍ سَنَةَ ثَمَانٍ، فَوَاللهِ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ يَوْمِ أَسْلَمْتُ يَعْدِلُ بِي أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِيمَا حَزَبَهُ»[(١)].

وهكذا كان الوليدُ سببًا في إسلام خالد؛ ليكون- إن شاء الله- كلُّ عمل صالح عمله خالد، وكل عملٍ لمسلمٍ أسلم بسبب فتوحات خالد في صحائف حسنات الوليد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ثم سَعَيَا في إسلام أخيهما هشام بن الوليد بعد ذلك[(٢)].

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة من المعاناة والجهاد في سبيل الله ينام الوليدُ بنُ الوليدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على فراش الموت، فيدخل عليه النبيُّ ﷺ ليعوده، فيقول له الوليد: يا رسول الله، إني مَيِّتٌ فَكَفِّنِّي فِي قَمِيصِكَ وَاجْعَلْهُ مِمَّا كَانَ يَلِي جِلْدِي، فَتُوُفِّي فَكَفَّنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي قَمِيصِهِ، ثم صلى عليه النبيُّ ﷺ والمسلمون، ودُفن بالمدينة[(٣)].

رثاء أم سلمة للوليد

كانت أمُّ سلمة ابنةَ عمِّ الوليد، وكان الوليد رجلًا سخيًّا على نساء بني مخزوم

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (١٦٩٧)، وينظر: تاريخ الإسلام، للذهبي (١/ ٢٩٣)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٧٢).

(٢) ينظر: الاستيعاب (٤/ ١٥٤١)، والإصابة (٦/ ٤٢٦).

(٣) ينظر: المعجم الكبير (٤١٠)، والطبقات الكبرى (٤/ ٩٨)، والإصابة (٦/ ٤٨٤).

رحيمًا بهم، ولمَّا حَبَسَ بنو المغيرة أمَّ سلمة عن الهجرة، وفرَّقوا بينها وبين زوجها وولدها قيل: إن الوليد هو الذي توسَّط لها ليُلحقوها بزوجها وولدها، فقد قالت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «فَكُنْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ فَأَجْلِسُ بِالْأَبْطَحِ، فَلَا أَزَالُ أَبْكِي حَتَّى أُمْسِي، سَنَةً أو قَرِيبًا مِنْهَا، حَتَّى مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّي فَرَحِمَنِي، فَقَالَ: ألا تحرجون مِنْ هَذِهِ الْمِسْكِينَةِ، فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا وزوجها؟ فَقَالُوا لِي: الْحَقِي بِزَوْجِكِ، قَالَتْ: وَرَدَّ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ إِلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِي، فَارْتَحَلْتُ بَعِيرِي، ثم وَضَعْتُ سَلَمَةَ فِي حِجْرِي، وَخَرَجْتُ أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ»[(١)]، فلم تنسها أمُّ سلمة لابن عمها الوليد.

فلما مات الوليدُ قالت امُّ سلمة: جَزَعْتُ حِينَ مَاتَ الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ جَزَعًا لَمْ أَجْزَعْهُ عَلَى مَيِّتٍ، فَقُلْتُ: لأَبْكِيَنَّ عَلَيْهِ بُكَاءً تُحَدِّثُ بِهِ نِسَاءُ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَقُلْتُ: غَرِيبٌ تُوُفِّيَ فِي بِلادِ غُرْبَةٍ، فَاسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ الله ﷺ فقلت: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ نِسَاءَ بَنِي مَخْزُومٍ قَدْ أَقْمْنَ مَأْتَمَهُنَّ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَأَذِنَ لِي فِي الْبُكَاءِ، فَصَنَعْتُ طَعَامًا، وَجَمَعْتُ النِّسَاءَ[(٢)].

فكانت تبكيه وتقول[(٣)]:

يـــا عـــينُ فـــابكي للوليــــ ـــــدِ بـــنِ الوليـــدِ بـــن المغيـــرهْ

كـــان الوليـــدُ بـــنُ الوليــــ ـــــدِ أبـــو الوليـــد فتـــى العشـــيرهْ

قـــد كـــان غيثًـــا في السنيــــ ـــــن ورحمـــةً فينـــا وميـــرهْ

(١) ينظر: السيرة، لابن هشام (١/ ٤٦٩)، وصحيح السيرة النبوية، للعلي (١١٦).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٤/ ٩٩)، والمعجم الصغير، للطبراني (٩٩١).

(٣) أي: يسعى في رد الحق، للمظلوم. ينظر: لسان العرب (٥/ ٣٧٧)، وتاج العروس (١٤/ ٣٣٧).

ضـــخمُ الدَّســـيعةِ[١] ماجـــدٌ   يســـمو إلـــى طلـــب الـــوتيرهْ
مثـــلُ الوليـــدِ بـــن الوليـــدِ   أبـــي الوليـــد كفـــى العشـــيرهْ

فلما سمع ذلك النبيُّ ﷺ دخل على أم سلمة وهي تحمل طفلًا للوليد وُلِدَ قبل موته فسَمُّوه الوليد- أيضًا- فقال ﷺ لهن: **إِنْ كِدْتُمْ لَتَتَّخِذُونَ الْوَلِيدَ حنَانًا**[٢]، فَسَمَّاهُ النبيُّ ﷺ: عَبْدَ الله[٣]؛ كراهةَ أن يُعَظَّمَ اسمُ جده الوليد بن المغيرة الذي مات كافرًا[٤].

رضي اللّٰهُ عن الوليدِ بن الوليدِ، وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) أي: جوادٌ كثير العطايا. ينظر: لسان العرب (٨/ ٨٥)، والنهاية، لابن الأثير (٣/ ١١٧).
(٢) أَي: تَتَعَطَّفُون عَلَى هَذَا الِاسْمِ فَتُحِبُّونه. ينظر: النهاية، لابن الأثير (١/ ٤٥٣)، ولسان العرب (١٣/ ١٢٨).
(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (٤/ ٩٩)، والمعجم الكبير (٤١٠)، والإصابة (٦/ ٥٨٤)، والاستيعاب (٤/ ١٥٥٩).
(٤) ينظر: الاستيعاب (٣/ ١٠٠٠)، والإصابة (٤/ ٣٢٣)، وأسد الغابة (٣/ ٤١٠).

غُضَيفُ بنُ الحَارثِ

نعمَ الفتَى غُضيفٌ[(١)]

إن ضيفنا في هذه الصفحات صحابيٌّ جليل، لم يعرفه كثير من الناس، وقد ظَنَّه بعضُ أهل العلم من التابعين، لكن الصحيح أنه صحابيٌّ جليل، كما قال أحمد بن حنبل، وأبو حاتم، وأَبُو زُرْعَةَ، والبخاري، والترمذي، وابن حبان، وأبو يعلى، والطبراني، وأَبو نُعَيْمٍ، وابن حَجَر، وابن عبد البر، وابن الأثير، وابن أبي حاتم، والذهبي، وخليفة بن خياط، ويعقوب بن سليمان، وغيرهم من كبار أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فهيا بنا نتعرف على لقطات من حياة هذا الصحابي الجليل[(٢)].

بطاقةُ تعريفٍ

هو غُضَيْفُ بنُ الحَارِثِ بنِ زُنَيْمٍ السَّكُوْنِيُّ، الثُّمَالِيُّ؛ والثُّمَالِيُّ لأنه دمشقي من ثُمَالة، وكنيته: أَبُو أَسْمَاءَ السَّكُوْنِيُّ، سكن حمص بعدما ترك المدينة، وكان أحد عُمَّالِ عمر بن الخطاب عليها، عِدَادُهُ فِي صِغَارِ الصَّحَابَةِ[(٣)]؛ وذلك لرؤيته للنبيّ ﷺ ولقائه به وهو في سن صغير، وها هو ذا يقص علينا:

رحمةُ النبيِّ ﷺ به وهو صَغيرٌ

عنْ غُضَيْفِ بْنِ الْحَارِثِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنْتُ صَبِيًّا أَرْمِي نَخْلَ الأَنْصَارِ، فَأَتَوْا بِي

---

(١) قالها عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وسيأتي تخريجها.

(٢) ينظر: الإنابة إلى معرفة المختلف فيهم من الصحابة (٢/ ٧٩).

(٣) ينظر: السير (٣/ ٤٥٣)، وتاريخ دمشق (٤٨/ ٦٩).

النَّبِيَّ ﷺ، فَمَسَحَ بِرَأْسِي، وَقَالَ: **كُلْ مَا سَقَطَ، وَلَا تَرْمِ نَخْلَهُم**»(١).

فيبدو من هذه الرواية: أن غضيفًا كان في صغره غلامًا مُشاكسًا، فقد كان يرمي النخل بالحجارة ليأكل من ثمره، كما نرى بعض الغلمان في زماننا يرمون بعض أشجار الفاكهة بالحجارة ليأكلوا من ثمرها، وهذا لا شك يسبب أَذًى للأشجار، وخطرًا عظيمًا على الأشخاص، ويبدو أن هذا الفعل منه لم يكن أول مرة، فقد أزعج أصحاب النخيل حتى أمسكوا به، ولم ينتهِ الأمر عند تعنيفهم له بل رفعوا أمره إلى النبيِّ ﷺ، ولك أن تتخيل صبيًّا في مثل هذا السن قد أمسك به مَنْ آذاهم بأفعاله ومُشاكساته، ثم يعلم أنه مأخوذ ليقف بين يدي رئيس الدولة- وهو رسولُ الله ﷺ- فكأني بعرقه يسيل، وبقلبه ينبض، وربما كان له صُرَاخ، ثم يفاجَئ عند وقوفه بين يَدَي رسول الله ﷺ بِنَهر من الرحمة واللِّين والرأفة يتدفق أمام عينيه، فلم يَنْهره، ولم يعنفه، بل تبسم النبيُّ ﷺ في وجهه، ودنا منه، ومسح بيده الحانية رأسه، وكلَّمه بصوته الهادئ الجميل الحنون الدافئ، فقال ﷺ له: «**يَا غُلَامُ، كُلْ مَا سَقَطَ، ولَا تَرْمِ النَّخْلَ**»، وهنا ينتهي اللقاء الذى كان يخشاه الصبيُّ بكل رحمة وسهولة، ومع ذلك فقد دلَّه النبيُّ ﷺ على طريقة شرعية مباحة للأكل من ثمر هذا النخيل إن غلبته طفولته، وأحبَّ أن يأكل منه.

وتَفَرَّقَ النَّاسُ، وبقي غُضَيْفُ بنُ الحَارِثِ هذا الصبيُّ المشاكسُ منبهرًا أمام عظمة الأسلوب النبويِّ الراقي في معالجة المشكلة، فكان هذا الموقف نقطة تحول في حياة هذا الصبيِّ، فقد تعلق قلبه برسول الله ﷺ لدرجةٍ جعلته يلازم مجالسه، ويرمق ببصره كل أفعاله، ويعي بقلبه كل أقواله، حتى طُبِعَت في وجدانه صورة النبيِّ ﷺ وهو واقف يصلي لم ينسها طيلةَ حياته حتى قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا نَسِيتُ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَمْ

---

(١) ينظر: معرفة الصحابة (٤/ ٢٢٧٥)، والسير (٣/ ٤٥٣)، والإصابة (٥/ ٢٤٩).

أَنسَ أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَاضِعًا يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ فِي الصَّلَاةِ»[١].

وبدأ الفتى المتأثر بأخلاق رسول الله ﷺ ينهل من بحر أخلاقه الفياض، حتى أصبحت أخلاق النبوة وَاقِعًا عمليًّا في حياة غُضَيْفٍ وتصرفاته، مما جعل كبار الصحابة يلحظون ذلك فيه ويمدحونه به، حتى قال عنه عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

نِعمَ الفَتى غُضَيفٌ

مَرَّ غُضَيْفٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا على مجلس فيه عمر بن الخطاب وأبو ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال عمرُ أمام الجالسين: «نِعْمَ الْفَتَى غُضَيْفٌ»، فوقعت هذه الكلمة من قلب أبي ذرٍّ موقعًا، فقام أبو ذر وانطلق خلف غُضَيْف، فلما خلا بهم الطريق ناداه فقال: يا فتى، فوقف غضيفٌ، فدنا منه أبو ذر، وقال له: «يَا ابْنَ أَخِي، اسْتَغْفِرْ لِي، وادْعُ الله لِي بِخَيْرٍ، بَارَكَ الله فِيكَ، فقال غُضَيْفٌ: يَا أَبَا ذَرٍّ، أَسْتَغْفِرُ لَكَ وَأَنْتَ صَاحِبُ رَسُولِ الله ﷺ؟! وَأَنْتَ أَحَقُّ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لِي، وأَنْ تَدْعُوَ لِي مِنِّي لَكَ، فأعاد أبو ذر عليه الطلب بإلحاح، فقال له غُضَيْفٌ: لَا، أو تُخْبِرنِي»- أي: ما سِرُّ ذلك؟، فإن طلبًا كهذا من صحابي كبير كأبي ذر يطلبه من شاب من شباب الصحابة لم يشهد مع رسول الله ﷺ مثل ما شهد أبو ذر، ولم يمدحه النبيُّ ﷺ بما مدح به أبا ذر، لا شك أنه طلب يُثير الدهشة، ويفضي للتعجب-، فأجاب أبو ذر على سؤاله فقال: «يَا ابْنَ أَخِي، إِنِّي سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حِينَ مَرَرْتُ بِهِ آنِفًا يَقُولُ: نِعْمَ الْفَتَى غُضَيْفٌ، وَإِني سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **إِنَّ اللهَ ضَرَبَ بِالْحَقِّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ يَقُولُ بِهِ**، فعند ذلك تهلل وجه الفتى الحَيِيِّ، فاستغفر لأبي ذرٍّ ودعا له بخير»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤٩٧)، وحسَّنه الأرناؤوط.

(٢) ينظر: المسند (٢١٥٤٢، ٢١٤٥٧، ٢١٥٨٢)، والمستدرك (٤٥٠١)، وصحيح سنن أبي داود (٢٦٢٣).

حِرصُه على هَدي رسولِ الله ﷺ

وبعد موت رسول الله ﷺ كان غضيفُ بنُ الحارث يتردد على كبار الصحابة، وأمهات المؤمنين يسألهم ويستفتيهم ويتعلم منهم ما لم يعلمه من سُنَّةِ رسول الله ﷺ، وإليك شيئًا من ذلك.

عَنْ غُضَيْفِ بْنِ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قَالَ: «قُلْتُ لِعَائِشَةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَرَأَيْتِ النَّبِيَّ ﷺ، أَكَانَ يُوتِرُ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، أو مِنْ آخِرِهِ؟.

قَالَتْ: رُبَّمَا أَوْتَرَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَرُبَّمَا أَوْتَرَ مِنْ آخِرِهِ، فقُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَ فِي الْأَمْرِ سَعَةً.

قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَرَأَيْتِ رَسُولَ الله ﷺ، أكَانَ يَغْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، أو مِنْ آخِرِهِ؟.

قَالَتْ: رُبَّمَا اغْتَسَلَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَرُبَّمَا اغْتَسلَ مِنْ آخِرِهِ، فقُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَ فِي الْأَمْرِ سَعَةً.

قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَرَأَيْتِ النَّبِيَّ ﷺ، أَكَانَ يَجْهَرُ بِصَلَاتِهِ، أَمْ يُخَافِتُ بِهَا؟.

قَالَتْ: رُبَّمَا جَهَرَ بِصَلَاتِهِ، وَرُبَّمَا خَافَتَ بِهَا، قُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَ فِي الْأَمْرِ سَعَةً»[1].

خوفُه من أكلِ الحرامِ

وكان غُضَيْفٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد نزل الشام وسكنها، فجاور فيها طائفة من اليهود يقال لهم السَّامِرَة، فوجد أن لهم طقوسًا ومعتقداتٍ تختلف عمَّا رآه من يهود المدينة،

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٠٢)، وابن حبان (٢٤٤٧)، والترمذي (٢٩٢٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٢٦).

فأراد أن يسأل عن حكم الأكل من ذبائحهم، مع علمه أن الله ﷻ أحل للمسلمين طعام أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡ﴾ [المائدة: ٥]، فأرسل إلى أمير المؤمنين في المدينة يستفتيه، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَتَبْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: أَنَّ نَاسًا مِنْ قِبَلِنَا يُدْعَوْنَ: السَّامِرَةَ، يَسْبِتُونَ السَّبْتَ، وَيَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الْبَعْثِ، فَمَا تَرَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَبَائِحِهِمْ؟، فَكَتَبَ عُمَرُ إليه: إِنْ كَانُوا يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ، وَيَسْبِتُونَ السَّبْتَ، فَهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، ذَبَائِحُهُمْ ذَبَائِحُ أَهْلِ الْكِتَابِ»[(١)].

وهذا الفعل من غُضيفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نلمح فيه وَرَعَه، وكذلك عدم استكباره على السؤال.

تمسُّكه بالسُّنَّةِ، ورفضُه للبدعةِ

وكان لغُضَيْفِ بْنِ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الشام حلقات علم يُعَلِّم الناس فيها الكتاب والسنة، وكان خطيبًا مُفَوَّهًا، ووَاعِظًا بَلِيغًا، حتى كان خالد بنُ يزيد بن معاوية أميرُ حمص إذا مرض، أو سافر يأمر غُضَيْفَ بْنَ الْحَارِثِ أن يصلي بالناس، وأن يخطب بهم الجمعة، وكان الناس إذا سمعوا أن غُضَيْفًا هو خطيب الجمعة امتلأ المسجد عن آخره، ويقولون: هذه جُمُعَةٌ لَيْسَتْ بِخَرْسَاءَ، وكان يُسْمِعُ أَقْصى أَهْلِ الْمَسْجِدِ، وكان له في خطبه كلماتٌ مؤثرة حفظها الناسُ عنه، منها: «أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ اللهَ ﷻ قَالَ: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، أَلَا وَإِنَّمَا أَنْتُمْ أُنَاسُ على سَفَرٍ، مَنْ جَاءَتْهُ دَوَابُّهُ ارْتَحَلَ، غَيْرَ أَنَّ الإِيَابَ فِي ذَلِكَ إِلَى اللهِ ﷻ»[(٢)].

ولما ذاع صِيتُهُ فِي أنحاء الشام أرسل إليه الخليفة الأموي عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ،

---

(١) ينظر: السنن الكبرى، للبيهقي (١٣٩٨٩)، ومعرفة السنن والآثار (١٨٦٣٤).

(٢) ينظر: الآحاد والمثاني (٢٤٣٢)، والطبقات الكبرى (٧/ ٢٠٨).

فلما جاءه رَحَّبَ بِهِ الخليفة، ثم قال له: «يَا أَبَا أَسْمَاءَ، إِنَّا قَدْ جَمَعْنَا النَّاسَ عَلَى أَمْرَيْنِ، فقَالَ غُضَيْفٌ: وَمَا هُمَا؟، قَالَ الخليفة: رَفْعُ الْأَيْدِي عَلَى الْمَنَابِرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ- أي: عند الدعاء-، وَالْقَصَصُ بَعْدَ الصُّبْحِ وَالْعَصرِ، فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُمَا أَمْثَلُ بِدْعَتِكُمْ عِنْدِي، وَلَسْتُ مُجِيبَكَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُمَا[١]، قَالَ الخليفة: لِمَ يَا أَبَا أَسْمَاءَ؟، قَالَ: لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **مَا أَحْدَثَ قَوْمٌ بِدْعَةً إِلَّا رُفعَ مِثْلُهَا مِنَ السُّنَّةِ**، فَتَمَسُّكٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِسُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ إِحْدَاثِ بِدْعَةٍ»[٢].

وهذا الموقف كما يدل على شهرته بين الناس بالعلم وحسن الموعظة، يدل- أيضًا- على أنه كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يخشى في الحق لومة لائم.

شغفُه بمعرفةِ أحوالِ الموتَى، وأمورِ الآخرةِ

وكان غُضَيْفٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أكثر الناس للموت ذِكْرًا، ومن أشدهم له اسْتِعْدَادًا، وهكذا حال المؤمن الْفَطِنِ، صاحب القلب اليقظ، فقد سُئِل النبيُّ ﷺ: «أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟، فقَالَ: **أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ**»[٣].

وكان غُضَيْفٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دائم الفكر فيما يحدث للعبد بعد موته، وكان إذا علم بأحد أصحابه، أو أقاربه قد حضره الموت يُسْرِع إليه لِيَعُودَهُ وليوصِيَه، وكانت له مع بعضهم بعض الوصايا العجيبة، منها: ما كان بينه وبين عَبْدِ اللهِ بْنِ عَائِذٍ الثُّمَالِيِّ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ؛ إذ دخل عليه غُضَيْفٌ، فَقَالَ له: «يَا أَبَا الْحَجَّاجِ، إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْقَانَا- في المنام- فَتُخْبِرَنَا مَا لَقِيتُمْ مِنَ الْمَوْتِ فافعل، وَكَانَتْ كَلِمَةً مَقُولَةً فِي أَهْلِ الْفِقْهِ، قَالَ

---

(١) وذلك لأن الثابت عن النبي ﷺ أنه لم يكن يرفع يديه عند الدعاء، وهو يخطب الجمعة، بل كان يرفع أصبعه المسبحة (أي: أصبعه السبابة)، وللتوسع في المسألة يرجع إلى كتب الفقه.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٩٧٠)، والبزار (١٣١)، وجوَّد إسناده ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٥٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩)، والحاكم (٨٦٢٣)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٣٨٤).

غُضَيْفٌ: فَمَكَثْتُ زَمَانًا لَا أَرَاهُ، ثم رَأَيْتُهُ فِي مَنَامِي بَعْدَ حِينٍ، فَقُلْتُ له: أَبَا الْحَجَّاجِ، أَلَا تُخْبِرُنَا كَيفَ أَنْتُمْ، وَمَا وَرَدْتُم عَلَيْهِ؟، فَقَالَ: نَجَوْنَا وَلَمْ نَكَدْ نَنْجُو، نَجَوْنَا بَعْدَ الْمُشَيِّبَاتِ، فَأَفْضَيْنا إِلَى رَبٍّ رَحِيمٍ، فَوَجَدْنَا رَبَّنَا خَيْرَ رَبٍّ، غَفَرَ الذَّنْبَ، وَتَجَاوَزَ عَنِ السَّيِّئَاتِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الْأَحْرَاضِ، قُلْتُ: وَمَا الْأَحْرَاضُ؟، قَالَ: الَّذِينَ يُشَارُ إِلَيْهِمْ بِالْأَصَابِعِ فِي الشَّرِّ، أو قال: فَلَمْ يَهْلِكْ مِنَّا إِلَّا الأَحْرَاضُ، الَّذِينَ يُشَارُ إِلَيْهِمْ بِالْأَصَابِعِ فِي الشَّرِّ»[(١)].

يموتُ وهو يسمعُ القرآنَ

وبعد حياة طويلة عاشها غُضَيْف بْن الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في طاعة الله عالمًا ومُعلمًا يحين وقت الرحيل، فيقف به قطار العُمُرِ في آخر محطاته، فيشتد به المرض، وينام على فراش الموت، فيأتيه أهلُ العلم من التابعين يعُودُونه، كما روى الإمام أحمد في مسنده، فقال: «حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَةِ حَدَّثَنَا صَفْوَانُ حَدَّثَنِي الْمَشْيَخَةُ- وهم من التابعين-: أَنَّهُمْ حَضَرُوا غُضَيْفَ بْنَ الْحَارِثِ الثُّمَالِيَّ حِينَ اشْتَدَّ سَوْقُهُ[(٢)]، فَقَالَ لهم: هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يَقْرَأُ- سورة- يس؟، فَقَرَأَهَا صَالِحُ بْنُ شُرَيْحٍ السَّكُونِيُّ، فَلَمَّا بَلَغَ أَرْبَعِينَ مِنْهَا قُبِضَ غُضَيْفُ بْنُ الْحَارِثِ، قَالَ: وَكَانَ الْمَشْيَخَةُ يَقُولُونَ: إِذَا قُرِئَتْ عِنْدَ الْمَيِّتِ خُفِّفَ عَنْهُ»[(٣)].

وفي رواية: «قال أسد بن وداعة: لَمَّا حَضرَ غضيفَ بنَ الحارث الموتُ حَضَرَ إخوتُه، فقال لهم: هل فيكم مَنْ يقرأ: سُورة يس؟، فقال رجلٌ مِنَ القوم: نعم، فقال له غضيفٌ: اقرأ ورتل، وأنْصِتوا، فقرأ ورتل وأسْمَعَ القومَ، فلمَّا بلغ قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] خرجت نفسُه، وقال أسد بن وداعة: فمَنْ

(١) ينظر: الزهد، لأبي داود (٥٠٢)، والآحاد والمثاني، لابن أبي عاصم (٢٤١٠).
(٢) أي: مرضه.
(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٦٩٦٩)، وحسَّنه الأرناؤوط، ومن قبله حسنه ابن حجر في الإصابة (٣/ ١٨٤)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٣/ ١٥١).

حَضَرَه منكم المَوتُ، فشدد عليه فليقرأ سورة يس؛ فإنه يُخَفَّفُ عليه الموت»[١].

وقد استَحَبَّ ذلك عدد من الحنفية والشافعية والحنابلة، وكذلك ابن تيمية[٢]؛ للحديث السابق، ولما رواه أحمد وأبو داود عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**اقْرَءُوا يس عَلَى مَوْتَاكُمْ**»[٣]، وفي لفظ: «**عِندَ مَوْتَاكُمْ**»[٤]، أي: عند الاحتضار.

وهكذا مات الصحابي الجليل غُضَيْف بْن الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد خرجت روحه إلى بارئها وهو يَسْتمع ويُسْمِعُ من حوله كلام الله العزيز الرحمن، ليلحق - إن شاء الله - تعالى بركب الصالحين، فما أجمل حسن الخاتمة.

وكان موته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حُدُوْدِ سَنَةِ ثَمَانِيْنَ من الهجرة. والله أعلم[٥].

رضي اللهُ عن غُضَيفِ بنِ الحَارثِ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨/ ٦٩).
(٢) ينظر: الاختيارات (ص٩١).
(٣) أخرجه أحمد (٢٠٣٠١)، وأبو داود (٣١٢١)، وقد ضعَّفه ابن حجر في التلخيص (٢/ ١٠٤)، وضعَّفه الألباني في الإرواء (٦٨٨)، وكذلك ضعَّفه الأرناؤوط.
(٤) أخرجه ابن ماجه (١٤٤٨)، وضعَّفه الألباني والأرناؤوط.
(٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٥٥).

عَمرُو بنُ ثابتٍ الأنصَاريُّ

إنهُ لِمَن أهلِ الجنَّةِ(١)

إنَّ حديثنا في هذه السطور عن سيرة رجل من أهل الجنة، لم يعش في الإسلام إلا دقائق معدودات، لكنك سترى من خلال هذه الدقائق صورة من عجائب القَدَر، تجعلك تفكر ألف مرة قبل أن تحكم على أحد من الناس من خلال أفعاله.

إن حديثنا عن الصحابي الجليل: عمرو بن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اسمُه ونسبُه

هو عَمْرُو بْنُ ثَابِتِ بْنِ وَقْشٍ، وقيل: ابن أُقَيش، الْأَشْهَلِيُّ، الأَوْسِيُّ، الْأَنْصَارِيُّ، وهو ابنُ عمِّ الصحابي الجليل عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ الأنصاري، وكان عَمْرُو بْنُ ثَابِتِ يلقب بـ(الأُصَيْرِم)، ولم أقف على سبب تلقيبه بذلك، وَأُمُّهُ هي: ليلى بنتُ الْيَمَان ابنة الصحابيِّ الجليل: الْيَمَانُ بْنُ جَابِرٍ، وأختُ الصحابيِّ الجليل: حذيفة بن اليمان رضي الله عنهم جميعًا(٢).

فهو أَوْسِيٌّ من بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ قوم سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهم الذين قال النبيُّ ﷺ عنهم: «**خَيْرُ دُورِ الْأَنْصَارِ بَنُو النَّجَّارِ، ثم بَنُو عَبْدِ الْأَشْهَلِ**»(٣).

---

(١) قالها النبيُّ ﷺ عن عمرو بن ثابت.

(٢) ينظر: الإصابة (٤/ ٥٠١)، والاستيعاب (٣/ ١١٦٧)، وأسد الغابة (٤/ ١٩٠)، ومعرفة السنن والآثار (١٤/ ٣٤١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٨٩)، ومسلم (٢٥١١).

إسلامُ بَني عبدِ الأشهلِ

لمَّا أسلم سعدُ بنُ معاذ على يَد مصعب بن عمير ذهب إلى قومه بني عبد الأشهل يحمل لهم الخير والسعادة، وكان سيدًا مُطَاعًا فيهم، فَلَمَّا رَآهُ قَوْمُهُ مُقْبِلًا قَالُوا: «نَحْلِفُ بِاَللهِ لَقَدْ رَجَعَ إِلَيْكُمْ سَعْدٌ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ؛ فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، كَيْفَ تَعْلَمُونَ أَمْرِي فِيكُمْ؟ قَالُوا: سيدُنا وأفضلُنا رَأْيًا، وأيمننا نَقِيبَةً، قَالَ: فَإِنَّ كَلَامَ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عليَّ حَرَامٌ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاَللهِ وَبِرَسُولِهِ، فَوَاَللهِ مَا أَمْسَى فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إلَّا مُسْلِمًا وَمُسْلِمَةً»[(١)]، إلا رجلًا واحدًا وهو عَمْرُو بْنُ ثَابِتِ الأُصَيْرِم، أبَى أَنْ يُسْلِمَ، مع أنَّ أباه قد أسلم وبقية عائلته[(٢)]، والسؤال الذي يطرح نفسه:

لَماذا تأخَّر إسلامُه؟

يُجِيبُ على هذا السؤال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول: «إنْ عَمْرَو بْنَ أُقَيْشٍ كَانَ لَهُ رِبًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَرِهَ أَنْ يُسْلِمَ حَتَّى يَأْخُذَهُ»[(٣)].

فإنه كان يتكسب من التعامل بالربا في الجاهلية، فأراد أن يؤخر إسلامه حتى يأخذ رِباه بصفته مُشرِكًا، ثم يعود لكي يعلن إسلامه[(٤)]، ولعل هناك أسبابًا أخرى لم تظهر لنا. والله أعلم.

قصةُ إسلامِه

وَبَقِيَ عَمْرُو بْنُ ثَابِتِ على غير الإسلام زَمَنًا، يرى بني قومه قد تركوا الشرك وعبادة

---

(١) ينظر: السيرة ابن هشام (٢/ ٦٠)، وصحيح السيرة النبوية، للعلي (ص١٠٧).

(٢) ينظر: السيرة النبوية، للصلابي (ص٢٤١).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٣٧)، والبيهقي في الكبرى (١٨٥٤٣)، وحسَّنه الألباني والأرناؤوط.

(٤) ينظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (٢/ ١٦٣).

الأوثان، وعبدوا الله الواحد الرحمن، فَلَمْ تَعُدْ يثربُ هي يثرب التي يعرفها، بل تغير اسمُها إلى المدينة، وتغيرت معها أخلاق القوم، وتحسنت طباعهم، واستقام سلوكهم، وتآلفت قلوبهم، ولا شك أنه كان في نظر الكثيرين منهم مشركًا مُعْرِضًا عن الإسلام.

وظلَّ الأمر كذلك حتى خرج عَمْرُو من المدينة في بعض حاجته لأيام قليلة، وأثناء طريق عودته كان الإيمان قد دَقَّ باب قلبه، ففتحه عَمْرٌو على مصراعيه ليملأ الإيمانُ أركان فؤاده، فعاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشقُّ الصحاري بدابته ليرتميَ بين أحضان رسول الله ﷺ، ويَقْبَلَ رَأْسَه ويديه، ويعلنها قائلًا: أَشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُه.

ودخل عَمْرٌو المدينة فوجد فيها حالةً غريبةً، وجدها شبه خاليةٍ من رجالها، وكان ذلك يوم السبت الخامس عشر من شوال، سنة ثلاث من الهجرة، إنه يوم معركة أُحُد، فأخذ عَمْرُو يتساءل: أَيْنَ بَنُو عَمِّي؟ فَقَالُوا: بِأُحُدٍ، فَقَالَ: أَيْنَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ؟، فَقِيلَ: بِأُحُدٍ، فَقَالَ: أَيْنَ بَنُو أَخِيهِ؟ قِيلَ: بِأُحُدٍ، فَسَأَلَ عَنْ قَوْمِهِ، قَالُوا: بِأُحُدٍ.

وهنا كَشَفَ الموقفُ عن معدنه الأصيل، وعن إيمانه الصادق، فهانت عليه أمواله التي أَخَّرَهُ عن الإسلام جَمْعُها، فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ، وأَخَذَ سَيْفَهُ وَرُمْحَهُ، وَرَكِبَ فَرَسَهُ، ثم تَوَجَّهَ قِبَلَهُمْ إِلَى أُحُدٍ ليُدرِكَ ما فاته من الخير[(١)].

ووصل عَمْرُو بْنُ ثَابِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى ساحة المعركة فوجد رحاها دائرة، وكأني بعينه تبحث وسط الجموع المتشابكة عن رسول الله ﷺ ليخبره أنه أسلم وجاء يقاتل خلفه، فرآه بعض المسلمين فحَسِبُوه لم يزل على شركه، فقالوا له: إِلَيْكَ عَنَّا يَا عَمْرُو، فقَالَ: إِنِّي قَدْ آمَنْتُ[(٢)].

فاقتحم عَمْرُو بْنُ ثَابِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بفرسه ساحة المعركة يخترق الجموع حتى

(١) ينظر: مستدرك الحاكم (٤٣١٧)، والسنن الكبرى، للبيهقي (١٨٥٤٣)، وصحيح سنن أبي داود (٢٢٨٨).
(٢) ينظر: مستدرك الحاكم (٤٣١٧)، والكبرى، للبيهقي (١٨٥٤٣)، وصحيح أبي داود (٢٢٨٨).

وقعت عينه على رسول الله ﷺ فانطلق نحوه، فلما وقف بين يديه قال له: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنِّي أَسْلَمْتُ أَكَانَ خَيْرًا لِي؟، قَالَ: **نَعَمْ**، فَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثم قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنِّي حَمَلْتُ عَلَى الْقَوْمِ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى أُقْتَلَ أَكَانَ خَيْرًا لِي، وَلَمْ أُصَلِّ صَلَاةً، غَيْرَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ: **نَعَمْ**»[(١)].

موعدٌ مع الشهادةِ

فقاتل عَمْرٌو المشركين أشد القتال حتى أجْهَدَهم، ولما دارت الدائرة على المسلمين شد بفرسه «فَدَخَلَ فِي عُرْضِ النَّاسِ فَقَاتَلَ حَتَّى أَثْبَتَتْهُ الْجِرَاحَةُ»[(٢)].

وبعدما هدأت أصوات السيوف خرج المسلمون يلتمسون القتلى، ويتفقدون الجرحى، «فَبَيْنَمَا رِجَالُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ يَلْتَمِسُونَ قَتْلَاهُمْ إِذَا هُمْ بِهِ، فَقَالُوا: وَاللهِ إِنَّ هَذَا لَلْأُصَيْرِمُ، وَمَا جَاءَ، لَقَدْ تَرَكْنَاهُ وَإِنَّهُ لَمُنْكِرٌ هَذَا الْحَدِيثَ، فَحُمِلَ إِلَى أَهْلِهِ جَرِيحًا، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ: مَا جَاءَ بِكَ يَا عَمْرُو؟ جِئْتَ غَضَبًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ؟ أَمْ حَمِيَّةً لِقَوْمِكَ؟، قَالَ: بَلْ جِئْتُ غَضَبًا للهِ وَلِرَسُولِهِ»[(٣)].

وفي روايات أخرى قَالَ لهم: «بَلْ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، آمَنْتُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَسْلَمْتُ، ثم أَخَذْتُ سَيْفِي فَغَدَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَاتَلْتُ حَتَّى أَصَابَنِي مَا أَصَابَنِي، ثم لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَذَكَرُوهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: **عَمِلَ قَلِيلًا، وَأُجِرَ كَثِيرًا، إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»[(٤)].

---

(١) أخرجه النسائي (٨٥٩٨)، وينظر: فتح الباري، لابن حجر (٦/ ٢٥).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٣٦٨٤)، وحسَّنه ابن حجر في الإصابة (٤/ ٦٠٩).
(٣) ينظر: مستدرك الحاكم (٤٣١٧)، والكبرى، للبيهقي (١٨٥٤٣)، وصحيح أبي داود (٢٢٨٨).
(٤) ينظر: صحيح البخاري (٢٨٠٨)، وصحيح مسلم (١٩٠٠)، ومسند أحمد (٢٣٦٨٤).

فلما علم أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قصته تعجب وقال: «دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَا صَلَّى لله صَلَاةً»[١].

وهكذا رَسَمَتْ قصةُ عمرو بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للدنيا كلها صورةً مشرقةً لرجل كان نحو الهلاك يسعى، حتى إذا وقف على حافة الهاوية جاءت ريحُ الإيمان فلَفَحَتْهُ لَفْحَةً خالطت فيها بَشَاشَةُ الإيمان شغافَ قلبه، فطَمَسَتْ فيه كلَّ صور الجاهلية الأولى، فأبصر بعد العَمَى، وفي لمح البصر مَلَكَ الْإِيمَانُ زمامَ نفسِه، فجذبه في آخر لحظات حياته بعد أن مال شِقُّه وكاد يسقط من حافة الهاوية، وما أدراك ما هي؟، فالتفت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الدنيا بعينه التي أبصرت فرآها على حقيقتها، فَوَلَّى عنها مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ، مُنْطَلِقًا نحو نعيم الآخرة.

ويقف المتأمل أمام هذه الصورة المدهشة قائلًا صَدَقَ رسولُ الله ﷺ إذ قال: «**قَلْبُ ابْنِ آدَمَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الْجَبَّارِ** عَزَّ وَجَلَّ[٢]**، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**[٣]»، ثم يدعو بدعائه ﷺ فيقول: «**اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ، ويَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ**»[٤].

أفراحٌ وأحزانٌ

ومع فرحة أسرة عمرو بن ثابت بشهادة النبيِّ ﷺ له بالجنة، إلا أن سحائب الحزن على فراقه قد خيمت على قلوبهم، وليس الحزن على فراقه وحده، بل على فراق أبيه وجَدِّهِ لأمه- أيضًا- فقد اسْتُشهدا معه في نفس المعركة الخالدة، ليلتقوا جميعًا في جنات النعيم، عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٣٧)، والحاكم (٤٣١٧)، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٨٨).
(٢) لفظ أحمد (٦٦١٠).
(٣) لفظ مسلم (٢٦٥٤).
(٤) ينظر: صحيح مسلم (٢٦٥٤)، ومسند أحمد (١٧٦٣٠).

فعن مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أُحُدٍ وَقَعَ الْيَمَانُ ابْنُ جَابِرٍ، وَثَابِتُ بْنُ وَقْشٍ بْنِ زَعُورَاءَ فِي الْآطَامِ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ- وَهُمَا شَيْخَانِ كَبِيرَانِ-: لَا أَبَا لَكَ، مَا نَنْتَظِرُ فَوَاللهِ مَا بَقِيَ لِوَاحِدٍ مِنَّا مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا ظَمَأُ حِمَارٍ، إِنَّمَا نَحْنُ هَامَةُ الْقَوْمِ، أَلَا نَأْخُذُ أَسْيَافَنَا، ثم نَلْحَقُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَدَخَلَا فِي الْمُسْلِمِينَ وَلَا يَعْلَمُونَ بِهِمَا، فَأَمَّا ثَابِتُ بْنُ وَقْشٍ فَقَتَلَهُ الْمُشْرِكُونَ، وَأَمَّا الْيَمَانُ بْنُ جَابِرٍ فَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَسْيَافُ الْمُسْلِمِينَ، فَقَتَلُوهُ وَلَا يَعْرِفُونَهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَبِي أَبِي، فَقَالُوا: وَاللهِ مَا عَرَفْنَاهُ، وَصُدِّقُوا، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَأَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَدِيَهُ، فَتَصَدَّقَ بِهِ حُذَيْفَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَزَادَهُ ذَلِكَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[(١)].

عَمرُو بنُ ثَابتٍ في ذاكرَةِ المسلمينَ

ومات عَمْرُو بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبَقِيَتْ قصته من عجائب القَدَرِ يتناقلها الصحابة ومن تبعهم جيلًا بعد جيل، ويستخرجون منها الْعِبَرَ والفوائد.

فهذا أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نلاحظ أنه يروي قصته بشيء من الإعجاب، مع أنه لم يكن في المدينة أيام معركة أُحُد، فقد كانت في شوال سنة ثلاث من الهجرة، ولم يأتِ أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى المدينة مهاجرًا إلا في محرم سنة سبع من الهجرة، وهذا يعني: أنَّ قصة عمرو بن ثابت بقيت تُحْكَى في مجالس الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومواعظهم حتى وصلت إلى أبي هريرة وتأثر بها، فتحركت شفتاه بكلماتٍ قائلًا: «دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَا صَلَّى لله صَلَاةً»، فأصبحت هذه الجُملة إلى يومنا هذا أشهر ما يُعْرَفُ بِهِ الصحابي الجليل عمرو بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) أخرجه الحاكم (٤٩٠٩)، وقال: حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وينظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (٢/ ١٦٣).

بل وكان أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يجلس مع تلامذته ويحدثهم عن أصحاب رسول الله ﷺ، وعن مآثرهم وفضائلهم، فسألهم يومًا قائلًا: «حَدِّثُونِي عَنْ رَجُلٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ لَمْ يُصَلِّ قَطُّ؟، فَلَمَّا لَمْ يَعْرِفْهُ النَّاسُ سَأَلُوهُ مَنْ هو؟، فَقَالَ: أُصَيْرِمُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، عَمْرُو بْنُ ثَابِتِ بْنِ وَقْشٍ»[1]، ثم قص عليهم قصته كاملة.

أين عمرُو بنُ ثابتٍ الآنَ؟

لما انتهت معركة أحد أنزل الله تعالى في شأن شهدائها قوله الكريم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩- ١٧١].

فوقف النبيُّ ﷺ يُبَشِّرُ أصحابه عنهم قائلًا: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ ﷻ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثم تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَشْرَبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ، وَحُسْنَ مَقِيلِهِمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ بِمَا صَنَعَ اللهُ لَنَا، مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ، لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ؟، فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ»، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ عَلَى رسوله ﷺ[2].

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٣٦٨٤)، وحسَّنه ابن حجر في الإصابة (٤/ ٦٠٩).

(٢) ينظر: صحيح مسلم (١٨٨٧)، ومسند أحمد (٢٣٨٨)، وسنن أبي داود (٢٥٢٠).

مِن عجائبِ يومِ أُحُدٍ

وعلى أرض أُحُدٍ رَسَمَتْ دماءُ جيش المسلمين صورتين متضادتين لرجلين قاتَلَا المشركين، أحدُهما أسلم أثناء المعركة فقاتل فقُتل فدخل الجنة ولم يصلِّ لله صلاة، وقد عرفناه، وأما الآخر فرجلٌ عَرَفَ الإسلام قبل أُحُدٍ بزمن، وجاء مع المسلمين فقاتل فقُتِل فدخل النار، وإليك قصته.

فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، يَوْمَ أُحُدٍ مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا أَتَى فُلَانٌ، لَقَدْ فَرَّ النَّاسُ وَمَا فَرَّ، وَمَا تَرَكَ لِلْمُشْرِكِينَ شَاذَّةً وَلَا فَاذَّةً إِلَّا تَبِعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، قَالَ ﷺ: وَمَنْ هُوَ؟، قَالَ: فَنُسِبَ لِرَسُولِ الله ﷺ نَسَبُهُ فَلَمْ يَعْرِفْهُ، ثم وُصِفَ لَهُ بِصِفَتِهِ فَلَمْ يَعْرِفْهُ، حَتَّى طَلَعَ الرَّجُلُ بِعَيْنِهِ، فَقَالَ: ذَا يَا رَسُولَ الله الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ عَنْهُ، فَقَالَ ﷺ: **هَذَا؟** فَقَالُوا: نَعَمْ، فقَالَ ﷺ: **إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**، قَالَ سَهْلٌ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، قَالُوا: وَأَيُّنَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِذَا كَانَ فُلَانٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا قَوْمُ انْظُرُونِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَمُوتُ عَلَى مِثْلِ الَّذِي أَصْبَحَ عَلَيْهِ، وَلَأَكُونَنَّ صَاحِبَهُ مِنْ بَيْنِكُمْ، ثم رَاحَ عَلَى جَدِّهِ فِي الْغَدِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَشُدُّ مَعَهُ إِذَا شَدَّ، وَيَرْجِعُ مَعَهُ إِذَا رَجَعَ، فَيَنْظُرُ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ أَمْرُهُ حَتَّى أَصَابَهُ جُرْحٌ أَذْلَقَهُ، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ قَائِمَةَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ، ثم وَضَعَ ذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثم تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ ظَهْرِهِ، وَخَرَجَ الرَّجُلُ يَعْدُو، وَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الله، حَتَّى وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: **وَذَاكَ مَاذَا؟**، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، الرَّجُلُ الَّذِي ذُكِرَ لَكَ، فَقُلْتَ: **إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَقَالُوا: فَأَيُّنَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِذَا كَانَ فُلَانٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ فَقُلْتُ: يَا قَوْمِ انْظُرُونِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَمُوتُ عَلَى مِثْلِ الَّذِي أَصْبَحَ عَلَيْهِ، وَلَأَكُونَنَّ صَاحِبَهُ مِنْ بَيْنِكُمْ، فَجَعَلْتُ أَشُدُّ مَعَهُ إِذَا شَدَّ، وَأَرْجِعُ مَعَهُ إِذَا رَجَعَ، وَأَنْظُرُ إِلَى مَا يَصِيرُ أَمْرُهُ، حَتَّى أَصَابَهُ جُرْحٌ أَذْلَقَهُ، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ قَائِمَةَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ، وَوَضَعَ ذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثم تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ حَتَّى

خَرَجَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرِهِ، فَهُوَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، يَتَضَرَّبُ بَيْنَ أَضْغَاثِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»[(١)].

قال ابنُ الْجَوْزِيِّ: «وَاسْمُ الرَّجُلِ قُزْمَانُ الظُّفُرِيُّ، وَكَانَ قَدْ تَخَلَّفَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ فَعَيَّرَهُ النِّسَاءُ، فَخَرَجَ حَتَّى صَارَ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ، ثم صَارَ إِلَى السَّيْفِ فَفَعَلَ الْعَجَائِبَ، فَلَمَّا انْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ كَسرَ جَفْنَ سَيْفِهِ وَجَعَلَ يَقُولُ الْمَوْتُ أَحْسَنُ مِنَ الْفِرَارِ، فَمَرَّ بِهِ قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ: هَنِيئًا لَكَ بِالشَّهَادَةِ، قَالَ: وَاللهِ إِنِّي مَا قَاتَلْتُ عَلَى دِينٍ، وَإِنَّمَا قَاتَلْتُ عَلَى حَسَبِ قَوْمِي، ثم أَقْلَقَتْهُ الْجِرَاحَةُ فَقَتَلَ نَفْسَهُ»[(٢)].

وها نحن من خلال ما قرأناه نلمح إرادة الله الخيرَ بعمرو بن ثابت؛ إذ هداه للإسلام قبل موته بلحظاتٍ، وختم له بخاتمة السعادة التي يختم بها لأوليائه الصالحين، وقد قال نبينا ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا طَهَّرَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ**، قَالُوا: وَمَا طَهُورُ الْعَبْدِ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: **عَمَلٌ صَالِحٌ يُلْهِمُهُ إِيَّاهُ حَتَّى يَقْبِضَهُ عَلَيْهِ**»[(٣)]، وفي رواية قال ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ**، فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: **يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ المَوْتِ**»[(٤)]، اللهم اختم لنا بما ختمت به لأوليائك الصالحين.

رضي اللهُ عن عمرو بن ثابتٍ، وعن الصحابةِ أجمعينَ

---

(١) القصة رواها البخاري عن أبي هريرة (٢٨٩٨)، وأبو يعلى في مسنده (٧٥٤٤) عن سهل بن سعد، واللفظ له، وقال محققه حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

(٢) نقله عنه ابن حجر في الفتح (٧/ ٤٧٢).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٩٠٠)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٢١٤٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥).

أبو اليَسَر كَعبُ بنُ عَمرِو الأنصَاريُّ

لقد أيَّدكَ اللهُ بِملَكٍ كَريمٍ[1]

إنَّ هذه الصفحات تحوي في طياتها سيرة عَلَمٍ من أعلام هذه الأمة، ورجلٍ من أنصار الله ورسوله، الذين تبوؤا الدار والإيمان، وقضَوا نحبهم حتى قال الله عنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

إنَّ حديثنا عن الصحابي الجليل: كَعْبِ بْنِ عَمْرو الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من أبو اليَسَرِ الأنصاريُّ؟

هو كَعْبُ بنُ عَمْرو بنِ عَبَّادٍ بنِ عَمرو بن سَوَادٍ، الخَزرجيُّ، البدريُّ.

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكنى بأبي اليَسَرِ، وكان تاجرًا يبيع التمر بالمدينة، وكان صهرًا للصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن حرام، فقد تزوج أخته أم عمرو فولدت له عميرًا، فهو بذلك زوج عمة الصحابي العظيم جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهم جميعًا.

أسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم يتجاوز الثامنة عشر من عمره بعد بيعة العقبة الأولى، ثم شهد بيعة العقبة الكبرى، ثم شهد بدرًا وهو ابن عشرين سنة، ثم شهد المشاهد كلها مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي يوم مُؤتة لما قُتل جعفر بن أبي طالب ووقعت راية الإسلام من يده على الأرض هو الذي انطلق ورفعها ترفرف، ثم أعطاها لعبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[2].

---

(١) هكذا قال النبيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأبي اليَسَر، وسيأتي تخريجه.

(٢) ينظر: المستدرك (٦٠٨٠، ٦١٣٦)، والمعجم الأوسط (١٩٤٥)، والطبقات الكبرى (٣/ ٥٨١)، والسير، للذهبي (٢/ ٥٣٧).

بيعةُ العقبةِ الكبرَى

وفي العام الثالث عشر من بعثة الرسول ﷺ جلس أبو اليَسَر في سبعين شابًّا مِن أهل يثرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ليتشاوروا في قرار حاسم سيغير مَجرى تاريخ الإسلام، بل مجرى تاريخ البشرية جمعاء، ولنترك أحدهم يروي لنا هذا الحدث فيقول: «لَبِثَ النَّبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ الْحَاجَّ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْمَوْسِمِ وَبِمَجَنَّةٍ وَبِعُكَاظٍ، وَبِمَنَازِلِهِمْ بِمِنًى، يَقُولُ: **مَنْ يُؤْوِينِي، مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ؟**، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَنْصُرُهُ وَيُؤْوِيهِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ يَرْحَلُ مِنْ مُضَرَ، أو مِنَ الْيَمَنِ، إِلَى ذِي رَحِمِهِ فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ، فَيَقُولُونَ: احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِحَالِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ ﷻ لَهُ مِنْ يَثْرِبَ، فَيَأْتِيهِ الرَّجُلُ فَيُؤْمِنُ بِهِ، فَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ، فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ يَثْرِبَ إِلَّا فِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، ثم بَعَثَنَا اللهُ ﷻ، فَأْتَمَرْنَا وَاجْتَمَعْنَا سَبْعُونَ رَجُلًا مِنَّا، فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَذَرُ رَسُولَ الله ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ ويخافُ، فَرَحَلْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَقَالَ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنِّي لَا أَدْرِي مَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ جَاءُوكَ؟ إِنِّي ذُو مَعْرِفَةٍ بِأَهْلِ يَثْرِبَ، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْعَبَّاسُ فِي وُجُوهِنَا قَالَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُهُمْ، هَؤُلَاءِ أَحْدَاثٌ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، عَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: **تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لَا تَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ يَثْرِبَ، فَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ**، فَقُمْنَا نُبَايِعُهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ- وَهُوَ أَصْغَرُ السَّبْعِينَ-، فَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ الله، إِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ

مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى السُّيُوفِ إِذَا مَسَّتْكُمْ، وَعَلَى قَتْلِ خِيَارِكُمْ، وَعَلَى مُفَارَقَةِ الْعَرَبِ كَافَّةً، فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ، فَهُوَ أَعْذَرُ عِنْدَ اللهِ، قَالُوا: يَا أَسْعَدُ بْنَ زُرَارَةَ، أَمِطْ عَنَّا يَدَكَ، فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ، وَلَا نَسْتَقِيلُهَا، فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشُرْطَةِ الْعَبَّاسِ، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ»[(١)].

وعندئذٍ قام هذا الشاب كعبُ بنُ عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خفة الطير ليبايع النبيَّ ﷺ، وليصبح من ساعتها رجلًا من أنصار الله وسوله، وها هو ذا يقول: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُبَايِعُ النَّاسَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْسُطْ يَدَكَ حَتَّى أُبَايِعَكَ، وَاشْتَرِطْ عَلَيَّ، فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالشَّرْطِ، فقال ﷺ: **أُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتُنَاصِحَ الْمُسْلِمَ، وَتُفَارِقَ الْمُشْرِكَ**»[(٢)].

فما أروعه من مشهد، وما أجمله من لقاء، وحُقَّ لكل من شهد هذه البيعة المباركة أن يفتخر بها كما افتخر بها كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «لَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا»[(٣)].

فبسبب هذه البيعة أصبح للإسلام دولة ينتشر منها في الأقطار والأمصار حتى بلغت دعوتُه ما بلغ الليل والنهار، ولقد صدق ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: «والله ما اسْتُلت السُّيوفُ، ولا زَحَفَت الزُّحُوفُ، ولا أقِيمَت الصُّفُوفُ حتى أسْلمَ الأنْصَار»[(٤)].

---

(١) أخرجه حمد (١٤٤٩٦) عن جابر بن عبد الله، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٦١٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤١٨).

(٤) ينظر: العقد الفريد (١/ ١١٨).

لقد أيَّدكَ اللهُ بملَكٍ كَريمٍ

وهاجر النبيُّ ﷺ والمسلمون إلى المدينة، وجاءت غزوة بدر الكبرى في رمضان من السنة الثانية للهجرة، وخرج مع النبيُّ ﷺ فيها جَمْعٌ من المهاجرين والأنصار منهم هذا الشابُّ الأنصاريُّ كعبُ بنُ عمرو الذي لم يتجاوز العشرين من عمره آنذاك.

واصطف الفريقان في ساحة المعركة، قريشٌ بحدها وحديدها، والمؤمنون يستغيثون ربهم، ويسألونه النصر، فأنزل الله لهم البشرى في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩- ١٠]، وقال سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[الأنفال: ١٢].

فكان أولُ مَنْ رأى مدد الملائكة هو رَسُولُ الله ﷺ فقال: «**هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ، عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ**»(١)، ولقد رأى المسلمون عجبًا من أمر الملائكة يوم بدر حتى قال أحدهم: «إِنِّي لَأَتْبَعُ رَجُلًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ لِأَضْرِبَهُ؛ إِذْ وَقَعَ رَأْسُهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَيْفِي، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ غَيْرِي»(٢)، «وَبَيْنَمَا رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ- يَوْمَئِذٍ- يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ، وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: صَدَقْتَ، **ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٨٢٩٩)، وصحَّحه الأرناؤوط.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٦٣).

وها هو ذا بطل قصتنا كعبُ بنُ عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَصُول ويَجول في ميدان المعركة، فرأى راية المشركين مرفوعة فانطلق نحوها وألقاها على الأرض حتى وطأتها الأقدام[١]، وجاهد في الله حق جهاده حتى لقي أمامه العباسَ بنَ عبد المطلب عمَّ الرسول ﷺ، وكان العباس يخفي إسلامه فأخرجته قريش معها مستكرهًا، فاشتد نحوه أبو اليَسَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسيفه، ولكنه تذكر قول النبيِّ ﷺ لهم: «**مَنْ لَقِيَ مِنْكُمُ الْعَبَّاسَ فَلْيَكْفُفْ عَنْهُ فَإِنَّهُ خَرَجَ مُسْتَكْرَهًا**»[٢]، وهنا في هذا المشهد وسطَ صَلِيلِ السيوف سنلمح مَدَى تعظيم ذلكم الشاب الأنصاريُّ لأمر رسولِ الله ﷺ، حيث لم تخرجْه حماسةُ الشباب من دائرة الطاعة، ولنتركه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقص علينا ما حدث:

قال أبو اليَسَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نَظَرْتُ إِلَى الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ كَأَنَّهُ صَنَمٌ، وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، فَقُلْتُ له: جَزَاكَ اللهُ مِنْ ذِي رَحِمٍ شَرًّا، تُقَاتِلُ ابْنَ أَخِيكَ مَعَ عَدُوِّهِ؟!، فقَالَ: مَا فَعَلَ، وَهَلْ أَصَابَهُ الْقَتْلُ؟، قُلْتُ: اللهُ أَعَزُّ لَهُ وَأَنْصَرُ مِنْ ذَلِكَ، فقَالَ: مَا تُرِيدُ إِلَيَّ؟، قُلْتُ: إِسَارًا؛ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى عَنْ قَتْلِكَ، فقَالَ العباسُ: لَيْسَتْ بِأَوَّلِ صِلَتِهِ، قال أبو اليَسَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَأَسَرْتُهُ، ثم جِئْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فلما رآه قال: كَيْفَ أَسَرْتَهُ يَا أَبَا الْيَسَرِ؟، قلت: لَقَدْ أَعَانَنِي عَلَيْهِ رَجُلٌ مَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ، وَلَا قَبْلُ، هَيْئَتُهُ كَذَا، فقَالَ ﷺ: **لَقَدْ أَعَانَكَ عَلَيْهِ مَلَكٌ كَرِيمٌ**- وفي رواية-: **لَقَدْ أَيَّدَكَ اللهُ بِمِلَكٍ كَرِيمٍ**»[٣].

امتثالُه لأمرِ رسولِ الله ﷺ

عَنْ سَلَامَةَ بِنْتِ مَعْقِلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كُنْتُ لِلْحُبَابِ بْنِ عَمْرٍو فَمَاتَ وَلِي مِنْهُ وَلَدٌ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: الْآن تُبَاعِينَ فِي دَيْنِهِ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله،

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٣٧).
(٢) أخرجه الحاكم (٤٩٨٨)، وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.
(٣) ينظر: المسند (٣٣١٠،٩٤٨)، والمعجم الأوسط (٩١٢٣).

إِنِّي امْرَأَةٌ مِنْ خَارِجَةِ قَيْسٍ، قَدِمَ بِي عَمِّي الْمَدِينَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَبَاعَنِي مِنَ الْحُبَابِ بْنِ عَمْرٍو أَخِي أَبِي الْيَسَرِ بْنِ عَمْرٍو، فَوَلَدْتُ لَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحُبَابِ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: الْآنَ- وَاللهِ- تُبَاعِينَ فِي دَيْنِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَنْ صَاحِبُ تَرِكَةِ الْحُبَابِ بْنِ عَمْرٍو؟**، فَقَالُوا: أَخُوهُ أَبُو الْيَسَرِ كَعْبُ بْنُ عَمْرٍو، قالت: فَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: **لَا تَبِيعُوهَا، وَأَعْتِقُوهَا، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِرَقِيقٍ قَدْ جَاءَنِي فَائْتُونِي أُعَوِّضْكُمْ مِنْهَا**، قالت: فأعتقوني»[1] وفي هذا الموقف يضرب لنا أبو اليَسرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثالًا راقيًا في امتثاله لأمر رسول الله ﷺ، نرى من خلاله علامة الإيمان في قلبه، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

شهامتُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كان النبيُّ ﷺ لا يُصلي على أَحَدٍ مات وعليه دَيْنٌ حتى يُقْضَى عنه دَيْنُه لِيُعَظِّمَ ﷺ بذلك خطورةَ الدَّيْنِ في قلوب الناس.

وذات يوم مات رجلٌ من المسلمين وعليه دَيْنٌ، ولم يجد الناسُ أحدًا من أوليائه، أو أقاربه يَقضي عنه دَيْنَه، فانصرف النبيُّ ﷺ ولم يُصَلِّ على الجنازة، وأمَرَ الناسَ أن يصلوا عليها، وكان بين جموع الناس ذلكم الشاب الأنصاري كعبُ بنُ عمرو الذي جاء يشهد الجنازة ليحصل على ثوابها، ولم يعرفِ الميت، وكأني بِهِ ينظر إلى ما يدور أمامه وهو يتذكر ما أخبر به النبيُّ ﷺ من «**أَنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ وإِنْ قُتِلَ في سبيل الله**»[2]، فلما رأى النبيَّ ﷺ مُنْصرفًا رفع صوته قائلًا:

(١) ينظر: مسند أحمد (٢٧٠٢٩)، والمعجم الكبير، للطبراني (٣٥٩٦)، وسنن أبي داود (٣٩٥٣).
(٢) ينظر: صحيح مسلم (١٨٨٦)، وسنن الترمذي (١٠٧٨).

«دَيْنُهُ عَلَيَّ يا رسول الله، فصَلَّى عليه النبيُّ ﷺ»[١].

وفي هذا الحَدَثِ يُجَسِّدُ كعبُ بنُ عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للدنيا شهامةَ المسلم ومروءَتَه في مثل هذه المواقف، فما أجملك يا أبا اليَسَر.

اللهُمَّ أمتِعنَا به

لما غدر يهودُ خيبر برسول الله ﷺ وجَمَّعوا عليه الأحزاب خرج ﷺ لقتالهم، فدخلوا حصونهم المنيعة، فحاصرهم النبيُّ ﷺ والمسلمون، وطالت مدة الحصار، فأصاب المسلمين جوع شديد، وهنا يأتي دَوْرُ أبي الْيَسَرِ الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولنترك له الحديث ليخبرنا بما فعل، فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللهِ إِنَّا لَمَعَ رَسُولِ الله ﷺ بِخَيْبَرَ عَشِيَّةً؛ إِذْ أَقْبَلَتْ غَنَمٌ لِرَجُلٍ مِنْ يَهُودَ تُرِيدُ حِصْنَهُمْ، وَنَحْنُ مُحَاصِرُوهُمْ؛ إِذْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **مَنْ رَجُلٌ يُطْعِمُنَا مِنْ هَذِهِ الْغَنَمِ؟**، فَقُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، فقَالَ ﷺ: **فَافْعَلْ**، قَالَ: فَخَرَجْتُ أَشْتَدُّ مِثْلَ الظَّلِيمِ[٢]، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ مُوَلِّيًا قَالَ: **اللهُمَّ أَمْتِعْنَا بِهِ**[٣]، قَالَ أبو اليسر: فَأَدْرَكْتُ الْغَنَمَ، وَقَدْ دَخَلَتْ أَوَائِلُهَا الْحِصْنَ، فَأَخَذْتُ شَاتَيْنِ مِنْ أُخْرَاهَا فَاحْتَضَنْتُهُمَا تَحْتَ يَدَيَّ، ثم أَقْبَلْتُ بِهِمَا أَشْتَدُّ كَأَنَّهُ لَيْسَ مَعِي شَيْءٌ، حَتَّى أَلْقَيْتُهُمَا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ، فَذَبَحُوهُمَا فَأَكَلُوهُمَا.

فَكَانَ أَبُو الْيَسَرِ مِنْ آخِرِ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ مَوْتًا بسبب هذا الدعاء، وكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ بَكَى وقال: «أُمْتِعُوا بِي لَعَمْرِي كُنْتُ آخِرَهُمْ»[٤].

---

(١) ينظر: مشكل الآثار، للطحاوي (٤١٤٥).

(٢) الظليم هو: الذكر من النعام، وقوله كناية عن شدة سرعته، وينظر: مختار الصحاح (١/ ١٩٧).

(٣) هو دعاء بطول العمر، ومراد الرسول ﷺ: أن يرجع سالمًا ولا يقتل.

(٤) ينظر: مسند أحمد (١٥٥٢٥).

كانت توبتُه خيرًا للمسلمينَ جميعًا

كان أبو اليَسَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تاجرًا يبيع التمر بالمدينة، ومع صلاحه وجهاده في سبيل الله إلا أنَّ الشيطان يومًا نصب له فخًّا ليوقعه في معصية الله، وذلك في صورة امرأة جميلة جاءت تشتري منه تمرًا، فلما خلا بها أهوى إليها، فقبَّلها وطاوعته المرأة؛ وذلك لأنه غفل عن تحذير النبيِّ ﷺ إذ قال: «**لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا**»[(١)]، ولكنه سرعان ما انتبه من غفلته كعادة المتقين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فقام عنها وتركها، وانطلق مُسْرعًا حزينًا باكيًا هائمًا على وجهه يبحث عن رسول الله ﷺ ليسأله عن كفارة ما وقع فيه، وليرشده إلى طريق التوبة، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: اسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ، وَتُبْ، وَلَا تُخْبِرْ أَحَدًا، فَلَمْ أَصْبِرْ، فَأَتَيْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: اسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ، وَتُبْ، وَلَا تُخْبِرْ أَحَدًا، فَلَمْ أَصْبِرْ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فقلت: فَأَنَا هَذَا، فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ»[(٢)]، فعاتبه النبيُّ ﷺ بكلماتٍ نزلت على قلبه النادم كالسياط حين تنزل على البدن تألمه؛ لدرجة أنْ قال أبو اليَسر: «حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ إِلَّا تِلْكَ السَّاعَةَ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنِّي مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وأنَّ الله لا يغفر لي أبدًا»[(٣)]، وكأني به يقف بين يدي رسول الله ﷺ وفرائصه ترتعد وصدره يلتهب، وعينه تسكب العَبرات، وصوته يخنقه البكاء، وجبينه يتفصد عرقًا، خوفًا من الله العظيم، وحياءً من رسوله الكريم ﷺ، وندمًا على ما فعل، وهو مع ذلك لم ييأس من رَوْحِ الله الذي قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ

---

(١) ينظر: مسند أحمد (١٧٧)، وسنن النسائي (٩٢١٩)، والسلسلة الصحيحة، للألباني (٤٣٠).

(٢) ينظر: الترمذي (٣١١٢– ٣١١٥)، وابن حبان (١٧٢٨)، والنسائي (١١١٨٤).

(٣) ينظر: الترمذي (٣١١٢– ٣١١٥)، وابن حبان (١٧٢٨)، والنسائي (١١١٨٤).

ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥].

قال أبو اليَسَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَأَطْرَقَ رَسُولُ الله ﷺ طَوِيلًا حَتَّى أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، قال: فَقَرَأَهَا عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَهُ خَاصَّةً؟، فقال ﷺ: **لا، بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً**، وفي رواية: **بل لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي**»[١].

ومعنى ذلك: أن الصلوات للذنوب كفارات، ويزيد المعنى بيانًا قولُ النبيِّ ﷺ: «**مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنْ الذُّنُوبِ مَا لَمْ تُؤْتَ كَبِيرَةٌ، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ**»[٢]، وقوله ﷺ: «**إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الْوَرَقُ**، ثم قرأ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤][٣].

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فهو عام يشمل كل حسنة، فقد قال النبيُّ ﷺ- لأبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «**إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا**، فقال: يَا رَسُولَ الله، أَمِنَ الْحَسَنَاتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟، فقَالَ ﷺ: **هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ**»[٤].

وهكذا كانت توبة أبي اليَسَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خيرًا وبركةً على المسلمين جميعًا.

موقفٌ يعجزُ القلمُ عن مدحه

عن عُبَادَةَ بنِ الوَلِيدِ بنِ عُبَادة بن الصَامِتِ قال: «خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي نَطْلُبُ الْعِلْمَ فِي

---

(١) ينظر: البخاري (٤٦٨٧)، ومسلم (٢٧٦٣)، والترمذي (٣١١٥)، وابن خزيمة (٣١٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٨).
(٣) أخرجه أحمد (٥٩١٣٢)، وحسَّنه الأرناؤوط (٣٦٣).
(٤) أخرجه أحمد (٢١٤٨٧)، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٧٣).

هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَبْلَ أَنْ يَهْلِكُوا، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِينَا أَبُو الْيَسرِ- كعبُ بنُ عَمرو- صَاحِبُ رَسُولِ الله ﷺ وَمَعَهُ غُلَامٌ لَهُ يَحْمِلُ صُحُفًا، فَقَالَ لَهُ أَبِي: كَيْفٍ أَصْبَحْتَ يَا عَمِّ؟، قَالَ: بِخَيْرٍ، فقال له أبي: يا عَمِّ، إني أَرَى فِي وَجْهِكَ سَفْعَةً مِنْ غَضَبٍ، قَالَ أبو اليَسَر: أَجَلْ، كَانَ لِي عَلَى فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ دَيْنٌ فَجِئْتُ أَبْتَغِيهِ، فأتيت أهله فسلمتُ، فَقُلْتُ: أَثَمَّ هُوَ؟، قَالُوا: لَا، فَخَرَجَ ابْنٌ صغيرٌ لَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: أَيْنَ أَبُوكَ؟، قَالَ: هو بالبيت، سَمِعَ كَلَامَكَ فَدَخَلَ أَرِيكَةَ أُمِّي، فَقُلْتُ: اخْرُجْ إِلَيَّ يا فلان، فقد علمتُ أينَ أنتَ، فَخَرَجَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنِ اخْتَبَأْتَ مِنِّي؟ قَالَ: أَنَا- وَاللهِ- أُحَدِّثُكَ وَلَا أَكْذِبُكَ، واللهِ الذي لا إلهَ غيرُه ما عِندي- مال- ولقد خَشِيتُ وَاللهِ أَنْ أُحَدِّثَكَ فَأَكْذِبَكَ، أو أَعِدَكَ فَأُخْلِفَكَ، وَكُنْتَ صَاحِبَ رَسُولِ الله ﷺ، وَكُنْتُ- وَاللهِ- مُعْسِرًا، قال أبو اليَسَر: فَقُلْتُ: آللهِ، وَكُنْتَ وَاللهِ مُعْسرًا؟، قَالَ: آللهِ، فَقُلْتُ: آللهِ؟، قَالَ: آللهِ، قال: فأتيتُ بصحيفتي فمحوتُها بيدي، وقلتُ له: إِنْ وَجَدْتَ قَضَاءً فَاقْضِني، وَإِلَّا فَأَنْتَ فِي حِلٍّ، فَأَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ لَسَمِعْتُهُ بِأُذُنِي هاتين وَوَعَاهُ قَلْبي هذا وَهُوَ يَقُولُ ﷺ: **مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أو وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللهُ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**»[(١)].

فهذا الموقف هو صورةٌ مُشرقة من حياة أبي اليَسَر الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَعجز القلمُ عن وصفها، واللسانُ عن مَدحها، فهؤلاء قوم يسمعون فيعملون؛ لتنالهم البشرى من ربهم الذي قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧- ١٨].

(١) ينظر: مسلم (٣٠٠٦)، والحاكم (٢٢٢٤)، والكبرى، للبيهقي (١٠٩٧٥)، وأحمد (١٥٥٦٠)، ومسند الشهاب (٤٦٢).

حفظهُ لوصيَّةِ رسولِ الله ﷺ

كان النبيُّ ﷺ رحمةَ الله للعالمين، وكان يوصي أمَّته بالخدم والإماء والرقيق خيرًا فيقول ﷺ: «**إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ؛ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**»[(١)].

وها هو ذا أبو اليَسَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -كعادته- يضرب لنا مثالًا حيًّا في تجسيد المعاني الراقية، فيقول عُبَادة بنُ الوليد: إنه خرج مع أبيه فالتقيا بأبي اليسر ومعه غلامٌ مملوك له «وَعَلَى أَبِي الْيَسَرِ بُرْدَةٌ[(٢)] وَمَعَافِرِيٌّ[(٣)] وَعَلَى غُلَامِهِ بُرْدَةٌ وَمَعَافِرِيٌّ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَمِّ، لَوْ أَنَّكَ أَخَذْتَ بُرْدَةَ غُلَامِكَ وَأَعْطَيْتَهُ مَعَافِرِيَّكَ، أو أَخَذْتَ مَعَافِرِيَّهُ وَأَعْطَيْتَهُ بُرْدَتَكَ، فَكَانَتْ عَلَيْكَ حُلَّةٌ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ[(٤)]، فَمَسَحَ رَأْسِي، وَقَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ، يَا ابْنَ أَخِي، بَصُرَ عَيْنَيَّ هَاتَيْنِ، وَسَمِعَ أُذُنَيَّ هَاتَيْنِ، وَوَعَاهُ قَلْبِي هَذَا -وَأَشَارَ إِلَى مَنَاطِ قَلْبِهِ- رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: **أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ**، وَكَانَ أَنْ أُعْطِيَهُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ حَسَنَاتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(٥)].

نصحهُ للمُسلمينَ

عاش أبو اليَسَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم تُنْسِه رحلةُ الحياة ما بايع عليه رسولَ الله ﷺ يومَ العَقبة، تلكم البيعة التي كان من بنودها: «**النصح لكل مسلم**»، فكان لا يكاد يرى

(١) أخرجه البخاري (٢٠)، ومسلم (١٦٦١).
(٢) البُرْدَة: كِسَاءٌ مُرَبَّعٌ أسودُ فِيهِ صِغَرٌ تَلْبَسُهُ الأَعراب، كما في لسان العرب (٣/ ٨٧).
(٣) المعافري: نوع من الثياب اليمنية، كما في لسان العرب (٤/ ٥٩٠).
(٤) أي: اجعل عليك إزارًا ورداءً من جنس واحد؛ وذلك ليحسن المظهر.
(٥) ينظر: مسلم (٣٠٠٦)، والحاكم (٢٢٢٤)، والأدب المفرد، للبخاري (١٨٧).

مسلمًا يحتاج إلى نصيحة إلا ويسارع إليه بها، وها هو ذا سعيد بنُ نافع يروي لنا موقفًا كان بينه وبين أبي اليَسر فيقول: «رَآنِي أَبُو الْيَسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنَا أُصَلِّي صَلَاةَ الضُّحَى حِينَ طَلَعَتِ الشَّمْسُ، فَنَهَانِي، ثم قَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **لَا تُصَلُّوا حَتَّى تَرْتَفِعَ الشَّمْسُ؛ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ**»[١].

وهذا الموقف لم نلمح منه مُسارعة أبي اليَسَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في نصح المسلمين فحَسْب، بل نلمح منه- أيضًا- فِقهَهُ وعِلمَه بالسُّنَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعد حياة طويلة من العطاء والإيمان والجهاد في سبيل الله، يقف قطار العمر بأبي اليَسَر عند آخر محطاته، فينام على فراش الموت سنة خمس وخمسين من الهجرة في زمن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم جميعًا، وتخرج روحه إلى بارئها الذي وعده وأصحابه من أهل بدر بالجنة، ويصلي عليه أهل المدينة، ويُدفن بالبقيع، وهو آخر مَنْ مات من أهل بدر[٢].

رضي اللهُ عن أبي اليَسَر،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) أخرجه البزار في مسنده (٢٣٠٤).

(٢) ينظر: المستدرك (٦٠٧٩)، والمعجم الكبير (٣٦٨)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥٣٧).

مَعقِلُ بنُ يَسَارٍ

أولُ قاضٍ شرعيٍّ للمُزَنيِّينَ

كَثيرٌ مِنْ أصحاب النبيِّ ﷺ جَهِلَ المسلمون سيرتَهم، مع أنهم نجومٌ أضاءت لهم طريق هدايتِهم، فكان من أيْسَرِ حقوقهم علينا: أن نُبْرِزَ أخبارهم، وأنْ نُعَرِّفَ الأجيال بهم، وإننا في هذه السطور على موعدٍ مع نَجْمٍ من هذه النجوم، وهو الصحابي الجليل: مَعْقِلُ بنُ يَسَارٍ المُزَنِيُّ رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

اسمُه ونسبُه وكنيتُه

هو مَعْقِلُ بْنُ يَسَارِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ مُعَبِّرٍ، المُزَنِيُّ، والمُزَنيُّ نسبةً إلى مُزَينةَ، وهي قبيلة عربية كانت مساكنهم بين المدينة ووادي القرى.

وكنيته: أبو عَلِي، وقيل: أبو يسار[١].

مع وَفدِ مُزينةَ

بعد هجرة النبيِّ ﷺ بسنوات قليلة أسلمت مُزينةُ وأرسلوا وفدهم لرسول الله ﷺ في شهر رجب سنة خَمسٍ ليبايعوه على الإسلام، فكانوا أولَ وفدٍ قَدِمَ المدينةَ مُسلمًا، وكان من بين هذا الركب الميمون: مَعْقِلُ بنُ يَسَارٍ، وما إن وطِأت رواحِلُهم أرض المدينة حتى استقبلهم أنصارُها مُرَحبين وأخذوهم إلى رسول الله ﷺ؛ لِيَخُطَّ معقلٌ بهذا اللقاء اسمَه في قائمة الصحابة الأبرار، وليبدأ رحلته في سبيل الله[٢].

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٧/ ١٤)، والاستيعاب (٣/ ١٤٣٢)، وأسد الغابة (٥/ ٢٢٤)، ومعجم قبائل العرب (٣/ ١٠٨٣).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (١/ ٢٩١)، ومعرفة الصحابة (١/ ٣٧٧)، وأسد الغابة (١/ ٤١٣).

وقد أَرَى النبيُّ ﷺ معقلًا وأصحابَه رَضِيَٱللَّهُعَنهُمْ آيةً عجيبةً من آياتِ النبوة في لقاء السعادة هذا، وذلك حين أمرَ عمرَ بنَ الخطاب أن يُطعمهم وكانوا أَرْبَعَمِائَةِ رَجُلٍ، فقال عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ للنبيِّ ﷺ: «يَا رَسُولَ الله، مَا عِنْدِي إِلَّا فَضْلٌ مِنْ تَمْرٍ مَا أَرَى أَنْ يُغْنِيَ عَنْهُمْ شيئًا فقالَ ﷺ له: **فَانْطَلِقْ فَزَوِّدْهُمْ**، قَالَ النُعمانُ بنُ مُقَرِّنِ المُزَنِيُّ: فَانْطَلَقَ بِنَا فَفَتَحَ عَلَيْهِ فَإِذَا فِيهَا فَضْلَةٌ مِنْ تَمْرٍ مِثْلِ الْبَعِيرِ الْأَوْرَقِ، فَأَخَذَ الْقَوْمُ حَاجَتَهُمْ وَكُنْتُ فِي آخِرِ الْقَوْمِ، فَالْتَفَتُّ وَمَا أَفْقِدُ مِنْهُ مَوْضِعَ تَمْرَةٍ، وَقَدِ احْتَمَلَ مِنْهُ أَرْبَعُمِائَةِ رَجُلٍ»[(١)].

وقد حاز المُزنيُّون مكانةً لدى رسولِ الله ﷺ، فكان يَمدحهم قائلًا: «**الْأَنْصَارُ، وَمُزَيْنَةُ، وَجُهَيْنَةُ، وَغِفَارُ، وَأَشْجَعُ، وَمَنْ كَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الله مَوَالِيَّ دُونَ النَّاسِ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ مَوْلَاهُمْ**»[(٢)].

وما أجمل ما قاله النبيُّ ﷺ عنهم حين تأخر إسلامُ بني تميم، وكانت بينهم وبين مزينة قرابةٌ، فقال رجل للنبيِّ ﷺ: «أَبْطَأَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ تَمِيمٍ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، فَنَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى مُزَيْنَةَ فَقَالَ: **مَا أَبْطَأَ قَوْمٌ هَؤُلَاءِ مِنْهُمْ**»[(٣)].

جهادُه في سبيلِ الله

وبدأ مَعْقِلُ بنُ يَسارٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ رحلته في صحبة رسول الله ﷺ بالجهاد في سبيل الله، فلم يَلبثْ بعد بيعته للنبيِّ ﷺ إلا شهرين، أو ثلاثة حتى حاصرت جيوشُ الأحزاب المدينة، وكانت أحداث تلكم المعركة عصيبة؛ إذ قال الله تعالى عنها: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

(١) أخرجه أحمد (٢٣٧٤٦)، وصحَّحه الأرناؤوط.
(٢) أخرجه مسلم (١٨٨).
(٣) أخرجه أحمد (١٧٥٦٨)، وصحَّحه الأرناؤوط.

ثم شهد مع النبيِّ ﷺ في الحديبية بيعةَ الرضوان التي قال الله عنها: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، فيقول معقلٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ الشَّجَرَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يُبَايِعُ النَّاسَ، وَأَنَا رَافِعٌ غُصْنًا مِنْ أَغْصَانِهَا عَنْ رَأْسِهِ فَبَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَفِرَّ»(١)؛ ليفوز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقول النبيِّ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»(٢).

ثم شهد مع النبيِّ ﷺ عمرةَ القضاء وخيبرَ وفتحَ مكة، ولم يَفته مشهدٌ مع رسول الله ﷺ منذ بايعه.

ولما أراد النبيُّ ﷺ أن يخرج للقاء الروم في تبوك سنة تسعٍ اجتمع معه ﷺ ثلاثون ألف مقاتل، ولم يتوفر عند المسلمين من الدوابِّ- آنذاك- ما يحمل كل هذا العدد، وفُتِح بابُ التبرعات لجيش العسرة، وضرب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فيه خيرَ مثالٍ في البذل والعطاء، ولكن بعد كل هذا بقي عدد ليس بقليل لم يجدوا ما يحملهم إلى ساحة الجهاد البعيدة، منهم: بطل قصتنا: مَعْقِلُ بنُ يَسَارٍ المُزَنِيُّ، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ وقَالُوا: «يَا نَبِيَّ الله، قَدْ نَدَبْتَنَا لِلْخُرُوجِ مَعَكَ، فَاحْمِلْنَا عَلَى الْخِفَافِ الْمَرْقُوعَةِ وَالنِّعَالِ الْمَخْصُوفَةِ نَغْزُ مَعَكَ»، ولم يُبالوا بمشقة الطريق وحَرِّ الصَيفِ وشمسِه المُحْرِقة، فنظر إليهم النبيُّ ﷺ نظرةَ المشفق وقَالَ لهم: «لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ»(٣).

فَعَبَّرَتْ أعيُنُهم عن مشاعرهم بدلًا من ألسنتهم التي أعجزها الردُّ عن التعبير، فانطلقت دموعُهُم تَخْضِلُ اللِّحَى وتَبُلُّ الثرى، ولقد كانت قطراتُ الإيمان هذه غالية عند الله وعند رسوله حتى سجلها القرآنُ في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى

---

(١) أخرجه مسلم (٧٦)، وابن حبان (٤٥٥١).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٨٢٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٨٠).

(٣) ينظر: الجهاد، لابن أبي عاصم (١٤٨٢٠)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٣٨).

ﭐلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩١ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢] وغزا النبيُّ ﷺ بجيشه ولم يَغِبْ عن عينيه الشريفتين مشهدُ البكَّائين، فقال لجنوده وهو في طريق عودته: «**لَقَدْ تَرَكْتُمْ بِالْمَدِينَةِ رِجالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ فِي الْأَجْرِ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَكُونُونَ مَعَنَا وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟! قَالَ: **حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»(١).

عِلمُه وَفِقهُه

ولزم معقلُ بنُ يَسارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبيَّ ﷺ حتى جمع علمًا وَفيرًا أَهَّلَهُ لِأَنْ يجعله النبيُّ ﷺ قاضيًا في قومه، فيا لها من منقبة عظيمة، وقد روى الحاكم: أن النبيَّ ﷺ أوصاه قائلًا: «**اقْضِ بَيْنَهُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَعَ الْقَاضِي مَا لَمْ يَحِفْ عَمْدًا**»(٢).

وقد سأل عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا في خلافته عن ميراث الجَدِّ فقال: «أَيُّكُمْ يَعْلَمُ مَا وَرَّث رسولُ الله الجَدَّ؟، فأخبره معقلُ بنُ يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ الله ﷺ وَرَّثه السُّدُس»(٣).

حسنُ امتثالِه لأمرِ الله

لا شك أن سرعة امتثالِ العبد لأمر ربه ونهيه برهانُ الإيمان في قلبه، فقد قال ربُّنا تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا

(١) ينظر: البخاري (٢٦٨٤، ٤١٦١)، ومسلم (١٩١١)، وأحمد (١٢٦٥٠).
(٢) ينظر: مستدرك الحاكم (٦٤٧٠)، ومسند أحمد (٢٠٣٠٥)، والمعجم الكبير، للطبراني (٥٤٠)، والسلسلة الضعيفة (٢٨٦٦).
(٣) أخرجه أبو داود (٢٨٩٧)، والحاكم (٧٩٨٠)، وصحَّحه الألباني.

وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١- ٥٢].

وها هو ذا معقلُ بنُ يَسارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقدم لنا أنموذجًا راقيًا في هذا الباب يرويه لنا البخاري وغيره عن بعض تلامذته: «أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زَوَّجَ أُخْتَهُ رَجُلًا مِنَ المُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَكَانَتْ عِنْدَهُ مَا كَانَتْ، ثم طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً لَمْ يُرَاجِعْهَا حَتَّى انْقَضَتِ العِدَّةُ، فَلمّا خُطِبَتْ جَاءَ يَخْطِبُهَا مَعَ الْخُطَّابِ، وَكَانَ رَجُلًا لاَ بَأْسَ بِهِ، وَكَانَتِ المَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، فقال له معقلٌ: يا لُكَعُ، خُطِبَتْ إِلَيَّ أُخْتِي فَمَنَعْتُهَا النَّاسَ، وَخَطَبْتَهَا إِلَيَّ فَآثَرْتُكَ بِهَا، وَأَنْكَحْتُكَ، وَفَرَشْتُكَ، وَأَكْرَمْتُكَ، فَطَلَّقْتَهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، فَلَمَّا جَاءَنِي الْخُطَّابُ يَخْطُبُونَهَا جِئْتَ تَخْطُبُهَا؟!، لَا وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْآيَة: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، فَدَعَاهُ رَسُولُ الله ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الآيَةَ، فتَرَكَ الحَمِيَّةَ وَاسْتَقَادَ لِأَمْرِ الله، وقال: سَمْعًا لِرَبِّي وَطَاعَةً، الْآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ الله، فدعَا الرجلَ وقال له: أُزَوِّجُكَ وَأُكْرِمُكَ، ثم كفَّرَ معقلٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن يمينه»[1].

امتثاله لأمرِ رسول الله ﷺ

وكما قدَّم لنا معقلُ بنُ يسارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُنموذجًا راقيًا في امتثاله لأمر الله تعالى، يُقدِّم لنا- أيضًا- أمثلةً رائعةً في امتثاله لأمر رسول الله ﷺ، واتباعِ سُنته وهَدْيِه.

وإليك مثالًا يَرويه تلميذُه الحسنُ البصريُّ عن مَعقل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أمير البَصرة فيقول: «بَيْنَمَا هُوَ يَتَغَدَّى، إِذْ سَقَطَتْ مِنْهُ لُقْمَةٌ، فَتَنَاوَلَهَا فَأَمَاطَ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ أَذًى

(١) القصة أخرجها البخاري (٥٣٣١)، والترمذي (٢٩١٨)، والبيهقي في الصغرى (٢٣٦٥)، والحاكم (٢٧١٩).

فَأَكَلَهَا، فَتَغَامَزَ بِهِ الدَّهَاقِينُ[١]، فَقِيلَ: أَصْلَحَ اللهُ الْأَمِيرَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ الدَّهَاقِينَ يَتَغَامَزُونَ، مِنْ أَخْذِكَ اللُّقْمَةَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ هَذَا الطَّعَامُ، فقَالَ: إِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأَدَعَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: لِهَذِهِ الْأَعَاجِمِ، إِنَّا كُنَّا يُؤْمَرُ أَحَدُنَا إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَتُهُ أَنْ يَأْخُذَهَا فَيُمِيطَ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ أَذًى وَيَأْكُلَهَا، وَلَا يَدَعَهَا لِلشَّيْطَانِ»[٢].

وهذا الموقف لا يعكس لنا مدى امتثاله لأمر رسول الله ﷺ فَحَسْب، بل يُظهر لنا مدى تواضعِهِ، حيث لم يُبالِ وهو أمير البصرة أن يفعل أمام الناس فعلًا كهذا.

وَعَنْ قُرَّةَ بْنِ إِيَاسٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ: «كُنْتُ مَعَ مَعْقِلِ بن يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَعْضِ الطُّرُقَاتِ، فَمَرَرْنَا بِأَذًى فَنَحَّاهُ عَنِ الطَّرِيقِ، فَرَأَيْتُ مِثْلَهُ، فَأَخَذْتُهُ فَنَحَّيْتُهُ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟، قُلْتُ: يَا عَمِّ رَأَيْتُكَ صَنَعْتَ شيئًا فَصَنَعْتُ مِثْلَهُ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **مَنْ أَمَاطَ أَذًى عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، وَمَنْ تُقُبِّلَتْ مِنْهُ حَسَنَةٌ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[٣].

ومع بيان هذا الموقف لحُسْن اتباع معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهَدْي النبيِّ ﷺ، فهو يُظْهِرُ لنا- أيضًا- مكانته الرفيعة عند الفضلاء من قومه، فَهُم يُقَلدون أفعاله دون السؤال عن السبب، وذلك نابعٌ من ثقتهم في علمه، ولِمَا استقر في نفوسهم من مدى حِرْصه على اتباع هَدْي النبيِّ ﷺ وسُنته.

إمارتُه للبصرةِ

وفي عصر الخلافة الراشدة كان معقلُ بنُ يسار أحدَ أُسُود الإسلام الذين فتحوا

---

(١) رؤساء القرى والفلاحين، وينظر: معجم لغة الفقهاء (١/ ٣٠).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٢٧٨)، وصحَّحه الأرنؤط.
(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٣)، والطبراني في الكبير (٥٠٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٩٨).

بلاد العراق وفارس، وقد عَيَّنَه عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خلافته أميرًا للبصرة، وهذه وحدها منقبةٌ حيث إنَّ عمرَ كان شديد العناية والدقة في اختيار أمَرائه، وأصبح معقلٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خيرَ أميرٍ لأهل هذه البلدة، فقد كان لهم مَرجعًا للسُّنة النبوية، ومَحَطًّا للسؤال والفُتيا، وكان من أبرز تلامذته فيها الحسنُ البصري، وأبو عثمان النهدي، وغيرهما من علماء التابعين رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

واهتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعمارة البلاد، فَشَيَّدَ فيها الدُورَ، وحفر فيها نَهرًا يجري ماؤه العذب بين طرقاتها، أُطلِقَ عليه نهر معقل نسبةً له[١].

نُصحُه لأُمراءِ المسلمينَ

ولم يترك معقلُ بنُ يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ البصرة حتى بعدما عُزل عن إمارتها، فقد ابتنى لنفسه بها دارًا، ومكث مع رهط المُزَنيين الذين كان أرسلهم عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معه ليفقهوا أهل البصرة في دينهم[٢].

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَصُوحًا لعامة المسلمين وأمرائهم، ولا يخشى في الله لومة لائم، عملًا بقول النبي ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**، قُالوا: لِمَنْ يا رسول الله؟، قَالَ: **لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[٣]، وكان دائمًا مَحَطُّ اهتمام أمراء البصرة، فقد كانوا يزورونه ويستنصحونه، فينصح لهم.

وقد دخل عليه يومًا زياد بنُ أبي سفيان أمير البصرة في زمن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زائرًا مُستنصحًا، فقيل له: هذا الأمير على الباب، فقال معقلٌ: لا يدخل عليَّ أحدٌ غير

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٧/ ١٤)، ومعرفة الصحابة (٥/ ٢٥١١)، وأسد الغابة (٥/ ٢٢٤)، والسير (٢/ ٥٧٦).

(٢) ينظر: مجمع الزوائد، للهيثمي (٥/ ٢١٢).

(٣) أخرجه مسلم (٩٥).

الأمير، فدخل، فقال: يا معقل، ألا تُزودنا منك شيئًا؟، كان اللهُ ينفعنا بأشياء نسمعها منك، فقال معقلٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**لَيْسَ مِنْ وَالِي أُمَّةٍ - قَلَّتْ، أو كَثُرَتْ - لَا يَعْدِلُ فِيهَا إِلَّا كَبَّهُ اللهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ**»، فأطرق زيادٌ، ثم قال: أشيءٌ سمعتَه من رسول الله ﷺ، أو من وراء وراء؟، قال: بل سمعتُه من رسول الله ﷺ[1].

وبعد زيادٍ وَلِيَ البصرةَ ابنُه عبيد الله بن زياد، وكان غُلَامًا سَفِيهًا يَسْفِكُ الدِّمَاءَ سَفْكًا شَدِيدًا، ورفع الأسعار على المسلمين فَضَيَّقَ عليهم معيشتهم، وكان قد نَصَحه بعضُ المُزنيين فنهرهم، فغضب منه معقلُ بنُ يسار، وعَزَمَ ألا يُكلمه، وبَلَغَ ذلك عبيد الله بن زياد، فلما مرض معقلٌ أتاه عبيد الله يعوده ويتألفه، فلما رآه معقلُ قال: «أَجْلِسُونِي، فقَالَ: اسْمَعْ - يَا عُبَيْدَ الله - حَتَّى أُحَدِّثَكَ شيئًا سمعتُه من رسول الله ﷺ، قال: **مَنْ دَخَلَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْعَارِ الْمُسْلِمِينَ لِيُغْلِيَهُ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُقْعِدَهُ بِعُظْمٍ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**، فقال عبيد الله: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ؟، قَالَ: نَعَمْ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلَا مَرَّتَيْنِ، وإِنِّي مُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ لَوْلَا أَنِّي فِي الْمَوْتِ ما حدثتُك به، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، ثم لا يَجْهَدُ لَهُمْ، وَلَا يَنْصَحُ إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**، فقال عبيد الله: أَلَّا كُنْتَ حَدَّثْتَنِي هَذَا قَبْلَ الْيَوْمِ؟، فقَالَ: لَمْ أَكُنْ لِأُحَدِّثَكَ»[2]. ومع أنَّ معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عزم على ألا يُحدِّثه إلا أنه خشي من قول النبيِّ ﷺ: «**مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْلَمُهُ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَجَّمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**»[3].

فما أحوج كلَّ زمان ومكان لرجلٍ كمعقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يخشى في الله لومة لائم، فينصح كلَّ ظالمٍ بكتاب الله تعالى، وسُنة رسوله ﷺ.

---

(١) ينظر: مسند أحمد (٢٠٩٠)، والمعجم الكبير، للطبراني (٥١٤)، وتاريخ دمشق، لابن عساكر (١٩/ ٢٠١).
(٢) ينظر: صحيح مسلم (١٤٢- ٢٢٨)، ومسند أحمد (٢٠٣١٣)، ومجمع الزوائد، للهيثمي (٥/ ٢١٢).
(٣) أخرجه أحمد (١٠٤٨٧)، وابن حبان (٩٥)، وصحَّحه الألباني والأرناؤوط.

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعد حياة طويلة عاشها معقلُ بن يسار في سبيل الله اشتد به مرضُه في أواخر أيام خلافة معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فمات ودُفن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالبصرة التي أحبها، وترك فيها بصمات العلم والعمارة التي بقيت آثارها، وقد حُشِدت جنازته بجمع غفير من الصالحين[١].

رضي اللّهُ عن معقلِ بنِ يسارٍ المُزنيِّ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٧/ ١٤)، والاستيعاب (٣/ ٤٣٣)، ومعرفة الصحابة (٥/ ٢٥١١)، والسير (٢/ ٥٧٦).

هِشامُ بنُ العَاص

ابنَا العاصِ مُؤمنانِ: هشامٌ، وعمرٌو[1]

سنعيش من خلال هذه السطور مع صحابي جليل، طغت شُهْرةُ أخيه على شهرته، مع أنه سبقه بالإسلام والهجرة والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، فكان من حقه علينا أن نقلب صفحات تاريخ الإسلام، ونخرج منها سيرة هذا البطل الهُمام، ونسلط عليها الأضواء ليتعرف عليه المسلمون في الأنحاء.

إن حديثنا عن الرجل الصالح المجاهد: هشام بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اسمُه ونسبُه ونشأتُه

هو هشام بن العاص بن وائل، السهميُّ، القرشيُّ، أخو الصحابي الجليل الفاتح عمرو بن العاص لأبيه، وكان أصغرَ منه سِنًّا، وأمه هي: حرملة بنت هشام بن المغيرة، أختُ أبي جهل[2].

ونشأ هذا الشاب بين أحضان عائلة عريقة النسب في قريش، فأبوه هو: العاص بن وائل سيد قومه، وأخوه عمرو أحد وجهاء مكة وسفرائها، وخاله أبو جهل بن هشام أحد رؤساء العرب، وابن خالته هو عمر بن الخطاب.

وعاش هشامٌ في مكة حياة المترفين كعادة أي شاب في مجتمع جاهلي كهذا، يتنعم في مال أبيه ويتقوى بسلطته، فقد كان أحبَّ أبناء العاص إلى قلبه بشهادة أخيه

---

(١) قالها النبيَ ﷺ وسيأتي تخريجها.

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٤/ ١٤٥)، والمستدرك (٥٠٥٠).

عمرو حين قال: «كان هشام أَحَبَّ إلى أبيه مني»[1].

من الظُّلماتِ إلى النُّورِ

وبينما مكة يخيم عليها ظلام الكفر والجاهلية، وتملأ أرجاءَها آثارُ الشرك والوثنية، يخرج رسولُ الله ﷺ حاملًا مصباح الهدى؛ ليضيء الأرض بعد ظلماتها، ويحيي القلوب بعد موتها، ويجمعها بعد شتاتها، فأسرع إليه عدد من شباب مكة يروون ظمأهم من نهر الحياة الذي أجراه الإسلام بين أيديهم، ويغسلون فيه قلوبهم التي لطختها أدران الكفر والجاهلية، وكان من بين هؤلاء هذا الشاب الجميل: هشام بن العاص، الذي أسلم وأسلم معه خاله سلمة بن هشام، وابن خالته زيد بن الخطاب، وكانوا جميعًا يخفون إسلامهم، ويلتقون بالنبيِّ ﷺ سِرًّا في دار الأرقم.

الهجرةُ إلى الحبشةِ

ولما جهر النبيُّ ﷺ بدعوة الإسلام ظن هشام بن العاص أن قومه سيستجيبون لله ورسوله، ولكنه فوجئ منهم بعاصفة من العناد والتكذيب، وذُهل حين وجد أباه من أشد الناس كفرًا وعنادًا وصدًّا عن سبيل الله، واستهزاءً بدينه، حتى بلغت به الوقاحة أنه «جَاءَ بِعَظْمٍ حَائِلٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَفَتَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَيُبْعَثُ الله هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمَّ؟ قَالَ: **نَعَمْ، يَبْعَثُ اللهُ هَذَا، يُمِيتُكَ، ثم يُحْيِيكَ، ثم يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ**، فَنَزَلَتِ الْآيَاتُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ

(١) الاستيعاب (٤/ ١٥٢٩).

﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٧٧- ٨٣]»[١].

ثم وجد هشامٌ من أخيه عمرو كفرًا وإعراضًا، ووجد ابنَ خالته عمرَ سوط عذاب على مسلمي قومه، كل هذا وهشامٌ يخفي إسلامه.

وضاقت مكة على المسلمين ونُكِّلَ بهم، غير الذين قتلوا منهم وتناثرت أشلاؤهم، فلما رأى النبيُّ ﷺ ما أصابهم من البلاء والفتنة قال لهم: «**إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ؛ فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**»[٢].

فخرج المسلمون المستضعفون أَرْسَالًا في الخفاء حتى ركبوا البحر، يرفعهم الموج ويخفضهم حتى ألقتهم المراكب على سواحل الحبشة، فنزلوا بها آمنين، ومن بينهم: هشام بن العاص، وما كادوا يهنئون بالراحة والأمان حتى أرسلت قريش في طلبهم وَفْدًا للنجاشي ملك الحبشة بقيادة عمرو بن العاص ليقبض عليهم ويعود بهم إلى جحيم مكة، ولكن النجاشي خذلهم، وباءتِ المحاولة بالفشل.

وبقي هشام بن العاص مع المؤمنين في الحبشة يعبدون الله في أمان، حتى بلغهم أن النبي ﷺ ومن معه من المسلمين سيهاجرون من مكة إلى بلد آخر ليقيموا دولة الإسلام على أرضها، فرجع ومعه جماعة من مهاجرة الحبشة إلى مكة، فدخلوها في ليلة يسترهم ظلامُها، ومكث هشامٌ في مكة مُسْتَخْفِيًا ينتظر أن يخبره النبيُّ ﷺ بمكان هجرته؛ ليكون كعادته من السابقين[٣].

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٦٠٦) عن ابن عباس، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وينظر: الصحيح المسند من أسباب النزول (ص٢٣٧).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٧٧٣٤)، والألباني في الصحيحة (٣١٩٠).

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (٤/ ١٤٥)، والاستيعاب (٤/ ١٥٣٩).

ليلةُ القبضِ على هشامٍ

ولما أمر النبيُّ ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة خرجوا إليها سِرًّا، جماعاتٍ وفُرَادَى، فعلمت قريش بذلك فنصبت لهم الكمائن للقبضِ على من بقي منهم.

واجتمع هشام بن العاص مع ابن خالته عمر بن الخطاب ورفيق دربهما عياش بن أبي ربيعة سِرًّا ليتفقوا على طريقة الهجرة من مكة، وهشامٌ لا يدري أنَّ بني قومه يجلسون في نفس التوقيت يحيكون له خطة مُحكمة للقبض عليه، فقد علموا بقدومه من الحبشة، ودلَّتهم استخباراتهم على مكان مخبأه.

وها هو عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: «لَمَّا اجْتَمَعْنَا لِلْهِجْرَةِ اتَّعَدْتُ أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَهِشَامُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، وَقُلْنَا: الْمِيعَادُ بَيْنَنَا التَّنَاضِبُ مِنْ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ[1]، فَمَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ لَمْ يَأْتِهَا فَقَدْ حُبِسَ فَلْيَمْضِ صَاحِبَاهُ، فَأَصْبَحْتُ عِنْدَهُ أَنَا وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَحُبِسَ عَنَّا هِشَامٌ...»[2].

وقبض المشركون على هشام بن العاص، ووقع في الأسر، وحُبس في حجرة ضيقة قد أوثقوه فيها بالحديد، لا يذوق طعامًا ولا شرابًا، فعلاه الحزن، وضاقت عليه نفسه، وطوته الأيام بالهموم، ومع ذلك فهو مستمسك بدينه، صابرٌ على البلاء، فلما رأوا منه صلابة وعزمًا وإصرارًا على ما هو فيه، وتمسكًا بدينه الذي هو عليه انهالوا عليه ضربًا، وأذاقوه ألوان العذاب، حتى أشرف على الموت وانهارت قواه، وانفك رباط عزمه، وفُتن فتنة عظيمة، فأسمعهم في رسول الله ﷺ ما يريدون، وذكر آلهتهم بما يحبون، فعندئذٍ فكُّوا وثاقه، وكأني به يلتقط أنفاسه بعدما كادت أن تنقطع.

وهذه الوحشية في التعذيب لم يكن هشام أولَ من ذاقها، بل تجرع مرارتها عامة

---

(١) التناضب من أضاة بني غفار هو: اسم مكان لقائهم بالقرب من مكة.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٧٧٥٦)، والحاكم في المستدرك (٣٦٢٨)، وقال: صحيح على شرط مسلم.

المسلمين المستضعفين في مكة، وفي ذلك يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَالله إِنْ كَانُوا لَيَضْرِبُونِ أَحَدَهُمْ وَيُجِيعُونَهُ وَيُعَطِّشُونَهُ حَتَّى مَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَوِيَ جَالِسًا مِنْ شِدَّةِ الضُّرِّ الذِي بِهِ، حَتَّى يُعْطِيَهُمْ مَا سَأَلُوهُ مِنَ الْفِتْنَةِ، حَتَّى يَقولُوا لَهُ: اللات والعزى إلهآن مِنْ دُونِ الله؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، افْتِدَاءً مِنْهُمْ بِمَا يَبْلُغُونَ مِنْ جُهْدِهِمْ»[(١)].

وهكذا غرس العذاب أنيابه في جسد هذا الصحابي الجليل، ينهشه بسياطه الفتاكة، فقد كانت مأساة هشام ين العاص مع قريش دامية مؤلمة، تحولت فيها صورته الجميلة وهيئته الحسنة ومظهره الأنيق إلى جسد يشخب دمًا، إذا اطَّلَعت عليه لولَّيت منه فرارًا ولملئت منه رعبًا، وكل جريمته أنه رجلٌ اختار دينه، وما نقموا منه إلا أن آمن بالله العزيز الحميد.

لقد كانت محنة هشام وأصحابه صورة وحشية همجية من صور التعذيب والقتل البطيء، تذوب لرؤيتها الصخور الصماء، ولكن قلوب هؤلاء المشركين كانت أشد قسوة وصلابة من تلك الصخور.

وبعدما فُتن هشام بن العاص من هول وبشاعة الموقف أجابهم إلى ما يريدون، ففكُّوا وثاقه وأخرجوه من سجن ضيق تحيط به أربعة جدران، إلى سجن كبير تحيط به جبال مكة، فقد وضعوه تحت الإقامة الجبرية، ممنوع أن يخرج من حدود مكة، وجعلوا كل تحركاته وأقواله وأفعاله تحت المراقبة.

الفرارُ إلى اللهِ ورسولِه

والقرآن الذي نزل من قبل يستثني ممن كفر بعد إيمانه: ﴿مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٦٨٩٨)، وحسَّنه صاحب السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (١/ ٦٥).

مُطْمَئِنُّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦]، نزل هذه المرة يعاتب من أطاحت به رياح الفتنة في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠]، فقال المسلمون: «مَا اللهُ بِقَابِلٍ مِنْ هَؤُلَاءِ تَوْبَةً، قَوْمٌ عَرَفُوا اللهَ وَآمَنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ، ثم رَجَعُوا عَنْ ذَلِكَ لِبَلَاءٍ أَصَابَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا!»[(١)]، فكتب بعض المسلمين هذه الآية في صحيفة وأرسلوا بها لإخوانهم الذين لم يهاجروا[(٢)]، فقد كان المسلمون في المدينة كلما نزل شيء من القرآن في شأن إخوانهم كتبوه في صحف وأرسلوا به إليهم، وهذه هي الأُخوة في الله بحق، فلا ينبغي للمسلم أن يترك أخاه الذي تعثَّرَ في الطريق كالريشة في مهب الريح، تعصف به وتطيحه عن سبيل المؤمنين.

ووصلت الآية إلى من لم يهاجر في مكة، وهنا لَعِبَ الشيطانُ دورًا جديدًا معهم، يُقَنِّط فيه العبدَ من رَوْحِ الله ورحمته، ويُصَعِّبُ عليه طريق الرجوع، ويباعد المسافة بينه وبين إخوانه، حتى يجعله بالفعل كالريشة في مهب الريح لا يستطيع ثباتًا، فتنقلع جذور إيمانه من قلبه شيئًا فشيئًا.

واشتد الأمر على النفوس لما قال الله للمؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ [الأنفال: ٧٢].

ثم نزل القرآنُ لهم بالبشرى التي تُحيي الأمل في القلوب من جديد، وتضيء الطريق، وتقرب البعيد، وتفتح باب الرجاء في رحمة الله على مصراعيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠]، فكتبها المسلمون

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٧٧٥٦)، والحاكم في المستدرك (٣٦٢٨)، وقال صحيح على شرط مسلم.
(٢) ينظر: الصحيح المسند من أسباب النزول (ص١٧٦).

لإخوانهم، وقالوا: إن الله قد جعل لكم مخرجًا[1]، ونزل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣].

قال عمرُ بنُ الخطاب: «فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيهِمْ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، فَكَتَبْتُهَا بِيَدِي فِي صحيفة، ثم بَعَثْتُ بِهَا إِلَى هِشَامٍ بن العاص»[2].

فلما وصلتِ الرسالة إلى هشام أخذها بعيدًا عن أنظار الناس ليقرأها بتدبر، وها هو ذا يقول: «فَلَمَّا قَدِمَتْ عَلَيَّ خَرَجْتُ بِهَا إِلَى ذِي طُوًى، فَجَعَلْتُ أُصْعِدُ بِهَا وَأُصَوِّبُ لِأَفْهَمَهَا، فَقُلْتُ: اللهُمَّ فَهِّمْنِيهَا، حَتَّى فَهِمْتُهَا، فَأُلْقِيَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا إِنَّمَا أُنْزِلَتْ فِينَا وَفِيمَا كُنَّا نَقُولُ فِي أَنْفُسِنَا وَيُقَالُ فِينَا، فَرَجَعْتُ فَجَلَسْتُ عَلَى بَعِيرِي فَلَحِقْتُ بِرَسُولِ الله ﷺ بِالْمَدِينَةِ»[3].

وهكذا اختلس هشام بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فرصة غياب أنظار المشركين عنه فانطلق من مكة فارًّا بدينه إلى الله ورسوله، وفعل مثله كثير ممن حبس عن الهجرة، فأدركهم المشركون فقُتِلَ من قُتِلَ، ونجا من نجا[4].

جهادُه في عصرِ النبوةِ

وبعد ما هاجر هشامٌ إلى الله ورسوله شهد مع النبيِّ ﷺ المشاهد، وجاهد في الله حق جهاده، وخرج مع النبيِّ ﷺ لفتح مكة، وفي أيام الفتح بثَّ النبيُّ ﷺ عددًا من

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٤/ ١٨٤).

(٢) ينظر: مسند البزار (١٥٥)، والسنن الكبرى، للبيهقي (١٧٧٥٦)، ومستدرك الحاكم (٣٦٢٨).

(٣) ينظر: مسند البزار (١٥٥)، والسنن الكبرى، للبيهقي (١٧٧٥٦)، ومستدرك الحاكم (٣٦٢٨).

(٤) ينظر: الصحيح المسند من أسباب النزول (ص١٧٦).

السرايا ليخرج الإسلام من مكة يمينًا وشمالًا، وكان من بين سرايا الجهاد: سَرية هشام العاص إلى يَلَمْلَم[١].

ابنَا العَاصِ مُؤمنانِ

وهكذا سكن هشام بن العاص مدينة الإيمان، يَصْبِرُ نَفْسَه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولم تَعْدُ عَيْنَاه عَنْهُمْ، حتى كانت المفاجأة أن هدى الله أخاه عمرو بن العاص إلى الإسلام، وشرح صدره بنور الإيمان، وجاء مهاجرًا إلى رسول الله ﷺ يبايعه على الإسلام، ووقف عمرو أمام النبيِّ ﷺ فقال له: «يَا رَسُولَ الله، أُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ يُغْفَرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي - وَلَمْ أَذْكُرْ مَا تَأَخَّرَ- فَقَالَ لِه النبيُّ ﷺ: **يَا عَمْرُو بَايِعْ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَإِنَّ الْهِجْرَةَ تَجُبُّ مَا كانَ قَبْلَهَا**»[٢].

فأسلم عمرو وبايعه النبيُّ ﷺ، وكأني بعينه تبحث عن أخيه الأصغر هشام الذي ذاق على يديه صُنوف العذاب؛ ليقول له: تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيَّ وَإِنْ كُنَّتُ لَمن الخَاطِئِينَ، وكأني بهشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تنهمر منه دموع الفرح على خديه فتبتل لحيته، ويقول لأخيه: لَا تَثْرِيبَ عَلَيْك الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَك وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فيتعانقان، في مشهد تقشعر له الأبدان، ويعجز القلم عن وصفه، فيعلنها النبيُّ ﷺ أمام الناس قائلًا: «**ابْنَا الْعَاصِ مُؤْمِنَانِ: عَمْرٌو، وهِشَامٌ**»[٣].

برُّه بأبيه بعد موتِه

لمَّا مات العاصُ بنُ وائل حزن هشامٌ عليه حزنًا شديدًا؛ لأنه مات على الشرك، ولمَّا أسلم عمرو تذاكر هو وهشام أن والدهما أوصى أن يُعْتَقَ عَنْهُ بعد موته مِائَة

---

(١) ينظر: تاريخ دمشق (١٦/ ٧٧).
(٢) أخرجه أحمد (١٧٧٧٧)، وحسَّنه الألباني في الإرواء (٥/ ١٢٢).
(٣) أخرجه أحمد (٨٦٢٦)، والنسائي (٨٢٤٢)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٥٦).

رَقَبَةٍ، فظن هشامٌ بقلبه البريء الرقيق أن ذلك سيخفف عن أبيه، فاتفق مع عمرو أن يعتق كل واحد منهما خمسين رقبة، ولكن السؤال: هل هذا ينتفع به الكافر بعد موته؟

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوْصَى الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ أَنْ يُعْتَقَ عَنْهُ مِائَة رَقَبَةٍ، فَأَعْتَقَ ابْنُهُ هِشَامٌ خَمْسِينَ رَقَبَةً، فَأَرَادَ ابْنُهُ عَمْرٌو أَنْ يُعْتِقَ عَنْهُ الْخَمْسِينَ الْبَاقِيَةَ، فَقَالَ: حَتَّى أَسْأَلُ رَسُولَ الله ﷺ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ أَبِي أَوْصَى بِعَتْقِ مِائَةِ رَقَبَةٍ، وَإِنَّ هِشَامًا أَعْتَقَ عَنْهُ خَمْسِينَ، وَبَقِيَتْ عَلَيْهِ خَمْسُونَ رَقَبَةً، أَفَأُعْتِقُ عَنْهُ؟، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **أَمَّا أَبُوكَ فَلَوْ كَانَ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ فَأَعْتَقْتُمْ عَنْهُ، أو تَصَدَّقْتُمْ عَنْهُ، أو حَجَجْتُمْ عَنْهُ، نَفَعَهُ ذَلِكَ**»[(١)].

ولله العزَّةُ ولرسوله وللمؤمنينَ

ولما عزم أبو بكر في خلافته على فتح الشام وجَّهَ جيوشه إليها، وأرسل إلى هرقل ملك الروم وَفدًا يدعوه إلى الإسلام بقيادة هشام بن العاص، وفي هذه المهمة التي كُلِّفَ بها هشام سترى- أيها القارئ الكريم- كيف كانت عِزَّةَ الإسلام، ولنتركه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدثنا بنفسه.

قال هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَرَجُلٌ آخَرُ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى هِرَقْلَ صَاحِبِ الرُّومِ نَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَخَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا الْغُوطَةَ- يَعْنِي: دِمَشْقَ- فَنَزَلْنَا عَلَى جَبَلَةَ بْنِ الْأَيْهَمِ الْغَسَّانِيِّ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ وَإِذَا هُوَ عَلَى سَرِيرٍ لَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا بِرَسُولٍ نُكَلِّمُهُ، فَقُلْنَا لَهُ: وَاللهِ لَا نُكَلِّمُ رَسُولًا، إِنَّمَا بُعِثْنَا إِلَى المَلِكِ، فَإِنْ أَذِنَ لَنَا كَلَّمْنَاهُ، وَإِلَّا لَمْ نُكَلِّمِ الرَّسُولَ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَأَذِنَ لَنَا، فَقَالَ: تَكَلَّمُوا، فَكَلَّمَهُ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ، وَدَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَإِذَا عَلَيْهِ ثِيَابُ سَوَادٍ، فَقَالَ لَهُ هِشَامٌ: مَا هَذِهِ

---

(١) أخرجه أحمد (٦٧٠٤)، وأبو داود (٢٨٨٣)، وحسَّنه الألباني في أحكام الجنائز (ص٢١٨).

الَّتِي عَلَيْكَ؟، فَقَالَ: لَبِسْتُهَا وَحَلَفْتُ أَنْ لَا أَنْزِعَهَا حَتَّى أُخْرِجَكُمْ مِنَ الشَّامِ، قُلْنَا: وَمَجْلِسُكَ هَذَا؟ فَوَاللهِ لَنَأْخُذَنَّهُ مِنْكَ، وَلَنَأْخُذَنَّ مُلْكَ الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ- إن شاء الله تَعالَى- أَخْبَرَنَا بِذَلِكَ نَبِيُّنَا ﷺ، قَالَ: لَسْتُمْ بِهِمْ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَصُومُونَ بِالنَّهَارِ، وَيُفْطِرُونَ بِاللَّيْلِ، فَكَيْفَ صَوْمُكُمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ، فَمُلأَ وَجْهُهُ سَوَادًا، فَقَالَ: قُومُوا، وَبَعَثَ مَعَنَا رَسُولًا إِلَى الْمَلِكِ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ، قَالَ لَنَا الَّذِي مَعَنَا: إِنَّ دَوَابَّكُمْ هَذِهِ لَا تَدْخُلُ مَدِينَةَ الْمَلِكِ، فَإِنْ شِئْتُمْ حَمَلْنَاكُمْ عَلَى بَرَاذِينَ وَبِغَالٍ، قُلْنَا: وَاللهِ لَا نَدْخُلُ إِلَّا عَلَيْهَا، فَأَرْسَلُوا إِلَى الْمَلِكِ: إِنَّهُمْ يَأْبَوْنَ، فَدَخَلْنَا عَلَى رَوَاحِلِنَا مُتَقَلِّدِينَ سُيُوفَنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى غُرْفَةٍ لَهُ، فَأَنَخْنَا فِي أَصْلِهَا، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْنَا، فَقُلْنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَاللهُ يَعْلَمُ لَقَدْ تَنَفَّضَتِ الْغُرْفَةُ حَتَّى صَارَتْ كَأَنَّهَا عِذْقٌ تُصَفِّقُهُ الرِّيَاحُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا: لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَجْهَرُوا عَلَيْنَا بِدِينِكُمْ، وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا: أَنِ ادْخُلُوا، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ عَلَى فِرَاشٍ لَهُ، وَعِنْدَهُ بَطَارِقَتُهُ مِنَ الرُّومِ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِي مَجْلِسِهِ أَحْمَرُ، وَمَا حَوْلَهُ حُمْرَةٌ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ مِنَ الْحُمْرَةِ، فَدَنَوْا مِنْهُ فَضَحِكَ، وَقَالَ: مَا كَانَ عَلَيْكُمْ لَوْ حَيَّيْتُمُونِي بِتَحِيَّتِكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَإِذَا عِنْدَهُ رَجُلٌ فَصِيحٌ بِالْعَرَبِيَّةِ، كَثِيرُ الْكَلَامِ، فَقُلْنَا: إِنَّ تَحِيَّتَنَا فِيمَا بَيْنَنَا لَا تَحِلُّ لَكَ، وَتَحِيَّتَكَ الَّتِي تُحَيَّا بِهَا لَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نُحَيِّيَكَ بِهَا، قَالَ: كَيْفَ تَحِيَّتُكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ؟ فَقُلْنَا: السَّلَامُ عَلَيْكَ، قَالَ: فَكَيْفَ تُحَيُّونَ مَلِكَكُمْ؟ قُلْنَا: بِهَا، قَالَ: وَكَيْفَ يَرُدُّ عَلَيْكُمْ؟ قُلْنَا: بِهَا، قَالَ: فَمَا أَعْظَمُ كَلَامِكُمْ؟ قُلْنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَلَمَّا تَكَلَّمْنَا بِهَا قَالَ: وَاللهُ لَقَدْ تَنَفَّضَتِ الْغُرْفَةُ حَتَّى رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهَا، قَالَ: فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي قُلْتُمُوهَا حَيْثُ تَنَفَّضَتِ الْغُرْفَةُ كُلَّمَا قُلْتُمُوهَا فِي بُيُوتِكُمْ تُنَفَّضُ بُيُوتُكُمْ عَلَيْكُمْ؟ قُلْنَا: لَا، مَا رَأَيْنَاهَا فَعَلَتْ هَذَا قَطُّ إِلَّا عِنْدَكَ، قَالَ: لَوَدِدْتُ أَنَّكُمْ كُلَّمَا قُلْتُمْ تَنَفَّضَ كُلُّ شَيْءٍ عَلَيْكُمْ، وَأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ نِصْفِ مُلْكِي، قُلْنَا: لِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ كَانَ أَيْسَرَ لِشَأْنِهَا وَأَجْدَرَ أَنْ لَا يَكُونَ مِنْ أَمْرِ النُّبُوَّةِ، وَأَنْ يَكُونَ مِنْ حِيَلِ النَّاسِ، ثم سَأَلَنَا

عَمَّا أَرَادَ فَأَخْبَرْنَاهُ، ثم قَالَ: كَيْفَ صَلَاتُكُمْ وَصَوْمُكُمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ، فَقَالَ: قُومُوا، فَقُمْنَا، فَأَمَرَ لَنَا بِمَنْزِلٍ حَسَنٍ وَنُزُلٍ كَثِيرٍ، فَأَقَمْنَا ثَلَاثًا، فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا لَيْلًا، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ فَاسْتَعَادَ قَوْلَنَا فَأَعَدْنَاهُ.

وطال الحوار بينهما وبين هرقل، لكنه لم يسلم مع أنه قد عرف الحق، ثم كان آخر قوله لهما: أَمَا - وَاللهِ - إِنَّ نَفْسِي طَابَتْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مُلْكِي، وَإِنْ كُنْتُ عَبْدًا لَا يَتْرُكُ مُلْكَهُ حَتَّى أَمُوتَ.

قال هشامٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثم أَجَازَنَا فَأَحْسَنَ جَائِزَتَنَا، وَسَرَّحَنَا، فَلَمَّا أَتَيْنَا أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ حَدَّثْنَاهُ بِمَا رَأَيْنَا وَمَا قَالَ لَنَا وَمَا أَجَازَنَا، قَالَ: فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: مِسْكِينٌ، لَوْ أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ خَيْرًا لَفَعَلَ، ثم قَالَ: أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ وَالْيَهُودَ يَجِدُونَ نَعْتَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَهُمْ»[(١)].

أَمِنَ الجنَّةِ تفرُّونَ؟!

ودارت المعارك بين المسلمين وبين الروم على أرض الشام، حتى كانت معركة أجنادين التي خاضها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لتحرير فلسطين من أيدي الروم الصليبيين، وقد خرجتِ الروم على المسلمين في أعداد هائلة تفوق أضعاف جيش المسلمين، حتى كانت سهام الروم تنزل على المسلمين كالأمطار الغزيرة، ثم زحفت جحافلهم على المسلمين كالسيل الجارف، فحدث اضطراب في صفوف المسلمين، وهنا برز دور البطل هشام بن العاص.

فعن أُمِّ بَكْرٍ بِنْتِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ قَالَتْ: «كَانَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ رَجُلًا

(١) ينظر: دلائل النبوة، للبيهقي (٣٥٨)، وتاريخ دمشق (٤٠/ ١٥٥)، وتاريخ الإسلام، للذهبي (١/ ٧٩٧)، والإصابة (٦/ ٤٢٤).

صَالِحًا رَأَى يَوْمَ أَجْنَادِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْضَ النُّكُوصِ عَنْ عَدُوِّهِمْ، فَأَلْقَى الْمِغْفَرَ، ثم قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ الْغَلْفَانَ لَا صَبْرَ لَهُمْ عَلَى السَّيْفِ، فَاصْنَعُوا كَمَا أَصْنَعُ، قَالَت: فَجَعَلَ يَدْخُلُ وَسْطَهُمْ، فَيَقْتُلُ النَّفْرُ مِنْهُمْ، وَجَعَلَ يَتَقَدَّمُ فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ وَهُوَ يَصِيحُ: إِلَيَّ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَيَّ أَنَا هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، أَمِنَ الْجَنَّةِ تَفِرُّونَ؟!»[١].

وأخذ هشامٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يثبِّت أفئدة المسلمين بكلماته الصادقة التي أيقظت بعض النفوس من غفلتها، فالتئم المسلمون من جديد، وحملوا على الروم حملة رجل واحد ففرَّقوهم في رؤوس الجبال وهزموهم بفضل الله ربِّ العالمين.

وهكذا كان يوم أجنادين صفحة مطوية من صفحات البطولة والجهاد في حياة الصحابي الجليل هشام بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

موقفُه العظيمُ يومَ اليرمُوكِ

وبعد النصر الذي حققه المسلمون في أجنادين جمعت الرومُ لهم جموعًا عظيمة، فكان عددهم مائتين وأربعين ألفًا، أو يزيدون، واجتمعت جيوش المسلمين في اليرموك وعددهم أربعون ألفًا تقريبًا، فاجتمع خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اجتماعًا عاجلًا بأمراء الأجناد يشاورهم في الأمر، فقال بعضهم: «إنه قد حضركم جمع عظيم، فإن رأيتم أن تناجزوا إلى نواظر الشام، إلى بيرين، أو القدس، وتكتبوا إلى أبي بكر فيمدكم؟، فقال هشام بن العاص: إن كنتم تعلمون أنما النصر من عند الله العزيز الحكيم، فقاتلوا، وإن كنتم تنتظرون نصرًا من عند أبي بكر ركبتُ راحلتي حتى ألحق به، فقال بعض القوم: ما ترك لكم هشام بن العاص مقالًا»[٢].

---

(١) ينظر: المستدرك (٥٠٥٢)، والإصابة (٦/ ٤٢٤).

(٢) ينظر: تاريخ دمشق (٧٤/ ١٩).

وعزم المسلمون على خوض هذه المعركة الفاصلة، يستغيثون ربهم، ويسألونه المدد والنصر.

وقام خالد بن الوليد بتعبئة جيشه وتقسيمه وترتيبه، وعيَّن أمراءه، وأوكل إليهم المهام، ودارت رحى المعركة، فاقتتل الفريقان مَقْتَلَةً عَظِيمَةً في حرب لم يشهد المسلون مثلها من قبل.

وبطل قصتنا هشام بن العاص صال وجال في ساحة القتال، حتى انقض كالصقر على أحد قادة المشركين فقتله، فكَرَّت عليه خيولهم فأحاطوا به، فقاتل قتالًا شديدًا حتى أَثْبَتَتْهُ الْجِرَاح، فانقضوا عليه بسيوفهم ورماحهم وما تركوه إلا وهو على الأرض يسبح في دمائه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

إيثارٌ حتى الموتِ

وبعد أن نصر الله المسلمين وانتهتِ المعركة قام المسلمون يدفنون شهداءهم، ويداوون جرحاهم، وقام أحد الصحابة وهو أبو جَهم بنُ حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبحث عن ابن عمٍّ له فوجده مُجندلًا في دمائه يلتقط أنفاسه الأخيرة، ورأى- عندئذٍ- صورةً حيةً من صور الإيثار التي تفضي بالعقول إلى الدهشة والذهول، فينقلها إلينا قائلًا: «انْطَلَقْتُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ أَطْلُبُ ابْنَ عَمِّي، وَمَعِي شَنَّةٌ مِنْ مَاءٍ، وَإِنَاءٌ، فَقُلْتُ: إِنْ كَانَ بِهِ رَمَقٌ سَقَيْتُهُ مِنَ الْمَاءِ، وَمَسَحْتُ بِهِ وَجْهَهُ، فَإِذَا أَنَا بِهِ يَنْشَغُ، فَقُلْتُ لَهُ: أَسْقِيكَ؟ فَأَشَارَ أَنْ نَعَمْ، فَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ: آهِ، فَأَشَارَ ابْنُ عَمِّي أَنِ انْطَلِقْ بِهِ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ أَخُو عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَسْقِيكَ؟ فَسَمِعَ آخَرَ يَقُولُ: آهِ، فَأَشَارَ هِشَامٌ أَنِ انْطَلِقْ بِهِ إِلَيْهِ، فَجِئْتُهُ فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ، ثم رَجَعْتُ إِلَى هِشَامٍ، فَإِذَا هُوَ قَدْ

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٤/ ١٤٧).

مَاتَ، ثم أَتَيْتُ ابْنَ عَمِّي، فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ»[١].

ويموت هشام بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على أرض اليرموك شهيدًا في سبيل الله، وتخرج روحه إلى بارئها لتسرح في الجنة مع أرواح الشهداء إلى يوم القيامة.

ثم مرَّ أحد المجاهدين فنظر إليه وهو في دمائه، فقال له: رحمك الله، هذا الذي كنتَ تبتغي[٢].

هشامٌ في ذاكرةِ المسلمينَ

ومات هشام بن العاص، ولكنه بقي حيًّا في قلوب المسلمين وبالأخص قلب أخيه عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وها هو ذا عمرو يجلس يومًا في نفر من قريش يذكرون هشام بن العاص، ويُعددون مناقبه، فسألوه فقالوا: أنت خيرٌ، أم أخوك هشام؟، فقال عمرو: إنِّي مُخبركم عنِّي وعنه: «إنه كان أَحَبَّ إلى أبيه منِّي، وسبقني بالإسلام والهجرة، وشهدتُ أنا وهو اليرموك، فباتَ وبتُّ ندعو الله أن يرزقنا الشهادة، فلما أصبحنا عرضنا أنفسنا على الله، فقبله وتركني، فَرُزِقَها وحُرِمْتُها، ثم قال لهم عمرو: فهل في ذلك ما يُبين لكم فضله علَيَّ؟!»[٣].

رضي اللهُ عن هشام بن العاص،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٥٢٥)، ومن طريقه البيهقي في الشعب (٣٢٠٨).

(٢) ينظر: تاريخ دمشق (٧٤/ ١٩).

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى (٤/ ١٤٦) والاستيعاب (٤/ ١٥٢٩)، وفرسان النهار (٦/ ١٥٥).

عُلبةُ بنُ زَيدٍ الحَارثيُّ

المتصدِّقُ بعِرضِه

نحن هنا مع قصة رجلٍ من عصر النُّبوة، كان فقيرًا جدًّا، لكنه كان عَفيفًا جدًّا، ومع أنه كان من المستحقين للصدقة إلا أنه كان من المتصدقين.

هو رجلٌ فقيرٌ، لكنه علَّمنا كيف تكون حقيقة الحُبِّ، فقيرٌ لكنه علَّمنا من خلال فقره معانِيَ كثيرةً نفتقدها في زماننا، فقيرٌ لكنَّ التاريخ خَلَّدَ ذكره في صفحاته، بل خَلَّدَه القرآنُ بين آياته، إنه الصحابيُّ الأنصاريُّ: عُلْبَةُ بْنُ زَيْدٍ الحَارِثيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اسمُه ونسبُه

هو عُلْبَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ صَيْفي بنِ عَمْرو بْن زَيْد، الحَارِثيُّ، الأَوْسِيُّ، الأَنْصَاريُّ[1].

هكذا يكونُ الحبُّ

كان حُبُّ الصحابةِ للنبيِّ ﷺ يُفضي بالعقول إلى الدهشة والذهول، ومع ذلك لم يكن فيه اصطناعٌ ولا تَكَلُّفٌ؛ وذلك لأنه نَبَعَ من قلوب طاهرة، ومشاعرَ صادقةً.

وها هو ذا عُلْبَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَظهر أمامنا على ساحة هؤلاء المُحبين المُخلصين، فلقد رأى النبيَّ ﷺ يومًا خَمِيصَ الْبَطْنِ، على وجهه آثار الجوع، فكادت نفسُه أن تذوب شفقةً على حال رسول الله ﷺ، ولكنه لم يقف أمام هذا المشهد دامع العينين، مكتوف اليدين، ولم يقل كلمة كثير من البطالين: (ما باليد حيلة)، وإنما حَوَّل حُبَّه إلى عمل،

---

(١) ينظر: أسد الغابة (٤/ ٧٧)، والإصابة (٤/ ٤٥٠).

وتَرْجَمَ شعورَه الداخليَّ إلى واقع إيجابي مشهود، فانطلق في لَمْحِ البصر، لا ليَمُدَّ يديه بالسؤال، ولا ليبحث عمن يُقرضه، بل انطلق يبحث عن عمل يحصل من خلاله على أُجْرَةٍ يُطْعِمُ من خلالها حبيبَه ﷺ ويَسُدُّ بها جُوعَه.

فأتى يهوديًّا صاحبَ بئرٍ، فقال له: أُؤجِرَكَ نَفْسي أَجُرُّ الْجَرِيرَ(١) عَلَى أَنْ تُعْطِيَنِي صَاعًا مِنْ تَمْرٍ؟، فَقَبِلَ اليهوديُّ، فَعَمِلَ عُلْبَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَهُ إلَى الْعَصْرِ، ثم أَخَذَ التَّمْرَ، وانطلق يسابق الريح ليُطْعِمَ به رسولَ الله ﷺ(٢).

فها هو المُحِبُّ الصادق عُلْبَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان أقصى طموحه في هذا العمل الشاقّ المُجْهد أن يحصل على صاع من تمر فقط ليُدْخل به السرور على قلب رسول الله ﷺ، إنها هَديةٌ يسيرةٌ من رجل فقير، يحضرني معها قول الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

جهادُه في سبيلِ الله

المُتَصفح لكتب السِّير والتراجم يجد عُلْبَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد خرج مع النبيِّ ﷺ في مُعظم مشاهده، إن لم يكن شهدها كلها، والمتأمل في السرايا والبعوث التي أرسلها النبيُّ ﷺ يجد عُلْبَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحدَ أبطال الكثير منها، ومن أشهر تلك السرايا التي أبلى فيها عُلْبَةُ بلاءً حسنًا: سَرية بشير بن سعد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بَني مُرَّةَ، فقد كان عددهم فيها قليلًا، وقاتلوا قتالًا شديدًا حتى كاد قائدهم أن يُقتل، وقد أصيب عامتهم بجراحات، ثم رجعوا إلى المدينة، وأخبر عُلْبَةُ بْنُ زَيْدٍ النبيَّ ﷺ بمُصابهم وما حدث له، فأرسل النبيُّ ﷺ سَرية تثأر لإخوانهم بقيادة غالب بن عبد الله الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان عُلْبَةُ

(١) أي: هل أعمل عندك أرفع الماء من البئر وأجرُّه، للناس بالحبل؟. ينظر: النهاية، لابن الأثير (١/ ١٥٥).
(٢) ينظر: المغازي (٣/ ١٠٦٩).

بْنُ زَيْدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هو قائد طليعة هذه السَرية، فنصرهم الله جَلَّوَعَلَا على عدوهم[1].

أين المتصدِّقُ بعِرضِه؟

وظل عُلْبَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مُواصِلًا رحلةَ الجهاد في سبيل الله تعالى حتى جاءت غزوة تبوك، وهي غزوة لها ظروف خاصة، فقد كانت الأمور المالية في الدولة الإسلامية حينئذٍ مُتعسرة، حتى سُميت بغزوة العُسرة، وقد اجتمع فيها مع النبيِّ ﷺ عددٌ كبيرٌ من المجاهدين، ولم يكن متوفرًا من الدواب التي ستحمل المقاتلين إلى هذا السفر البعيد إلا القليل، ففتح النبيُّ ﷺ باب التبرعات، وحث الناس على الصدقة، فقال ﷺ: «**مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ**»[2]، فضرب أغنياء المسلمين مثالًا رائعًا في البذل والعطاء، وقَدَّمَ فقراؤهم صورةً مُشرِّفَةً في التضحية والفداء، ومع ذلك لم يَسْلموا جميعًا من ألسنة المنافقين، فكانوا إذا جاء الغنيُّ بِالصَّدَقَةِ الْعَظِيمَةِ قال المنافقون: مُرَاءٍ، وإذا جاء الفقير بما في وسْعِهِ قالوا: إنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنْ صدقة هَذَا، فأنزل الله قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة يدافع فيه عن أوليائه الصالحين، ويَفضح المنافقين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩][3].

وَأَمَّا عُلْبَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فكان من أمره عَجَبًا، فَقد خَرَجَ مِنَ اللَّيْلَ فَصَلَّى مَا شَاءَ اللهُ أنْ يُصلي، ثم بَكَى وهو يناجي ربه في ظلام الليل قائلًا: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ أَمَرْتَ بِالْجِهَادِ، وَرَغَّبْتَ فِيهِ، ثم لَمْ تَجْعَلْ عِنْدِي مَا أَتَصَدَّقُ بِهِ، وَمَا عِنْدِي إِلا عِرْضِي، وَإِنِّي

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٩١)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٤/ ٢٩٥)، وتاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٤٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٧٨).

(٣) ينظر: صحيح البخاري (١٣٩٤).

أَتَصَدَّقُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ بِكُلِّ مَظْلِمَةٍ أَصَابَنِي بِهَا فِي مَالٍ، أو جَسَدٍ، أو عِرْضٍ.

ثُمَّ أَصْبَحَ عُلْبَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَعَ النَّاسِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **أَيْنَ الْمُتَصَدِّقُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ؟**، فَلَمْ يَقُمْ أَحَدٌ، ثم قَالَ: **أَيْنَ الْمُتَصَدِّقُ فَلْيَقُمْ؟**، فَلَمْ يَقُمْ أَحَدٌ- كُلُّ هذا ولم يتخيل عُلْبَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه المقصود- حتى قال النبيُّ ﷺ: **أَيْنَ الْمُتَصَدِّقُ بِعِرْضِهِ الْبَارِحَةَ؟**، فَقَامَ إِلَيْهِ عُلْبة فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **أَبْشِرْ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَقَدْ كُتِبَتْ فِي الزَّكَاةِ الْمُتَقَبَّلَةِ**- وفي رواية-: **إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ قَبِلَ صَدَقَتَكَ**»(١).

ولا شك أنَّ الصدقة التي قَدَّمَها عُلْبَةُ بنُ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صدقةٌ غالية، فهي ليست بالسهلة على النفس البشرية، بل- واللهِ- لربما تكون صدقة المال مع عِظَمِ ثوابها أسهلَ- أحيانًا- منها، وأما أن يتصدق الإنسان بِعِرْضِه، ويتنازل بسهولة عن حقه، ويعفو بكل أريحية عمَّن اغتابه، أو قذفه، أو انتقص أمام الناس من شأنه، فهذا- واللهِ- ليس بالهين إلا على من يَسَّرَه الله عليه؛ لذلك قال الله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقد نلمح فيما فعل عُلْبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سلامةَ قلبِه، وواللهِ إنها لمِنْ أعظم ما يُرْزَقُ العبدُ به، فقد قال الله- عن يوم الحساب-: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، وقد قال النبيُّ ﷺ يومًا عن رجل: «**إنه من أهل الجنة**- فلما سُئل الرجلُ عن حاله قال للسائل-: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ»(٢)، وقد سُئل النبيُّ ﷺ: «مَنْ خيرُ الناس؟ فقال: **ذُو الْقَلْبِ الْمَخْمُومِ، وَاللِّسَانِ الصَّادِقِ**، فَقَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟، قَالَ: **هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لا إِثْمَ فِيهِ، وَلا بَغْيَ،**

---

(١) ينظر: مسند البزار (٣٣٨٧)، وكشف الأستار (٩٥٩)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٥/ ٢١٨)، والإصابة (٤/ ٤٥٠)، والقصة صحَّحها الألباني في تحقيقه لفقه السيرة (٤٠٥)، وصحَّحها العلي في صحيح السيرة النبوية (٤٦٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٦٩٧)، وصحَّحه محققو طبعة الرسالة عن أنس بن مالك.

وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ»[1]، وواللهِ إن العبد إذا رُزِقَ هذه النعمة وجد حلاوتها في الدنيا قبل نعيم الآخرة؛ فإن سلامة الصَّدْر هي دَوَاؤه من المُنَغِّصَاتِ والمُعَكِّرَات، حيث تجعل العبد في حالة يقظته هادئَ النفس، وإذا وَضَعَ رأسَه على فراشه نام قريرَ العين، وهاتيك اللذة يفتقدها- واللهِ- كثير من أصحاب الثَرَوَاتِ الطائلة.

وإنَّ هذا الحَمَّالَ الفقير الذي إذا غاب ربما لا يُفْتَقَد، وإذا جاء لَا يُؤْبَهُ لَهُ، وإذا تكلم لا يُلْتَفَتُ إليه، لو تأملتَ قصته بقلب مُعْتَبِر حين غاب عن أعين الناس تحت سُتُور الظلام، وبات في جوف الليل ساجدًا وقائمًا، تسيل عَبَرَاتُه بين يدي ربِّه وهو يشكو حاله إليه، ثم يُصبح فيجد اللهَ العظيم قد أوحى إلى نبيه ﷺ ما كان من أمره، حينئذٍ ستتلاشى- واللهِ- في قلبك كلُّ المخاوف التي تعتريه إذا ضاقت بك الدنيا، وتكالبت عليك هموم الحياة، إلى جانب ذلك ستفكر ألف مرة قبل أن تحكم على أحد من خلال هيئته، أو مستواه الاجتماعي بين الناس، فـ«**كَم مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**».

دموعٌ صادقةٌ

ومَكَثَ النبيُّ ﷺ أيامًا يُجهز جيش العُسْرة، وعُلْبَةُ بنُ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كبقية المؤمنين- قد تأهب نفسيًّا للجهاد في سبيل الله تعالى والغزو مع رسوله ﷺ، وبعد كل هذه العَقَبَات التي ذُلِّلَت، والتجهيزات التي أُعدت، بقيت عَقَبَةٌ واحدة لم يجدِ النبيُّ ﷺ لها حلًّا، ألا وهي قلة الدواب التي ستحمل الجنود إلى تبوك، فالمسافة بعيدة، والعدد كبير، والحر شديد، والعدو عظيم العدد والعدة، فأخذ النبيُّ ﷺ يُقسم جيشه إلى مجموعات صغيرة يتعاقب أفرادها على الظهر الواحد.

وهنا ظهرت مشكلة جديدة، فلقد تَبَقَّى عددٌ من فقراء المسلمين لم يَجدِ النبيُّ ﷺ

(١) ينظر: سنن ابن ماجه (٤٢١٦)، وشعب الإيمان، للبيهقي (٤٨٠٠)، والسلسلة الصحيحة، للألباني (٩٤٨).

ما يحملهم عليه- منهم: بطل قصتنا: عُلْبَةُ بْنُ زَيْدٍ الحَارِثِيُّ-، فقالوا: يا رسول الله، احْمِلْنَا عَلَى أي شيء نَغْزُ مَعَكَ، فنظر إليهم النبيُّ ﷺ نظرةَ المشفق، وقَالَ لهم: «**لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**»، فنزلت هذه الكلمات النبوية على مشاعرهم الجيَّاشة فَفَجَّرَتْ دموعَ الصدق الطاهرة من أعينهم البريئة تَخْضِلُ اللِّحَى وتَبُلُّ الثرى، فَعَبَّرَتْ دموعُهم بدلًا من ألسنتهم التي عجزت عن التعبير، ولقد كانت عَبَرَاتُ الإيمان هذه غالية عند الله وعند رسوله حتى سجلها القرآنُ في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢][(١)].

وغزا النبيُّ ﷺ بجيشه ولم يَغِبْ عن عينيه الشريفتين مشهدُ البكَّائين الصادقين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فقال لجنوده- وهو في طريق عودته-: «**لَقَدْ تَرَكْتُمْ بِالْمَدِينَةِ رِجالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ فِي الْأَجْرِ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ يَكُونُونَ مَعَنَا وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟، قَالَ: **حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»[(٢)].

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعدما أفنى عُلْبَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حياته في سبيل الله ينزل به الموت ليخرج من الدنيا التي طالما حرمه الفقرُ من لذاتها ليرى في جنات النعيم مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

---

(١) ينظر: الاستيعاب (٣/ ١٣٤٥)، ودلائل النبوة، للبيهقي (٥/ ٢١٨)، والإصابة (٤/ ٤٥٠)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٣٨).

(٢) ينظر: البخاري (٢٦٨٤- ٤١٦١)، ومسلم (١٩١١)، وأحمد (١٢٦٥٠).

وليس في المصادر التي بين أيدينا ذِكرُ تاريخ، أو مكان وفاة هذا الصحابي الجليل، لكن الذي يحضرني الآن هو قول النبيِّ ﷺ: «أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ الْفُقَرَاءُ وَالْمُهَاجِرُونَ، الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ: ائْتُوهُمْ فَحَيُّوهُمْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: نَحْنُ سُكَّانُ سَمَائِكَ، وَخِيرَتُكَ مِنْ خَلْقِكَ، أَفَتَأْمُرُنَا أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءِ فَنُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ؟، قَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونَنِي، لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَتُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً، قَالَ: فَتَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ- يقولون-: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»[١].

رضي اللهُ عن عُلبَةَ بنِ زَيدٍ الأنصاريِّ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) أخرجه أحمد (٦٥٧٠)، وصحَّحه أحمد شاكر.

مُعاذُ بنُ عَمرو بن الجَمُوح

نِعمَ الرَّجلُ مُعاذُ بنُ عَمرِو بنِ الجَمُوحِ(١)

ها نحن نعيش معًا- في هذه الترجمة- مع بطل من أبطال الإسلام، وشابٍّ ممن صنعوا تاريخ هذه الأمة، وأسسوا أركان دولتها، هو شابٌّ نشأ على حبِّ الله ورسوله، والتضحية في سبيله، شابٌّ من أنصار هذا الدين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

إن حديثنا عن البطل العظيم: مُعَاذُ بْنُ عَمْرو بْنِ الجَمُوحِ، فهيا بنا نتعرف على سيرته.

مَن مُعاذُ بنُ عمروٍ؟

هو معاذ بن عمرو بن الجَمُوح بن كعب، الخزرجيُّ، السلمِيُّ، شهد العقبة الكبرى وبدرًا، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

ونشأ هذا الشاب في بيت عريق النسب، فأبوه هو عمرو بن الجموح سيدُ بني سلمة، وأمه هي هند بنتُ عمرو بن حرام أختُ البطل الهمام عبد الله بن عمرو بن حرام، فهو ابنُ عمة جابر بن عبد الله رضي الله عنهم جميعًا(٢).

مِصباحُ الهُدى يُضيءُ أنحاءَ يثربَ

لما بايع النبيُّ ﷺ بعض الأنصار بيعة العقبة الأولى، طلبوا منه أن يرسل إليهم مَنْ

---

(١) قالها النبيُّ ﷺ وسيأتي تخريجها.

(٢) ينظر: التاريخ الكبير، للبخاري (٧/ ٣٦٠)، والطبقات الكبرى (٣/ ٥٦٦).

يتعهد نماء الإسلام في المدينة، ويقرأ على أهلها القرآن، ويفقهم في الدين، ويدعو إلى الإسلام من لم يُسْلم بعد، فأرسل النبيُّ ﷺ إليهم مصعبَ بنَ عمير، الذي نزل على أسعد بن زرارة، فكان ينتقل به إلى كل مكان في يثرب يستطيع أن يدعو أهله للإسلام، حتى أسلم على يديه خلق كثير، ومن بين هؤلاء الذين خالط الإيمان قلوبهم من أول وهلة: ذلكم الشاب معاذ بن عمرو بن الجموح، فعندما تخللت آيات القرآن مسامعه تحركت شفتاه بـ(أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله)، وهكذا أشرقت شمس الإسلام في قلبه(١).

وَبالوالدينِ إحسانًا

جاء الإسلام ليُتَمِّمَ مكارم الأخلاق، وأسْمَى هذه المكارم بِرُّ الوالدين والإحسانُ إليهما، ولقد تعددت آياتُ القرآن التي تنادي بهذا المعنى، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

ولقد رأى هذا الشابُّ الطاهر حديث السِنِّ والإسلام أنَّ أعلى مقامات الإحسان لوالديه هي هدايتهم ليخرجوا من ظلمات الجاهلية والأوثان إلى نور الحق والإيمان، فبحث عن حيلة يُقنع بها أباه الذي تعلق قلبه بصنمه (مَناة)، حتى هُدِيَ إلى حيلة عزم على تنفيذها.

فيا تُرى ما هذهِ الحِيلَةُ؟

قال ابنُ إسحاق: «كَانَ مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ قَدْ شَهِدَ الْعَقَبَةَ، وَبَايَعَ رَسُولَ الله ﷺ بِهَا، وَكَانَ عَمْرٌو سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ بَنِي سَلِمَةَ، وَكَانَ قَدِ اتَّخَذَ فِي دَارِهِ صَنَمًا مِنْ خَشَبٍ يُقَالُ لَهُ: مُنَاة فَلَمَّا أَسْلَمَ فِتْيَانُ بَنِي سَلِمَةَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَابْنُهُ مُعَاذُ بْنُ عَمْرٍو وَغَيْرُهُمَا كَانُوا

(١) ينظر: المعجم الكبير (٨٤٩)، والسيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (١/ ١٧٦).

يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ عَلَى صَنَمِ عَمْرٍو فَيَحْمِلُونَهُ فَيَطْرَحُونَهُ فِي بَعْضِ حُفَرِ بَنِي سَلِمَةَ، وَفِيهَا عِذَرُ النَّاسِ مُنَكَّسًا عَلَى رَأْسِهِ، فَإِذَا أَصْبَحَ عَمْرٌو قَالَ: وَيْلَكُمْ مَنْ عَدَا عَلَى إِلَهِنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ؟، ثم يَغْدُو يَلْتَمِسُهُ حَتَّى إِذَا وَجَدَهُ غَسَّلَهُ وَطَهَّرَهُ وَطَيَّبَهُ، ثم قَالَ: أَمَا- وَاللهِ- لَوْ أَعْلَمُ مَنْ يَصْنَعُ هَذَا بِكَ لَأُحَرِّقَهُ، فَإِذَا أَمْسَى وَقَامَ عَمْرٌو عَدَوْا عَلَيْهِ فَفَعَلُوا بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَفَعَلَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا أَلَحُّوا عَلَيْهِ اسْتَخْرَجَهُ مِنْ حَيْثُ أَلْقَوْهُ فَغَسَلَهُ وَطَهَّرَهُ وَطَيَّبَهُ، ثم جَاءَ بِسَيْفِهِ فَعَلَّقَهُ عَلَيْهِ، ثم قَالَ: إِنِّي- وَاللهِ- مَا أَعْلَمُ مَنْ يَصْنَعُ بِكَ مَا تَرَى، فَإِنْ كَانَ فِيكَ خَيْرٌ فَامْتَنِعْ، فَهَذَا السَّيْفُ مَعَكَ، فَلَمَّا أَمْسَوْا وَنَامَ عَدَوْا عَلَيْهِ فَأَخَذُوا السَّيْفَ مِنْ عُنُقِهِ، ثم أَخَذُوا كَلْبًا مَيِّتًا فَعَلَّقُوهُ وَقَرَنُوهُ بِحَبْلٍ، ثم أَلْقَوْهُ فِي بِئْرٍ مِنْ آبَارِ بَنِي سَلِمَةَ فِيهَا عِذَرُ النَّاسِ، وَغَدَا عَمْرٌو فَلَمْ يَجِدْهُ، فَخَرَجَ يَتْبَعُهُ حَتَّى وَجَدَهُ فِي الْبِئْرِ مُنَكَّسًا مَقْرُونًا بِكَلْبٍ مَيِّتٍ، فَلَمَّا رَآهُ أَبْصَرَ شَأْنَهُ وَكَلَّمَهُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَسْلَمَ عَمرُو بْنُ الْجَمُوحِ، وحَسُنَ إِسْلَامُهُ»[(١)].

وهكذا استخدم معاذ بن عمرو مع أبيه في الدعوة إلى الله أسلوبًا حكيمًا، حيث جعله يرى بنفسه أنَّ إلهه الذي يعبده لا يضر ولا ينفع حتى نفسه، وعندما رأى الفرصة مناسبة دعا أباه إلى الإسلام صراحة، فأسلم وحَسُنَ إسلامُه، بل وجعله النبيُّ ﷺ سيد بني سلمة إذ قال لهم: «**سَيِّدُكُمُ الْجَعْدُ الأَبْيَضُ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ**»[(٢)].

فإن من أعظم النِعَم التي يَرْزُقُ اللهُ بها العبد أن يعطيه وَلَدًا صالحًا يأخذ بيده إلى نعيم الدنيا والآخرة، وهذا هو البِرُّ بحق.

أعظمُ ليلةٍ في حياةِ معاذٍ

بعد ما أدَّى الداعية الحَصيف مصعب بن عمير مهمته وبلغ رسالته حتى لم يبق

---

(١) ينظر: دلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ٣٣٦)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٧)، وأسد الغابة (٣/ ٧٠٤).
(٢) صحيح الأدب المفرد (٢٢٧).

دارٌ من دُور يثرب إلا فيها رهط يُظهرون الإسلام، عاد مصعبٌ إلى مكة، وكان النبيُّ ﷺ في هذه الأيام يطوف على القبائل ويتبع الحاج في الموسم ويقول لهم: «**مَنْ يُؤْوِينِي وَيَنْصُرَنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رسالات رَبِّي وله الجنة**»، فلا يجد ناصرًا ولا مُعينًا، فدفع الأسفُ على حال النبيِّ ﷺ سبعين رجلًا من شباب يثرب لعَقد اجتماعٍ عاجلٍ يناقشون فيه ما ينبغي عليهم فعله تجاه رسول الله ﷺ، وكان من بين هؤلاء الصفوة الأخيار: بطلُ قصتنا: معاذُ بنُ عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وطالت جلسة النقاش والمشاورة التي فُتِحَتْ بقول بعضهم: «حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ الله ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ؟!»، فأشعلت هذه الكلماتُ في قلوب الحاضرين حَمَاسًا لو وقفت أمامه الجبال الرواسي لأزاحها، فعزموا على إيواء النبيِّ ﷺ في بلدتهم ونصرته حتى يُبلغ رسالة ربه في الأقطار والأمصار، كائنٌ في ذلك ما هو كائن.

فخرجوا مع حجيج يثرب في العام الثالث عشر من البعثة، ولما وصل الرَّكب مكة واعدوا النبيَّ شِعْبَ العقبة أوسط ليالي أيامِ التشريق، ولما كانت الليلة الموعودة نام الأبطال في رحال قومهم حتى مضى ثلثُ الليل، ثم قاموا يتسللون من بينهم في خفة الطير، يسيرون في طُرُقٍ متفرقة، مُسْتخْفين تحت ظلام الليل، حتى اجتمعوا في شعب العقبة، فجاءهم النبيُّ ﷺ ومعه عمُّه العباس الذي جاء يستوثق لأمر ابن أخيه، فإنه ذو معرفة بكبراء يثرب، فَلَمَّا نَظَرَ الْعَبَّاسُ فِي وُجُوهِهم خاف على ابن أخيه وقَالَ له: «يا ابن أخي، هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُهُمْ، هَؤُلَاءِ أَحْدَاثُ السِّنِّ، ثم قال العباسُ لهم: إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَهُوَ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبِلَادِهِ، قَدْ مَنَعْنَاهُ مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، وَقَدْ أَبَى إِلَّا الِانْحياز إِلَيْكُمْ، وَإِلَى مَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَخْشَوْنَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خُذْلَانًا فَاتْرُكُوهُ فِي قَوْمِهِ؛ فَإِنَّهُ فِي مَنَعَةٍ مِنْ عَشِيرَتِهِ وَقَوْمِهِ، فقالوا: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فتَكَلَّمْ يَا

رَسُولَ الله، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ، فَتَكَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ فَتَلَا الْقُرْآنَ، وَدَعَا إِلَى الله تعالى، وَرَغَّبَ فِي الْإِسْلَامِ، ثم قَالَ: **أُبَايِعُكُمْ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لَا تَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ يَثْرِبَ، فَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمُ الْجَنَّةُ**، فَقام القوم ليبايعوه، فَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وَهُوَ أَصْغَرُ السَّبْعِينَ فَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ الله، وإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى السُّيُوفِ إِذَا مَسَّتْكُمْ، وَعَلَى قَتْلِ خِيَارِكُمْ، وَعَلَى مُفَارَقَةِ الْعَرَبِ كَافَّةً فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى الله، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ، فَهُوَ أَعْذَرُ عِنْدَ الله، فقَالَوا: يَا أَسْعَدُ بْن زُرَارَةَ أَمِطْ عَنَّا يَدَكَ، فَوَالله لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا»[(١)].

ولا شك أنَّ هذه الليلة فيما أرى هي أعظم ليلة في حياة معاذ بن عمرو، ففيها تمت البيعة الكبرى التي غيرت مسار دعوة الإسلام، وبها أقيمت له دولة، وأصبح له أنصار ذوو شوكة، فحُقَّ لمن شهدها أن يفتخر بما افتخر به كعب بن مالك؛ إذ قال: «وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا)[(٢)].

يا بَني سَلِمَةَ دِيارَكم فإنَّها تُكْتَبُ آثارُكم

ولما هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة وبَنَى مسجده الشريف، كانت بنو سلمة قوم معاذ

---

(١) ينظر: مسند أحمد (١٤٤٩٦– ١٥٨٣٦)، والسلسلة الصحيحة (٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٩).

ابن عمرو ديارهم بعيدة عن النبيِّ ﷺ وعن مسجده، وكانت قلوبهم تذوب شوقًا لرسول الله ﷺ، فأرادوا أن يتركوا منازلهم، وأن يسكنوا قرب مسجد رسول الله ﷺ، وهكذا الحُبُّ الصادق تهون على النفس فيه البيوتُ وملاعبُ الصبا، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال لهم: «**إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ**، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، قَدْ أَرَدْنَا ذلك، فَقَالَ ﷺ لهم: **يَا بَنِي سَلِمَةَ، أَلَا تَحْتَسِبُونَ آثَارَكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ**؟، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، فقال ﷺ لهم: **يَا بَنِي سَلِمَةَ دِيَارَكُمْ**- أي: الزَمُوا دياركم-؛ **فَإِنَّهَا تُكْتَبُ آثَارُكُمْ، إِنَّ لَكُمْ بِكُلِّ خَطْوَةٍ دَرَجَةً**، فقَالُوا: مَا كَانَ يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا، وأقاموا في مساكنهم، وأنزل الله قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]»[١].

وجاءَ دَوْرُ البطلِ

وكان هذا الشاب المؤمن، حديثُ السِّنِّ يسمع عن حياة النبيِّ ﷺ في مكة وما لاقاه من إيذاء على يد عدو الله أبي جهل، فكان يَحْلُمُ باليوم الذي يثأر فيه لرسول الله ﷺ، فقد تخللت محبته شغاف قلبه حتى أصبح يحب الله ورسوله ﷺ أكثر من نفسه، بل من الدنيا وما فيها، وهذه علامة الإيمان التي أخبر بها النبيُّ ﷺ؛ إذ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَمَالِهِ، وَأَهْلِهِ وَوَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[٢].

حتى جاءت غزوة بدر الكبرى، واصطف الفريقان: المسلمون وعلى رأسهم رسولُ الله ﷺ، والمشركون وعلى رأسهم عدو الله أبو جهل.

---

(١) ينظر: البخاري (١٧٨٨)، ومسلم (٦٦٥)، والترمذي (٣٢٢٦)، وابن ماجه (٧٨٥).
(٢) ينظر: البخاري (١٤- ١٥)، ومسلم (٢٤٤)، وأحمد (١٨٩٦١).

ورأى معاذ بن عمرو أن الحُلُم بالثأر لرسول الله ﷺ قد اقترب من أن يكون حقيقة، ولكن هذا الحُلُم لم يكن يسكن صدره وحده، بل كان يسكن صدرَ أَعَزِّ أصدقائه- أيضًا- وهو معوذ بن عفراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهيا بنا نستمع لعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يحكي لنا من أمرهما عجبًا.

قال عبد الرحمن بن عوف: «بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا عَنْ يَمِينِي وَعَنْ يَسَارِي فَتيَانِ حَدِيثَا السِّنّ مِنَ الأَنْصَارِ، فَكَأَنِّي لَمْ آمَنْ بِمَكَانِهِمَا، وتَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا، فغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ لِي- سِرًّا مِنْ صَاحِبِهِ-: يَا عَمِّ أَرِنِي أَبَا جَهْلٍ، فَقُلْتُ: يَا ابْنَ أَخِي، وَمَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ؟، فقال: بَلَغَنِي: أَنَّهُ سَبَّ رَسُولَ الله ﷺ، فَقُلْتُ: يَا ابْنَ أَخِي، وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: عَاهَدْتُ الله إِنْ رَأَيْتُهُ أَنْ أَقْتُلَهُ، أو أَمُوتَ دُونه، قال: فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ، فَغَمَزَنِي الآخَرُ، فَقَالَ لِي- سِرًّا مِنْ صَاحِبِهِ- مِثْلَهَا، قَالَ ابن عوف: فَمَا سَرَّنِي أَنِّي بَيْنَ رَجُلَيْنِ مَكَانَهُمَا، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، فقُلْتُ: أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي، فَأَشَرْتُ لَهُمَا إِلَيْهِ فَشَدَّا عَلَيْهِ مِثْلَ الصَّقْرَيْنِ، فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا، فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ، ثم انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَأَخْبَرَاهُ، فَقَالَ ﷺ: **أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟**، فقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ، فَقَالَ ﷺ: **هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟**، قَالَا: لَا، فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ، فَقَالَ: **كِلَاكُمَا قَتَلَهُ**، ثم قَضَى بِسَلَبِهِ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ، وَكَانَا مُعَاذَ ابْنَ عَفْرَاءَ، وَمُعَاذَ بْنَ عَمْرِو بْنِ الجَمُوحِ»(١).

ولنستمع- أيضًا- إلى معاذ بن عمرو وهو يحدثنا بنفسه عن تفاصيل قتله لأبي جهل فيقول: «سَمِعْتُ الْقَوْمَ وَأَبُو جَهْلٍ فِي مِثْلِ الْحَرَجَةِ- أي: الشجر الملتف- وَهُمْ يَقُولُونَ: أَبُو الْحَكَمِ لَا يُخْلَصُ إِلَيْهِ، قَالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُهَا جَعَلْتُهُ مِنْ شَأْنِي، فَصَمَدْتُ

(١) ينظر: البخاري (٣١٤١- ٣٩٨٨)، وابن حبان (٤٨٤٠).

نَحْوَهُ، فَلَمَّا مَكَّنَنِي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَضَرَبْتُهُ ضَرْبَةً أَطْنَتْ قَدَمَهُ بِنِصْفِ سَاقِهِ فَوَاللهِ مَا شَبَّهْتُهَا حِينَ طَاحَتْ إِلَّا بِالنَّوَاةِ حِينَ تَطِيحُ مِنْ تَحْتِ مِرْضَخَةِ النَّوَى حِينَ يُضْرَبُ بِهَا، قَالَ: وَضَرَبَنِي ابْنُهُ عِكْرِمَةُ عَلَى عَاتِقِي فَطَرَحَ يَدِي، فَتَعَلَّقَتْ بِجِلْدَةٍ مِنْ جَنْبِي، فَأَجْهَضَنِي الْقِتَالُ عَنْهُ، وَلَقَدْ قَاتَلْتُ عَامَّةَ يَوْمِي، وَإِنِّي لَأَسْحَبُهَا خَلْفِي، فَلَمَّا آذَتْنِي وَضَعْتُ عَلَيْهَا قَدَمِي، ثم تَمَطَّيْتُ بِهَا حَتَّى طَرَحْتُهَا، ثم مَرَّ بِأَبِي جَهْلٍ مُعَوِّذُ بْنُ عَفْرَاءَ، وَهُوَ عَقِيرٌ فَضَرَبَهُ حَتَّى أَثْبَتَهُ، فَتَرَكَهُ وَبِهِ رَمَقٌ، وَقَاتَلَ مُعَوِّذٌ حَتَّى قُتِلَ، فَمَرَّ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ بِأَبِي جَهْلٍ حِينَ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِهِ أَنْ يُلْتَمَسَ مَعَ الْقَتْلَى، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: فَأَدْرَكْتُهُ بِآخِرِ رَمَقٍ فَعَرَفْتُهُ، فَوَضَعْتُ رِجْلَيَّ عَلَى عُنُقِهِ، ثم قُلْتُ: هَلْ أَخْزَاكَ اللهُ يَا عَدُوَّ اللهِ؟، قَالَ: وَبِمَ أَخْزَانِي؟ أَأَعْمَدُ مِنْ رَجُلٍ قَتَلْتُمُوهُ- أي: هل هو إلا رجل قتلتموه- أَخْبِرْنِي لِمَنِ الدَّائِرَةُ الْيَوْمَ؟ قُلْتُ: للهِ وَلِرَسُولِهِ، فَتَنَاوَلَ قَائِمَ سَيْفِ أَبِي جَهْلٍ فَاسْتَلَّهُ وَهُوَ مُنْكَبٌّ لَا يَتَحَرَّكُ فَضَرَبَهُ فَوَقَعَ رَأْسُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ»[(١)].

ويخرج معاذ بن عمرو من بدر مقطوعة إحدى يديه بأكملها، ومع ذلك تَغْمُرُه السعادة، ويُشْعِره الفخرُ بأنه يطير بلا جناح، فلم ينظر لنفسه نظرة المُعاق، ولم تمرَّ به لحظة ندم يقول فيها لنفسه ما حملني على أن تُقطع يدي وأنا في مقتبل حياتي، ولم يسأل نفسه كيف سيكون مستقبلي وأنا شابٌّ حديثُ السِّنِّ بلا ذراع، من ذا الذي يرضى بي عاملًا عنده، أو من ذا الذي يزوجني ابنته، كل هذا لم يخطر بباله، أو يدور في خَلَدِه، بل كان ينظر ليده المقطوعة على أنها وسام شرف يفتخر به بين الناس، حيث قضى بها على فرعون هذه الأمة، ولأنه قدَّمها في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ٨٤)، وصحَّحه صاحب السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (٢/ ٨١).

وفي معركةِ أُحُدٍ

لما كانت الليلة التي صبيحتها المعركة طاف منادي رسول الله ﷺ في المدينة: أنْ حَيَّ على الجهاد، وهو يخبر الناس: أن النبي ﷺ سيلتقي بالمجاهدين عند المسجد.

فتجهَّز معاذ بن عمرو وإخوته الثلاثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ للخروج مع رسول الله ﷺ، ومع أن الله قد وضع الجهاد عن معاذ بن عمرو؛ لأنه من أولي الضرر بعد ما قطعت يده، إلَّا أنَّ شابًّا مثله يعلم يقينًا أنه يخوض في دنياه سباقًا نحو الجنة لن يُثنيه عن عزمه شيء أبدًا.

وبينما هم يتجهزون إذ دخل عليهم أبوهم، وكان أعرجَ شديد العرج، فوجدوه يتجهز ليخرج معهم، فقالوا له: «إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ جَعَلَ لَكَ رُخْصَةً، فَلَوْ قَعَدْتَ فَنَحْنُ نَكْفِيكَ، فَقَدْ وَضَعَ اللهُ عَنْكَ الْجِهَادَ، فَأَتَى عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ بَنِيَّ هَؤُلَاءِ يَمْنَعُونَنِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَكَ، وَوَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أُسْتَشْهَدَ فَأَطَأَ بِعَرْجَتِي هَذِهِ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ وَضَعَ اللهُ عَنْكَ الْجِهَادَ**، وَقَالَ لِبَنِيهِ: **وَمَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَدَعُوهُ لَعَلَّ اللهَ يَرْزُقُهُ الشَّهَادَةَ**»(١).

وخرج عمرو بن الجموح مع بنيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ للجهاد في سبيل الله جَلَّ وَعَلَا، هو برجله العرجاء، وابنه معاذ بيده المبتورة.

وقبل بدء القتال خرج عمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعرجته يشق الصفوف حتى أتى رسول الله ﷺ فقال له: «يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ قُتِلَ اليوم دخل الجنة؟ قال النبي ﷺ: **نعم**، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي حَتَّى أَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: يَا عَمْرُو، لَا تَأَلَّ عَلَى اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَهْلًا يَا عُمَرُ؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ**»(٢).

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٧٨٢١)، وصحَّحه الألباني في تحقيق فقه السيرة (٢٨١).
(٢) أخرجه ابن حبان (٧٠٢٤)، وحسَّنه الألباني في صحيح موارد الظمآن (١٩٢٨).

وفي رواية قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى أُقْتَلَ أَمْشِي بِرِجْلِي هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الْجَنَّةِ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: نَعَمْ»[(١)]، وتدور رحى المعركة، ويقاتل معاذ إلى جنب أبيه وإخوته الثلاثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وفجأة يسقط أبوه وأخوه خَلَّاد أمام عينيه وقد قدَّمَا أرواحهما فداء لله ورسوله.

ويمر النبيُّ ﷺ بعمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مُجندلٌ في دمائه، فيقول: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ تَمْشِي بِرِجْلِكَ هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الْجَنَّةِ**»[(٢)].

أوسمةٌ وضعهَا الوحيُ على صدرهِ

إن الإنسان إذا كان جنديًّا فمنحه قائده وسام شرف، أو إذا كان موظفًا فأعطاه رئيسه شهادة تقدير، فإنه لا شك سَتُخيم سحائبُ الفرح على قلبه، وتَرتسم البسمةُ المشرقة في وجهه، ولا شك أن البعض سيعلق هذا الوسام، أو هذه الشهادة في بيته اعتزازًا بها، وليذكر من خلال رؤيتها اللحظات الجميلة.

فماذا تفعل لو أن هذه الشهادة قد منحها الله تعالى لك في قرآنه، أو على لسان رسوله ﷺ؟.

فها هو معاذ بن عمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد الذين كتبوا تاريخ هذه الأمة ومجدها بدمائهم يضع الوحيُ على صدره أوسمة شرف، وإليك بعضها:

أولًا: وِسامُ شرفٍ بعدَ موقفِه في غزوةِ بدرٍ:

فقد قال النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شئتم فقد غفرتُ لكم**»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٦٠٦)، وحسَّنه الألباني في أحكام الجنائز (١٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٦٠٦)، وحسَّنه الألباني في أحكام الجنائز (١٤٦).

(٣) أخرجه البخاري عن علي بن أبي طالب (٣٠٠٧)، وأحمد عن أبي هريرة (٧٩٤٠)، واللفظ له.

ثانيًا: وِسامُ شرفٍ بعد بيعةِ الرضوانِ:

كان معاذ بن عمرو أحد الذين بايعوا النبيَّ ﷺ تحت الشجرة بيعة الرضوان في الحديبية، فقال الله عنه وعن أصحابه: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وقال النبيُّ ﷺ: «**لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ رَجُلٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ**»(١).

ثالثًا: وِسامُ شرفٍ وضعَه النبيُّ ﷺ على صدرِ معاذٍ قبلَ موتِه:

حين قال ﷺ: «**نِعْمَ الرَّجُلُ مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ**»(٢).

وحانَ وقتُ الرحيلِ

وبعد حياة طويلة عاشها معاذ بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع رسول الله ﷺ عابدًا لله ومُجاهدًا في سبيله، حتى مات النبيُّ ﷺ وهو عنه راضٍ، وبعد أن قضى نَحبه، وأدَّى الذي عليه يَحُطُّ رَحْلَهُ على عتبات الآخرة في خلافة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ليخرج من دار البلاء إلى دار الجزاء، فينعم بما أعدَّه الله تعالى للمتقين، وكأني به وهو في لحظاته الأخيرة في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة يتذكر وَعْدَ الله تبارك وتعالى على لسان رسوله ﷺ حين قال له ولأصحابه: «**لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ رَجُلٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ**»، فيطمئن قلبه، وينشرح صدره؛ لأنه يعلم أن الله لا يخلف وعده.

وتخرج روحه لتُحَلق في الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وصلى على جنازته أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ودُفن بالبقيع(٣).

رضي اللهُ عن معاذِ بنِ عمرٍو،

وعن الصحابةِ أجمعينَ

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٢٩٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢١٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (٩٤٢١)، والترمذي (٣٧٩٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٨٧٥).

(٣) ينظر: التاريخ الكبير، للبخاري (٧/ ٣٦٠)، ومعرفة الصحابة (٥/ ٢٤٤١)، والمستدرك (٥٧٩٣).

ثَوبَانُ

مولَى رسولِ الله ﷺ

إنه رَجُلٌ عَرَبِيٌّ أصيل، أَصَابَهُ سَبْيٌ وهو صغير، فوقع في الرِّقِّ، وتَجَرَّعَ مرارة العبودية، حتى ضاقت نفسه، وأظلمت الدنيا أمام عينيه، وهو لا يدري أنها محطاتٌ في حياته يَسُوقُهُ القَدَرُ عن طريقها؛ ليكون من آل بين النبوة.

اسمُه ونسبهُ وكُنيتُه

هو ثَوْبَانُ بْنُ بُجْدُدٍ، وَقِيلَ: ابْنُ جَحْدَرٍ، ويُكْنَى: أَبَا عَبْدِ الله، أصوله يمانية مِنْ حِمْيَرَ[1].

كيفَ أصبحَ من آلِ بيتِ النُّبوةِ؟

أَصَابَهُ سَبْيٌّ وهو صغير، فتقلب في الرِّقِّ حتى اشْتَرَاهُ رَسُولُ الله ﷺ، وأسلم على يديه، فَأَعْتَقَهُ ﷺ، ثم خَيَّرَهُ فقال له: «**إنْ شِئْتَ أنْ تَلْحَقَ بِمَنْ أنتَ مِنْهُم، وَإِنْ شِئْتَ أنْ تَكونَ مِنَّا أهلَ البَيت**»، فثبت ثَوْبَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ولاء رسول الله ﷺ ولم يزل معه سفرًا وحضرًا[2]، وهكذا أصبح من آل بيت النبوة، فقد قال رَسُولُ الله ﷺ: «**مَوْلَى القَوْمِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**»[3].

وقد سمع ثَوْبَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبيَّ ﷺ يومًا يدعو لآل بيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال له: «يَا نَبِيَّ الله، **أَمِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَنَا؟**، قَالَ: نَعَمْ، مَا لَمْ تَقُمْ عَلَى بَابِ سُدَّةٍ، أو تَأْتِيَ أَمِيرًا تَسْأَلُهُ»[4].

---

(١) ينظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٤٠٠)، ومعرفة الصحابة (١/ ٥٠١)، وأسد الغابة (١/ ٤٨٠)، والإصابة (١/ ٥٣٧).

(٢) نفس المصادر السابقة.

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٦١).

(٤) حلية الأولياء (١/ ١٨٠).

تعظيمُه لمقامِ رسولِ الله ﷺ

كان اليهود في المدينة يُسِيئُونَ الأدب في الحديث مع رسول الله ﷺ- أحيانًا-، فيَحْلُمُ عليهم النبيُّ ﷺ، ويَرْفُقُ بهم، وكان فعلهم الخبيث هذا يُثِيرُ غضب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكلنا نذكر موقفهم مع أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين دخلوا على النبيِّ ﷺ فقالوا له: «السَّامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ- يعني: الموت عليك-، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **وَعَلَيْكم**، فغضبت أم المؤمنين، فقالت لهم: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، إِخْوَانَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، فقال لها النبيُّ ﷺ: **مَهْلًا يَا عَائِشَةُ؛ عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ؛ فَإِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**، فقالت: يَا رَسُولَ الله، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ**»[(١)].

وهذا ثَوْبَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مع النبيِّ ﷺ يومًا «فَجَاءَ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، قال ثَوْبَانُ: فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟، فَقَال له: أَلَا تَقُولُ يَا رَسُولَ الله؟، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ- لِثَوْبَانَ-: إِنَّ اسْمِي الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي: مُحَمَّدٌ»[(٢)]؛ وذلك لِيُهَدِّأَ ثَوْبَانَ، ويترك الرجل.

وهكذا كان أصحاب النبيِّ ﷺ يعظِّمونه تعظيمًا لَفَتَ انتباه الناس جميعًا حتى قال أحد المشركين يومًا: «وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصرَ وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا، وَاللهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا

---

(١) ينظر: البخاري (٥٦٧٤- ٥٦٧٨- ٦٩٢٧)، وابن خزيمة (٥٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٣١٥).

أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ»[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

عِفَّتُه وزُهدُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

خرج رَسُولُ الله ﷺ على أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يومًا فقال لهم: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي وَاحِدَةً وَأَضْمَنُ لَهُ الْجَنَّةَ**؟»، فَقَالَ ثَوْبَانُ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ له: **لَا تَسْأَلْ النَّاسَ شيئًا**، فَكَانَ ثَوْبَانُ من بعدها لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا، حتى أنه كَانَ يَقَعُ سَوْطُهُ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى بَعِيرِهِ، فَيُنِيخُ حَتَّى يَأْخُذَهُ، وَمَا يَقُولُ لِأَحَدٍ: نَاوِلْنِيهِ»[2].

وعاش ثَوْبَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُسْتَمْسِكًا بعهده لرسول الله ﷺ وَفِيًّا، فمَهْمَا ضاقت به الدنيا كان لَا يسْأَلْ النَّاسَ شَيْئًا، حتى عَزَفَتْ نَفْسُهُ عن الدنيا، فذهب إلى النبيِّ ﷺ فقال: «يَا رَسُولَ الله، مَا يَكْفِينِي مِنَ الدُّنْيَا؟»، قَالَ: **مَا سَدَّ جَوْعَتَكَ، وَوَارَى عَوْرَتَكَ، فَإِنْ كَانَ لَكَ بَيْتٌ يُظِلُّكَ فَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَ دَابَّةٌ تَرْكَبُهَا فَبَخٍ**»[3].

وقد كانت أم المؤمنين عائشة بعد رسول الله ﷺ من عِفَّة ثوبان وشدة زهده تخشى عليه أن يصيبه الفقر، أو تصيبه الحاجة، ولا ينتبه إليه أحد؛ لاستمساكه بعهده لرسول الله ﷺ أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، فكانت توصي الناس به، وتأمرهم أن يتفقدوا أحواله بقولها: «تَعَاهَدُوا ثَوْبَانَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا»[4].

وما أجمل ما وصفه به أَبُو نُعَيْمٍ وهو يتحدث عن الأولياء، فقال: «وَمِنْهُمُ: الْقَنِعُ الْعَفِيفُ، الْوَفِيُّ الظَّرِيفُ: أَبُو عَبْدِ الله ثَوْبَانُ- مَوْلَى رَسُولِ الرَّحْمَنِ- الْمَضْمُونُ لَهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٤٤)، والقائل هو: الصحابي عروة بن مسعود الثقفي قبل أن يسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: أحمد (٢٢٤٣٩- ٢٢٤٥٨)، والنسائي (٢٥٩٠)، وابن ماجه (١٨٣٧).

(٣) ينظر: شعب الإيمان (٩٨٦٩)، والمعجم الأوسط (٩٣٤٣)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣٥٧٢٣).

(٤) ينظر: شعب الإيمان، للبيهقي (٣٢٤٥)، وشرح السنة، للبغوي (١٦٢٠).

بِالْكَفَالَةِ وَالضَّمَانِ حُلُولَ سَاحَةِ الْجِنَانِ؛ إِذْ تَرَكَ السُّؤَالَ وَإِتْيَانَ السُّلْطَانِ»[١].

خَوفُه من مُحبطاتِ الأعمَالِ

كان رَسُولُ الله ﷺ يَتَخَوَّلُ أصحابه رضي الله عنهم بالموعظة تَرْغِيبًا وترهيبًا، فأخبرهم ﷺ يومًا بحال بعض الناس يوم القيامة فقال: «**لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ** ﷻ **هَبَاءً مَنْثُورًا**- فانْخَلعَ قلب ثَوْبَانَ- فَقال رضي الله عنه: يَا رَسُولَ الله، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، فقَالَ ﷺ: **أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ الله انْتَهَكُوهَا**»[٢].

وهكذا كان ثَوْبَانُ رضي الله عنه من أحرص الناس على معرفة الذنوب التي تهلك صاحبها وتفسد عليه آخرته ليتجنبها، وكأنَّ ذلك كان من السمات العامة لجيل الصحابة رضي الله عنهم، فقد كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»[٣].

ولم يكن ثَوْبَانُ رضي الله عنه يَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ عمَّا يضر بدينه فقط ليتجنبه، بل كان يسأل- أيضًا- عمَّا يضر بمستقبل الأمة الإسلامية؛ ليُحَذِّر النَّاسَ منه، فعن أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ- لِثَوْبَانَ-: **كَيْفَ أَنْتَ يَا ثَوْبَانُ إِذْ تَدَاعَتْ عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَتَدَاعِيكُمْ عَلَى قَصْعَةِ الطَّعَامِ تُصِيبُونَ مِنْهُ؟!**، قَالَ ثَوْبَانُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا؟، قَالَ: **لَا، بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ يُلْقَى فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنُ،**

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ١٨٠).

(٢) ينظر: سنن ابن ماجه (٤٢٤٥)، والمعجم الأوسط (٤٦٣٢)، والسلسلة الصَّحِيحَة (٥٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

قَالُوا: وَمَا الْوَهَنُ يَا رَسُولَ الله؟، قَالَ: **حُبُّكُمُ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَتُكُمُ الْقِتَالَ**»[(١)].

حبٌّ يشهدُ الوحيُ على صدقِه

قد ذَكَّر جَمْعٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: أَنَّ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ الله ﷺ كَانَ شَدِيدَ الْحُبِّ لِرَسُولِ الله ﷺ، قَلِيلَ الصَّبْرِ عَنْهُ، فَأَتَاهُ يَوْمًا وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، وَنَحُلَ جِسْمُهُ، وَعُرِفَ الْحُزْنُ فِي وَجْهِهِ، فَسَأَلَهُ رَسُولُ الله ﷺ عَنْ حَالِهِ، فَقَالَ بِصَوْتٍ تَخْنُقُهُ الْعَبَرَاتُ: يَا رَسُولَ الله مَا بِي وَجَعٌ، غَيْرَ أَنِّي إِذَا لَمْ أَرَكَ اشْتَقْتُ إِلَيْكَ، وَاسْتَوْحَشْتُ وَحْشَةً شَدِيدَةً حَتَّى أَلْقَاكَ؛ فَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ، فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَكَ فَأَنْظُرُ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوتَكَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ فِي الْآخِرَةِ، فقد عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنِّي إِنْ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ كُنْتُ فِي مَنْزِلَةٍ أَدْنَى مِنْ مَنْزِلَتِكَ، وَإِنْ أَنَا لَمْ أَدْخُلِ الْجَنَّةَ فَحِينَئِذٍ لَا أَرَاكَ أَبَدًا، فأنزَلَ اللهُ تعالى جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] لِيَشهَدَ الْوَحْيُ على صِدْقِ حُبِّهِ لِرَسُولِ الله ﷺ وَيُبَشِّرَهُ ويَدُلَّه على طريق يصل به إلى صُحبته ﷺ في الدنيا والآخرة[(٢)].

وقد رَوَت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قصة نزول الآية فقالت: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ، فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَكَ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٨٧١٣)، وحسَّنه أحمد شاكر والأرناؤوط.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٥/ ٢٧١)، وتفسير البغوي (١/ ٦٥٩)، وتفسير الرازي (١٠/ ١٣٢)، وأسباب النزول، للواحدي (ص١٣٠).

فَأَنْظُرُ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَأَنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ، فَلَمْ يَرُدَّ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا، حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾»[(١)].

مكانتُه العِلمِيةُ بين الناسِ

وبعد موت رسول الله ﷺ خرج ثَوْبَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع جيوش الإسلام لفتح الشام، ثم فتح مصر، فلما فتح الله هذه البلاد، ودخل أهلها فِي دِينِ الله أَفْوَاجًا رأى ثَوْبَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن حَقًّا عَلَيْهِ البقاء فيها لينشر تعاليم الإسلام بين الناس، ويروي لهم حديث رسول الله ﷺ، فسَكَنَ الشَّامَ وَابْتَنَى بِهَا دَارًا بِحِمْصَ، ودَارًا بِالرَّمْلَةِ، وَابْتَنَى بِمِصْرَ دَارًا، وكان يتنقل بين هذه الدُّورِ في رحلات دعوته إلى الله جَلَّ وَعَلَا[(٢)]، حتى جعل الله له مكانة علمية بين أهل هذه البلاد، فكانوا يأتونه ويستفتونه ويستنصحونه، ومن أمثلة ذلك: ما أخبر به تلميذه سَالِمُ بنُ أَبِي الجَعْدِ: «أن الناس أتوا ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالوا له: حَدِّثْنَا فقد ذهب أصحابك وافتقرنا إلى ما عندك، فَحَدِّثْنَا بما ينفعُنا ولا يضرك، فقال لهم: عليكم بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإنه أحسن الحديث، وأبلغ الموعظة، قالوا: صدقت»[(٣)].

وعَنْ مَعْدَانَ بْنِ طَلْحَةَ- وهو أحد أهم تلامذته من التابعين- قَالَ: «قُلْتُ لِثَوْبَانَ- مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ-: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهِ، فَسَكَتَ عَنِّي، ثم عُدْتُ فَقُلْتُ:

---

(١) أخرجه الطبراني الأوسط (٤٧٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣١٧٧٤)، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩٣٣).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٤٠٠)، ومعرفة الصحابة (١/ ٥٠١)، وأسد الغابة (١/ ٤٨٠).

(٣) ينظر: تاريخ دمشق (١١/ ١٦٧).

دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهِ، فَسَكَتَ عَنِّي، فقُلْتُ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهِ، فَقَالَ لِي: عَلَيْكَ بِالسُّجُودِ لله؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لله سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً»**[1].

وكان طلبة العلم إذا أُشْكِلَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ ذهبوا إليه، فعَنْ مَعْدَانَ بْنِ طَلْحَةَ: «أنه بلغهم عن أبي الدرداء: أنَّ النبيَّ ﷺ قَاءَ فَأَفْطَرَ فتَوَضَّأَ، قَالَ مَعْدَانُ: فَلَقِيتُ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: صَدَقَ، أَنَا صَبَبْتُ لَهُ وَضُوءَهُ»[2].

وحانَ وقتُ الرحيلِ

قَالَ شُرَيْحُ بْنُ عُبَيْدٍ: «مَرِضَ ثَوْبَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِحِمْصَ وَعَلَيْهَا عَبْدُ الله بْنُ قُرْطٍ الْأَزْدِيُّ، فَلَمْ يَعُدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى ثَوْبَانَ رَجُلٌ مِنَ الْكَلَاعِيِّينَ عَائِدًا، فَقَالَ لَهُ ثَوْبَانُ: أَتَكْتُبُ؟، فَقَالَ: نَعَمْ، فقَالَ: اكْتُبْ، فَكَتَبَ لِلْأَمِيرِ عَبْدِ الله بْنِ قُرْطٍ: مِنْ ثَوْبَانَ- مَوْلَى رَسُولِ الله ﷺ- أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ لِمُوسَى وعِيسَى مَوْلًى بِحَضرَتِكَ لَعُدْتَهُ، ثم طَوَى الْكِتَابَ، وَقَالَ لَهُ: أَتُبَلِّغُهُ إِيَّاهُ؟، فَقَالَ: نَعَمْ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ بِكِتَابِهِ، فَدَفَعَهُ إِلَى ابْنِ قُرْطٍ، فَلَمَّا قَرَأَهُ قَامَ فَزِعًا، فقَالَ النَّاسُ: مَا شَأْنُهُ أَحَدَثَ أَمْرٌ؟، فَأَتَى ثَوْبَانَ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ، فَعَادَهُ وَجَلَسَ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثم قَامَ فَأَخَذَ ثَوْبَانُ بِرِدَائِهِ، وَقَالَ: اجْلِسْ حَتَّى أُحَدِّثَكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا»**[3].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤٢٣)، والبيهقي في الكبرى (٣٢٤١)، وصحَّحه الألباني والأرناؤوط.

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٥٤٢)، والترمذي (٨٧)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١١١)، ولكن في مسألة الفطر عند الْقَيْءِ تفصيل يُرجَع إليه في كتب الفقه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٤١٨)، والطبراني في الكبير (١٤١٣)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢١٧٩).

وهكذا عاش ثَوْبَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حياته يجاهد في سبيل الله، ويخدم رسوله ﷺ، ويروي عنه الحديث، وينصح للمسلمين، حتى مات بِحِمْصَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ من الهجرة، ليلحق بركب الْمُحِبِّينَ لرسول ربِّ العالمين عَلَيْهِ صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ إلى يوم الدين[(١)].

رضي اللهُ عن ثوبانَ،

وعن الصحابةِ أجمعينَ



(١) ينظر: الاستيعاب (١/ ٢١٨)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٨٠)، والإصابة (١/ ٥٣٧).

الخاتِمةُ

وَفِي الْخِتَامِ أَقُولُ:

الْحَمْدُ لله الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، فَقَدْ تَمَّ بِحَوْلِ الله وَقُوَّتِهِ الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ هَذِهِ الْمَوْسُوعَةِ: (صَحَابَةٌ عُظَمَاءُ لَمْ تُسَلَّطْ عَلَيْهِمُ الأَضْوَاءُ)، والله أَسَأَلُ أَنْ يُعِينني عَلَى إِتْمَامِ مَا بَقِيَ مِنْهَا، وَأَنْ يجعلها فِي بَابِهَا جَامِعَةً نَافِعَةً، لِوَجْهِ الله تَعَالَى خَالِصَةً.

وصلِّ اللهم وسلِّم على نبينا محمد

والحمد لله ربِّ العالمين.

كتبه

حامد الزيني

المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا: كتب التفسير وأسباب النزول:

١- تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
٢- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
٣- المحرر الوجيز لابن عطية.
٤- الدر المنثور للسيوطي.
٥- معالم التنزيل للبغوي.
٦- تفسير ابن أبي حاتم.
٧- تفسير مقاتل بن سليمان.
٨- في ظلال القرآن لسيد قطب.
٩- صحيح تفسير ابن كثير لمصطفى العدوي.
١٠- أسباب النزول للسيوطي.
١١- أسباب النزول للواحدي.
١٢- الصحيح المسند من أسباب النزول للوادعي.

ثالثًا: كتب الحديث وشروحه:

١- صحيح البخاري.
٢- صحيح مسلم.
٣- مسند أحمد.
٤- صحيح ابن حبان.
٥- صحيح ابن خزيمة.
٦- مسند البزار.
٧- سنن الترمذي.
٨- سنن أبي داود.
٩- سنن النسائي الكبرى والصغرى.
١٠- سنن ابن ماجه.
١١- سنن الدارمي.
١٢- سنن الدارقطني.
١٣- مسند الشهاب القضاعي.
١٤- مصنف عبد الرزاق.
١٥- مستدرك الحاكم.
١٦- مصنف ابن أبي شيبة.
١٧- معاجم الطبراني الثلاثة.
١٨- شعب الإيمان للبيهقي.
١٩- السنن الكبرى والصغرى للبيهقي.
٢٠- الأدب المفرد للبخاري.

٢١- فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل.
٢٢- صحيح الأدب المفرد للألباني.
٢٣- صحيح الجامع للألباني.
٢٤- صحيح الترغيب والترهيب للألباني.
٢٥- سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني.
٢٦- سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني.
٢٧- صحيح موارد الظمآن للألباني.
٢٨- الثمر المستطاب للألباني.
٢٩- معرفة السنن والآثار للبيهقي.
٣٠- الجهاد لابن أبي عاصم.
٣١- الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم.
٣٢- حلية الأولياء لأبي نعيم.
٣٣- المنتخب من مسند عبد بن حميد.
٣٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر.
٣٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن رجب الحنبلي.
٣٦- شرح صحيح مسلم للنووي.
٣٧- معالم السنن لابن القيم.
٣٨- الشمائل المحمدية للترمذي.
٣٩- عون المعبود شرح سنن أبي داود لشمس الحق العظيم أبادي.
٤٠- تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي للمباركفوري.
٤١- إنجاح الحاجة شرح سنن ابن ماجه لمحمد ابن عبد الغني المجددي.
٤٢- مشكل الآثار للطحاوي.
٤٣- التنوير شرح الجامع الصغير للأمير الصنعاني.
٤٤- التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن.
٤٥- مسند أبي يعلى الموصلي.
٤٦- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي.
٤٧- التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان للألباني.
٤٨- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد لصهيب عبد الجبار.
٤٩- المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة لصهيب عبد الجبار.
٥٠- الكبائر لشمس الدين الذهبي.
٥١- مسند الفاروق لابن كثير.

رابعًا: كتب السيرة والتاريخ والتراجم:

١- السيرة النبوية لابن هشام.
٢- دلائل النبوة للبيهقي.
٣- دلائل النبوة لأبي نعيم.
٤- عيون الأثر لابن سيد الناس.

٥- السيرة النبوية لابن كثير.
٦- الصحيح من أحاديث السيرة لمحمد الصوياني.
٧- السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة لمحمد الصوياني.
٨- صحيح السيرة النبوية للألباني.
٩- صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي.
١٠- السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري.
١١- زاد المعاد لابن القيم.
١٢- السيرة النبوية للصلابي.
١٣- إمتاع الأسماع للمقريزي.
١٤- الروض الأنف للسهيلي.
١٥- سير أعلام النبلاء للذهبي.
١٦- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر.
١٧- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير.
١٨- الطبقات الكبرى لابن سعد.
١٩- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر.
٢٠- معرفة الصحابة لأبي نعيم.
٢١- معجم الصحابة للبغوي.
٢٢- تاريخ دمشق لابن عساكر.
٢٣- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية لمهدي رزق الله.
٢٤- تاريخ الإسلام للذهبي.
٢٥- التاريخ الكبير والأوسط للبخاري.
٢٦- تاريخ الرسل والملوك للطبري.
٢٧- الموسوعة في صحيح السيرة لمحمد إلياس الفالوذة.
٢٨- مشاهير علماء الأمصار لابن حبان.
٢٩- فتوح الشام للواقدي.
٣٠- الأعلام للزركلي.
٣١- الوافي بالوفيات للصفدي.
٣٢- الإنابة لمعرفة المختلف فيهم من الصحابة لعلاء الدين مغلطاي.
٣٣- فتوح البلدان للبلاذري.
٣٤- فتوح مصر والمغرب لعبد الرحمن المصري.
٣٥- شبهات حول بني أمية لسيد الشحات رمضان.
٣٦- المعرفة والتاريخ ليعقوب بن سليمان.
٣٧- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي.
٣٨- البداية والنهاية لابن كثير.
٣٩- حياة الصحابة للكاندهلوي.
٤٠- التاريخ الإسلامي للحميدي.
٤١- فرسان النهار من الصحابة الأخيار لسيد العفاني.
٤٢- عصر الصحابة لعبد المنعم الهاشمي.
٤٣- فرسان من عصر النبوة لأحمد خليل جمعة.
٤٤- الخليفة أبو بكر الصديق للصلابي.

٤٥- أصحاب الرسول ﷺ لمحمود المصري.

٤٦- المنهج الحركي للسيرة النبوية لمنير الغضبان.

٤٧- شبهات حول بني أمية لسيد الشحات رمضان.

٤٨- صحيح تاريخ الطبري تحقيق محمد طاهر البرزنجي.

٤٩- معجم الصحابة لابن قانع.

٥٠- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي.

خامسًا: كتب اللغة والمعاجم وغريب الحديث:

١- معجم البلدان لياقوت الحموي.

٢- لسان العرب لابن منظور.

٣- مجمع بحار الأنوار لجمال الدين الصديقي.

٤- مقاييس اللغة لابن فارس.

٥- مختار الصحاح لزين الدين الرازي.

٦- تاج العروس للزبيدي.

٧- مشارق الأنوار على صحاح الآثار لعياض بن موسى.

٨- معجم لغة الفقهاء لمحمد قلعجي وحامد قنيبي.

٩- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير.

سادسًا: دواوين الشعر:

١- ديوان حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- ديوان نفحات ولفحات للقرضاوي.

سابعًا: كتب الآداب والرقائق:

١- موسوعة نضرة النعيم لمجموعة من العلماء والباحثين.

٢- مناهج وآداب الصحابة في التعليم والتعلم لعبد الرحمن عبد الحميد البرِّ.

٣- كيف عاملهم لمحمد صالح المنجد.

٤- منهج التربية النبوية للطفل لمحمد نور عبد الحفيظ سويد.

٥- الأدب الضائع لمحمد إسماعيل المقدم.



فهرس الموضوعات

تم بحمد الله